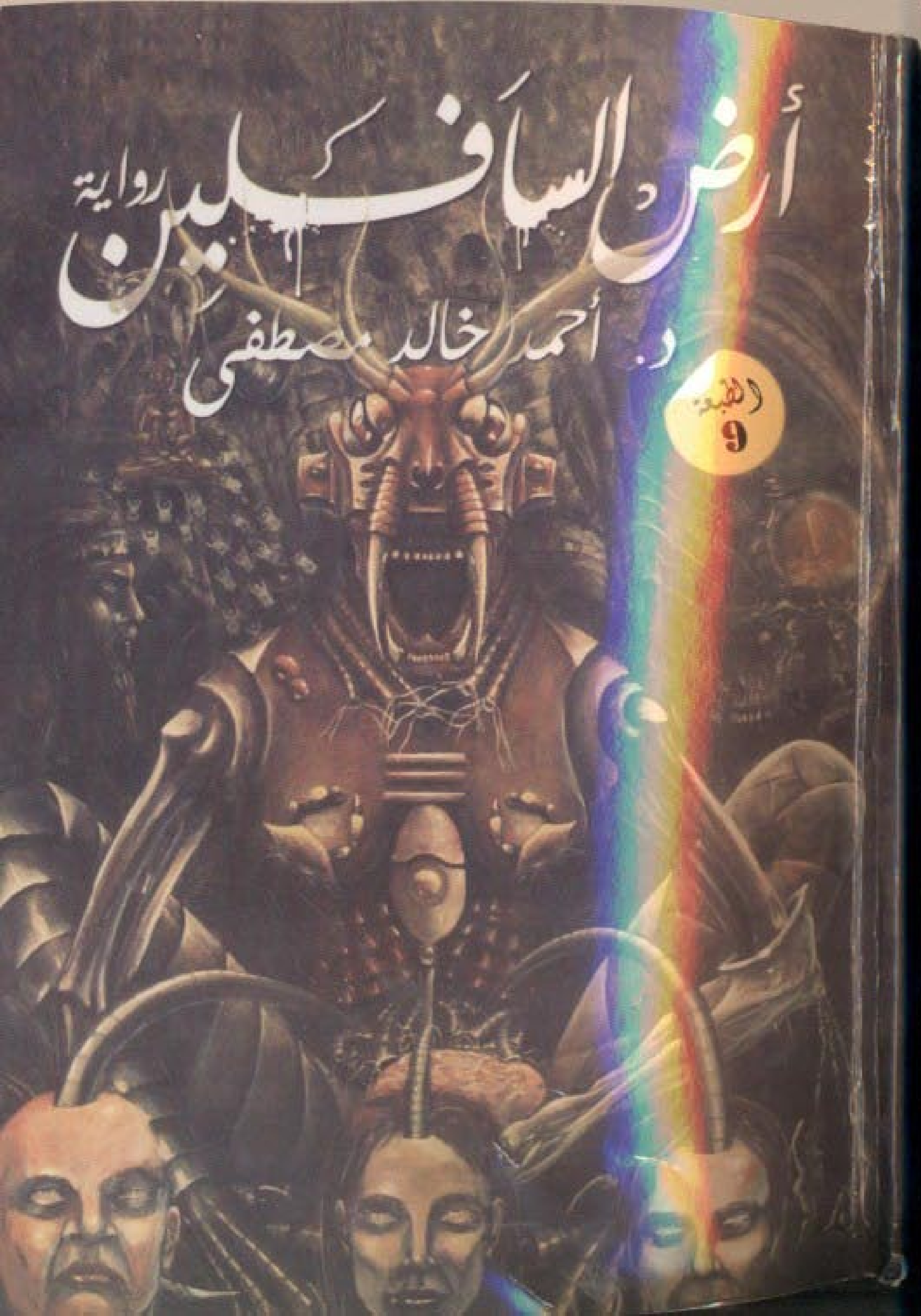


أرض السافلين
رواية

هى الأرض التى تخون فيها زوجتك و تبيع فيها دولتك و تكفر فيها بربك .. ولا تبالى .. فكل قانون على هذه الأرض سقط .. وكل قناع على هذا الوجه انكسر .. ولم تعد فيها إلا سافلا .. تسير مع السافلين .. ولا تبالى .

لوحة الغلاف للفنان : رجب
تصميم الغلاف : إسلام مجاهد
لوحات الغلاف الخلفي : أحمد حمدي

عصير الكتب

أرض السافلين

رواية

أحمد خالد مصطفى

عصير الكتب

تنبيه

هذه الرواية فيها جمع غفير من الشخصيات الحقيقية.. يؤدون أدوارًا مبنية على أحداث حقيقية حدثت في حياتهم.. جميع المعلومات العلمية المذكورة في الرواية مأخوذة فقط من الأبحاث العلمية المعتمدة.. وجميع المعلومات الدينية مأخوذة فقط من القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة.

رسالة

أحببتك فاستحى قلبي أن يحب بعدك أحدًا.

يقول قلبي: ما أدخلت بداخلي أحدًا وأكرمته إلا لأجلها.. فما أدخلت الأب إلا لأني رأيته يكرمها.. وما أدخلت الأخ والأخت إلا لأنهما أبناؤها.. وما أدخلت الزوجة إلا لأن فيها جزءًا يشبهها.. ولن تدخل الابنة إلا لأنها من نسلها.. لو أن أحدًا من هؤلاء أساء إليها للفظته خارجي ولأغلقت الباب دونه إلى الأبد.

علمت أن الجنة بفردوسها وأنهارها وأبوابها.. ما كان لها أن توضع في مكان أكرم من أسفل قدميك.. وعلمت أن الله لا يكرمني الآن إلا لأجلك.. ولا يسترني الآن إلا لأجلك.. وأنه لن يرضى عني حتى ترضين.

أحبك أمي.

إهداء

إلى صديقي العزيز سعد ياسين.. الذي حكى لي أول مرة عن عالم من السافلين.. يعيشون مختفين تحت أنوفنا كلنا.. حقًا أشكرك جزيلًا.

تحرر..

تحرر من كل شيء وأنت آتٍ..

وانزع عن روحك لباس كل شيء..

تحلل من كل شيء يثقل هذه الروح..

ألق بهمومك في هذه القمامة بجانبك..

أريدك فقط روحًا..

صافية حرة متقدة.. لا تأتيها المشاغل من بين يديها ولا من خلفها..

حطم أي قضبان تحدد حدودًا لفكرك..

أريدك حرًا طليقًا لا حد لك..

فإذا مللت مني أغلق دفتي كتابي هذا وانطلق بعيدًا إلى صفحات أخرى.. وعوالم أخرى..

فإذا أتيت عالمي هذا ثانية تحلل.. وانزع عن روحك لباس كل شيء.. وألق بهمومك في هذه القمامة بجانبك..

ثم ادخل إلي بهذه الروح.. أنا أريد هذه الروح.. أريد أن أحدثها..

ليس حديثًا أكون فيه أنا المتحدث وأنت المستمع..

بل حديث آخذ بيدك فيه وندخل معًا في عالم.. لست أظنك ستخرج منه كما دخلته..

فإما أن تخرج منه حاملًا كتابي هذا وملقيًا به في أقرب محرقة حانقًا علي وعلى كل من يأتيني من بعدك..

أو ستخرج من عالمي وأنت تنظر إلى عالمك هذا بنظرة مختلفة عما اعتدت عليه..

نظرة غير راضية.. وغير مرتاحة.. نظرة تريد أن تتحرر من هذا العالم أو تصلحه..

هيا تحلل يا صديقي.. وانزع عن روحك لباس كل شيء..

وألق بهمومك في هذه القمامة بجانبك..

فإني آخذك إلى أرض ليست كأي أرض..

أرض السفلة خزنتها.. والسفلة سكانها..

والسفلة ورثتها..

أرض موجودة أسفل قدميك.. يمكنك أن تخطو إليها بحركة واحدة في التو واللحظة..

أرض سافلة.. فيها كل شيء مسموح به..

كل شيء شرعي..

القتل مسموح به.. والاغتصاب..

السرقة مسموح بها.. والمخدرات..

الدعارة مسموح بها.. والجنس مع أي سن مسموح به ولو كان مع طفل.. أو حيوان..

الخطف مسموح به.. والتعذيب..

أكل لحم البشر مسموح به.. وسلخهم أحياءً مسموح به..

الكذب مسموح به.. والإرهاب..

ليس هذا عالمًا افتراضيًا تجود عليك به قريحتي المريضة.. بل هو عالم حقيقي وموجود.. وسيظل موجودًا..

سأعلمك كيف تدخل إليه في لحظات.. وتخرج منه في لحظات.. كلما أردت ذلك وأحببت..

ثم سأتركك أنت وضميرك الجميل الفتي.. فإما أن تصير سافلًا مع السافلين..

و إما أن تصير رشيدًا مع الراشدين..

ولستُ مسؤولًا عنك أو عن أي مريض نفسي ستكونه بعد زيارة هذا العالم..

فأنا سأفتح لك أبواب كل شيء.. لتفعل كل شيء.. وأي شيء..

ولن يراك أحد.. أو يتعقبك أحد.. أو يعرف أحد أنك تدخل وتخرج..

ما رأيك.. أتتبعني إليه؟ أتتبعني إلى أرض السافلين؟

أم أن الهم الذي في حياتك يكفيك؟

لا تخف من أن يقبض عليك أحد.. فالعالم الذي أحدثك عنه مصمم ليكون أبعد من أي عين حكومية تستطيع أن ترصدك فيه..

والآن دعنا من هذه العبارات الغامضة.. أرى أن في عينيك الرغبة في أن تأتي معي..

مد إلي هذه اليد.. وأعطني هذه الروح أتلقاها وأصاحبها..

تعالي أيتها الروح القارئة لهذه الكلمات.. ادخلي..

فتى كنت أو فتاة.. رجلًا كنت أو امرأة..

ادخلي في أرض السافلين.. واعلمي أنك لست بخارجة منها إلا إليها..

روحًا أريدك بلا جسد.. تتنقل معي حرة بين جنبات عالم لا يحدنا فيه زمان ولا مكان..

ولا يرانا فيه أحد ولا يشعر بوجودنا أحد.. فقط أنا وأنت..

على بوابة هذا العالم يجب أن نقف.. أنا وأنت..

لأتلو عليك كلمات.. ولن أفصل فيها كثيرًا..

هي فقط ستروي لك ذلك الفضول الذي تنامى بداخلك وأنت تسمعني أقول أن هذا العالم ليس افتراضيًا من خيالي.. بل هو حقيقي.. وأنه تحت قدميك.. وأنه شديد السفالة.

فإذا كان حقيقيًا.. أين هو بالضبط.. وكيف تدخل له في لحظات؟

هذا العالم موجود تحت سمعك وبصرك.. وأنت تملك مفتاح الدخول إليه في جيبك.. أو ربما على مكتبك..

ولا أحد يقول لك أن هذا المفتاح يمكن أن تفتح به هذا العالم السافل.. وتدخل عبره إلى هذا العالم السافل.. فتصير سافلًا مع السافلين.. أو تصير أكثر رشدًا.

إنهم يطلقون كنية على هذا العالم السافل.. كنية تغلفها البساطة.. لكن وراءها عالمًا لن تدركه..

إلا لو وضعت يدك في يدي ودخلناه معًا..

يطلقون عليه اسم "ديب ويب"..

هل أضاء الاسم في مخيلتك أي شيء؟

يسمونه شبكة الإنترنت السفلية..

هناك إنترنت أنت تعلمه ولا تمضي ساعة من عمرك إلا وأنت تنظر إليه..

وهناك إنترنت سفلي سافل ممنوع.. وهذا الذي ربما أنت لا تدري أصلًا أنه موجود..

هي شبكة تجري فيها كل الأعمال السافلة في عالمنا هذا.. كل شيء على الإطلاق يدور هنا.. من أبسط شيء إلى أعنف شيء..

لم تعد المخدرات تباع وتشترى في أزقة جانبية مخفية يسلمها لك رجل مجرم وأنت تتلفت حولك.. بل صارت الآن تباع وتشترى على هذه الأرض الإلكترونية المخفية.

لم يعد تأجير قاتل محترف أمرًا صعبًا.. بالعكس.. بضغطة زر واحدة تستطيع أنت نفسك أن تأمر قاتلًا أن يقتل فلانًا الذي تكرهه.. كل القتلة المحترفين يعرضون خدماتهم عليك ويعطونك قائمة أسعارهم بكل علنية وفخر.

العصابات كلها تعرض خدماتها عليك.. تريد أن تخطف فلانًا.. تعذبه.. تجعل منه عبرة لأمثاله.. نحن نفعل لك ذلك.. ماذا؟ تريد أن تشاهدنا في بث مباشر ونحن نعذبه؟ لا مشكلة.. كل ما عليك هو أن تطلب الخدمة من موقعنا في الديب ويب.

تشعر أنك بحاجة لبعض المال؟ لا عليك.. يمكننا أن نطبع لك النقود التي تحتاجها.. ولن يفرق أحد بينها وبين النقود الأصلية.. سنعطيك أوراقًا نقدية بربع سعرها أو أقل.. لا تحب الأوراق النقدية؟ ما رأيك أن نعطيك كلمات سر لكروت ائتمانية تشتري بها ما تريد؟

تريد أن تجرب أكل لحوم البشر؟ لا تريد.. ماذا تريد.. هل تريد عضوًا بشريًا معينًا بسعر زهيد؟ لا تقلق.. هذا تخصصنا.

هل تحب السحر الأسود.. هل مزاجك منحرف.. هل تحب الدماء؟ كل هذا موجود بأبشع صورة يمكن أن تتخيلها..

مخابرات الدول تضع مواقعها هنا.. مواقع الإرهابيين كلها هنا تحت كل حجر..

القائمة تطول.. ولست هنا حتى أفصل لك فيها.. فسندخل إليها معًا ونقتحمها بعد قليل.. ثم إنني سأعطيك مفتاحها حتى تدخل إليها بعد ذلك في كل وقت.

إن كل مواقع الإنترنت الظاهرة للعيان والتي تدخل إليها أنت وغيرك كل يوم وتنهلون من مناهلها وتنهل من مناهلكم، كلها بكل ضخامتها وشهرتها وزائريها لا تمثل سوى ٥ % من الإنترنت الفعلي..

الـ٩٥ % الباقية هي مواقع مخفية.. سوداء.. مظلمة.. حقيرة.. تم إخفاؤها عمدًا لسفالتها.. يعمل أصحابها فيها كل ما يريدون بلا رقيب..

الفكرة التي جعلت لمثل هذا العالم أن يوجد هي أن من يدخل إلى شبكة الإنترنت السفلية لا يستطيع أن يتعقبه أحد.. فيفعل ما يحلو له.. ليس الأمر مثل الإنترنت العادي الذي إذا فعلت فيه أمرًا إجراميًا يهرعون لتعقبك برقم الـIP الخاص بجهازك حتى يصلوا إلى رأسك.. أنت في الإنترنت المظلم مثل ثعبان.. لا تدخل من جهازك مباشرة.. أنت تدخل من جهاز آخر في بلد آخر.. وذلك الجهاز الآخر يدخل من بلد آخر.. وذاك يدخل من بلد آخر.. وهكذا في سلسلة ثعبانية متطاولة يستحيل على أحد أن يتعقبك فيها أو أن يحدد أين موقعك بالضبط.. أأنت في كندا.. أم هولندا.. أم أمريكا.. أم اليابان؟ لن يعرف.. ففي كل مرة أنت تدخل من مكان مختلف.

ولهذا العالم السافل عملة سافلة خاصة به.. عملة إلكترونية غير قابلة للتعقب ولو بأكثر الطرق حداثة.. يسمونها "البيتكوين" Bitcoin.. تشتري بها المخدرات.. وتشتري بها العاهرات.. وتؤجر بها القتلة.. وتفعل بها أي شيء مشين.. وتظل غير قابل للتعقب من دولتك أبدًا مهما فعلوا.

ما علاقة الأرواح بهذا الأمر؟ لماذا أنا أريدك روحًا حرة؟ لأنك لم تأتِ إلى أرض السافلين فقط لتشاهد هذا.. فأنا لا أريد أن أصنع منك مجرمًا.. إنما جئت بك هنا لتشارك السافلين حياتهم.. فتعرف كيف يصنعون.. فلا يخدعك من بعد هذا قولهم أو فعلهم.

وكما أنك في صورتك الإلكترونية حين تدخل إلى الشبكة السفلية تكون كثعبان حر لا يستطيع أن يمسك بك أحد.. فأنت حين تتحلل من صورتك المادية وتصير روحًا حرة متحررة.. تصير كالزئبق لا يقدر على الإمساك بك أحد.

أنت تتحول إلى طور الروح هذا كل يوم عندما تنام.. عندما تخرج روحك من جسدك الخروج الأصغر..

فتكون حرة ترى أي أحد وتعيش أي مشهد..

لا تجري عليها قوانين المكان.. فقد تكون أنت في الهند بينما روحك تجالس روحًا أخرى في المكسيك.. وتجتمع إليكما روح آتية من نيجيريا..

ولا تجري عليها قوانين الزمان.. فقد يحدث أن روحك ترى نفرًا من أرواح السابقين وتحدثهم وتتسامر معهم.

يمكنك أن تتحدث مع التماسيح والسيارات والجدران والشخصيات الخيالية.. لا توجد قوانين، كل شيء مسموح به في طور الروح..

وحين ندخل أنا وأنت من هذا الباب.. سندخل في طور الروح.. وكل شيء كان مستورًا سينكشف..

هات يدك.. أعرني هذه الروح البيضاء التي يحويها جسدك.. ضع يدك على يدي وادفع معي هذا الباب.. وتذكر أن ترمي همومك في مكان لا تستطيع أن تتذكره.. ألق بها وسألقي أنا أيضًا.

...

فور أن انفرجت دفتا الباب.. سَحَبَنا ذلك العالم إليه فجأةً.. كما يسحبك باب الطائرة لو فتحته فجأةً.. فوجدنا أنفسنا أنا وأنت نهبط من السماء.. إلى أرض هي أعجب أرض.. وجبال هي أعجب جبال.. تعلونا طيور سابحات.. وننظر بأعيننا إلى مشهد غني جدًا.. مدينة عظيمة أسطورية.. كل جزء منها يختلف عن الآخر في تضاريسه وطراز سكانه وأحوالهم.. فجزء تغطيه نيران الحروب وجزء يغشّاه الظلام وتسكنه الشياطين.. جزء مبهج جميل.. وجزء مقبض حزين.

أشخاص يضحكون هنا وأشخاص يموتون هناك.. أناس يتقاتلون هنا وأناس يتناقشون بهدوء هناك.. أناس تحملهم بيضة زجاجية إلى السماء ينظرون منها في تعجب.. وأناس تحملهم سفينة عظيمة من بر إلى بر.. أناس يسجدون لأناس وأناس يرقصون لأناس.. أطفال يقفون صفًا ويشيرون لنا في بؤس.. ونساء مائلات مميلات يرفعن إلينا أيديهن في شوق.. أناس يمشون مقيدين بالسلاسل وأناس يسكرون ويضربون زجاجات الخمور بعضها في بعض.. إن لم تكن هذه أرض السافلين.. فكيف ستكون؟

وقفنا في الهواء وملابسنا تتطاير.. أشرت لك إلى مبنى معين في المنتصف يبدو مثل قاعة دائرية مليئة بالنوافذ.. قلت لك إن هذه وجهتنا الأولى.. من هناك سنبدأ.. وإلى هناك سننتهي.. فها سننزل.. ومنها سنعرج تارة أخرى خارجين.

دخلنا إلى القاعة الدائرية من أكبر نوافذها وهبطنا على أرضها.. إن هذا الطور الذي نحن فيه مريح للغاية.. لا تهمنا أسماء ولا لغات.. الكل يعرف الكل.. والكل يفهم الكل.. كان أول ما طالعنا في القاعة رجلًا طويلًا ذا هيئة مريبة.. عليه معطف أسود وفوق رأسه قبعة سوداء.. يلبس على وجهه قناعًا.. أو نصف قناع.. ابتسم لوصولنا وقال:

جئتم فتشرفت بكم الأجواء.. جئتم بأرواح بيضاء مترقبة بريئة لا تدري شيئًا.. تمني أنفسها بالإثارة..لكنها قد تنصرف من هنا سوداء قاتمة.. وقد تنصرف

من هنا أكثر بياضًا.. وقد لا تنصرف من هنا على الإطلاق.

ابتسمت ابتسامة واسعة أنا الآخر وحييت الرجل ونظرت لك وقلت:

هنا مبدأنا يا صاحبي.. من قاعة "هارموني".. من عند هذا الصديق الذي ستعتاد على سخافاته فيما سيأتي من الأيام.. السيد "سكوربيون".. وهو ليس سيئًا بقدر ما تظهر لك هيئته.



دعني أحدثك بأمر هارموني.. وأمر سكوربيون.. انظر إلى النوافذ من حولك.. تلك التي تحدنا من كل مكان.. يمكنك أن تعد سبع نوافذ حولنا.. سبع نوافذ تطل كل نافذة منهن على عالم من عوالم السافلين.. العوالم هنا كبيرة وغنية وسافلة جدًا.. كل نافذة حين ننظر إليها سترينا فقط ثوانٍ معدودات من ملامح كل عالم سافل.. سننظر في النوافذ كلها ونرى ملامح جميع العوالم.. ثم ستكون لنا الحرية في اختيار العالم الذي نريد أن نذهب إليه قبل الآخر.. هذه من مزايا أرض السافلين.. أنت لست مقيدًا بترتيب معين.

هل ترى تلك العربة هناك في طرف القاعة؟ تلك التي تشبه الدودة.. نعم ها هي ذي. عندما نختار أي عالم من العوالم نشاء ستأخذنا هذه العربة إليه مباشرة.. يسمونها هنا "الكرولر".. أو الزاحفة.. وسأترك سكوربيون يخبرك في وسط ثرثرته معك عن السبب الذي سموها به هذا الاسم.

سكوربيون هو الشخص الذي سيعلمك كيف تدخل إلى شبكة الإنترنت السفلى.. وليس أنا.. أنا فقط مهمتي أن أرافقك لأؤنس وحدتك في كل عالم من عوالم السافلين.

سنقابل سكوربيون عندما ننتهي من كل عالم.. حيث سنعود هنا إلى هارموني وسنستريح بينما هو يعلمك جزءًا من الشبكة السفلى ويريك مواقع أشد سوءًا مما تتخيل.

وسنقابل سكوربيون داخل كل عالم مرة أو مرتين.. سيأتينا وسط المشاهد بينما نحن نصول ونجول.. لن يشاركنا جولاتنا.. نحن فقط سنستريح عنده.. لأن العوالم طويلة.. ولن نقدر على إنهائها في نفس واحد أبدًا.

كل ثرثرات سكوربيون سواء التي يثرثرها بعد كل عالم.. أو التي يثرثرها داخل كل عالم.. لن تقرأها هنا.. لأن الكثير من ثرثراته فيها تعليم لأصول اقتحام الشبكة السفلية.. وتعليم الشبكة السفلية لا يصلح هنا بين دفتي كتاب.. تعليم الشبكة السفلية لا يصلح إلا في الشبكة السفلية نفسها.. حيث يمكنه أن يريك كل شيء بشكل مباشر لتختبره بنفسك.

من أجل هذا صمم سكوربيون لنفسه موقعًا خاصًا على الشبكة السفلية.. ستدخل عليه في أوقات استراحتنا سواء التي بين العوالم أو التي تكون داخل كل عالم.. وستتحدث مع سكوربيون هناك كما يحلو لك.

في البداية وقبل أن نختار العالم الأول.. سأترك سكوربيون يثرثر لك قليلًا على موقعه عن بعض الأمور المهمة.. وستجدني جالسًا هناك في جانب القاعة حين تنتهي..

ادخل على Safilinland.com حتى تثرثر مع سكوربيون.



دائمًا عندما ترى شعار سكوربيون.. اعلم أنه عليك أن تزور موقعه.. ولا تتجاهل هذا الأمر.. بل يجب أن تزوره.. الاستراحات عندنا إجبارية.

أخبرتك أن سكوربيون ليس بالسوء الذي يبدو به.. تعال الآن لننظر من النوافذ.

كانت نوافذ زجاجية دائرية مقعرة مثل نوافذ الغواصات.. بدأنا بأول نافذة في مواجهتنا.

نظرنا فيها فإذا مشهد لنساء كثيرات.. ثم اختفى المشهد فجأةً وحل محله مشهد لعاهرات يبتسمن لنا في دلال.. ويمددن إلينا أيديهن وكأنهن يَرِننا من النافذة.. ثم اختفين وظهر رجل يرتدي طاقية سوداء ولا يبدو ودودًا.. هذا مثير يا صديقي.

انتقلنا إلى النافذة التي تلها.. رأينا شيطانًا يمسك ميكروفون وشخصًا يكتب بسرعة مذعورة.. ثم أتى بعد هذا مشهد لكثير من الناس يمشون في أرض فلاة بعضهم بجوار بعض.. وتبدو عيونهم ذاهلة شاخصة إلى اللامكان.

تركناها إلى النافذة التي تلها.. رأينا ما يشبه حرب العصابات.. ورجل وسيم يبتسم لنا بطريقة ساخرة.. ثم يهرب ويركض وراءه حشد غفير من الناس.. وامرأة قاسية الملامح ترتدي رداءً أبيضَ وتبدو غاضبة.

نظرنا في النافذة التي تلها فرأينا كثيرًا من القرود وكثيرًا من المخلوقات الغريبة التي لم نرَ لها مثيلًا من قبل.. وهناك شخص ينظمها بعصا في يده.

ثم نظرنا في النافذة الخامسة.. رأينا مشاهد من الكون العظيم.. بمجراته ونجومه وكواكبه.. حقًا كان مشهدًا صافيًا جميلًا.

ثم نظرنا في السادسة.. رأينا رياحًا عاتية تحمل على متنها كثيرًا من النقود.. وبين سيل النقود الجارف هذا حملت الرياح لنا رجلًا عجيب المنظر أخذته الرياح بعيدًا قبل أن نراه.. ثم فجأةً برز لنا بوجهه وهو يضحك وكأنه ينظر لنا من جهة النافذة الأخرى.. ما هذا العبث؟!

نظرنا في النافذة الأخيرة.. رأينا الكثير من النرد يرمى في الهواء ورأينا شيئًا هلاميًا عجيبًا يسبح باتجاهنا.. لم نتبين ما هو جيدًا.

هذه سبع نوافذ.. اقرأها جيدًا مرة ثانية.. ما رأيك.. بأيهم نبدأ؟ دعني أتفق معك اتفاقًا.. سأختار أنا أول ثلاثة عوالم.. ثم سأترك لك أن تختار الأربعة الباقية.

دعني أفكر قليلًا..

فليكن.. سأختار أولئك العاهرات.. لا بأس أن نستفتح بقليل من الإثارة.. هيا بنا إلى الكرولر.. إنها تبدو حديثة ومليئة بالأجهزة.. لكن لا يبدو أنه يمكننا توجهها.. إنها تـ...

انطلقت بنا فجأةً فرجع جسدي للوراء بالقصور الذاتي قبل أن أكمل كلمتي.. تبًا.. ألا يوجد أحزمة هنا؟!

لم نكن نستطيع في جولتنا بالكرولر أن نرى أيًا من مشاهد أرض السافلين.. فلقد كانت الكرولر تمشي في ما يبدو أنه تحت الأرض وتحت الجبال وتحت المباني.. إنهم يخفون عنا التفاصيل حتى تفاجئنا حين نراها في عوالمها.. فليكن.. أنا أحب المفاجآت على أية حال.

مهلًا.. يبدو أننا اقتربنا من شيء ما.. إنني أراها.. بوابة العالم الأول.. ما هذا بالضبط؟!

...



العالم الأول

بوابة صرحها من الذهب والفضة والمرجان.. والدم.. لا تدري ما دخل الدم.. لكنه يسيل عليها وعلى الأرض التي تحتها.. دم كثيف أحمر متألم.. تعال اقترب معي ولا تتألم.. أعلم أنك هش في طور الروح.

صوت خافت بعيد أتانا من الداخل كأنّه نعيق بومة تغني.. كيف تغني البومة؟ لا تشغل بالك واقترب بروحك أكثر، هناك خفافيش ترفرف فوق البوابة مصدرةً صوت الرفرفة المقبض، لا تتراجع هكذا من البداية فما زلنا عند البوابة.

بدأنا نمشي ناحيتها بحذر.. سمعنا أصوات صخب نساء خافتةً نوعًا ما.. وببطء فُتحت البوابة، وأخذ صخب النساء يتعالى.

هلم بنا أيها الروح ندخل.. إلى أول أرض من أراضي السافلين.. نساء.. دماء.. صخب اتضح فيما بعد أنه تأوهات.. إنها الدعارة.. وهذه أرضها.. وهذه بوابتها.

استقبلتنا عند الباب فتاتان.. إحداهما ترتدي رداءً أحمرَ وتغني بصوت البومة.. والثانية تتلوى على غناء صاحبتها في ثياب سوداء تبدي من جسدها أكثر مما تخفي.. إنهما من جنيات الدعارة المقدسة في الدين اليهودي، ولأنّ منظرهما كان ملفتًا جدًا فلقد شغلتا أبصارنا دقائق نتأمل فيهما عند البوابة.

أنت لا تدري أشرٌّ تريدان بك أم غير ذلك؟ لكن اطمئن.. إنهما بك مرحبتين وبقدومك مستبشرتين، تقدم أيها الروح ولا تعر هذه الغرائب اليهودية اهتمامًا؛ فهي غير موجودة إلا في مخيلات اليهود المريضة الذين يبدو أن لديهم ميلًا عجيبًا في كتبهم لوصف الشياطين وأحوالهم.

فور أن دخلنا عرفنا سبب صخب النساء الذي كنا نسمعه.. كانت هناك نساء كثيرات وفتيات رافعات رؤوسهن في عزة وكبرياء.. يمسكن مظلات حمراء ويمشين في مسيرة ضخمة ويرسمن على وجوههن الحزم.. نحن في مدينة أوروبية كما يبدو من الأبنية حولنا، لم نفهم شيئًا في البداية.. حتى نظرنا إلى بعض اللافتات التي يحملنها. هناك عبارة هامة تتكرر بخط أحمر سميك في معظم اللافتات.. اليوم العالمي لإنهاء العنف ضد العاهرات.. انتبه يا هذا فالمسيرة تتجه نحونا.. تنح جانبًا.

فجأةً تقدمت منا إحدى المشاركات في المسيرة بحماس ومدت يدها لنا بمظلة.. خذ المظلة منها.. خذها ولا تناقش، ولنمش معهن في المسيرة..

أصبحنا نمشي في مسيرة للعاهرات.. عاهرات عن يميننا.. وعن شمالنا عاهرات.. بعضهن يرتدين أقنعة بيضاء أو حمراء لإخفاء هويتهن.. تنظر إليهن في دهشة.. هذه مسيرة عالمية تقام في السابع عشر من ديسمبر من كل عام في بعض الدول الأوروبية لأجل عاهرات الشوارع اللاتي يتعرضن للعنف والاغتصاب من الناس والعصابات ورجال الشرطة.. ألسن فئة من فئات المجتمع؟ ألسن بشرًا؟ أم أنك تشجع ضرب العاهرة واغتصابها وقتلها وحرقها فقط لأنها عاهرة؟ هيا ارفع مظلتك وامش معنا ودافع عن العاهرات الآن.

بمناسبة قتل العاهرات، كان هناك شيء ما يفرق المسيرة من الأمام.. توقفت المسيرة وبدأت العاهرات يصرخن ويجرين في كل مكان.. تطاولنا قليلًا لننظر.. فإذا رجل قوي الجسم ذو شارب بني كثيف، يرتدي نظارة كبيرة الحجم مستفزة ويجري وراء العاهرات.. ألا يكفي أنكن عاهرات تخليتن عن أنوثتكن واحترامكن وكشفتن عن سيقانكن ونزلتن إلى الشارع وسط أقذر فئات المجتمع ثم حين تتعرضن للعنف تملأن الدنيا ضجيجًا يا عاهرات؟! دعني أعرفك: هذا "جاري ريدجواي".. قاتل متسلسل متخصص في قتل العاهرات.. قتل في حياته حوالي مائة عاهرة، نسيت أن أخبرك أن أحد مراسم هذه المسيرة التي نمشي فيها هي تخليد ذكرى العاهرات اللاتي قتلهن الأخ "جاري"، لكن يبدو أن "جاري" قد حضر بشاربه هنا.. ويبدو أن المسيرة قد تفرقت، ويبدو أنه يجب نحن أيضًا أن نركض.

اركض يا صديقي اركض.. اتجه إلى أي اتجاه تراه مناسبًا..

ركضنا حتى اختفت صرخاتهن من مسامعنا.. هذا المكان يبدو هادئًا نوعًا ما.. ميدان أنيق وسط أبنية من الطراز الأوروبي.. دعنا نلتقط أنفاسنا قليلًا هاهنا.. نحن في أمستردام كما يبدو.. هل ترى ذلك التمثال؟ إنه تمثال عاهرة.. لو نظرت إلى العبارة المكتوبة أسفله سترى مكتوبًا بخط فاخر: "هذا لتكريم العاهرات في جميع أنحاء العالم".. إن تمثال العاهرة هذا هو من أشهر معالم مدينة أمستردام الهولندية؛ فالدعارة في هذه الدولة مرخصة والعاهرات هنا مكرمات. لا تجزع هكذا؛ فالدعارة محرمة في كل دول العالم تقريبًا ما عدا هولندا وألمانيا والسويد والـ..

صرخة عالية هزت الأرجاء.. هزتها لدرجة أن الرؤية لم تعد واضحة، وأصبحنا نرى الأجواء كأنما يراها شخص خلع نظارته.. انظر هناك: الرؤية تتضح شيئًا فشيئًا.. هل ترى ما أراه؟

صاحب الصرخة.. إنه "أنتيخريستوس".. ذلك الكيان الذي يمشي هناك.. هو كما وصفه الإنجيل بالضبط.. وحش له سبعة رؤوس.. وعشرة قرون يمشي بتؤدة غير ناظر إلى جهتنا.. يمشي ويصرخ.. ما الذي أتى به إلى أمستردام؟ ومن هذه التي تركب على ظهره؟ امرأة فاتنة ترتدي زيًا بنفسجيًا مرصعًا بالذهب والماسات الكريمات.. موصوفة هي أيضًا في الإنجيل لو تذكر.. عاهرة بابل.. أم العاهرات والخبيثات في الأرض.. تمسك بكأس مليء بنجاسات وخطيئات البشر.. تشرب من دم الصالحين والصدِّيقين وتبتسم بسخرية.. لكن لماذا تمتطي هذه العاهرة أنتيخريستوس؟

دعك من هذا الآن.. ربما لو قرأت الإنجيل وشرحه ستفهم. تعال الآن نهرب إلى ذلك الزقاق هناك.. هذه مساحة لا يمكن لوحش كهذا أن يدخل وراءنا فيها.. لقد بدأت أتشتت نفسيًا في هذا العالم المتداخل.. هذا الزقاق يبدو قذرًا جدًا يا صديقي.. هل أنت متأكد أننا في أمستردام؟ بدأنا نشم روائح تبدو كروائح أطعمة شعوب شرق آسيا.. وسمعنا ضجة زحام تأتي من نهاية الزقاق.. تقدمنا إلى هناك فوجدنا أنفسنا في شارع رئيسي مزدحم مليء بالناس.. أخذنا نمشي ببطء.. ننظر حولنا ونتلفت.. يبدو أننا قد انتقلنا إلى مدينة أخرى تمامًا.. تذكر أن هذا عادي في طور الروح.. لقد انتقلنا إلى أقصى الأرض.. إلى "بنوم بن".. عاصمة "كمبوديا".

لسنا في مكان عادي في "بنوم بن".. نحن في منطقة الضوء الأحمر في المدينة أو الـRedlight District.. وكل مدينة في العالم فيها منطقة ضوء أحمر.. وهي المنطقة من المدينة التي تتركز فيها عاهرات الشوارع والبارات الجنسية ومحلات المساج الجنسية.. هذه المحال غالبًا ما تستخدم في لوحاتها أضواءً حمراء مما يظهر المنطقة لمن يراها من بعيد وكأنها تشع نورًا أحمر.. نور الرذيلة.

نحن في منطقة الرذيلة في "بنوم بن".. ولو كانت هذه هي أول منطقة رذيلة تراها في حياتك فلا تحكم أبدًا.. إن مناطق الضوء الأحمر في أوروبا وأمريكا شيء وهنا شيء آخر.. كل شيء هنا متهالك وقذر وهناك رائحة لا تدري ما هي في الهواء.. هناك عاهرات آسيويات نحيلات يقفن في كل مكان.. ورجال معظمهم أجانب أتوا إلى هنا لممارسة الجنس معهن.. أضاء ليزر أخضر في وجهك فجأةً فنظرت ناحية مصدره لتجد عاهرات يرقصن في إغواء في شباك أحد المباني ويصوبن إليك قلم الليزر.. إنها تريدك أنت من بين كل المارين.. تنظر إليها ثم إلى الليزر على صدرك في بلاهة فتأتيك خيالات زهو عن مدى جاذبيتك.. تحرك هيا ولا تكن أبله.

أنت لا تدري كم عاهرة رأيت حتى الآن بينما نمشي.. يأتيك شعور غريب بعد أن ترى هذا العدد المهول من العاهرات.. تشعر فجأةً بأن كل نساء الأرض قد يصبحن عاهرات فقط لو أُعطين الفرصة.. هذه مشكلة مناطق الدعارة وبيوت الدعارة وأفلام الدعارة، أنها تزرع فيك هذا الشعور.. لكن دعنا نتفق على شيء، العاهرة الواحدة يأتيها عدد كبير من الزناة، فلو أن عدد العاهرات في العالم هو كذا فعدد الزناة هو على الأقل عشرة أضعاف هذا العدد؛ فالرجال هم الأكثر عهرًا.

أتفهم نظراتك المندهشة وأنت تمشي في هذا الشارع الأحمر فما زلت غضًا يا صديقي.. محلات المساج التي تعدُ بخدمة كاملة ونهاية سعيدة منتشرة في كل مكان.. إن الدعارة محرمة في كمبوديا بالمناسبة.. لذلك ليست هناك بيوت دعارة بشكل رسمي صريح، إنما هناك بارات وفتيات داخل البارات وغرف.. وصاحب البار ليس مسؤولًا عن ذكر أعجب بأنثى في البار فقرر أن يدخل معها إلى إحدى الغرف.. كذلك صاحب محل المساج ليس مسؤولًا عن أن ترتدي الفتاة التي تدلكك ملابسها أو لا ترتديها.. ليس مسؤولًا عن كونك ضعيف الإرادة أمام فتاة تدلكك ولا يرتدي أي منكما ملابسه.. حقًا تضحكني قوانين تحريم الدعارة في تلك البلاد.

دع عنك الشارع الرئيسي وتعال ندخل إلى ذلك الزقاق هناك.. هذه الأزقة حقيرة جدًا.. تتقارب جدرانها حتى لتطبق على نفسك ذاتها.. حتى وأنت في طور الروح تشعر بضيقها.. الآن توقف هنا ودعنا نصعد لهذا المبنى.. تحديدًا إلى الدور الثاني منه.. حيث يعيش جماعة من السافلين في بيت دعارة.. ولا بد أن نكرمهم بالزيارة.

■ ■ ■

طرقنا الباب ففتحت لنا امرأة في منتصف العمر.. هل تصدق كمية المكياج الذي تضعه هذه المرأة؟ من الواضح أنها القوّادة هنا.. وعلى عادة عالم الأرواح لا وجود للمجاملات والإطراءات.. أدخلتنا المرأة بلا كلام.. ومشينا وراءها حتى اقتربنا من إحدى الغرف، هناك قوة روحية عالية في هذه الغرفة جعلت الأجواء تهتز قليلًا.. فتحت القوادة باب الغرفة بلا استئذان.. هناك فتاة جالسة على سرير مزدوج.. الغرفة أحقر من أن أصفها.. رفعت الفتاة رأسها ونظرت إلينا، كانت في العشرينات من عمرها، ترتدي ثوبًا مكشوفًا وتضع الكثير من المكياج.. ابتسمت لك واهتزت الأجواء لابتسامتها بعنف.. وظلت تهتز حتى بدأت تتلاشى الموجودات

حولنا وتتكون موجودات أخرى.. نحن ندخل إلى روح الفتاة، ولمَّا دخلنا رأينا من حديث روحها عجبًا.

تقول روح الفتاة النحيلة:

لا تظن أن ابتسامتي لك هذه حقيقية أو حتى نصف حقيقية، فحتى أبتسم لك هذه الابتسامة مررت بقصة لا أدري كيف مررت بها، لكن هأنذه عاهرة.. مبتسمة.. وكلما أتيت وجدتني هكذا.. حتى تمل مني وتذهب لتجرب عاهرة أخرى.. لقد أتيت لتسمع قصتي.. قصتي التي عرفت فيما بعد أنها ليست قصة نادرة.. إن هناك الملايين منا.. عاهرات.. مبتسمات.. وهبنا حياتنا من أجل متعتك فيما يبدو.. تعال اقترب مني أيها الروح وادخل إلى مجال عطري واستمع.. وابحث معي عن الخطأ الذي فعلته في حياتي حتى أصير عاهرة.. مبتسمة.

وسط غابات السافانا كنت أركض في دوائر بقدمي الصغيرتين، وشعري المربوط ضفيرتين وعمري الذي لا يتجاوز العاشرة.. أنا أحب عمل حركة الدوائر هذه بين الحشائش الطويلة.. هل تحب عملها أنت أيضًا؟ لست أعرف لنفسي اسمًا ما.. أنا من سميت نفسي بنفسي.. فكل الأسماء التي سموني بها في حياتي كريهة لا تعجبني.. ذات مرة رآني رجل طيب وأنا ألعب فقال لي أنت "سومالي".. "سومالي مام".. ومعناه في لغتنا الكمبودية، قلادة الزهور الضائعة في الغابة البكر.. ارتضيته لنفسي اسمًا لأني رأيتني فيه.. أذكر أني لمَّا سمعته أول مرة فرحت وكنت أقفز هنا وهناك وأنا أتغنى به بصوت عالٍ.

أبي.. أمي.. أهلي.. لا أعرفهم.. صغيرة كنت حينما تركوني في قريتنا "بوسرا"، وهي قرية قوامها عشرة أكواخ من القش.. كل كوخ تعيش فيه عائلة صغيرة، أنام عند أي منهم وآكل عند أي منهم.

ذات ليلة أخذني رجل طيب من القرية اسمه "تامان" وجعل لي مكانًا في بيته.. كان طيبًا جدًا، وزوجته جميلة وطيبة جدًا معي.. ما زلت أذكر شعرها الطويل الذي كانت تعقده خلف رأسها.. كانت حنونة على أطفالها.. كنت أنظر لها ويحزن قلبي.. لماذا أنا بلا أم؟ لماذا أحاول أن أتذكر شكل أمي فأفشل؟ ويصور لي خيالي شكلًا وهميًا لها، لماذا أذهب إلى ناحية الأشجار كل حين وأنادي على أمي؟ لقد قالوا لي إن الأشجار تعرف كل شيء.. لكن الأشجار لم تكن ترد علي إذا سألتها.. هذه الأشجار لا تعرف أين هي أمي.

قال لي الرجل الطيب "تامان": لا يجب عليكِ أن تبحثي في الماضي.. لا يجب عليكِ أن تجرحي نفسك.

في يوم من أيام الشتاء أتاني "تامان" وقال أنه سيعرفني على رجل عجوز.. قال يا "سومالي" إنه من نفس البلدة التي ولد فيها أبوك.. هذا العجوز سيوصلك إلى والديك.. أذكر ذلك اليوم الذي ألبستني فيه زوجة "تامان" فستانًا أحمرَ وقلادة خشبية جميلة.. وأمسكت يدي الصغيرة يدَ ذلك الرجل العجوز وأنا أنظر له بسعادة.. لم أكن أعلم أنه في ذلك اليوم تحديدًا، باعني "تامان" للرجل العجوز.. باعني له كجارية.. ما زلت أذكر ابتسامتي وأنا أنظر إلى "تامان" وزوجته وأتعلق بيد ذلك العجوز وأضحك. هكذا الأطفال دائمًا يصدقونك.. ويتعلقون بك.. ولو قفزت في اليم سيقفزون خلفك.. في ذلك اليوم أخذني العجوز الذي اشتراني ومشى بي ومشى.. حتى ابتعد بي عن كل شيء أعرفه.

■ ■ ■

تبدلت بنا الأرض غير الأرض..

لم تعد هناك "سومالي مام".. ولا "تامان".. لا عليك فسرعان ما سنعود إليهما.. تذكر أن هذه الأمور تحدث في عالم الأرواح كثيرًا.. لا قواعد هنا تتحكم بانتقالك لأي مشهد.. تذكر هذا جيدًا حتى تعتاد عليه ولا تتفاجأ.. مرن نفسك على هذا، ستعتاد هذا.. وستحب هذا.

ها نحن الآن قد انتقلنا إلى مكان آخر تمامًا وأجواء أخرى.. أصبحنا في الشارع "E-55" بالقرب من الحدود الألمانية في جمهورية التشيك.. هنا يستريح سائقو الشاحنات الذين يأتون ويروحون كل يوم على طريق "برلين – براغ".. يختارونه بالذات لأن هذا الشارع تحتشد فيه كل يوم على مدار الساعة أكثر من ثلاثمائة عاهرة في صف واحد بانتظار فقط أن يختارهن أحد.. فبعد أن يستمتع سائق الشاحنة بالبطاطس المقلية الرخيصة يمكنه أن يستمتع بإحدى هؤلاء العاهرات لنصف ساعة بسعر رخيص؛ لذا يدعى هذا الشارع "شارع الحب الرخيص" أو Highway of Cheap Love.. أطول بيت دعارة في العالم.. ها نحن الآن نجلس أنا وأنت على مقاعد أحد المقاهي في هذا الشارع وأمامنا على الطاولة بعض البطاطس المقلية.. وحولنا عاهرات.. وسائقو شاحنات.. والكل يبدو في غاية الاستمتاع.

كانت هناك شاشة كبيرة تعرض برنامجًا ما يحظى باهتمام بعض رواد المقهى.. شاهدنا معهم البرنامج.. كان يعرض مؤتمرًا ما.. فيه نساء جالسات يتحدثن في أمر ما يبدو بالنظر إلى وجوههن أنه كارثي.. ومكتوب أسفل الشاشة بالخط العريض "المنظمة العالمية لحقوق العاهرات" أو International

Committee for Prostitutes' Rights.. نساء كبيرات وصغيرات.. كانت إحداهن تقول:

"عاهرة".. اسم يحتقرنا به المجتمع، اسم ظالم.. إنما نحن عاملات في مجال الجنس Sex Workers.. هذا هو المسمى الصحيح الذي يليق بنا.. نحن موظفات في "بزنس" الجنس مثل أية عاملات في أي مجال آخر.. ولا بد أن تكون لنا حقوق مثل أية عاملة في أي مجال آخر.. مهنة في بطاقتنا الشخصية.. تأمين صحي شامل.. هيئة أو نقابة تحمينا أمام القضاء ضد العنف والاحتقار الذي يمارس ضدنا.

عرضت الكاميرا شخصًا جالسًا معهن في المؤتمر يرتدي طاقية سوداء وينحدر شعره الطويل من وراءها ويبدو وجهه النحيل المتجهم أسفلها.. كان الرجل يكره العاهرات وذا باع شهير في قتلهن ورميهن في صناديق القمامة.. قال لهن بهدوء مريب:

حتى لو أصبح لكن حقوق وتأمينات ومسميات وهيئات.. فأنتن في النهاية عاهرات.. لا فائدة لكن في المجتمع سوى أن يحتك بكن رجل نجس لبضع دقائق ثم يرمي لكن بعض النقود ويمضي لحاله.. دعننا نكون صريحين أمام المجتمع، هناك طبيبة.. وهناك عاهرة.

فصلنا قليلًا عن مشاهدة البرنامج المثير رجل جالس بجانبنا في المقهى.. كان يقرأ في جريدة.. عجوزًا كان ذا لحية بيضاء كثيفة وشعر طويل أبيض كثيف.. ألم تعرفه؟ إنه "كارل ماركس".. رجل عجوز لا يعترف بدين ولا ملة.. لا يعترف سوى بالماديات فقط.. لكنه غير أفكار جزء كبير من العالم.. قال لنا فجأةً بقرف:

العاهرات هن نتيجة طبيعية للرأسمالية العفنة المتوحشة.. لا بد أن ينتهين عن هذا العهر.. أنا أميل لرأي جاك السفاح في هذا المؤتمر.

نظرنا مرة أخرى إلى الشاشة بذعر.. هذا الرجل الهادئ ذو الطاقية في المؤتمر هو جاك السفاح؟!

اهتزت الأجواء مرة أخرى بعنف شديد هذه المرة وعدنا مرة أخرى إلى "كمبوديا".. حيث تجلس تلك الآسيوية النحيلة بمكياجها الأبيض تحكي.

■ ■ ■

تقول "سومالي مام": مشيت أنا والعجوز الغريب بعيدًا عن كل شيء أعرفه.. كنت أنظر له من آن لآخر بسعادة وأمل.. مشينا حتى وصلنا لمجموعة من الناس

واقفين بجوار شاحنة كبيرة.. خفت جدًا لمّا رأيت الشاحنة وسمعت هديرها وأنا التي لم أرَ في حياتي حتى دراجة.. تراجعت بخوف.. وللمرة الأولى رفع العجوز يده وأنزلها بسرعة وشدة على وجهي في ضربة قاسية جدًا.. لم يضربني أحد من قبل.. كانت هذه هي أول مرة.. وقعت على الأرض في دهشة وألم.. لأجد العجوز يرفعني من على الأرض ويرميني رميًا في الشاحنة.. ويغلق عليّ الباب.

ظلامًا من فوقه ظلام كانت الشاحنة.. وظلامًا كانت حياتي بعد ذلك.. نزلنا من الشاحنة وركبنا سيارة صغيرة مرت بنا عبر المدينة.. كانت المرة الأولى التي أرى فيها أي مدينة.. رأيت سيارات.. ودراجات نارية.. ومطاعم.. وأناس بشرتهم فاتحة يرتدون ملابسًا ملونة.. ورأيت مجموعة من الفتيات يمشين معًا في زي مدرسي موحد أبيض.. أعجبني منظرهن.. ظننتهن ملائكة.. لم أكن أدري ما هي المدرسة أصلًا.

مشينا في أرجاء المدينة حتى وصلنا إلى قرية الرجل العجوز.. دخلت بيته، كان يعيش وحيدًا.

فهمت أن عليّ أن أنظف البيت وأطبخ وأملأ الماء من النهر كل يوم.. لقد اشتراني ذلك الرجل كخادمته المحلية.. كان هذا معتادًا جدًا في "كمبوديا".

كان العجوز يشرب كل ليلة ويلعب القمار كثيرًا.. وفي الليلة التي لا يجد فيها شرابًا كانت عيناه تبرزان ويمسك عصا البامبو ويضربني بقسوة شديدة.. كانت تلك العصا تؤذي جلدي الصغير.. وكان السطلان اللذين أملأهما بالماء وأحملهما كل صباح يؤذيان كتفي الصغير.. كنت أتعثر عدة مرات وأنا أحملهما وتُجرح قدماي.. وكلما رآني العجوز قال أنني سبب حظه السيئ.. لأن أعماله كلها بدأت تفشل مذ أن اشتراني.

كان يضربني إذا غسلت الصحون قبل أن أملأ الماء لأنه لا يجد ماءً للشرب.. ويضربني لو ملأت الماء قبل أن أغسل الصحون لأن الصحون قذرة.. لمّا كان يغضب كنت أحاول ألا أتنفس حتى لا يلاحظني.. كان يظل في البيت ولا يعمل أي شيء على الإطلاق إلا القمار، ويترك لي أنا ملء الماء له ولبيوت كثيرة من حولنا حتى أجمع له بعض المال.

■ ■ ■

مرة أخرى طافت بنا الدنيا طوفًا عجيبًا ووجدنا أنفسنا قد انتقلنا إلى مكان بعيد تمامًا عن كل ما هو آسيوي.. انتقلنا إلى شارع أوروبي راقٍ جدًا.. وبخطوات

حذرة مشينا فيه منتظرين المشهد التالي.. إنها منطقة الضوء الأحمر في أمستردام.. أشهر وأرقى شارع دعارة في العالم.. هنا الدعارة مصرحة.. محلات الدعارة هنا تقول لك مرحبًا أنا محل دعارة.. نوافذ هذه المحلات و"الفاترينات" تتمايل بداخلها عاهرات يعرضن ما لديهن بطريقة مغرية وينظرن لنا مشيرات بأيديهن داعيات لنا أن نأتي وتدخل.. هنا الدعارة المرخصة يا صديقي.

أنا أسمع صوت المؤتمر.. لكن أين هو التلفزيون؟ نظرنا حولنا ولم نجده.. ثم نظرنا في الأفق.. المشهد عجيب نوعًا ما لكنه ليس غريبًا على عالم الأرواح.. هناك شاشات في الأفق مثبتة في زوايا السماء تعرض ذلك البرنامج بينما نحن نمشي في شارع الدعارة المرخصة، وها هو جاك السفاح جالسًا بطاقيته في المؤتمر بوجهه النحيل المخيف.. كانت هناك امرأة تقول:

قل لي أيها الغريب.. لماذا يجرمون الدعارة؟ ما الضرر في أن تعمل المرأة بها وتكسب نقودًا من جسدها.. هي تستمتع والرجل يستمتع.. الطرفان يستمتعان.. ما المشكلة إذًا؟

رد جاك السفاح:

هناك من يتبنون وجهة نظركن من الرجال ويجعجعون طيلة الوقت بأن العاهرة موظفة مثلها مثل أي موظف في أي مجال.. هؤلاء أقول لهم إذًا طالما هي وظيفة عادية كأية وظيفة أخرى.. اجعل زوجتك تعمل فيها أو ابنتك أو أمك.. وحين تذهب لتأخذها من عملها لتوصلها إلى المنزل، انتظرها في نهاية ذلك الزقاق إذًا وهي تختبئ لينتهك عرضها شخص قذر.. وأنتن يا من تدافعن عن الأمر وكأنه الشيء الذي يحتاجه المجتمع ليصير راقيًا.. أطلقن أزواجكن للعمل كعاهرين ينامون كل ليلة مع عشر نساء ويأخذون نقودًا منهن.. يا دعاة الرقي.. لماذا تشعرين بالغضب إذًا حين تكتشفين أن زوجك ذهب إلى عاهرة وفعل بها ما فعل ثم دفع لها نقودًا؟ أليست هي موظفة؟ اعتبريه ذهب لشراء آيس كريم ثم عاد للمنزل.. ما الضرر في هذا؟

قالت إحدى الفتيات:

فليكن.. لكن يجب أن تعرف أن الدعارة هذه مشكلة موجودة في المجتمع، شئنا ذلك أم أبينا.. وكل ما نريد أن نفعله نحن هو أن نحافظ على هذه الفئة من المجتمع من الأذى.. فليس معنى أنهن خاطئات أن نجيز عليهن الأذى والقتل والاغتصاب.. بل يجب أن نحميهن لو حدث ضدهن إجرام.. حتى نكون دولة محترمة.

بدأ يحدث بعض التشويش في الشاشة وجاك السفاح يرد:

لو أنها دولة محترمة فعلًا، فحتى تحمي بناتها من هذا الطريق القذر ليس عليها أن تسمح بالدعارة ثم تحمي البنات منها، هذا غباء.. بل يجب أن تمنع العهر منعًا كاملًا شاملًا.. منعًا يمنع التحايل عليه. لكن دعيني أقول لك أمرًا.. إن الحكومات ليست غبية لتحارب العهر.. فالعاهرات يجذبن المزيد من السياح الأجانب ذوي المحافظ الممتلئة والرغبات الجنسية الجامحة.. دعي الفتيات يتعرضن لخطر الاغتصاب أو الضرب أو حتى القتل.. لا يهم كثيرًا.. ما فائدتهن للدولة أصلًا؟ على الأقل هن الآن يخدمن دولتهن.. ويزدن السياحة فيها.. إن اقتصاد بعض بلاد شرق آسيا يعتمد اعتمادًا رئيسيًا على عَرَق بناتها.. حتى أمستردام ومنطقة الضوء الأحمر فيها.. يأتيها السياح من كل مكان.

زاد التشويش في جميع الشاشات وتبدلت الصورة فيها لتظهر صورة "سومالي مام".. إن "سومالي مام" تنظر إلينا من الشاشات جميعها.. نظرت إلينا نظرة خاوية ثم قررت أن تكمل حكايتها.. أرى بعض المارة في الشارع قد لفت انتباههم هذا التشويش وبدأوا ينظرون كلهم إلى أعلى لمتابعة قصة "سومالي".. نتمنى ألا تنقطع بنا القصة هذه المرة.

■ ■ ■

نظرت "سومالي" إلى المتابعين وقالت:

بدأت أكبر في السن.. وبدأ العجوز يتسلل إلى غرفتي ليلًا ويضع يده علي.. عندها كنت أركض خارج المنزل وأنام عند الأشجار وأشتكي لها.. وذات مرة أرسلني العجوز إلى التاجر الصيني في القرية لأشتري من عنده زيتًا للمصباح.. كان التاجر الصيني رجلًا له وضعه في القرية.. غني.. يقرض معظم سكان القرية نقودًا بفوائد كبيرة.. وكنت معتادة أن أشتري من عنده أغراضًا للعجوز كل حين.

ذهبت للتاجر.. أعطاني بعض الحلوى وأدخلني لبيته.. لم تكن زوجته موجودة ليلتها.. قال لي أن أتبعه إلى البدروم فتبعته.. دخل إلى البدروم ثم استدار فجأةً إلى ناحيتي.. لم يكن ينوي خيرًا.. كان يشمر كميه.. ثم يفك حزامه.. لم أفهم ما علاقة هذا بزيت المصباح؟ لكني فهمت بعد ذلك.

حينما تكون صغيرًا في الرابعة عشرة ويتوجه إليك أحدهم لاغتصابك جنسيًا أنت سترى في عينه نظرة شر.. أنت ستخاف لأنك تظن أنه سيضربك.. ثم حين يبدأ في مسك ملابسك لنزعها تشعر أن هناك شيئًا أخطر بكثير من الضرب.. شيء

يضربك ليصل إليه.. ولقد ضربني ذلك الصيني ووصل إلى ذلك الشيء.. ثم قام الصيني عني وعدل نظارته.

خرجت أركض بين دمائي البكر شاعرة بالعار.. العار على ماذا بالضبط؟ لست أدري.. لم أفهم ما الذي حصل بالضبط لكن شيئًا ما قطعني بين قدميّ.. وهناك الكثير من الدماء.. جريت إلى الأشجار الحكيمة.. تعلقت بأكبر شجرة منها.. صرخت فيها وضربتها بيدي الصغيرتين.. إنها لا ترد.. ذهبت لشجرة حكيمة أخرى وأنا أشهق من البكاء والألم.. لِمَ لا ترد عليّ إحداكن؟ ثم جريت بكل ما تبقى عندي من قوة ورميت نفسي في النهر.. وددت أن أقتل نفسي حقًا في تلك الليلة.. لكني لم أستطع.. لم أقدر على منع نفسي من السباحة.. إن الإنسان الذي تعلم السباحة يومًا لا يعرف كيف يقتل نفسه غرقًا.

عدت للعجوز في تلك الليلة بين دموعي ودمائي.. أمسكني من شعري وضربني لأنني تأخرت.. كان يعرف بالتأكيد ماحدث معي.. ما فهمته فيما بعد أن العجوز باع عذريتي لذلك الرجل الصيني حتى يُسقط عنه دينه.. في "كمبوديا" يؤمنون إيمانًا راسخًا أن من يمارس الجنس مع عذراء يطول عمره وتزيد قوته وتُشفى أمراضه كلها.

من هنا كانت بداية انتهاكي.. ذات يوم عُدت بعد أن ملأتُ الماء للبيت، فقال لي العجوز: جهزي نفسك يا صغيرة فستزور اليوم عمتك "نوب". تسللت إلى قلبي فرحة جميلة لمّا قال كلمة "عمتك"، هل كان "تامان" صادقًا لمّا قال أن العجوز سيوصلني إلى أهلي؟ نزلت مع العجوز إلى العاصمة "بنوم بن".. ومشينا في شارع مليء بالأضواء الحمراء.. كان عامرًا بفتيات واقفات على جانبيه في رداءات غير محتشمة وحركات غير محتشمة.. ثم دخلنا إلى زقاق ضيق وصعدنا إلى مبنى متهالك فيه.. طرقنا الباب لتفتح لنا امرأة ثلاثينية.. تضع الكثير من المكياج وتبتسم لي ابتسامة لزجة.. كانت هذه هي العمة "نوب".

تركني العجوز مع العمة "نوب" التي لم تكن عمتي ولا حتى من نفس قبيلتي.. كانت قوادة.. عرفت أنه قد تم بيعي ثانية.. لقد باعني العجوز لأصحاب هذا البيت الحقير.. بيت الدعارة.. كانت تلك هي الليلة التي دخلت فيها أرض السافلين.. ولقد كان استقبالًا عنيفًا ذلك الذي استقبلوني به..

■ ■ ■

"ماتا هاري" ترقص شبه عارية.. إنها عاهرة ذوي المناصب العليا.. أناس كثيرون يجلسون في حكمة ليشاهدونها.. كيف تشاهد الراقصة في حكمة؟ هذا

أمر لا أعرف كيف يحاولون إقناع أنفسهم به.. ما يبدو لي هو أن وجه الحكمة الرائع هذا يخفي وراءه وجهًا آخر يسيل منه اللعاب.. "ماتا هاري" ما زالت ترقص.. "ماتا هاري" رائعة جدًا بصراحة.. ميزت بين الجالسين "جاك السفاح" بقبعته التي تضايق من يجلس خلفه لأنها تحجب عنه منظر "ماتا هاري" وميزت أيضًا "كارل ماركس" يجلس بالقرب منه.. وعدة عاهرات جالسات حولهم كن مشاركات في ذلك المؤتمر.. كانت فيما يبدو فقرة ترفيهية.. لكن ما الذي أتى بكارل ماركس هنا ألم نتركه هناك عند ذلك الـ... لا يهم.

قالت إحدى المشاركات في المؤتمر:

هل ترى هذا الفن؟ إنها فنانة.. لماذا تصورون العاهرة أنها مجرد لحم ليست لديها أية موهبة؟! إن مثلنا الأعلى هي "ثيودورا".. عاهرة كانت تعمل في بيت دعارة.. أعجب بها الإمبراطور"جستنيان" الروماني وتزوجها وصارت إمبراطورة عظيمة مؤثرة عليه.. وتمكنت من تمرير قانون يسمح لرجال الدولة الكبار بالزواج من عاهرات.. ونجحت في إصدار قانون يساوي العاهرة بكافة طبقات المجتمع.. هذا هو الرقي الحق.

قال لها جاك:

عاهرة حكمت مجتمعًا وأصدرت قرارات لأجل أخواتها العاهرات.. هي فعلت هذا حقًا.. لكن هل تقبله الناس في المجتمع الروماني؟ لم يتقبلوه بالطبع ولذلك تم إلغاء القانون مباشرة بعد أن سقط حكمها.. قد تكون هناك موهوبات عاهرات نعم.. هذا حدث عدة مرات في التاريخ لكن في كل مرة تسقط تلك الموهوبة من عين المجتمع على الفور.. أتذكرين العداءة "Suzy Favor".. برأيك لماذا حرموها من الجائزة المسماة باسمها وغيروا اسم الجائزة لمّا اكتشفوا أنها كانت عاهرة إيسكورت Escort (عاهرة بالطلب تتصل بها لتأتيك إلى منزلك)؟ لماذا قطعت شركة Nike كل تعاملاتها معها؟

تكلم "كارل ماركس" هذه المرة وقال:

أذكر أيضًا Brandy Britton أو التي تعرف بالبروفيسورة العاهرة.. كانت تدرس علم الاجتماع في جامعة المريلاند.. وفي الحادي والأربعين من عمرها استقالت وقررت أن تكون عاهرة إيسكورت هي الأخرى.. صنعت لنفسها موقعًا على الإنترنت أصبح اسمها فيه "Alexis"، برأيك لماذا تم حرمانها من شهادتها العالية؟ في دولة أعرف أنك تعتبرينها دولة راقية.

قالت المرأة:

المجتمع لا يتقبلها لأنه يفتقر إلى الرقي حتى في تلك الدول المتقدمة.. أتدري أن الدعارة تساهم في تقليل الاغتصاب في المجتمع؟ إن الرجل لن يسعى وراء المتزوجات المحترمات لأن العاهرات موجودات أمامه في كل مكان.

رد عليها " ماركس" هذه المرة محتجًا:

هذا لا يبدو صحيحًا.. المغتصب وقت الاغتصاب حين تزيد لديه الشهوة الحيوانية ويقرر أن يغتصب، لن يعدل عن الاغتصاب في تلك اللحظة ويذهب للبحث عن عاهرة؛ فهو حيوان يريد أن يفضي بشهوته إلى فريسته التي أمامه في التو واللحظة.. وهي تُزين أمامه ساعتها لتكون أشهى من ألف عاهرة.

قالت المرأة:

مرة أخرى سأقول ـ وإن كنت غير مقتنعة ببعض كلامكم ـ إن العهر مشكلة في المجتمع وحتى نحل هذه المشكلة، يجب أن يتم ترخيص الدعارة.. هكذا سنقضي على كل المشاكل التي تأتي من ورائها.. لن تكون هناك أمراض جنسية لو رخصت العاهرات وكانت لديهن شهادات صحية.. لن تكون البيئة التي تعمل بها العاهرة بيئة مجرمين.. بل سيكون كل شيء مُدارًا من قبل الدولة.. لن تكون البيئة مهينة.. وسنحفظ للعاهرة إنسانيتها.

هنا رد "جاك السفاح" غاضبًا جدًا:

عن أي بيئة غير مهينة تتحدثين يا عاهرة؟ أنا دخلت بنفسي بيت دعارة مرخص.. أتدرين ماذا حدث لمّا دخلت؟ دق جرس صوته مثل ذلك الذي يكون على رقبة الكلب.. وخلال دقائق كان يجب أن تأتي العاهرات ويقفن صفًا واحدًا أمامي ليتعرضن للكشف والتفحص المهين مني ومن زبائن آخرين.

قال "ماركس":

الولاية الوحيدة التي رخصت الدعارة في أمريكا هي "نيفادا".. هل تعلمين أن عدد بيوت الدعارة الغير مرخصة في "نيفادا" هو ضعف عدد البيوت المرخصة؟ حركة ترخيص الدعارة هذه بدأت في أستراليا وفشلت فشلًا ذريعًا في تحقيق أي هدف من الأهداف التي أرادها لها صانعوها. ولا حتى نصف هدف.. فلا هم نجحوا في الحد من دعارة الشارع.. ولا الحد من الأذى الذي تلقاه الفتيات.. وهذا ينطبق على كل الدول التي نفذت تجربة أستراليا، مثل هولندا ونيوزيلاندا ونيفادا.. كلها فشلت.

قالت له:

ولماذا فشلت؟

قال "جاك السفاح" وقد بدأ غضبه يصبح مخيفًا:

الأمر فاشل من وجهة نظر أصحاب بيوت الدعارة أنفسهم.. لو كانت الدعارة المرخصة في "نيفادا" أرباحها عشرة مليون سنويًا فإن الدعارة الغير مرخصة في "لاس فيجاس" مثلًا أرباحها ثلاثة بليون دولار سنويًا.. والمدينتان في ولاية واحدة.. وبالمناسبة معظم العاهرات في البيوت المرخصة يكن تحت مسؤولية قواد خارجي يعينه مالك البيت المرخص لأن القوّاد يعرف كيف يجعل العاهرة تعمل بجد.. والقصص التي تروى في بيوت دعارة أستراليا المرخصة مليئة بالعنف والإهانة.. ليس الأمر أن العاهرة تذهب إلى هناك كموظفة محترمة كل يوم وتنصرف.

ختم النقاش "ماركس" قائلًا:

باختصار: لا تحاولي أن ترخصي القذارة وتجعلي أصحاب الأسواق المحترمين يبيعونها في الهايبر ماركت.. القذارة لا يبيعها إلا المجرمون ولا يشتريها إلا الأقذار.. لأنها قذارة.

هنا قام "جاك السفاح" غاضبًا وفزعت العاهرات وتوقفت "ماتا هاري" عن الرقص.. إن جاك لا يقتل إلا العاهرات.. ولا يضعهن إلا في صناديق القمامة.. اهتزت الأجواء.. صرخت العاهرات لمّا رأين سكينًا أخرجه "جاك السفاح".. واهتزت الأجواء مرة أخرى.. هيا بنا من هنا لا بد أن نخرج من هذه القاعة.. المناقشة مع "جاك السفاح" تؤدي لنتائج دموية.. ومع اهتزاز الأجواء زكمت رائحة آسيوية.. يبدو أننا قد عدنا.. أين كنا بالضبط؟ لم أعد أذكر.

▪ ▪ ▪

كنا في بيت الدعارة الذي اشتراني.. وأنا أدخله لأول مرة في حياتي..

أمسكت العمة "نوب" بيدي وتوجهت ناحية رجل كريه المنظر وقالت له:

هذه دجاجة جديدة طازجة من القرية.

وضع الرجل يده على شعري فأزحت يده جانبًا.. لكن العمة "نوب" ضربتني على أم رأسي ضربة قاسية جدًا وقالت لي:

ستفعلين هذا، شئت أم أبيت.

ثم أدخلتني في غرفة وأدخلت الرجل الكريه ورائي وأغلقت الباب علينا.. غرفة حقيرة جدًا فيها سرير حقير واحد وأثاث مهترئ.. كنت خائفة جدًا وكأنهم حبسوني وحدي مع حيوان مفترس.. طلب مني الرجل الكريه أن أخلع ملابسي فرفضت.. فضربني ثم طلب مني ثانية فرفضت فضربني.. ثم طلبها مرة ثالثة فرفضت وأنا أبكي وأنظر ليده نظرة المنتظر لضربة أخرى لكنه خلع ملابسه الكريهة ثم تقدم مني كالحيوان.. واغتصبني كالحيوان.. ثم قام عني كالحيوان وتركني أتذوق دماءً كانت تسيل من أنفي وفمي.. شعرت بشفقة على نفسي.. لو كان قتلني لكان أفضل.. قال لي وهو يغادر.. جهزي نفسك يا عاهرة.. سأراك غدًا.

وجاء الغد.. وها أنت ذا تراني أدخل مرة أخرى إلى هذا المنزل الحقير.. شكلي اليوم يبدو مختلفًا جدًا كما ترى. كانت العمة "نوب" قد وضعت لي مكياجًا ثقيلًا حتى جعلتني أشبه بفتيات الجيشا اليابانيين.. المكياج يجعلك أكثر بياضًا.. والزبائن تحب البياض.. كنت أتمنع كما ترى كلما لمسني أحد وأنا أدخل.. فغضبوا مني مرة أخرى.. دفعوني دفعًا حتى أدخلوني لغرفة رأيت فيها ثلاثة رجال.. رجل ضخم أشبه بالدب.. كان هذا هو "لي".. زوج العمة "نوب"، والرجلان الآخران هما حارساه الشخصيان.. بعد قليل أصبح يمكنك أن ترى ثلاثة رجال يغتصبون فتاة وحيدة تصرخ.. أحدهم دب مشعر.. وأحدهم ذو وجه صيني وجسد نحيل مقزز والثالث لم أتبينه جيدًا.. فعلوا بي كل ما يمكنك أن تتخيل أن مغتصبًا يمكن أن يفعله.. تخيل أبشع شيء.. في النهاية شدني الدب "لي" من يدي وجرني معه بدمائي وألمي إلى خارج الغرفة.

أنزلني الدب إلى البدروم ورماني على الأرض.. وبرغم كل الألم الذي كنت أشعر به والجزع فإن جسدي اقشعر من الخوف من شيء آخر تمامًا.. هذا البدروم، إنه مليء بالعقارب والثعابين.. رأيتها فتراجعت على الأرض إلى ركن الغرفة.. رأيت الدب "لي" يستدير إلى الباب عازمًا الخروج.. فزعت وتحاملت على قدمي وقمت محاولة التحرك ناحية الباب بيأس فأمسكني ورماني ثانية على الأرض ناحية العقارب والثعابين.. وقبل أن يخرج ضرب الثعابين بقدمه فتوحشت وأصدرت فحيحًا غاضبًا.. ثم أغلق الباب علي وتركني وحيدة معهم.. ومع إغلاقه للباب حل الظلام الدامس.. ولم أعد أسمع سوى صوت ثعابين غاضبة تقترب.. وعقارب لا أراها.. لكني أعرف أنها موجودة.. صرخت وصرخت لكن يبدو أن الصراخ لا يسمعه أحد في أرض السافلين.

نحن يسموننا في اللغة الإنجليزية "Sex Slaves" لا يوجد مصطلح مقابل له في اللغة العربية لكن أقرب تعبير هو "جارية جنسية".. وهي الفتاة المختطفة التي يتم إجبارها على العمل في الدعارة.. إن أهم خطوة في تجهيز أي جارية جنسية هي كسر عزيمتها.. لأنها سترفض ما تحاول أن تفرض عليها فعله. لا بد أن تغتصبها بعنف شديد وقسوة.. ويجب أن تضربها حتى تؤذيها.. ويجب أن تجعلها ترى دماءها.. فإن رأت دماءها ستنكسر عزيمتها.. وأي عزيمة تلك التي ستكون عند أنثى صغيرة ضعيفة ووحيدة؟

بعدها قبلت الزبائن.. على مضض شديد.. كنت أخدم في اليوم الواحد أكثر من عشرة زبائن.. في الصباح كنت أبيت في شقة العمة "نوب" التي تطعمنا وتلبسنا وتضع لنا المكياج والعطور، وفي المساء تبدأ الدعارة.. ذات مرة.. وبرغم كل الرقابة التي تحيط بي.. تمكنت بمعجزة من الهرب من شقة العمة "نوب".

نزلت إلى الشارع وجريت وركبت في أول سيارة أجرة وطلبت منه أن يخرجني من المدينة كلها.. انطلق بي سائق الأجرة بسرعة خارجًا بي من هذا المستنقع.. استلقيت على الأريكة الخلفية للسيارة وأنا أبكي في صمت.. بعد حوالي ربع ساعة أوقف السائق السيارة ونظر لي وقال: تفضلي يا صغيرة. أخرجت محفظتي وأعطيته أجرته ثم خرجت من السيارة.. لأجد نفسي أمام آخر أشخاص في العالم أود رؤيتهم في تلك الساعة.. الدب "لي"، وحارساه الشخصيان.

ما زلت أذكر كيف كان يسحلني في الشارع بعد فشلي في الهرب.. إن سائقي الأجرة في "كمبوديا" على علاقة وثيقة بأصحاب بيوت الدعارة.. ما زلت أذكر كيف كنت أصرخ بكل قوتي وأطلب مساعدة المارة.. المارة الذين كانوا يشاهدون هذا وينظرون بعيدًا بلا اهتمام.. أو يعطونك نظرات على طراز: أنا مندهش ومتأثر لكني غير مهتم ولن أتدخل. لست أدري في أي عالم نحن بالضبط؟

عدت مرة أخرى إلى أرض السافلين.. ولكن هذه المرة.. قررت أن أكون جارية جنسية مطيعة.. كنت أشعر بالقذارة طيلة الوقت.. رائحة المني المقرفة لا تنفك تغادر أنفي.. شعرت أنني مشبعة بها.. كل شيء كان قذرًا.. كنت أشعر بقذارة لا يمكن غسلها.. ورغم أنني كنت في الحقيقة منقوعة في الكريمات والعطور طيلة الوقت فإن كل هذا لم يُزل تلك الرائحة من أنفي أبدًا.

لم أكن أبتسم للزبائن، كنت أسلمهم نفسي جثة بلا روح، ولم يكن هذا يعجبهم.. كان الدب "لي" يعاقبني على هذا بأن يجعلني أبيت وسط الثعابين في القبو كثيرًا.. ولما شعر أني أصبحت لا أخاف منها أتاني ذات يوم وقد ابتكر طريقة

جديدة لعقابي.. نزل بي إلى القبو ورماني على الأرض كالعادة وجعل حارسيه يثبتاني بقوة.. ثم جاء بسطل كبير.. وبدأ يسكبه علي.. كان سطلًا من الديدان.. الديدان الحية.. الملايين منها.. يسكبها على وجهي ورقبتي وجسدي.. المشكلة الأكبر كانت في البغلين اللذين كانا يثبتان وجهي وجسدي حتى لا أضايق الديدان في الوصول لأي مكان تود الوصول إليه.. لم أكن حتى أقدر على الصراخ.. وإلا دخلت الديدان في فمي.

بعد هذه التجربة قررت قرارًا هامًا، أن أصير جارية جنسية مطيعة ومبتسمة.. قررت أن أربط قدمي في الساقية التي يريدونني أن أربط قدمي بها وأمشي فيها.. أصبحت أنظف البيت وأطبخ أكثر من السابق ولاحظت هذا العمة "نوب".. وبدا أنها عرفت أنني قد استسلمت.. وفعلًا كنت قد استسلمت.. ورغم أن العمة "نوب" سيئة جدًا فإنها كانت جيدة معنا لو أننا تعاونّا.. لذا تعلمت أن أتقبل الوضع.. فيما بعد تعلمت شيئًا مختلفًا.. تعلمت أن هذه هي عقلية العبد.. وأنه تفكير خاطئ تمامًا.

العاهرة في لغتنا تعني "سريكوس".. المرأة المكسورة.. مكسورة بطريقة لا يمكن إصلاحها أبدًا، هذه الكلمة اكتشفت أنها معبرة جدًا.. إن روحك لا تظل طاهرة كما كانت أول مرة.. بل إنها تتدنى مع الوقت كلما مكثت أكثر في هذا المستنقع.. تعجبت لمّا رأيت أن كثيرًا من الفتيات هنا مُبَاعات للعمة "نوب" بواسطة عائلاتهم.. وهم يبيعونهن لتسديد دين على العائلة.. لم أصدق أن هناك عائلة يمكن أن تفعلها وتبيع ابنتها.

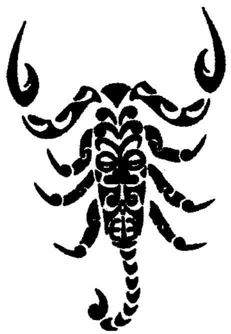
مواقف كثيرة سيئة جدًا حدثت في بيت القذارة الذي كنا نعيش فيه.. أذكر ذات مرة مشهدًا مرعبًا.. فتاة تدعى"سري روت".. أتت بعد مجيئي بستة أشهر تقريبًا.. كانت جميلة جدًا وكان كثير من الزبائن يختارونها.. ذات مرة حاولت أن تهرب مع أحد الزبائن، وكان يأتيها باستمرار.. فسألته ذات مرة أن يساعدها في الهرب.. بيأس سألته.. بقلة حيلة سألته.. لكن تبين أنه صديق للدب "لي".. ولمّا علم الدب بالأمر جاء بالفتاة.. وربطها في السرير.. ثم أمسك بمسدس وقربه من رأسها.. ثم أطلق طلقة خرجت لها دماغها وتدلت على ذلك السرير.. ثم أمر الحارسين المقززين فوضعاها في كيس من أكياس الأرز ورمياها بعيدًا.. هكذا كانت قيمتنا لديهم.. قمامة في حياتنا.. وقمامة في موتنا.

لو حصل حمل لأية واحدة منا فإنهم يذهبون بها لمستشفى معينة ويسقطون لها حملها.. ثم يجبرونها على أن تعود للعمل بعد يوم واحد فقط.. العذراء التي

تفقد عذريتها.. تذهب لنفس المستشفى حتى يخيطون لها عذريتها مرة أخرى.. يفعلون هذا ثلاث أو أربع مرات.. فالفتاة العذراء أغلى دائمًا. أرواحنا لا تعني شيئًا في هذا العالم.. هم يعتبروننا أجسادًا فقط.. أرواحنا فقط تعيق أعمالهم.

■ ■ ■

طرق باب الغرفة فجأةً بينما نتحدث وفتحه طارقه مباشرة فتحة بسيطة ثم أطل علينا منها برأسه.. كان هذا هو سكوربيون بقناعه المميز.. أشار لنا لنقوم ونتبعه.. كانت "سومالي" تبكي بصمت.. فتركناها وذهبنا إلى سكوربيون الذي مشى بنا في السيب وأدخلنا إلى غرفة في نهايته.. كانت غرفة صغيرة ليس فيها إلا أريكة وكرسيان وجهاز كمبيوتر.. سمعنا موسيقى من الطراز المريح تأتينا من كل مكان وكأن الأجواء تعزفها لنا.. جلست أنا على الأريكة.. سأظل جالسًا هنا بينما تثرثران قليلًا.. حاولا أن تطيلا الثرثرة لأحظى براحة أطول.



صرخة متوحشة هزت الأجواء فجأةً.. أنتيخريستوس.. كان يمشي في الخارج ويصرخ بطريقة انخلعت لها قلوبنا وقلب "سومالي" التي قامت تركض وفتحت باب غرفتها لتهرب.. هيا تعال لا بد أن نلحق بها.. خرجنا معها إلى ذلك الزقاق ثم إلى ذلك الشارع.. لكن هناك شيء غريب.. لا أحد هنا.. الشارع خالٍ تمامًا.. جميع البيوت مطفأة الأنوار، والمحلات كأنها مهجورة.. السماء أصبحت ذات لون أحمر غريب.. وهناك ضباب يمنعك من أن ترى الأجواء جيدًا.. إننا نرى "سومالي" تركض هناك في الضباب ونحن نكافح حتى لا نضيع صورتها.. بدأت الأرض تختلف والمباني تختلف والضباب ينقشع تدريجيًا.. وجدنا أنفسنا في محطة باصات.. لا أحد هنا والجو بارد جدًا.. من اللافتات أفهم أننا في أمريكا.. نطالع حولنا.. لا أثر لمخلوق في المحطة.. ها هي ذي "سومالي" تقف هناك.. هل تراها؟ لكن من هذه الفتاة الأخرى التي معها؟

بجوار "سومالي" كانت ترقد فتاة على أريكة في المحطة متلحفة بلحاف جيد المظهر.

نظرنا إلى روح الفتاة.. إنها تصنع قوة روحية عالية في المكان.. قالت لنا الروح أن اسمها باربرا.. "باربرا أمايا".. تقول لنا أنها حزينة.. أخبرتني أنها مراهقة أمريكية هربت من بيت أهلها ونزلت إلى الشارع.. ذلك الكائن الكريه البارد.. الكائن الذي يكرهك.. الكائن القذر.. كان من الأفضل لها أن تعيش بين جدرانها الأربعة الجميلة.. على الأقل هم جدران أربعة.

هناك امرأة جميلة جاءت من وراء "باربرا" ونظرت لها بحزن.. كانت المرأة تبدو وكأنها طيف.. نظرت إلى "باربرا" في حنان ومسحت على شعرها.. يا صغيرتي لِمَ هربت من المنزل.. ماذا تقولين؟ والداك يضربان بعضهما بعضًا طيلة الوقت؟ والدك السكير يمد يده القذرة عليك جنسيًا كلما أتيحت له الفرصة؟

هل ترى كيف تنظر "سومالي مام" إلى طيف المرأة الجميلة بامتنان؟ إنها "ماري ماجدولين".. واحدة من الصدّيقات الصالحات القديسات أيام النبي عيسى.. رغم أنهم يصفونها بقبحهم وافترائهم أنها كانت عاهرة ثم تابت. إنما كانت صدّيقة صالحة ولم تكن يومًا عاهرة.

ارتفع صوت رجل يغني في الجوار.. نظرنا إليه.. كان رجلًا أبيضَ ذا شعر طويل ووجه حزين غريب.. كان يغني ويقول:

لقد قالت أنها تعبت من والدها
قالت أنه كان يشتري لها الأشياء
وكان يتحرش بها
والآن قد هربت إلى الشارع
كيف ستعيش
ليس لها من شيء تأكله
ذهبت إلى المحطة
كان ثمة رجل جالس هناك
قال لها أيتها الفتاة أنا سأريك أين هي النقود
فقط افردي هذا الشعر
علمها كيف تبيع جسدها
ثم أتى ذلك الشرطي
ثم قبض عليها.

فجأةً طلع الصبح.. إن الصبح في هذا العالم لا يطلع تدريجيًا.. إنما يبرز بروزًا.. بدأ الناس يتوافدون على المحطة.. واستيقظت "باربرا".. لا أثر لـ"سومالي مام" ولا لـ"ماري ماجدولين" ولا للمغني.. رأينا شخصًا ما يتحدث مع "باربرا".. شخصًا يبدو من روحه أنه شخص خطر.. لا يمكننا فعل شيء.. ها هو يساعدها في حمل أغراضها.. وها هي تمشي وراءه.. إن منظومة الشارع القذرة كانت هي الأخرى كساقية بدأت تربط الحبل في قدم "باربرا" وتشدها معها.

لقد رأيت طراز العاهرة المجبرة على العهر بالعنف مثل "سومالي".. دعني أعرفك على طراز آخر.. العاهرة المستغَلة المتلاعب بها.. هذا الشخص الخطر الذي رأيت "باربرا" تمشي معه هو في الحقيقة قواد.. وهو يبحث عن الفتيات اللاتي لا توجد لديهن خيارات أخرى، صاحبات الشخصية الضعيفة.. هؤلاء لو وعدتهن بالجنة سيتبعنك، ولو إلى الجحيم.. هؤلاء اللاتي لا مأوى لهن هن أجمل ضحايا على الإطلاق.. وهن غالبًا يصبحن مخلصات لك جدًا لأنك أخذتهن تحت جناحك أول مرة.

ستطعمها وتؤويها، ستقنعها كم هي جذابة وجميلة.. ستمارس الجنس معها.. ستقول لها كم أنك تحبها.. ولقد كانت "باربرا" جائعة جدًا لذلك الشعور.. أن هناك شخصًا ما يرغب فيها.. هناك شخص يرغب فيّ.. شخص شنيع.. لكنه شخص على الأقل.. حرمها أهلها من ذلك الشعور.. والآن هي فرصته حتى يحقنها به حقنًا حتى تتشبع روحها به.. وفرصته حتى يحقن في أوردتها شيئًا آخر.. لديه الكثير من محاقن السافلين.. هيروين.. كوكايين.. ماريوانا.. سيختار ما يعجبه.

في المرحلة التالية سيعرفها على أصدقائه.. يمرحون معًا جميعًا ويشعرونها بالسعادة، ثم فجأةً يقنعها بأن ما لديهم من مال قد نفد وما لديهم من مخدر.. ثم يمكنه إقناعها لتمارس الجنس مع أحد الأصدقاء للحصول على بعض المال أو على بعض المخدر.. ثم تدريجيًا يتحول الإقناع إلى عنف وحرمان من المخدر.. ثم يكشف القناع أخيرًا.. أنه قواد وأنها عاهرته.. ولا بد أن تخرج إلى الشارع كل يوم لتحصل على مبلغ كذا وإلا لن يكون هناك مخدر.. هذا هو الحال.. إن كل عاهرات الشوارع في أمريكا تتم إدارتهن بنفس الطريقة.. وكلهن مدمنات على مخدر ما.

تبدلت بنا الأجواء.. وبدا أنه قد مضت بعض السنين.. نحن بالقرب من المحطة نفسها.. "باربرا" الآن قد أصبحت عاهرة شوارع.. أو كما يقولون Streetwalker تتسكع في الشارع الخاص بها وتخدم يوميًا ما يزيد على عشرة

زبائن.. ولو لم تصل للمبلغ المطلوب يتم ضربها بالعصا ضربًا مبرحًا مؤذيًا أليمًا.. وكل قوّاد هنا له عصا مخصوصة يصممها تصميمًا خاصًا به.. وهذا التصميم يضعه كوشم على أجساد عاهراته.. ولو رأيته في نهاية اليوم وهو يرفع عصاه أمام عاهراته سيبدو لك مثل راعي الأغنام الذي يهش على غنمه بالعصا.

انظر إلى "باربرا" تقف هناك في الشارع بانتظار أن يغتصبها أحد.. إنها تبتسم لك حتى تغتصبها. تقف تنتظر عاقدة يديها أمامها في منظر ذليل.. من أجبرك على الوقوف هكذا أيتها الصغيرة؟ هل رأيت روحها التي تسكن هذا الجسد؟ إنها تبكي وتقطر دمًا.. إنها لا تدري عن كل الأمور التي تعرفها أنت عن العالم.. كل ما تدريه هو أنها تُغتَصب يوميًا وأنه عليها أن تبتسم وهي تغتصب، لأنها لو لم تفعل ذلك فستتلقى ضربًا مبرحًا أليمًا حين تعود.. لو صدقت للحظة أنها تقف هناك لأجل أن تمتع نفسها لأن شهوتها عالية جدًا للجنس وللمال فأنت حيوان.. نعم أيها الحيوان وعليك أن تبحث بداخلك عن الإنسان الذي مات.

ها هي "باربرا" هناك داخل سيارة أحدهم ينتهك منها ما ينتهك.. أهي سافلة؟ أم أنه هو السافل؟ أم من يسأل هو السافل؟ إن السافل الحقيقي هما الوالدان اللذان تركا هذه الطفلة تضيع هكذا ولم يعرفا مدى قداسة أن يكون لك فتاة تربيها، هذه هي ابنتك هناك في الشارع تحني ظهرها لتُحدث ذلك الرجل في السيارة.. هذه هي ابنتك هناك.. ابنتك أيها السافل.. ابنتك.

ثم أتت القديسة "ماري ماجدولين".. ورأت "باربرا" في ذلك الشارع.. أنت غالية يا حبيبتي.. أنت لم تجدي أحدًا يقول لك هذا وأنت صغيرة.. يقولون لك أنك جميلة دائمًا.. لكن لا أحد يقول لك أنك غالية.. من يخبر هذه الغالية أنها الآن في هذا السن كان يجب أن تفكر في أول وظيفة لها.. تفكر في نتيجة امتحان جامعتها.. من يخبرها بهذا ويخبرها بأنها لا يجب أن تفكر في ذلك الشيء المقزز الذي يجب أن تتحمله كل يوم؟

سطعت في وجوهنا جميعًا أنوار سيارة شرطة.. يبدو أن القديسة "ماري" قد بلغت الشرطة.. ممارسة الجنس مع قاصر جريمة في أمريكا.. انتفض الفتى الذي كان مع "باربرا" في السيارة وبدأ يرتدي ملابسه.. نزل من سيارة الشرطة رجل قوي جسيم يرتدي زي الشرطة.. كان كأنه يمثل كل المشاعر الغاضبة التي في داخلك على هذا العالم.. خرج الفتى من السيارة وأخذ يعتذر للشرطي القوي الذي كان ينظر إليه بغضب شديد.. قال له لا تعتذر لي اعتذر لها هي.. هي لم تختر أن تعيش بهذه الطريقة.. لم تختر لحياتها أن تفعل أنت معها هذا في ذلك الزقاق في تلك

السيارة لترمي لها بعض النقود.. هذه الفتاة التي تؤجرها هل هي قطعة لحم؟ هناك إنسان بالداخل هنا.. هناك إنسان يعيش هنا.. ألا تشعر به أيها الحيوان؟

■ ■ ■

تبدلت بنا الأرض وانتهت قصة الآسيوية والأمريكية.. لقد أصبت بالغثيان مما رأيت.. أتمنى أن نخرج من هنا.. لكن أين نحن الآن؟ إننا نمشي في حذر في شارع ذي مسحة أوروبية ما.. ولكن بدا لي أني أسمع أذانًا في الأجواء.. الله أكبر الله أكبر... نحن في تركيا.. تحديدًا "كاراكوي" منطقة الضوء الأحمر في اسطنبول... سمعنا صرخة هزت الأجواء.. صرخة خفتت لها الأضواء وكادت الدنيا أن تتبدل بنا ثانية.. ليست كصرخة أنتيخريستوس.. بل صرخة متألمة.. صرخة لمّا سمعناها وضعنا أصابعنا في آذاننا.. إن منطقة الضوء الأحمر هنا يشتد فيها الضوء الأحمر عن أي مكان في العالم.. نوافذ المحلات ترقص فيها فتيات روسيات جميلات شبه عاريات.. هل ترى صاحبة الشعر الأحمر تلك؟ إنها تضحك لك وتشير لك إشارات ملؤها الدلال.. صرخة أليمة مؤلمة أخرى.. وانقلبت الدنيا كلها بنا.

انتقلنا إلى مكان ما كأنه بدروم.. فزع لظهورنا العديد من الفتيات الروسيات اللاتي لا أدري ماذا يفعلن هنا.. الصرخة أوجعت أذني وأذنك.. القوة الروحية زادت بشدة.. اجتمعت حولنا الفتيات المفزوعات بحذر.. هناك واحدة منهن ذات شعر أحمر تنظر لك نظرة مندهشة.. هذه هي فتاتنا الأخيرة "ناتاشا رومانانكو".. يبدو أن كل الروسيات اسمهن "ناتاشا".. لكن "ناتاشا" هذه مختلفة، أليست هي التي كانت ترقص في الشباك الأحمر؟ إنها تهرع إليك فجأةً وتحتضنك.. أنقذني أيها الغريب.. أرجوك أيها الغريب.. أنت لست من عالمنا.. أرجوك خذني معك من هنا.

ها نحن ننظر إلى ماضي "ناتاشا" من "مولدوفا" بشعرها الأحمر المميز وهي تحمل ابنها الصغير الأشقر الجميل.. إنها تعيش في شقة صغيرة مع أمها وابنها بعد أن طلقها زوجها.. كانوا فقراء قد تعب منهم فقرهم.. لا يوجد عمل في مولدوفا.. أفقر دولة في أوروبا كلها.. يعيش في القرية الواحدة ألف شخص ليس بينهم موظف إلا عشرة أو عشرين.. "ناتاشا" قرأت إعلانًا في الجريدة المحلية.. مطلوب عاجلًا للعمل في تركيا.. نادلات.. عاملات نظافة.. عاملات مزرعة.. مساعدات مطبخ.. الراتب مغرٍ جدًا جدًا.. ذهبت "ناتاشا" إلى المكتب.. يحتاجون مبلغًا ماليًا ضخمًا لاستخراج الفيزا لها.. رهنت "ناتاشا" تلك الشقة الصغيرة التي تعيش فيها مع أمها وابنها وحصلت على النقود واستخرجت الفيزا.

في تركيا استقبلها رجل أخذ منها جواز سفرها وأوصلها إلى المطعم الذي من المفترض أن تعمل فيه.. ثم دخلت أرض السافلين.. أنت لن تعملي هنا مقدمة طلبات.. أنت ستعملين هنا عاهرة، رفضت "ناتاشا".. بعد قليل كانت "ناتاشا" تحاول أن تقوم من الأرض وهي ترى أمامها بعض أسنانها المكسورة سابحةً في دمائها.. جردوا "ناتاشا" من ملابسها ومن كرامتها ومن بعض أسنانها.. المثير أن جميع الناتاشا الروسيات العاهرات يكون لديهن أسنان مكسورة دائمًا.. وحين تسألهن عنها يقلن لك أنهن سقطن من على السلالم.. يبدو أن هذا المجال الذي يعملن به فيه أسوأ سلالم في العالم.. بل أسوأ سفلة في العالم.. إنهن بعد عدة ليالٍ فقط من الضرب يتعلمن كيف يرقصن على الشباك وكيف يبتسمن كل ليلة بدلال.

كان ابنها يسأل جدته كل حين.. متى ستأتي أمي؟ والجدة تلهيه وتجيب إجابات تتغير وتتطور كلما مرت الأيام والشهور، قالوا لها أنه حتى يمكنها أن تخرج من هنا وتعود إلى قريتها مولدوفا هناك طريقة واحدة.. أن تعمل لديهم عاهرة حتى تسدد الدين الذي عليها.. ما هو هذا الدين؟ عشرة آلاف يورو.. النقود التي اشتروها بها.. وسيعطونها أجرًا يوميًا على عملها تسدد منه هذا الدين.. أجر قدره عشرون يورو فقط.. بحسبة بسيطة وجدت أن عليها أن تعيش في هذا الجحيم لسنتين على الأقل حتى يمكنها العودة إلى بلدها، ولو عادت من هذا الطريق ستعود مع مشاكل نفسية رهيبة وأمراض جنسية وإيدز.. ينومونها هي وعشر رفيقات لها في بدروم أسفل الكازينو الذي تعمل فيه.. لا أصدق أن هذه هي حياة فتاة الشباك التي كانت تتراقص بسعادة منذ قليل.. هذه ليست حياة عاهرات، هذه حياة عبيد.. عبيد لا يملكون من أمرهم شيئًا.

كان يأتيها كل الرجال.. رجل الشرطة كان يأتيها، القاضي الذي يحكم بالسجن على قضايا مماثلة لقضيتها كان يأتيها، القسيس الذي يصلي للرب كان يأتيها، المحامي الذي يدافع عن قضايا مماثلة لها كان يأتيها، المفترض أن هؤلاء يحمونها.. من الذي يمكن أن يحميك إذًا في هذا المجتمع؟ لا أحد.

تقول "ناتاشا": يجول السياح في الشارع منبهرين بأضوائه الحمراء ضاحكين تأتينا ضحكاتهم بينما نحن محبوسات كالكَلبات أسفل الكازينو.. أنّات بكائنا تسكتها الجدران الصماء من حولنا.. ثم يدخل علينا ذلك الرجل ويأخذ واحدة منا أو اثنتين لأن زبونًا ما يريدها.. الزبائن تكون لديهم الكثير من الخيالات الخاصة التي يريدون تطبيقها.. يمكنني فهم هذا.. لكن لو كان تطبيق تلك

الخيالات الخاصة سيكون ثمنه هو استغلال معاناة روح لا تملك من أمرها شيئًا فهذا شيء أبعد ما يمكن أن يكون عن الإنسانية.

تلك الصرخة الأليمة عادت فجأةً.. هناك شيء ما غاضب في هذه الأجواء لا أدري ما هو.. ربما هو تعبير عن غضب الله.. فحقًا لا أدري كيف تتواجد مساجد في حي أحمر كهذا.. جاءت الصرخة مرة أخرى.. صمت آذاننا حقًا هذه المرة.. لم نعد نسمع شيئًا.. "ناتاشا" تتحدث ولا نسمعها، هناك ذبذبات في الجو تأتي وتختفي.. لا بد أنها تلك الصرخة لكنا لم نعد نسمعها.. ولما جاءت ثانية لم نعد عند "ناتاشا".. بل أصبحنا في مكان آخر.

■ ■ ■

بيوت من الطين على طراز لم تره من قبل إلا في مكان لا تذكره.. أناس يرتدون ملابس لا تنتمي غالبًا لهذا الزمن.. نياق وحمير.. لا أثر لأي نوع من أنواع التحضر.. نسمع أذانًا خافتًا.. هل ما زلنا في تركيا؟ هذا مستحيل.. ثم إنه أذان غريب.. لا يصلنا عبر ميكروفونات.. لا تدري كيف يصلنا بالضبط لكننا نسمعه.. هل تدري أين نحن؟ نحن في مكة.. في السنة الأولى للإسلام.. نحن أمام بيت تزيد فيه القوة الروحية جدًا.. توجهنا ناحية البيت، قبل أن ندخل يجب أن تعرف أننا داخلون لبيت دعارة على طراز الجاهلية.. كانوا يسمون تلك البيوت "المواخير".. دخلنا من الباب.. نور النهار هو فقط من يضيء داخل البيت.. رائحة مركزة جدًا.. بالتأكيد هي رائحة الخمر، ففي هذه البيوت عادة تكون خمارات وعاهرات.. هناك رجل طويل عريض يبدو قويًا يقف أمام مجموعة من النساء المتزينات يصرخ فيهن.. لا يبدو أن أحدًا انتبه لوجودنا.. كان يقول لهن:

ما بالكن الآن.. تعطينني ما لايزيد عن دينار واحد لكل واحدة في ليلة كاملة؟

قالت إحدى النساء وكان اسمها "مسيكة" وكانت مسلمة:

هذا يكفي لهذا اليوم.. وكل يوم.. والله إني لا أفعلها بعد هذا أبدًا.

غضب الرجل غضبًا شديدًا وأمسك الفتاة من شعرها وضربها على وجهها.. كان هذا الرجل هو "عبد الله بن أبي بن سلول" أشد المنافقين نفاقًا.. وكانت الفتيات الست المتزينات أمامه هن جواريه.. وكان العرب في الجاهلية معتادين على أن يُجبروا جواريهم على البغاء بالأجر.. يعني يجبرونهن على الدعارة من أجل المال.. وإن رفضت الجارية كانت تُضرب ضربًا شديدًا حتى توافق.. وغالبًا ما كانت الجواري يجتمعن في مواخير معينة معروفة يضعون على أبوابها رايات معينة حتى يعرفها الناس.

أتاك نفس الشعور الذي أتاك في كمبوديا.. وفي أمريكا.. وفي تركيا.. حقًا إن الإنسان السافل هو الإنسان السافل في أي مكان وزمان.. ولا تتعجب وجود تلك المواخير في مكة في صدر الإسلام فلم تكن آيات تحريم الزنا وتحريم الخمر قد نزلت.. كانت "مسيكة" ما زالت تصرخ.. كانت تشعر أن هناك شيئًا خاطئًا فيما تفعل.. وكان "ابن سلول" ما زال يضربها.. فجاءت جارية أخرى تدافع عنها تدعى "أميمة" وقالت:

إن يك هذا الأمر خيرًا فلقد استكثرنا منه.. وإن يك شرًا فقد آن الأوان لنا أن نتركه.

لكن "ابن سلول" ضربها أيضًا حتى أدماها.. الآن فقط انتبهنا إلى باقي الجواري.. واتسعت عيوننا.. فهناك أمام "عبد الله بن أبي بن سلول" كانت ثلاث جوارٍ من الستة ينظرن إليه في خوف ثم ينظرن إليك نظرات مألوفة.. "سومالي مام" بوجهها الآسيوي النحيل ونظرتها المذعورة.. "باربرا أمايا" الأمريكية بنظرتها الحزينة.. وأخيرًا "ناتاشا رومانانكو" بشعرها الأحمر ونظراتها المستنجدة.. حقًا هذا العالم عجيب جدًا.. كيف أتين إلى هذا العالم وأصبح يضربهن "عبد الله بن أبي بن سلول".. برغم أن هذا العالم لا يخضع لأي قاعدة فإنه يعبر لك برموز شديدة الوضوح.. القوّاد والجاريات باختلاف الزمان والمكان.. ولم يزل "ابن سلول" يضرب الفتيات الست جميعًا وهن يصرخن حتى بدأت الأجواء تتذبذب وتهتز مع كل ضربة.

كانت "مسيكة" مسلمة، وكانت "أميمة" مسلمة، وكانت هناك جارية ثالثة تدعى "معاذة" هي أيضًا مسلمة.. و"ابن سلول" كافر يدعي الإسلام.. منافق.. بل سيد المنافقين.. ولقد أنزل الله في جواريه اللاتي يضربهن هؤلاء قرآنًا.. آية نزلت قبل حتى أن تنزل آية تحريم الزنا.. آية تقول "ولا تُكرِهوا فتيَاتِكم على البِغَاءِ إنْ أردنَ تحَصُّنًا لتَبتَغُوا عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنيَا ومَنْ يُكرِههنَّ فإنَّ اللهَ مِنْ بعدِ إكْرَاهِهِنَّ غفُورٌ رَحيمٌ".. أي أن الله لن يحاسبهن على ما أجبرتموهن عليه؛ لأنهن مُكرهات.. ولا يعتبرهن بغايا ولا زانيات أبدًا.. بل يحاسب الذي أكرههن.. لقد جاءتكن براءة من ربكن تغسل لكن ما تشعرن به من العار والألم.. ومن فوق سبع سماوات يشير إلى أن الحرية في القرار هي التي تحدد المذنب من غيره، فلو تم إجبارك على ما تفعل من ذنب فلا تعتبر مذنبًا.. وإنما يكون من أجبرك هو المذنب.

ظل "ابن سلول" يضرب وتتذبذب الأجواء حتى تبدلت الأرض والسماء كالعادة ووجدنا أنفسنا نتحرك ببطء على الدودة التي دخلنا بها أول مرة.. يبدو أننا سنخرج من هنا يا صديقي.. لقد وصلت الرسالة.

...

عادت بنا الدودة إلى حيث ما ابتدأنا أول مرة.. إلى تلك القاعة ذات النوافذ الكثيرة.. ووجدنا سكوربيون منهمكًا في بعض أعماله.. فلمّا رآنا قام وأتانا وهو مستبشر بنا.. ذهبت أنا وتمددت على الأريكة قليلًا ريثما يثرثر لك هو كما يحلو له.

لن تجدني أتحدث كثيرًا بين العوالم.. سأجعل سكوربيون هو الذي يثرثر معك دائمًا.. هذا أكثر راحة.



والآن تعال معي أيها الروح.. إنه دوري مرة أخرى لأختار العالم التالي.. تذكر أننا اتفقنا على هذا.. دعني أنظر مرة أخرى في النوافذ.. وابق أنت هنا.. هناك مسدسات وشخص يجري من حشد وامرأة قاسية تبدو غاضبة.. رجل يطير مع النقود ثم ينظر لنا باستفزاز.. منظر بديع للكون... قرود كثيرة.. أريد شيئًا مرعبًا.. سأختار هذا العالم هناك.. عالم ذلك الشيطان الذي يضحك ومعه ميكروفون.. إنه يبدو مثيرًا.. أنا أحب الشياطين.. هيا بنا إلى دودة القز الجميلة خاصتنا.

...



العالم الثاني

مهلًا.. أهذه "الكرولر" تسير بسرعة أم أنه يخيل إلي.. هل تشعر أن هذه "الكرولر" تتسارع كل ثانية؟

هل هناك خلل ما؟ السرعة تتزايد حقًا.

حاول أن تفعل شيئًا.. لقد أصبحت السرعة لا تطاق.

حرك أي شيء يمكن أن يتحرك في هذه الراحلة الغبية.. يا إلهي! أيها الأحمق.. نحن سنصطدم بهذا المبنى.. لا يوجد وقت للقفز بعيدًا.. انتبه!

مررنا من جدار المبنى بالكرولر وكأننا أشباح.. وكأن الكرولر هي الأخرى شبح.. أصبحنا داخل المبنى.. لم أعد أرى أمامي إلا كرولر تتحرك بسرعة محمومة على سلالم مبنى قديم طويل.. وتصعد.. ثم تستدير.. وتصعد.. هذه الكرولر ستقتلني يومًا ما.. إلى أين يأخذنا هذا الشيء؟ هناك أصوات تقترب بينما نستمر في الصعود.. اهدأ قليلًا حتى أركز.. أليست هذه أصوات شياطين؟ إنها تبدو مألوفة لي.. ألا تبدو مألوفة لك؟ هناك صوت حية.. ألا تميزه؟ إنها تحت قدميك.. لا ترفع قدمك هكذا.. لا تقلق هذا شيطان.. والشياطين لا تؤذي الأقدام.. إنه يصعد إلى رقبتك ويلتف عليها ويرفع رأسه بمواجهتك.. أنا أعرفه.. إنه "سيربنت".

لا تفزع هكذا يا رفيق.. لقد توقفت الكرولر.. بالنسبة للشيطان "سيربنت" فهو ليس مؤذيًا.. هيا ترجل عن هذه الراحلة.. ما زال أمامنا سلم واحد لنصعده بنفسنا.. هل تسمع صوت الشياطين بالأعلى؟ من قال أن "سيربنت" هو الوحيد.. ما زال هناك ستة غيره.

هذا العالم هو عالم الوهم والكذب والخداع والتضليل.. ضع هذه الكلمات كلها في كلمة واحدة واعتمدها اسمًا لهذا العالم.. الشياطين وجودها طبيعي هنا.. لكن هذه الشياطين التي نسمع صوتها بالأعلى تبدو مألوفة جدًا لي.. لقد أخذتنا أرض السافلين إلى داخل جو رواية أثارت جدلًا مؤخرًا.. أنتيخريستوس.

ليس هناك وقت لأشرح لك الموضوع.. لكن باختصار مخل أقول لك.. إن بطل الرواية "بوبي فرانك" يحبس نفسه في أعلى هذا السلم وراء هذا الباب.. وهناك سبعة شياطين عند الباب يطالبون برأسه.. إنهم يحاولون فتح الباب والدخول

إليه.. لكن يبدو أن "بوبي" يحجزهم عنه بتعويذة ما.. ليس هذا فقط بل إنه يسخرهم بتعويذة أخرى ليدخلوا إليه واحدًا واحدًا.. يحكون له ما يعرفونه من أسرار العالم.. وكلما دخل واحد خرج بعد حين ودخل الذي يليه.. لكن تعاويذه وتساخيره هذه مؤقتة ثم سيكسرون عليه بابه بعد قليل وسيقطعون رأسه ورأس كل من يستمع إليه.. فإنما هو يؤخرهم حتى حين.. حتى ينهي ما يريد أن ينهيه بالداخل.. لا تفتح فمك هكذا.. اتفقنا أن هذا اختصار مخل.. دعنا فقط ننهي ما أتينا هنا لننهيه.. المفترض أننا سنمر من بين هذه الشياطين كلها لندخل إلى"بوبي فرانك" في غرفته.. لأن هناك أوراقًا في رواية أنتيخرستوس بقيت عند "بوبي" واحترقت معه ولم تنشر.. ونحن هنا لمعرفة فحوى تلك الأوراق.

هل يمكنك أن تمسك هذا الشيطان المتعلق برقبتك وترمي به بعيدًا الآن؟ حتى يمكننا أن ندخل على الأقل.. هناك سبعة شياطين ينظرون لنا بينما نمر من بينهم.. لكن هؤلاء ليسوا كل شياطين أنتيخرستوس.. فهناك شيطان ثامن تم ذكره فقط في الأوراق التي احترقت.. وهذا الشيطان الثامن موجود الآن بالداخل عند بطل الرواية.. وإننا لا بد أن ندخل الآن حتى نعرف حكايته بأنفسنا.

رائحة عطنة قابلتنا لمّا دخلنا.. شموع.. غرفة صغيرة غير مرتبة.. شاب يعطينا ظهره ويجلس على طاولة صغيرة ينهمك في كتابة شيء ما.. "بوبي فرانك".. هذا هو.. لقد دخلنا في قلب عالم هذه الرواية الآن..

كان بوبي يكتب..

ما زلت لم أنتهِ بعد.. بل إنني لم أصل حتى إلى نصف ما أريد.. سيكون حظي وافرًا لو أمكنني أن أحدثك بكل ما علمت.. وسيكون حظك وافرًا لو وصلك حديثي كاملًا.. لدينا الآن ورقة واحدة فقط.. ورقة الإعلام.. وعليها صورة تلفاز ضخم عليه صورة رجل يبدو أنه مذيع.. وأمام التلفاز الضخم يحتشد عشرات الرجال والنساء يسمعونه في انبهار.. ورغم أنها ورقة واحدة فإن مقامها مقام عشر أوراق.. أو أكثر.. يكفي أن تعرف أن الشيطان الذي سيحدثنا عنها هو "ديكوي".. ها هو "ديكوي" قد أتى.. بحلة سوداء وشعر أسود مصفف وقفاز أسود.. كل شيء فيه أسود.. أنيق.. له ملامح وسيمة جدًا.. يبدو مهيبًا.. فلنستمع إلى هذا الكيان الآتي.

■ ■ ■

أنا الخدعة التي تخدعك كل مرة وتستغفلك كل مرة.. وتصدقها كل مرة.. لشدة بلاهة منك.. أو لشدة ذكاء مني.. أنا العصابة الموضوعة على عينيك.. والتي

تسمع من بعض الناس أنها موجودة لكنك لا تهتم.. ولا تصدق.. أنا السجن الذي دخلت فيه بقدميك وأعطيتني المفتاح.. السجن الذي لا ترى له قضبانًا.. السجن الذي يسجن عقلك.. وإني لست بمخرجك منه بعد إذ دخلته.. وإنك لست براغب في الخروج.. لأنك إمعة.. لا رأي لك ولا فكر.. وإن ظننت أنك صاحب رأي.. فرأيك هو رأيي أنا الذي لقنتك إياه.. أنا أحب أن أفعل هذا بك.. أحب أن أسوقك ورائي كالجرو.. فإذا نبحت وارتفع صوتك أرمي لك شيئًا لتجري وراءه ويلهيك.. فتكف عن النباح.

أنت محظوظ اليوم لأنك أصبحت تملكني.. بتعويذة من تعاويذ "بوبي فرانك" التي لا أدري من أين يأتي بها بالضبط.. محظوظ لأنني أنا - صاحب السجن - سأضع يدي في جيبي اليوم وأخرج ذلك المفتاح الذي أعطيتنيه من قبل وأفتح لك.. وأحررك من هذه القضبان كلها.. وآخذك معي لترى ما غفلت عنه أو تغافلت عنه.. أو أغفلتك عنه أنا وصدقتني.

تعال معي إلى جبال روكي.. أجمل جبال في العالم.. متع بها ناظريك.. فإني آخذك إلى جوفها.. إن هذه الجبال هي كنوز.. فمثل أنها تحف تزين وجه الأرض.. فهي تحمل في جوفها منافع لولاها لما قامت أمريكا على أقدامها ولما صار لها قيمة ووزن.. اليوم سأريك كنزًا واحدًا من كنوز جبال روكي.. هذا الكنز هو الفحم.. هنا يرقد وقود أمريكا.. في نهايات القرن التاسع عشر.. أيام كان الفحم هو الوقود قبل أن يأتي البترول.. كانت هناك عدة شركات كبيرة تعمل على استخراجه من مراقده.. وأهم وأقوى هذه الشركات كانت شركة CF&I.. إحدى شركات الروكيفيلر.

ورغم أن الروكيفيلر كانت ولا تزال لديهم مساوئ عدة.. فإن تلك الفترة وحدها من تاريخهم.. كانت مضيئة.. بسبب شخص واحد كان يملك الشركة وقتها خلفًا لأبيه.. وكان يختلف عنهم كثيرًا في الأفكار والتوجهات.. كان يدعى جون دي روكيفيلر جونيور.. ولا يختلف اثنان على أن جون دي جونيور هذا هو واحد من الأركان التي قامت عليها أمريكا في ذلك الوقت.

لم يكن على طراز الروكيفيلر السابقين واللاحقين.. كان مُحسنًا كريمًا.. الفقراء يصيبون كثيرًا جدًا من ماله الوفير.. متواضعًا يجالس العمال البسطاء ويهتم بشؤونهم الصغيرة البسيطة.. وكانت لديه عين رجل أعمال تقتنص الفرصة حين تراها.. ولا تتركها حتى تحولها إلى ثروة.. قرأ الرجل يومًا نبأ اكتشاف أحد

عروق الفحم في جبال روكي في كولورادو.. فأنشأ فورًا شركة CF&I لتستخرج الفحم من تلك العروق.

بسبب هذه الشركة وعملها في ذلك الوقت تم توظيف عشرات آلاف الرجال.. ولم يكن يُفرق في التوظيف بين أبيض أو أسود أو هندي أو مكسيكي.. كان يوظف الكل ويهتم بالكل.. وليشجع الرجال على العمل.. كان يعطهم أجرًا على قدر ما يستخرجه كل رجل منهم من الفحم.. كان الواحد منهم يعمل ساعات طوال بلا مشاكل عالمًا أن أجره سيكون على قدر تعبه.. حتى إن كثيرًا من الرجال أصبحوا يشجعون أطفالهم على العمل معهم.

تعال لنقترب من موقع عمل هؤلاء العمال.. أريد أن أريك شيئًا.. انظر إلى هذه المساكن المتجاورة هناك.. هذه مساكن خاصة بناها الروكيفيلر لأجل عماله.. مساكن دافئة وواسعة وحديثة.. من كثرتها تشعر أنها مدينة صغيرة.. لديهم محلات خاصة بهم هنا.. كل شيء فيها رخيص.. فلا يحتاج الواحد منهم أن يشتري من مكان آخر.. تعال من هذه الجهة وحاذر جيدًا.. فقد تأتيك رصاصة في رأسك بينما نمر.. لا تتعجل التفاصيل.. فقط اخفض رأسك وتعال من هنا.

هل ترى هذه المخيمات هناك على الجهة المقابلة للمساكن؟ هذه المخيمات هي بداية قصة دموية بعض الشيء من تاريخ أمريكا.. قصة تدعى مذبحة ليدلو.. عندما قرر مجموعة من العمال في مناجم الروكيفيلر عمل إضراب عن العمل لأنهم يريدون زيادة في حصتهم التي تعطى لهم مقابل الفحم.. لم تكن هذه مشكلة.. من حق أي عامل أن يطالب بزيادة في دخله.. ومن حق أي عامل أن يبدأ إضرابًا.. لكن هؤلاء لم يكن الإضراب الذي فعلوه إضرابًا عاديًا.. لقد كان إضرابًا مسلحًا.

خرجوا من مساكن الشركة وقرروا أن يبنوا خيامًا هناك في تلك الجهة ويسكنوا فيها.. المشكلة أنهم بنوا هذه الخيام لتعترض طريق الموظفين العاديين.. فلم يكن يستطيع أحد أن يدخل أو يخرج من الشركة إلا بعد المرور على خيامهم هذه.. وكلما مر موظف عادي من أمامهم ضايقوه.. ودعوه للانضمام إليهم.. وإذا رفض شتموه وأطلقوا عليه النار ليخوفوه.. وإذا رد عليهم ردًا لا يعجبهم قتلوه.. كانوا ببساطة عصابة يرأسهم رجل يدعى "لويس تيكاس".

كانوا متوحشين.. وفورًا اتصل جون دي روكيفيلر بالحكومة وطلب إرسال حرس وطني خاص لحماية عماله.. وبالطبع تجاوبت معه الدولة على الفور

وأرسلت فرقة خاصة من الحرس الوطني لتحرس الموظفين الداخلين والخارجين من الشركة.. وكانت هناك محاولات للتفاوض مع هؤلاء العمال المضربين المتوحشين بكل الطرق ولكن كلها باءت بالفشل الذريع.

كانوا إذا ملوا من الجلوس في الطرقات هكذا خرجوا في مظاهرات في شوارع المدينة.. يشتمون في الروكيفيلر.. وتقودهم امرأة يسمونها الأم جونز.. كانت صاحبة بيت دعارة شهير في كولورادو.. ولم يكن هذا غريبًا.. فدائمًا أصحاب السوء يكون بعضهم عونًا لبعض.. كان الحرس الوطني الذي عينته الدولة حذرًا جدًا في التعامل معهم.. لأن معهم نساءهم وأطفالهم في تلك الخيم.. ثم جاء اليوم الموعود.. يوم مذبحة ليدلو.. حقًا لم يكن جلوسهم في خيامهم هكذا وتصرفاتهم العدوانية تبشر بأي شيء أفضل مما حدث في ذلك اليوم.

في ذلك اليوم وجد الحرس الوطني جثة موظف من موظفي الشركة مقتولًا ببشاعة ومخبأ وراء إحدى الزوايا.. غضب الحرس الوطني وانطلقوا بسياراتهم ناحية الخيام ليحققوا في الأمر.. فقابلتهم رصاصات من المضربين المسلحين.. فجرح كثير من رجال الحرس الوطني الذين اتخذوا ساترًا وتبادلوا إطلاق النار مع المضربين.. كانت معركة راح ضحيتها كثير من الرجال.. لكن ليس لأجل هذا سميت مذبحة ليدلو.. بل لأجل شيء آخر.

فهناك في إحدى الخيم.. وفي أوج القتال بين الطرفين.. وفي أوج الشد والجذب.. انقلب أحد المواقد.. نعم لقد كان هؤلاء المضربين مغفلين كفاية ليضعوا مواقدهم بداخل خيامهم.. فلمّا انقلب الموقد أمسكت النار في قماش الخيمة واحترقت الخيمة.. ولمّا انفض القتال في ذلك اليوم.. تم رفع هذه الخيمة.. فوجدت بداخل الخيمة حفرة.. وداخل الحفرة يرقد أحد عشر طفلًا متفحمًا.. لأجل هذا سميت بمذبحة ليدلو.

خرجت مظاهرات عنيفة جدًا بعدها في الشوارع.. الكل حمّل شركة الروكيفيلر مسؤولية موت الأطفال.. لكن أحدًا من الذين يتهمون الشركة لم يكن يعرف حقيقة ما حدث كما حدث.. الكل كان يلقي الاتهامات جزافًا هكذا.. تعال لأريك موقع المظاهرة التي خرجت هناك في شوارع كولورادو.

■ ■ ■

ذهب بنا "ديكوي" الشيطان الوسيم إلى حيث موقع المظاهرة الحاشدة.. كان فيها ألف من البشر أو يزيد.. الكل يهتف هتافات غاضبة جدًا.. كل المتظاهرين

عمال.. لقد استغل أولئك المضربين المتوحشين موت الأطفال في استدرار عاطفة العمال الآخرين في جميع شركات الفحم.. وخرج الكل في مظاهرة صارخة غاضبة.. حاول ألا تضيع مع الزحام يا فتى.. أبق عينك على "ديكوي" بملابسه السوداء المميزة.. الكل هنا غاضب جدًا.. لكن مهلًا.. من هذا بالضبط؟

كان هناك شخص يمشي مع المتظاهرين يرتدي ملابس عجيبة جدًا.. لكنها موحية جدًا.. كان يرتدي قناعًا احترافي الشكل ورداءً غريبًا وقبعة غريبة.. كان القناع حزينًا نوعًا ما.. نظر إلينا ونظر إلى "ديكوي".. ثم مد لنا يده في الهواء ببطء.. لم نفهم ماذا يريد.. يبدو أنه يريد الإمساك بيدي.. مددت له يدي أنا أيضًا.. قبل أن أمسك بيده سمعت صرخة "ديكوي" يحذرني بصوت عالٍ.. لكني كنت قد أمسكت يد المقنع غريب المنظر بالفعل.. ولمّا التقت يده بيدي تجمدت يدي وتجمدت يده وتجمد ديكوي.. وتجمد كل شيء حولنا.

حتى المتظاهرون تجمدوا على أوضاعهم.. وظل الوضع على تجمده هذا لثانية ثم بدأت الأجواء تتقشر من حولنا.. تتقشر هي أدق كلمة تصف ما يحدث حولنا الآن.. كل شخص وكل مبنى حولنا أصبح يتقشر.. وكأنه يزول عنه سطحه وينسلخ.. وتتصاعد القشور إلى السماء.. نظرت إلى من أمسكت بيده فوجدته كما هو لم يتقشر منه شيء.. وأنت كذلك كما أنت.. وأنا كما أنا.. ثم رأينا شيئًا مفزعًا.

كانت الدنيا قد أظلمت بعد هذا التقشير الذي حدث.. والمباني كلها قد انسلخت عنها واجهاتها المدهونة وعادت إلى طور الطوب الأحمر.. واختفى المتظاهرون كلهم.. لم أعد أرى سوى "ديكوي".. نظرة واحدة إلى وجهه أفزعتني أشد الفزع.. لقد تغير الوجه الوسيم إلى وجه شيطان رجيم غاضب ينظر إلى هذا الانسلاخ بغيظ.. شدني ذلك المقنع من يدي وتحرك وتحركنا معه بعيدًا عن "ديكوي".. قال لنا صاحب القناع الحزين:

أليس قد قيل لكم في البداية أن هذا الشيطان هو شيطان الوهم والتضليل.. لماذا مشيتم معه؟ وبدا أنكم مصدقوه.. إن كل ما أخبركم به كذب.. أنتم في أرض الإعلام.. وديكوي هو شيطان الإعلام.. ملك ملوك التضليل.. ألم يقل لكم في أول كلامه أنه هو الخدعة التي ستخدعكم كل مرة وستصدقونها كل مرة؟ إن لم تكونوا وجدتم واحدًا منا كان سيسمم عقولكم أكثر.. لقد خلصتكم منه.. والآن سأترككم هنا وأمضي.. لكن احذروه.. لا تجعلوه يخدعكم مرة أخرى.

قلت له:

مهلًا يا هذا.. أين نحن بالضبط؟ وماذا حدث لأجواء العالم؟

قال لي بهدوء:

لقد انسلخت قشور الكذب والتضليل عن العالم وأصبحت ترى حقيقة كل شيء.. أنت في عالم الحقيقة الآن.

سألته:

ولماذا عالم الحقيقة مظلم هكذا؟

أجاب قائلًا:

لأنهم أظلموا الحقيقة يا صديقي وأخفوها وضيعوها.. وأظهروا الكذب وزينوه وحسنوه ودعوا له.. لم يعد يعرف الحقيقة إلا من يسعى إليها.. أما الذي يسترخي ويتلقى مثلما يتلقي المتلقين من الإعلام فهو لا يصيب إلا الكذب.

كان يتهيأ للرحيل فقلت له:

من أنت بالضبط؟

نظر لي بغموض ثم انطلق إلى إحدى ثنايا هذا العالم المظلم.. نظرنا حولنا.. هل هذا عالم الحقيقة الآن؟ سمعنا أصوات معاول تضرب في الصخر بذلك الرنين المميز للمناجم.. كانت الأصوات تأتي من قريب.. تعال لنتجه ناحيتها.. مشينا حتى واجهنا جبلًا عظيمًا تحته كهف كبير وأمامه بعض المعدات.. دخلنا من الكهف.. رجال كثر يضربون باطن الجبل بمعاولهم ليخرج لهم ما يريدونه منه.. فور دخولنا ركض ناحيتنا كثير من الأطفال الصغار.. يغشى وجوههم غبار الفحم.. حتى تبدو عيونهم لامعة بشكل مميز.. وقفوا أمامنا صفًا متجاورين يغشى وجوههم الحزن.. قال لنا أحدهم:

هل أنتم المسعفون؟ نحن نريد مسعفين.. إن والد هذا الفتى مات.. هل يمكنكم إعادته إلى الحياة؟

تجاهلت إجابة سؤاله البريء وقلت:

وكيف مات يا عزيزي والدك؟

قال الفتى:

اختنق.. لم نعد ندري ماذا نفعل لنوقف هذا.. يموت كثير من آبائنا في المناجم.. الاختناق أو الانفجار.. أو الـ...

فجأةً سمعنا صوتًا كأنه صوت كارثة ستحل فوق رؤوسنا.. ثم تبين لي أنه صوت انهيار.. كان في الناحية التي يعمل فيها العمال بمعاولهم.. هرب بعضهم لكن الباقين سحقتهم الصخور.. قال الفتى:

أو الانهيار.

ثم قال طفل آخر:

خمسة من آبائنا يموتون على الأقل كل يوم.. ولنا سنة كاملة على هذا الحال.. هل أنت يا سيدي أتيت لتصلح هذا الوضع؟

قلت له:

خمسة رجال يموتون كل يوم منذ سنة.. ولماذا يستمرون في العمل إذًا؟

قال لي رجل من ورائي:

ومن قال أننا سنستمر.. نحن سنبدأ إضرابًا كبيرًا.. نطالب فيه شركة الروكيفيلر بتأمين سلامة عمالها لأننا لسنا حيوانات.

قلت له:

لكني سمعت أن الروكيفيلر هي أكثر شركة تحسن إلى عمالها ولهذا يأتيها العمال من كل الجنسيات.

نظر لي بدهشة حقيقية وكأنني قلت شيئًا عجيبًا أو أحمقَ وقال لي:

نحن نعمل أربع عشرة ساعة في اليوم يا عزيزي كل يوم بلا راحة ونحصل على دولار ونصف في اليوم.. حاجاتنا العادية الأساسية لا نقدر عليها.. ولا نأخذ أجرنا نقودًا.. بل نأخذه إيصالات لا يمكننا أن نستخدمها إلا في متاجر الشركة الموجودة في مساكن الشركة.. أي أنه حتى هذه النقود القليلة لا يمكننا أن نستخدمها خارج السكن.. يموت منا كل يوم خمسة رجال.. يزيدون أو ينقصون.. الخلاصة أننا نعيش في حظيرة حيوانات نعمل فيها ويلقون لنا علفًا فقط حتى نقوى على العمل.

وما الذي يجبركم على البقاء يا رجل؟ فقط اذهبوا وابحثوا عن عمل آخر.

لا يستمر معظمنا في العمل.. وبالفعل نبحث عن عمل آخر.. ولكن يأتي بدلًا ممن يغادر عمال آخرون مستجدون لا يعرفون الحقيقة، ثم يكتشفونها مع الوقت فيغادرون.. لذلك فكرنا في أن نعمل إضرابًا شاملًا.. كل العمال يمتنعون عن العمل ونعلن جميعًا أن لنا مطالب.. تأمين سلامتنا.. زيادة نقودنا.. تحديد

ساعات العمل بثمان ساعات فقط.. منع أسلوب الإيصالات تمامًا.. لا بد أن نقف وقفة واحدة معا لإنهاء طمع الروكيفيلر وشركات الفحم الأخرى التي تسير على ما يسير.

سمعنا صوتًا ينذر بكارثة.. هذه المرة هرب الجميع من الجبل بعيدًا.. ولحقنا بهم.. خرجنا من الجبل ونظرنا فلم نجد أحدًا ممن كانوا بالداخل.. أين ذهبوا بالضبط؟ هل اختفوا؟ سمعنا صوت صياح حشود يأتي من مكان قريب.. نظرنا فإذا هي مظاهرة حاشدة يمشي فيها كثير من الرجال والنساء والأطفال.. توجهت المظاهرة ناحيتنا ورأيت الأطفال الذين كانوا في المنجم يتقدمون مني ويعطونني إحدى اللافتات.. ثم يمشون أمامي مجتمعين كلهم حول امرأة واحدة ترتدي رداءً أسودَ وقبعةً سوداءَ وتصيح في حماس ويصيح الكل معها.. من هذه؟ قال لي أحد الرجال بجواري:

إنها الأم جونز.. الكل هنا يعتبرها والدة له.. انظر نظرة واحدة إليها وستعرف لِمَ يسمونها بالأم جونز.. لقد وهبت حياتها كلها للدفاع عن حقوق العمال والأطفال العاملين.

تقدم أحد الصحفيين من الأم جونز وقال لها:

أيها الأم جونز.. لماذا لا تتحدثين عن مشاغبات العمال.. لماذا تتخذين دائمًا جانبهم؟

قالت له الأم جونز:

وأنتم أيها الصحفيون لماذا لا تتحدثون عن عمل الأطفال في الطواحين؟ لماذا لا تتحدثون عن الأطفال الذين تحطمت أيديهم من العمل؟ لماذا لا تتحدثون عن استغلال أصحاب الشركات لهم؟

قال الرجل:

لأن أصحاب الطواحين لديهم أسهم في الصحف يا أم جونز.

قالت له الأم جونز بثورة:

وأنا لدي أسهم في هؤلاء الأطفال.. وسأعرف كيف أجعل قضيتهم معروفة للجميع.

فرق بينهم الحشد وظللنا نمشي في المظاهرة حتى انفضت وتفرق الجميع وبعضهم يسلم على بعض.. فرغت الأجواء من الحشود.. ونزل الليل كأنه عباءة سوداء لفت كل شيء.. ووجدنا أنفسنا عند مخيمات العمال المضربين.. كنا في

الليل ومعظم الساكنين يجلسون خارج خيامهم.. وهناك رجال يعزفون في المنتصف موسيقى ريفية جميلة ورجال آخرون يرقصون مع نسائهم وأطفالهم بطريقة ريفية.. لا يبدو هؤلاء الناس كالعصابات.. ولا أرى عندهم أسلحة.. انتبه أحدهم لنا.. فقام من مجلسه ورحب بنا ودعانا لنجلس بجواره.. كان لديه بنتان صغيرتان جاءتا إلينا ببعض الحلويات.. هممت بأكل الحلوى لكن صوت سيارة تمشي مسرعة وغاضبة قطع علي الأجواء فنظرت ونظر الجميع بهلع ودخلوا إلى خيامهم في رعب.. قال لنا الرجل الذي استضافنا:

تعاليا إلى الداخل بسرعة.. إنها قوات الـBeldwin Felts.

دخلنا إلى الخيمة البسيطة ولاحظنا أن امرأة الرجل وبنتيه قد دخلا في حفرة بداخل الخيمة.. قال لنا الرجل:

اختبئا هنا في هذه الحفرة.. إن الـ...

قطع حديثه صوت طلقات رشاش غزيرة جدًا تضرب الخيام بعشوائية.. قفزنا في الحفرة وقفز الرجل وراءنا بسرعة.. ورأينا الرصاصات تخترق خيمة الرجل وتضرب أثاثه البسيط.. قلت للرجل بعصبية:

من هؤلاء القوات بالضبط؟

قال الرجل:

إنهم الحرس الخاص للروكيفيلر.. وهم يأتون في بعض الليالي بسيارتهم المسلحة ويضربون طلقات في الهواء هكذا بعشوائية لإخافتنا وإرعابنا.. حتى نفض هذا الإضراب.. لكننا ثابتون على موقفنا رغم هذه المخاطر.. لا بد أن يعترفوا بحقوقنا وحقوق كل عمال الفحم في أمريكا.

سكت صوت السيارة وكأنها ابتعدت.. وخرجنا بحذر من خيمتنا.. سمعنا صوت نحيب أم بالجوار.. لقد أصابت واحدة من الرصاصات الطائشة هذه ابنها "شنايدر" فصارت تبكي قهرًا ودمًا وتصرخ باسمه وتنظر إلى السماء ثم تنظر إلى الرجال.. الذين نمت لديهم موجة رهيبة من الغضب والرغبة في الانتقام.. ودارت بينهم مناقشات حامية حضرناها كلها.. انتهت في النهاية إلى أنه يجب أن تكون لهم أسلحة يدافعون بها عن أنفسهم.. لا بد أن يحموا نساءهم وأطفالهم من هذا الشر.. ارتفعت أصوات تطالب بالتخلي عن الإضراب وفض كل شيء.. لكن كانت هناك أصوات أكثر تصر على التمسك بالقضية حتى النهاية حتى يصل صوتهم إلى من بيده تنفيذ هذه المطالب.. لأجل جميع عمال الفحم في أمريكا.

شعرت بيد صغيرة تشدني من ردائي فنظرت ورائي.. فإذا هم نفس المجموعة من الأطفال الذين رأيتهم في المنجم.. كان أحدهم يقول لي:

أيها السيد.. إن هؤلاء المسلحين يقتلوننا كل يوم.. هل ستوصل صوتنا إلى من يحمينا؟

إن هذا الطفل يظنني شيئًا مهمًا.. لكن معه حق على أية حال.. إن توصيل رسالة مظلوم في الوقت المناسب إلى الرجل المناسب قد تمنع كارثة كبرى.. لكن هؤلاء أوصل أصواتهم إلى العالم شيء آخر.. شيء بشع.. مرة أخرى سمعت صوت سيارة مسرعة.. بل عدة سيارات هذه المرة.. وعدة رجال مسلحين.. وآلاف من الطلقات العشوائية في الهواء وعلى الخيام.. لكن هذه المرة كانت مختلفة.. هذه المرة كان هناك رد من العمال بالأسلحة.. وكانت المعركة.. أين ذهب الأطفال الذين كانوا أمامي؟ لا بد أن يحميهم أحد.

نادانا رجل من جانبنا وقال لنا:

أنتما أيها الغريبان.. لا تخاذل اليوم.. الأطفال في خطر.. خذوا هذه الأسلحة وشاركونا.

رمى لنا ببندقيتين.. التقطناهما واتخذنا ساترًا.. وبدأنا نطلق نحن أيضًا على الحرس المعتدين.. لاحظت أنه ليست لديهم رحمة.. إنهم هنا للقتل.. رأيت كثيرين يتساقطون حولنا من العمال.. المساكين كانوا مبتدئين في القتال.. ليسوا مثل الحرس المدربين جيدًا.. كما أن بنادق الصيد التي معنا هذه ليست مثل الرشاشات التي معهم.. كانت معركة غير متكافئة.

ثم رأينا أحد الحرس وهو يخرج من موقعه ويرمي بشيء مشتعل.. هذا المجنون.. الخيام.. احموا الخيام.

اصطدم هذا الشيء المشتعل بإحدى الخيام فبدأت تشتعل.. كان مشهدًا مرعبًا.. أسمع صرخات أطفال ونساء من داخل الخيمة.. كل من حاول أن يتخلى عن ساتره واتجه ناحية الخيمة أتته نيران رشاشات الحرس.. لماذا لا يهرب الأطفال من الخيمة المحترقة؟ لماذا هم فقط يصرخون بالداخل؟ لم أتحمل أن أظل مستترًا هكذا طويلًا فانطلقت أنا أيضًا من مكاني وجريت ناحية الخيمة بسرعة.

قطعت بضع خطوات محظوظة باتجاه الخيمة.. لم يصبني وابل نيرانهم.. أصبحت أستطيع رؤية ما بداخل الخيمة.. كان الأطفال في الحفرة التي بداخل الخيمة.. وهناك حديد يغلق عليهم الحفرة.. وهناك شيء ما يمنع الحديد من أن

يفتح مهما دفعه الأطفال.. والنيران قد أوقدت كل شيء حولهم في الخيمة.. رأيت وجوههم البريئة المرتعبة.. إنهم هؤلاء الأطفال الذين رأيناهم في المنجم أول مرة.. كان العمال قد وضعوا هذا الحديد على الحفر لمزيد من الحماية لكن يبدو أنه تحول إلى سجن.. قال لي أحدهم:

أيها الغريب انقذنا أرجوك.. أيها الغريب.

خانني الحظ وأصابتني عدة طلقات في أماكن متعددة في جسدي.. سقطت على الأرض وشاهدت مشهدًا من أبشع المشاهد وأنا ساقط.. مشهد النيران التي تلفح وجوه الأطفال وهم يمسكون بعضهم ببعض ويحاولون الابتعاد عنها والالتصاق بالحوائط.. وميزت أن هناك امرأتين معهما أيضًا تصرخان وتحاولان فتح الحديد بلا جدوى.. بدأ وعيي ينسل مني حتى انطفأت الرؤية من عيني ولم أعد أرى شيئًا وصار رأسي يدور وكأنه يتزل إلى أعماق الأرض.. حتى فقدت الوعي.

▪ ▪ ▪

ثم تراءى لي ما يشبه الحلم.. رأيت "ديكوي" الشيطان بوجهه الوسيم وهو يقف بجوار بعض الرجال الجالسين على مائدة.. اقتربت كاميرا الحلم الذي أحلم به من وجه ذلك الرجل الذي يقف "ديكوي" بجواره.. فظهر اسمه مكتوبًا بالخط الأبيض الكبير تحته.. "إيفي لي".. وبين قوسين (إيفي السام).. يبدو أنه ليس رجلًا جيدًا.

كان يجلس على رأس المائدة جون دي روكيفلر جونيور.. قال له إيفي السام:

أنت يا سيدي قد أصبحت أكثر شخص مكروه في أمريكا كلها بعد أحداث ليدلو.

قال رجل من الجالسين:

المظاهرات تخرج تقريبًا كل يوم.. كلها شتائم فيك سيدي جون دي.

قال إيفي السام:

لهذا يا سيدي أنا هنا.. لإصلاح هذا الأمر.. وتحويلك من أكثر شخصية مكروهة في أمريكا إلى أكثر شخصية محبوبة فيها.

قال له "جون دي":

وكيف ستفعل هذا بالضبط؟

قال إيفي السام:

البروباجاندا.. تغيير رأي حشود كثيرين من البشر.. تغيير الصورة التي يحتفظون بها في خيالهم لشيء تمامًا فتتحول إلى صورة معاكسة.. هذا تخصصي.. أنا أسميه Public Relations.

قال "جون دي" باستهزاء:

هل لديك عصا ساحر توجهها ناحية الحشود فتتغير آراؤهم؟

قال إيفي السام بلهجة من يعرف ما يتحدث عنه:

بل لدينا "ديكوي".

في هذه اللحظة ارتفعت قدما "ديكوي" من على الأرض وطفا في الهواء.. فرجع الجالسون بمقاعدهم خوفًا وتحفزوا.. قال إيفي:

إن "ديكوي" هو سيد الإيهام والتضليل.. أنت لن تفهم ما هو "ديكوي" إلا عندما تراه يعمل.

سمعنا ضربات عنيفة جدًا على الباب وكأن أحدًا يحاول كسره من الخارج.. ولم تمض ثانية واحدة إلا وانكسر الباب وظهر وراءه أناس كثيرون في غاية الغضب يبدو أنهم من المظاهرة.. أول ما رأوا "جون دي" جن جنونهم أكثر وخطوا إلى الداخل بطريقة هجومية غاضبة.. ثم انكسر زجاج الغرفة الذي يطل على الخارج ودخل متظاهرون آخرون يبدو أنهم تسلقوا المبنى حتى وصلوا للغرفة.. فزع الجالسون كلهم ولم يستطِع أحد القيام من مجلسه ورفع المتظاهرون أياديهم بأخشاب وفؤوس وعمدان عازمين على تحطيم رؤوس الجالسين الذين غطوا وجوههم بأيديهم.

مرت ثانية واثنتان وثلاث.. ثم أبعد الجالسين أيديهم عن أعينهم ونظروا حولهم فلم يجدوا أحدًا من المتظاهرين.. ووجدوا الباب مغلقًا والزجاج سليمًا نظيفًا بلا خدش.. قال إيفي السام:

كل ما رأيتموه وهم.. أتاكم به صانع الوهم.. ديكوي.. وهو سيفعل المثل مع جموع البشر الذين يكرهونكم في الخارج.. إنه يستخدم البروباجاندا.. وآلة البروباجاندا في زماننا هذا هي الصحف.. مقالات مكثفة تكتب في جميع الصحف تحكي قصة مختلفة تمامًا عما حدث في ليدلو.. قصة تجعل الناس يكرهون العمال ويرونهم مثلما يرى الشخص العادي العصابات.. إن تكرار سماعك وقراءتك للكذبة من عدة مصادر في نفس الوقت وبشكل مكثف يجعلك تصدق

الكذبة في النهاية.. ليس هذا فقط بل أنت ستدعو لها.. ستصير بوقًا من أبواقها.. هذه هي البروباجاندا.. هذا هو ديكوي.

نظرت إلى "ديكوي" الذي كان طافيًا في الهواء.. لكن عينيه الساخرتين توجهتا ناحيتي فجأةً وصار يطالعني أنا في عيني مباشرة.. ثم تحرك إليّ طفوًا في الهواء.. تراجعت في رعب واستيقظت على الفور.. نظرت حولي.. رأيتك تجلس بجواري في مشفى ما تنتظرني أن أفيق.. يا عزيزي أين نحن؟ لقد خدعنا "ديكوي".. خدعنا الإعلام.. كل ما ذكر في الصحف في تلك الفترة عن مذبحة ليدلو وعن الروكيفيلر كان كذبًا.. بروباجاندا.. وقد آتت ثمارها جيدًا.. لكن لحظة.. أين نحن؟ هل انتقلنا بالزمن؟ أنا أرى جهاز تلفزيون أمامنا في المشفى.. أيام ليدلو لم يكن هناك تلفزيون.

. . . . .

أمسكت بجهاز التحكم الخاص بالتلفزيون وشغلته لعلي أرى فيه ما يفيدنا.. كان ما تعرضه الشاشة عجيبًا.. كانت تعرضني أنا وأنت في جلستنا هذه وكأنها كاميرا مراقبة.. غيرت القناة.. وفور أن غيرتها تغيرت أجواء المشفى الذي كنا فيه لتصبح الأجواء حولنا هي الأجواء التي تعرضها القناة التي غيرنا إليها.. كانت القناة تعرض مشهدًا طبيعيًا فيه أنهار وشلالات.. ونفس المشهد كان حولنا في الحقيقة بنفس تفاصيله.. غيرت القناة مرة أخرى.. أجواء حرب ودبابات.. صارت الأجواء كلها حربًا ودباباتٍ وأصواتًا تصم الآذان.. غيرت القناة مرة أخرى.. يا إلهي! حاذر رأسك.. إنه الـ....

انفجار كبير ضخم مع صوت اصطدام رهيب أتى من فوق رؤوسنا.. وضعنا أيدينا في آذاننا وأسرعنا الخطى مبتعدين غير قادرين حتى على النظر لأعلى لنفهم ما هذا.. لا يهم ما هي الكارثة التي فوق رأسك.. المهم أن تجد وقتًا للهرب.. الكثير يصرخون حولنا وينظرون للأعلى ويركضون مبتعدين ومن نراهم على بعد منا يشيرون إلى ما يحدث فوقنا برعب.. لقد عرفت الحادثة فور أن رأيتها في التلفزيون.. إنها حادثة سبتمبر الحادي عشر.. اصطدام الطائرات ببرج التجارة العالمي في نيويورك.

■ ■ ■

إن أقل رد فعل طبيعي لأي إنسان يرى المشهد على الواقع هو أن يصرخ.. لذا فالشارع كله حولنا تحول إلى صرخات.. رفعت رأسي لأعلى فرأيته.. برج التجارة العالمي الشمالي.. كان واقفًا بقامته المرتفعة المعهودة ويتصاعد الدخان من شق في رأسه.. يا إلهي! انظر.. هناك أناس يتساقطون من البرج.. هل ينتحرون؟ لماذا لا

ينتظرون الإنقاذ؟ ثم وصل الإعلام ورجاله وكاميراته التي نُصبت واتجهت كلها إلى الأعلى تصور الكارثة.. دقائق مرت يملأها القيل والقال.. ثم أرسل أحدهم طائرة ثانية من الجحيم الذي أرسل منه الطائرة الأولى.. اصطدمت بالبرج الثاني.. فأسكتت الأفواه وهزت الأرجاء وجعلت كل من وقف للمشاهدة يهرع للهرب من هذا الجحيم.

ابتعدنا أكثر من ابتعادنا الأول.. نظرت إليك.. إن دقات قلبك تسارعت يا فتى.. وحق لها أن تتسارع.. أنت ترى أمرًا لا يحدث سوى مرة واحدة.. لست أقصد في حجم الوفيات فهناك مذابح تحدث كل يوم تصعد فيها آلاف الأرواح البريئة إلى بارئها.. مذابح تسمع عنها كل يوم ولا تعطيها ذلك الاهتمام الذي تعطيه لهذه الكارثة.. ربما لأن حجم الإثارة أو"الأكشن" في هذه الكارثة عالٍ جدًا.. أو ربما لأن الإعلام ركز عليها كثيرًا.. أو ربما لأنها أمريكية.

وقفنا عن بعد وظللنا نرقب هذه المأساة.. نحن في يوم الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ يا صديقي.. ذلك اليوم الذي يتذكره العالم كله جيدًا ولا ينساه أحد.. أنت قد رأيت هجمتين فقط.. لكن الواقع أن هذا اليوم شهد أربع هجمات إرهابية من النوع الفاخر في أمريكا.. هجمات قتلت حوالي ثلاثة آلاف شخص وجرحت ستة آلاف آخرين.. هجمات خسرت أمريكا فيها هيبتها أمام العالم.. وخسرت من رصيدها ما يقرب من ثلاثة تريليون دولار في يوم واحد فقط.. يوم مشؤوم.

أربع هجمات نفذتها أربع طائرات.. ترجع إلى شركتين من أعرق شركات الطائرات الأمريكية.. United Airlines وAmerican Airlines.. أقلعت الطائرات بركابها من شمال أمريكا بشكل عادي مثل كل يوم متجهين إلى غرب أمريكا.. تم اختطاف الأربع طائرات وهي في الجو من قبل تسعة عشر إرهابيًا.. طائرتان من الطائرات هما الطائرة ١١ والطائرة ١٧٥ اصطدمتا بالبرج الشمالي والبرج الجنوبي من مركز التجارة العالمي في نيويورك كما رأيت أمام عينيك.. وخلال ساعة ونصف تقريبًا.. سينهار هذان البرجان العظيمان بكاملهما ويتساويان بالأرض.. كأن لم يكن لهما وجود.. مخلفيْن وراءهما الكثير من الرماد والنيران والأنقاض.. نيران كانت كثيفة حتى جعلت مبنى آخر في مجمع التجارة العالمي ينهار ويتساوى بالأرض هو الآخر.. المبنى السابع.. ثلاثة مبانٍ ضخمة عالية تنطح السحاب نزلت وتساوت نواصيها بالأرض.

الطائرة الثالثة هي الطائرة ٧٧.. هذه اصطدمت بالبنتاجون.. وزارة الدفاع الأمريكية الحصينة.. وتسببت في تحطم الجزء الغربي من المبنى.. الطائرة الرابعة.. الطائرة ٩٣.. كانت متوجهة ناحية واشنطن إلى البيت الأبيض.. أهم مبنى في أمريكا.. لكن معركة بين ركابها ومختطفها أدت إلى انحراف الطائرة عن هدفها وسقوطها على الأرض متحطمة في شانكس فيل.

مباشرة بعد الضربات أصبحت كل قنوات الميديا يتحدثون كالمحمومين ويذكرون اسم أسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة الإرهابي على أنه هو الرجل الذي يقف وراء هذه العمليات كلها.. وبعد خمسة أيام من الجدل والقيل والقال صرح "بن لادن" رسميًا بأنه لا علاقة له بهذه الضربات من قريب ولا من بعيد. إلا أنه اعترف بعد سنوات بأنه هو المخطط لها منذ البداية.. وقال أنه فعلها انتقامًا من دعم أمريكا لإسرائيل.. ذلك الدعم الذي يحمي إسرائيل ويعينها على قتل آلاف مؤلفة من أطفال المسلمين ونسائهم.. وانتقامًا من العقوبات التي فرضتها أمريكا على العراق.. والتي مات بسببها أكثر من مليون طفل عراقي.

بعد سنة ونصف من الضربات تم القبض على إرهابي شديد الخطورة من تنظيم القاعدة يدعى خالد شيخ محمد.. وقد اعترف أنه هو المسؤول عن عملية ١١ سبتمبر كاملة من الألف إلى الياء.. قال أن الفكرة برزت في ذهنه عام ٩٦ وأخبرها "بن لادن" الذي أعجب بالفكرة ووافق عليها.. وبدأ تنفيذ المخطط.

في عام ٩٩ جاء إلى أفغانستان أربعة شباب.. محمد عطا، مروان الشحي، زياد الجراح، هاني حنجور.. تدربوا في أفغانستان حوالي سنة ثم انطلقوا إلى أمريكا ودخلوا عدة مدارس لتعليم الطيران هناك وتخرجوا منها بدرجات عالية.. وأصبحوا جاهزين لينفذوا أكبر عمليات استشهادية إرهابية في التاريخ.

بعد تنفيذ الضربات بقليل انطلقت قوات أمريكية كثيرة إلى أفغانستان للقبض على "بن لادن" وتم احتلال أفغانستان.. واستمرت محاولة العثور على "بن لادن" طويلًا.. لكن بلا جدوى.. كان مثل الزئبق.

ثم بعدها بخمـ... خمسة... هذه الط..

يا إلهي إنني أبصق دمًا! أحد ما طعنني في ظهري يا صديقي.. إن دموعي تنزل من عيني ساخنة يا صديقي.. هل ترى الذي طعنني؟ إني أرى عينيك تنظر إليه بتعجب.. من هو؟

نزع الذي طعنني سيفه من جسدي بقوة وتركني أهبط على ركبتي.. نظرت له.. إنها فتاة.. فتاة مقنعة.. قناع احترافي مثل الـ..

إن طعنتها غائرة تلك اللعينة.

توجهت إليك الفتاة التي كانت ذات منظر يبث الرهبة بقناعها الأنثوي المتقن وشعرها الناعم المنسدل على كتفها.. نظرت إليك وقالت:

ألم نقل لك يا صاحب العقل ألا تتبع ديكوي.. ألم نقل لك ألا تمشي وراءه؟

نظرت أنت إليّ أنا الآن.. أنت تبحث عن ديكوي.. هل تتذكر هذه العين يا هذا؟ هل هذه عيناي؟ هل كان لي أنياب من قبل مثل هذه أيها الغبي؟ لقد أخبرتك أنني سأخدعك كل مرة وستصدقني كل مرة.. وستكون أبله كل مرة.. إمعة كل مرة.. فقط تصدق كل ما يقال لك.. فقط تثق في الكلام عندما تسمعه.. لهذا سأسجنك في سجني إلى الأبد.. ولن يحميك هؤلاء المقنعون.. وإن أنقذوك الآن فسآتيك مرة أخرى.. ولن يكونوا حولك.. أنت لي يا صاحب العقل.. أنا أتغذى على خداعك.. إنه شيء يشعرني بالنشوة.

تغيرت ملامح وجهي الذي تعرفه إلى ملامح ديكوي الوسيمة التي تحولت تلقائيًا إلى ملامح شيطان.. وتحولت ملابس الشخص الذي تعرفه إلى ملابس ديكوي السوداء.. وارتفع ديكوي في الهواء وهو ينظر إليك بغل وإلى المقنعة التي أنقذتك.. ثم ذهب كالريح بعيدًا وترك المشهد.. كانت الفتاة المقنعة الآن تقف بجوارك وتربت على كتفك.. لا تقلق.. لن تكون وحيدًا في هذا العالم.. لا أريد أن أصدمك لكن رفيقك الذي أدخلك إلى هذا العالم أول مرة وعشت معه أحداث أرض السافلين السابقة، مات في أحداث مذبحة ليدلو عندما ذهب لإنقاذ الأطفال.. لن يأتي بعد اليوم.. وهذا الشيطان تنكر بشكله ليخدعك.. لا تقلق.. أنت لست وحدك.. لا تقلق أبدًا.. نحن معك.

نظرتَ إلى الفتاة المقنعة.. وبرغم دفء روحها وصوتها فإنك تشعر أنك غريب.. لم تعد تدري كيف ستخرج من هنا.

رفعت الفتاة المقنعة سيفها وبدأت تضرب به في الهواء ضربات قوية.. ومع كل ضربة من ضرباتها كانت الأجواء تتمزق وكأنها تضرب بسيفها قماشًا.. تقطعت الأجواء القماشية كلها ومررنا عبرها إلى عالم الحقيقة المظلم الكئيب.. قالت لك الفتاة:

هذه المرة لن نتركك في عالم الحقيقة وحدك.. ستبقى معنا.. ستكون بخير لا تقلق.. تعال لأعرفك بباقي الرفاق.

أمسكت بيدك ومشيت معها داخل العالم المظلم.. كانت تسحبك وتنظر إليك بين الحين والآخر من وراء قناعها لتطمئن عليك.. حتى أدخلتك إلى ما يشبه القاعة البحثية.. كثير من المقنعين يجلسون على أجهزة كمبيوتر.. كل واحد منهم يرتدي قناعًا مختلفًا مميزًا.. كان هناك ثلاثة مقنعين واقفين وسط القاعة يتحدثون في أمر ما.. وما إن اقتربت منهم مع فتاتك.. التفتوا إليكما بترحاب.. أنت تعرف أحدهم.. إنه ذلك المقنع الذي رأيته أول مرة عندما مد لك يده في المظاهرة.. كان هو الذي تحدث مرحبًا وقال:

ألكساندريا الجميلة.. أنت دائمًا تحضرين لنا ضيوفًا رائعين إلى مجتمعنا.. مرحبًا بك أيها الرفيق.. أنا أدعى زورك.

مد يده إليك فنظرت لها في حذر بسبب المرة الأولى ثم مددت يدك وسلمت عليه.. ثم نظر "زورك" ناحية أحد المقنعين.. كان شابًا أسودَ ذا جسد رياضي رشيق وقناع غامق.. قال "زورك":

هذا مصعب.. من المنضمين الحديثين لنا.. لكنه نشيط جدًا فوصل إلى الصفوف الأولى في زمن قصير.

ثم عرفك بالمقنع الآخر.. كان قصيرًا ذا شعر طويل بني ويرتدي نظارات على قناعه.. بطريقة بدت عجيبة لكنها لائقة.. ويبدو مهزوزًا قليلًا وهو يعدل نظارته كل ثانية.. قال "زورك":

هذا هو الدكتور "هال".. عالم الفيزياء العبقري.. إنه مبرمج نظام هذه القاعة كاملًا.

امتدت يد من ورائك وربتت على كتفك فنظرت خلفك تلقائيًا.. وتراجعت إلى الوراء في رد فعل متفاجئ لكنه سعيد بما يرى.. إنه "سكوربيون"... هو هنا أيضًا.. قال لك "زورك":

هل نسيت أن سكوربيون مقنع هو أيضًا؟

قال لك "سكوربيون":

أنا سعيد أنك وصلت إلى هنا قطعة واحدة.. لا بد أن تنضم لنا قريبًا يا فتى.. حقًا أنا حزين لفقدك صاحبك بهذا الشكل.. لقد كان بطلًا.

سألتهم سؤالًا بريئًا تلقائيًا.. قلت لهم:

معذرة.. لكن من أنتم بالضبط؟

قال "زورك":

أنت تعرف أن عالمنا هذا هو عالم الحقيقة.. ألم تخمن من نكون إذًا؟

قالت "أليكساندريا":

لا داعي للكلام يا سيد زورك.. هو إذا رأى عملنا سيفهم.. هيا يا رفاق.. لقد أتانا حدث ضخم.. لا ينبغي أن نضيع الوقت.

قال لهم "سكوربيون":

بل لن نبدأ في شيء حتى يستريح الرجل.. هو يحتاج لهذا.. تعال معي يا صديقي.



اتجه "مصعب" إلى شاشة كبيرة في القاعة ووجه ناحيتها جهاز تحكم وهو يقول:

هل رأى أحدكم كلام بوش عن الحادثة؟ هناك شيء عجيب في كلامه.

فتح الشاشة فأظهرت "بوش" وهو يحكي أنه أثناء ضربات سبتمبر كان في إحدى المدارس.. ولم يصدق نفسه وهو يرى الطائرة الأولى في التلفزيون وهي تصطدم بالبرج.. أوقف "مصعب" الفيديو ونظر للجميع.. قالت أليكساندريا:

هذا الرجل يكذب.. الطائرة الأولى لم يصورها أحد مباشرًا (لايف) وهي تضرب البرج الأول.. الوحيد الذي صورها كان مصور يصور فيلمًا وثائقيًا في المنطقة في نفس اللحظة بالصدفة.. والمقطع الذي صوره هذا الرجل لم يعرض في الإعلام إلا في الأيام التالية.. فكيف يقول بوش أنه رأى الطائرة الأولى في التلفزيون وهي تصطدم بالبرج؟

قال "زورك" من وراء قناعه الفاخر:

ربما سها الرجل.. أو فقد تركيزه.. أو قصد أنه رأى الطائرة الثانية.

بدرت نظرات غير مرتاحة من أقنعة الجميع ثم قال أحد المقنعين:

لقد حصلت على شهادة من أكثر من شخص من العاملين في المدرسة.. أدلوا بها إلى الإعلام.. إنهم يقولون أنه لا توجد في أروقة المدرسة أي تلفزيونات.. لا توجد أي مدرسة فيها تلفزيون عام هكذا يعرض قنوات الأخبار للأطفال.

قالت ألكساندريا بانتصار:

قلت لكم أن هذا الرجل كاذب.

قال "زورك" بحسم:

فليكن كاذبًا.. هذا لا يثبت شيئًا.. إنه يريد أن يضيف لمسة درامية للموضوع.. نريد أدلة حقيقية وليس هذا الهراء.

تقدم الدكتور "هال" وهو يمسك "اللابتوب" الخاص به ويكتب عليه بعض الأشياء وينظر إلى الشاشة الكبيرة.. ثم قال وهو يعدل نظارته:

إن الكلام الرسمي الذي يقولونه في الإعلام وفي كل مكان عن سبب انهيار البرجين المفاجئ وتساويهما بالأرض بهذا الشكل.. أن هذه الطائرات كانت محملة بوقود الطائرات الذي احترق مع الانفجار وسخن عواميد المبنى المصنوعة من فولاذ فانصهرت والتوت وتحطم الدور العلوي بكامله.. وبسبب تصميم المبنى فإن الوقود المحترق هذا نزل وتشعب إلى العواميد السفلية فصهرها هي أيضًا وحطم الأدوار السفلية دورًا وراء دور.. حتى دكت البناية كلها دكًا وتساوت بالأرض.

ومرة أخرى عدل نظارته وقال:

لكن هذا هراء فيزيائي.. الفولاذ ينصهر عند ٢٨٠٠ فهرنهايت.. ووقود الطائرات لا يزيد بأي حال من الأحوال عن ١٨٠٠ فهرنهايت في أشد حالات سخونته.. هناك ١٠٠٠ درجة فرق باقية حتى ينصهر الفولاذ.

قال له "زورك":

ليس شرطًا أن يصهر الأعمدة تمامًا حتى يتحطم المبنى.. يكفي أن يُضعفها فقط فتلتوي فينهدم المبنى.

قال الدكتور "هال":

ولا حتى يضعفها.. لو سخنت هذه العواميد بوقود الطائرات اليوم بطوله لن يحدث فيها أي أثر.. لن يضعفها حتى.

ثم كتب "هال" شيئًا بحماس في جهازه فظهر على الشاشة فيديو لأحد الأبراج وهو ينهار.. قال "هال":

انظروا كيف ينهار المبنى بطريقة انسيابية ناعمة بدون توقف أو تقطيع أو عدم انتظام.. لو كان الأمر عبارة عن شيء ينصهر فيدمر ما تحته.. كان يجب أن تكون هناك توقفات في منتصف الطريق.. توقفات طبيعية عادية لأي مبنى ينصهر تدريجيًا.. أو عدم انتظام في السقوط.. أما أن ينزل المبنى هكذا كله دفعة واحدة ككتلة واحدة.. هذا لا يحصل إلا بفعل شيء واحد.

قالت أليكساندريا بسرعة:

المتفجرات.. إنهم فجروا المبنى تفجيرًا من النوع الذي تُهدم به المباني بطريقة الإزالة.. لو نظرت إلى أي فيديو إزالة مبنى بالمتفجرات.. ستجده يهبط بنفس الطريقة بلا أي اختلاف.

قال "زورك":

حسنًا.. لدي هنا أيضًا عدة دلائل دامغة على أن المبنى تم تفجيره بالقنابل.. أولًا تم العثور رسميًا بين الحطام على بقايا قنابل حرارية متطورة أو ما يدعى Nano Thermite.. وكانت موزعة بكثرة بين الحطام.. حتى لا تكاد تخلو منها كل خمسة أمتار مربعة.. وهذا هو التقرير الرسمي الذي يثبت وجودها.. طبعته حتى يشاهده الجميع.. وفيه صور لبقايا هذه القنابل.

سلمك "زورك" التقرير بطريقة تلقائية ونظر إلى الشاشة وأكمل:

ثانيًا.. هناك متفجرات من نوع آخر تم استخدامها.. متفجرات من النوع القاطع للمعادن.. واسمها Shaped Charge.. وهي قنابل تركز قوة تفجيرها على قطع المعادن الثقيلة مثل الحديد والصلب.. الدليل على استخدامها أن لدينا هنا صورًا لعواميد كثيرة في المبنى وهي مقطوعة قطعًا مستويًا.. وهذا القطع كما نرى مزين بعلامات انصهار لأطراف العمود.. الشكل الذي لا ينتج إلا من استخدام هذه المتفجرات وحدها دون غيرها.

اتجهت أليكساندريا ناحية الشاشة ولمستها لمسة في مكان معين لتعيد تشغيل فيديو الانهيار وقالت:

لقد لاحظت شيئًا عند انهيار المبنى لا يلاحظه إلا المدقق.. في انفجار البرج الأول في هذا الفيديو.. لحظة الاصطدام.. لاحظت ظهور خطوط عرضية مفاجئة حول البرج.. خطوط عرضية بعضها فوق بعض.. خطوط انفجارية.. تشي بوجود

متفجرات مجهزة.. انظروا جيدًا عندما أكبر الفيديو.. ها هي.. لاحظوا وجودها عند اصطدام الطائرة.. ها هي الخطوط تظهر بعضها فوق بعض في لحظات معدودة ثم يبدأ البرج في الانهيار.. ويغطي السماء الدخان فيغطي على الخطوط العرضية الباقية.

حقًا إن الخطوط واضحة جدًا.. خاصة بعد تكبير الفيديو.. أتى "مصعب" بدليل جديد فقال:

انظروا الآن.. إن بقايا المبنى بعد الانهيار.. لا توجد فيها قطعة أثاث واحدة باقية.. كل ما كان موجودًا هو الرماد فقط. ما هذه الطائرة التي ستصطدم ببرج فتحوله كله إلى رماد؟! فقط ما تبقى هو بقايا خرسانة المبنى ملوية هنا وهناك.. لو أن الموضوع عبارة عن طائرة اصطدمت.. كنت ستجد بقايا أثاث الغرف ضمن الحطام.

قالت أليكساندريا:

بعيدًا عن هذا كله.. الناس لا تقرأ التاريخ.. في عام ١٩٤٥.. اصطدمت طائرة ركاب بمبنى الإمباير ستيت الذي هو ناطحة سحاب طويلة تماثل برج التجارة تقريبًا.. اصطدمت بنفس الطريقة.. ولم يحدث شيء في المبنى سوى أضرار في الجزء العلوي الذي اصطدمت به الطائرة.. وهو الشيء الطبيعي.. لم ينهر المبنى عن بكرة أبيه كما حصل هنا.

جاء أحد المقنعين من مكان ما وقال:

لن تصدقوا.. إن "لاري سيلفرستين" وقع بلسانه.

شغل الرجل فيديو على الشاشة لرجل كبير في السن يتحدث ويقول: "لقد قررنا هدم المبنى السابع بعد أن وجدنا أن النيران حاصرته من كل مكان ولم يعد هناك أمل فيه". قالت "أليكساندريا":

معذرة.. أليس هذا الرجل هو..

قاطعها "زورك" قائلًا:

صاحب مجمع برج التجارة العالمي كله.

لحظات من الصمت قال "مصعب" بعدها:

من أين له أن يزيل المبنى السابع لو لم يكن قد وضع المتفجرات فيه منذ زمن.. ولو كان اعترف الآن أنه أزال المبنى السابع فهذا يعني أنه أزال البرجين الكبيرين أيضًا بنفس الطريقة.. فهو مالك كل الأبراج.

كنت تنظر لهم وهم يتناقشون بحماس هكذا.. وتتذكر عندما كنت تمشي وراء "ديكوي" وتسمع لقوله.. ربت "سكوربيون" على كتفك وقال لك:

لا تتعجب يا صديقي.. إن هؤلاء مجموعة من الناس العاديين.. لكنهم لا يسلمون عقولهم لأحد.. تجدهم يتساءلون ويتشككون في كل شيء يسمعونه من الإعلام.. أو ينقله إليهم أي أحد.. لأنهم يعلمون علم اليقين أن الإعلام يكذب.. لمصلحة الدولة أو لمصلحة الكبار.. لا تعجل فلو انضممت لهم ستعرف كيف علموا هذا علم اليقين.. هم قوم لا يمكن أن يسوقهم أحد كما يسوق غيرهم.. قوم لا يمكن أن تخدعهم.. قوم استخدموا هذه الآلة المجانية التي أهداها لنا الخالق والتي تدعى العقل.

قلت له:

هل كونوا فريقًا متحدًا إذًا؟

ضحك وقال لك:

لا.. لم يكونوا فريقًا.. إنما هم فئة من الناس.. بعد ضربات سبتمبر أصبح صوتهم عاليًا جدًا.. لأنها استفزتهم استفزازًا حقيقيًا.. ملوا كل هذا الكذب الذي يقال وكل الانقياد الذي ينقاده الناس كالقطعان.. ولما علا صوتهم أطلق عليهم اسم الـTruthers.. أو أصحاب الحقيقة.. لكن الإعلام والقطعان التي تتبعه سخروا منهم كثيرًا واعتبروهم مرضى نفسيين.

■ ■ ■

عدت لسماع أحاديث أصحاب الأقنعة.. كان "مصعب" يقول بتفكير:

لكني لا أفهم.. لو كانت المخابرات الأمريكية مثلًا هي التي فجرت البرج.. ما حكاية الطائرات.. من الذي اختطف الطائرات وضرب بها البرجين؟ "بن لادن" اعترف أنه هو الذي خطط لهذا.. ثم اعترف خالد شيخ محمد أنه دبر الأمر معه كاملًا من الألف إلى الياء.. وها نحن الآن أثبتنا وجود متفجرات.. يوجد تناقض هنا.. لا يحل التناقض إلا لو اعتبرنا أن هؤلاء الإرهابيين هم الذين وضعوا المتفجرات في البرج ليزينوا ضربتهم الإرهابية بدماء مزيد من الضحايا.. لكن

المشكلة أن لاري سيلفيرستين الأحمق وقع بلسانه وقال أنه هو الذي وضع المتفجرات.. لقد تهت في هذا الأمر.

قال "زورك":

إن "بن لادن" الذي خرج ليعترف للعالم أنه وراء هذه الأحداث هو"بن لادن" مزيف.. "بن لادن" الحقيقي مات ودفن في ٢٠٠١.. في نفس السنة التي حدثت فيها الضربات.

قالت "أليكساندريا" مباشرة:

وما دليلك على هذا؟ أنا رأيت فيديوهات بثت له بعد سنة ونصف من الضربات.. ولم أشعر أنه مزيف قط.. بالعكس.. نفس الصوت ونفس الأفكار ونفس الطريقة.

قال "زورك":

عدة دلائل بعضها فوق بعض.. أولًا.. كلكم رأيتم الرئيس أوباما وهو يعلن بفخر أنهم أمسكوا بـ"بن لادن" أخيرًا وقتلوه.. كان هذا في ٢٠١١.. بعد الضربات بعشر سنوات.. لكن كانت هناك بعض الأشياء الغبية التي قاموا بها تدل بأن هذا الخبر مزيف.

وجه "زورك" جهاز التحكم ناحية الشاشة فخرجت صورة "بن لادن" وهو ميت..

عرضوا هذه الصورة وقالوا أنها صورة جثة "بن لادن".. المشكلة أن هذه الصورة كما ترون مصنوعة بالفوتوشوب ومأخوذة من هذه الصورة التي بجانبها لهذا الرجل الميت.. والمشكلة الأدهى والأمر.. أنهم عرضوا هذه الصورة نفسها منذ عدة سنوات في ٢٠٠٧ في أحد مواقع الأخبار الشهيرة وبجانبها خبر عثور القوات الأمريكية على "بن لادن" وقتله.. الحقيقة أن المرة التي قتلوا فيها "بن لادن" في ٢٠١١ كانت هي تاسع مرة يقتلونه فيها.. المتابع الجيد للأخبار يجد أنهم ادَّعوا أنهم عثروا عليه وقتلوه قبلها ثماني مرات.

ثم غير "زورك" الصورة على الشاشة إلى صورة أخرى لأناس على متن قارب وأمامهم تابوت.. قال "زورك":

قالوا أنهم صلوا الجنازة على "بن لادن" على هذا القارب ثم وضعوه في هذا التابوت ثم رموه في البحر.. بغض النظر عن حماقتهم في إيراد وصف صلاة الجنازة ووصفها بالإسلامية وهي ليس لها علاقة بصلاة الجنازة من قريب ولا من

بعيد.. بل تبدو لمن يقرأ وصفهم لها تمامًا مثل قس يرتل صلاته المسيحية على جثمان بحار قبل أن يلقي بجثته في الماء.. سأغض الطرف عن هذا وكأنني لم أره.. دعوني فقط أخبركم بالسبب الذي قالوا أنهم رموا بسببه تابوت "بن لادن" في البحر ولم يدفنوه دفنًا عاديًا.. قالوا أنهم وجدوا صعوبة في إقناع أي بلد في العالم أن تدفن "بن لادن" في ترابها.. أي أن الدولة التي اجتاحت أفغانستان وقتلت فيها من قتلت واجتاحت بعدها العراق وقتلت فيها من قتلت.. ووجدت ألف تبرير وتبرير لكل شيء تفعله وانحنت لرغباتها عشرات الدول.. تقف الآن مهذبة مؤدبة عاجزة عن الاستئذان للتصرف في مساحة متر في متر من دولة أفغانستان التي تحتلها.. فقط مساحة متر في متر تجعلها قبرًا لـ"بن لادن".. حقًا كم هم مهذبون!

ثم عرض "زورك" صورة سيدة تتحدث في شيء ما.. قال "زورك":

رئيسة وزراء باكستان السابقة Benazir Bhutto صرحت في ٢٠٠٧.. أن "بن لادن" مات في تورا بورا عام ٢٠٠١ بأفغانستان بعد ضربات سبتمبر بشهور قليلة.. وأن هذا الذي يدلي بخطابات في الإعلام بعد ٢٠٠١ هو "بن لادن" مزيف.. بعد أقل من شهرين.. تم اغتيالها.

أغلق "زورك" الشاشة وقال:

وأخيرًا لاحظوا التوقيت.. التوقيت الذي قال فيه أوباما أنهم قتلوا "بن لادن".. التوقيت كان أيام الانتخابات الرئاسية الأمريكية.. وأوباما يريد أن يسحب البساط من تحت قدمي منافسه.. ولقد نجح في هذا طبعًا بعد هذا الخبر المزيف الجميل.. خبل قتل "بن لادن".

قالت أليكساندريا:

طالما "بن لادن" مات.. لماذا لم ينكر تنظيم القاعدة "بن لادن" الجديد الذي ظهر في الإعلام ويقول أنه مزيف؟

قال "زورك"

رأس منظمتي يرعب الجميع.. أمريكا تعلن عنه إعلانات مجانية شديدة الإرعاب لشعبها.. حتى إنهم أحيوه وصار يلقي خطبًا كلها كره لأمريكا وتهديد.. لماذا آتي أنا وأقول أنه مات وأوقف كل هذه البروباجاندا؟ ماذا سأستفيد من هذا؟

ضرب الدكتور "هال" على اللابتوب الخاص بعض الكلمات بسرعة وقال:

هناك معلومة هامة تقول أن "بن لادن" عميل للمخابرات الأمريكية وأنها هي التي دربته.

قالت أليكساندريا:

هراء.. إن "بن لادن" أول ما حدثت الضربات صرح بالفيديو بوضوح شديد أنه لا علاقة له بهذه الضربات من قريب ولا من بعيد.. ولو كان عميلًا للمخابرات الأمريكية لجعلته المخابرات يقول للعالم ببساطة أنه هو منفذ العمليات.. على الأقل حتى تعطي لهجومها على أفغانستان شرعية.

قال "مصعب":

صحيح.. حتى إنهم بعد هجومهم على أفغانستان.. عثروا على شريط فيديو منزلي يظهر فيه "بن لادن" وهو يتحدث مع المجاهدين أصدقائه.. شوشوا الصوت تمامًا بحيث تسمع بالكاد ما يقال فلا تفهم جيدًا وأنت عربي.. ثم وضعوا للأحاديث المشوشة هذه ترجمة مزيفة يقول فيها "بن لادن" أنه كان يعرف بأمر الضربات قبل حدوثها.. تم كشف زيف الترجمة مباشرة من أكثر من جهة.. فلو كان "بن لادن" عميلًا للمخابرات.. لماذا تضطر المخابرات لتزييف ترجمة فيديو مثل هذا؟ كان الأيسر والأقل فضائحية أن يأمروه ليعترف أنه هو منفذ الضربات وانتهى الأمر.

قالت أليكساندريا:

لكن مهلًا مهلًا.. أنت تقول لي أن "بن لادن" بعد ٢٠٠١ هو مزيف.. لو نظرنا للخطابات التي ألقاها بعد ٢٠٠١ سنجد أنهما خطابان.. واحد منهما قصير ظهر فيه يرتدي عباءة بنية ويقول فيه أنه هو الذي خطط ضربات سبتمبر وأشرف عليها.. هذا يمكنني أن أصدق أنه مزيف بسبب توقيته الموافق لانتخابات بوش الرئاسية الثانية.. وقد أفاد هذا الفيديو بوش جدًا لأن الناس خافت من تهديدات "بن لادن" واختارت بوش لفترة أخرى باعتباره هو الرجل الصالح للقضاء على الإرهاب.. لكن دعك من هذا.. هل رأيت الفيديو الثاني-الذي عرضوه بعد سنوات من هذا؟ ويرتدي فيه "بن لادن" نفس العباءة البنية.. الفيديو الطويل.. هذا الفيديو يستحيل أن يكون مزيفًا أبدًا.

قال "زورك" بهدوء:

ولماذا يستحيل؟

قالت أليكساندريا:

لأن الفيديو هو رسالة منه يوجهها للشعب الأمريكي.. يفضح فيها كل خبايا أمريكا وكل الأشياء التي لا تريد أن تتحدث عنها وتخفيها عن شعوبها.. قال أن أمريكا هي الإرهابية الحقيقية وذكر إبادتهم للهنود الحمر وإبادتهم اليابانيين في هيروشيما ونجازاكي وذكر أكاذيبهم لإقناع شعبهم بحرب فيتنام وهم الذين قتلوا فيها مليونين من القرويين وذكر أكاذيبهم لغزو العراق.. وتحدث عن اغتيال كينيدي الذي حصل لأن سياسته لم تعجب أصحاب الأموال الكبار الذين يستفيدون من الحروب.. تكلم عن النظام الرأسمالي الذي تستعبد به أمريكا شعبها.. وأنه نظام يزيد الأغنياء غنى ويزيد الفقراء فقرًا.. تحدث عن كل الأشياء التي ندعو لها يا "زورك" ونؤمن بها.. كيف يأتون بممثل يقوم بدور "بن لادن" ويعلن هذه الأمور التي يخفونها عن الملأ دائمًا.. وهم يعلمون أن معظم الشعب الأمريكي سيشاهد هذا الخطاب؟

قال "زورك":

بل إن هذه الأشياء عندما تقال على لسان "بن لادن".. ففي هذا نفي لهذه الأشياء ولجملة المؤمنين بها.. فهي ما قيلت على لسان رجل صالح أو مصلح أو محبوب.. بل قيلت على لسان إرهابي.. يظن الأمريكان أنه قتل ٣٠٠٠ بريء بضربتين في ساعة واحدة.. والأشياء الجيدة الصحيحة عندما تقال على ألسنة أناس سيئين مجرمين تصبح تلقائيًا أشياء سيئة مثلهم.. وتفقد مصداقيتها تمامًا.. فبالنسبة للأمريكي.. مجرد قول "بن لادن" لهذا.. جعل هذا كذبًا وهراءً.. سيقول الأمريكي: انظروا للمؤمنين بنظرية المؤامرة.. إنهم يفكرون مثل "بن لادن". هكذا تكون الحكومة قد ضربت أصحاب الحقيقة مثلنا في مقتل.

تدخل الدكتور "هال" وقال وهو يعدل النظارة للمرة المائة:

هل تعلمون؟ بغض النظر عن اختلافي معه في كثير من الأمور.. إلا أنني معجب بـ"بن لادن" هذا.. رجل أرعب أمريكا عن بكرة أبيها.. رجل مقاتل ترك أموال عائلته الثرية جدًا وذهب للجهاد.. لأجل مبدأ هو مؤمن به.. سواء مبدأ صحيح أم خاطئ.. لكنه قاتل من أجل مبدأه.. إنه بطل حقًا.

قال "زورك":

نعم "بن لادن" بطل.. لكنه بطل من ورق.. بطل مزيف.. قل لي.. هل رأيت "بن لادن" في حياتك وهو يقاتل أو في وسط معركة من المعارك؟ هل رأيته يفعل أي شيء خلاف الخطابات المطولة التي يلقيها؟

عدل "هال" نظارته وقال:

لا.. في الواقع أقصد.. لست متأكدًا.. لكن أظن أنه شارك في معارك.

قال له "زورك":

ابحث يا "هال".. ابحث.. هل ستصدق البروباجاندا أنت أيضًا؟ لماذا نحن هنا إذًا؟ ابحث بنفسك الآن وأخبرني.

انشغل الدكتور "هال" دقائق متوترة على جهازه اللابتوب ثم قال وهو منهمك في البحث:

هناك عدة شهود يقولون أنه شارك في معركة واحدة أو ربما معركتين على أقصى تقدير.. لكن مهلًا.. هناك صورة له وهو في الميدان.. هذه هي.

قال "زورك":

أعرفها قبل أن تريني إياها.. صورته وهو يرتدي الخوذة ويحمل اللاسلكي.. قل لي هل تعني لك هذه الصورة أن هذا الرجل مقاتل صنديد؟ يمكنني أن أضع على رأسك خوذة الآن وأصورك صورة مثلها.

قالت أليكساندريا:

ماذا تعني يا زورك.. "بن لادن" بكل هذا الذي نسمعه عنه.. ليس مقاتلًا أصلًا؟

قال "زورك ":

إنه مقاتل من ورق.. بطل من ورق.. كل عمليات تنظيم القاعدة الذي يرأسه هي عمليات إرهابية.. تفجير في سفارة.. تفجير في مركز تجاري.. تفجير في فندق.. تفجير في كنيس يهودي أثري.. تفجير في منطقة سياحية.. ومعظم هذه التفجيرات يقوم بها انتحاريون يقتلون أنفسهم.. ولا توجد عملية واحدة من هذه العمليات الإرهابية شارك فيها بنفسه أبدًا.. هو فقط يخطط ويرسل زبانيته.. ثم إن القتل بهذه الطريقة هو غدر.. القتل بهذه الطريقة هو جبن.. ليس فيه من الشجاعة ولا من البطولة شيء.. وليس فيه من الرجولة شيء.. أن تقتل شخصًا غدرًا.. أن تقتل شخصا من ظهره.. لو أنك ذو شجاعة وإقدام حقًا لقاتلته كما يقاتل الرجال في ساحة معركة.. لكنك جبان.. تختبئ كالجرذ وتصدر للعالم أخبار بطولاتك التي لا يعرف أحد عنها شيئًا.. أنت كاذب تهئ للناس أنك تعيش في الكهوف بينما الحقيقة أنك تعيش في مجمعات سكنية عادية مثلك مثل الناس.. وأنت حقير لا تضع قنابلك في المباني بل تضعها في البشر.. البشر الذين تقول لهم أنهم

سيذهبون إلى الجنة.. لكن الجنة لا يدخلها الغدارون والجبناء.. بل إن لكل غادر لواءً يوم القيامة يرفع ويقال على الملأ هذه غدرة فلان.

كان "زورك" يبدو حانقًا وهو يكمل:

منطقه نفسه غبي جدًا.. يقول في فيديو حقيقي له أنه يقتل المدنيين العزل والأبرياء في عملياته ردًا على دعم أمريكا لإسرائيل التي تقتل العزل والأبرياء من المسلمين.. يقول نحن نقتل أبرياءهم كما يقتلون أبرياءنا.. فحين يرون أننا نقتل أبرياءهم يخافون ويرتعدون.. وكأن أمريكا ستوقف دعم إسرائيل.. أو كأن إسرائيل ستوقف ذبح الفلسطينيين عندما تقتل أنت بعض الأمريكيين.. ماذا فعلت أمريكا بعد أن مات ثلاثة آلاف أمريكي في تفجيرات ٩ \ ١١ التي نسبوها إليك؟ هل توقفوا مثلًا واستداروا وقالوا معذرة يبدو أننا أخطأنا.. يجب أن نعيد حساباتنا.. بل لم يتوقفوا لحظة واحدة.. إنما وجدوها ذريعة رائعة لقتل المزيد من أبنائنا.. فانطلقوا إلى أفغانستان وإلى العراق.. مضحين بآلاف من أبنائهم أيضًا.. وهل توقفت إسرائيل لحظة واحدة عن قتل أطفالنا؟ لا طبعًا بل زادت.

قال "مصعب":

أنت تتحدث عن "بن لادن" بعد عمله لتنظيم القاعدة.. لكن بطولاته الحقيقية كانت قبل هذا بسنوات طوال.. عندما جاء الاتحاد السوفيتي الغاشم واحتل أفغانستان وقتل النساء والأطفال.. فتخلى "بن لادن" عن عائلته الثرية وذهب لأجل الجهاد في سبيل الله ونصرة هؤلاء المساكين.. وأنشأ بنقوده مكتبًا خاصًا اسمه مكتب الخدمات.. يستقبل المجاهدين من جميع أنحاء العالم العربي ويدربهم ثم يرسلهم إلى أفغانستان.. ثم ذهب هو بنفسه إلى أفغانستان وظل هناك يقاتل حتى أخرج الاتحاد السوفيتي من أفغانستان مهزومًا.. ثم عاد إلى بلاده بطلًا في نظر شعبه وفي نظر العالم العربي كله.. كل هذه سيرة مشرفة.

قال "زورك":

هذه سيرة البروباجاندا يا صديقي.. حق لك أن تبحث أكثر عن دقائق هذه السيرة الجميلة الرائعة.. ليس "بن لادن" هو من بدأ الجهاد في أفغانستان.. بل إن الجهاد في أفغانستان بدأ قبل أن ينشئ "بن لادن" مكتب الخدمات بخمس سنوات كاملة.. خمس سنوات كانت أفغانستان مليئة بالمجاهدين الحقيقيين من أبنائها.. وكانوا فرقًا كثيرة.. حوالي سبع فرق.. كلها اتحدت لأجل هدف واحد.. إخراج الاتحاد السوفيتي من بلادهم.. دعمتهم أمريكا بالسلاح والمال لأنها كانت في

ذلك الوقت تتصارع مع الاتحاد السوفيتي في الحرب الباردة.. ظل هؤلاء المجاهدين الأفغان يحاربون خمس سنوات لتحرير بلادهم.. ثم أنشأ صاحبنا مكتب الخدمات.. بدافع ديني هو الجهاد في سبيل الله.. دعمت السعودية هذا المكتب بالمال ليرسل مجاهدين عرب ليدعموا المجاهدين الأفغان في حربهم.. ظل "بن لادن" يدير المركز ثلاث سنوات.. هذه ثماني سنوات لم ينزل صاحبنا إلى الساحة.. فقط يجاهد بالمال.. والحرب كلها أصلًا كانت عشر سنوات.. مضت منها ثماني.. ثم في آخر سنتين من الحرب.. وبعد أن قاربت القوات الأفغانية على الانتصار.. نزل صاحبنا لأفغانستان ولم يثبت أنه قاتل في أي معركة بيده.. اللهم إلا معركة واحدة تم تصويره فيها بالخوذة.. ثم بدأت توجهاته الجهادية الأولى تتحول إلى توجهات إرهابية.. تمامًا كأي إرهابي عادي.. وبدلًا من توجيه المجاهدين للجهاد في سبيل الله.. أصبح يوجههم للغدر في سبيل الله.. تعالى الله عما يفعلون علوًا كبيرًا.

كان الجميع صامتًا... قال "زورك":

وحكايات البروباجاندا أن أمريكا تمشط كهوف أفغانستان بحثًا عنه بحثًا محمومًا ولا تجده في أي مكان.. أكثر من خمس عشرة سنة وهم يبحثون عنه.. أمريكا بكل عتادها وعدتها وأقمارها الصناعية لم تعرف مكانه لخمسة عشر عامًا؟ بينما عدد من الصحفيين الأمريكان أو العرب لم يجدوا أي مشكلة في التواصل معه ومقابلته وعمل عدة لقاءات مصورة معه يثرثر فيها طيلة الوقت.. من يقتنع بهذا الهراء؟ أنا لدي عقل هنا وأنا أحب أن أستخدمه دائمًا.. أمريكا تحب "بن لادن".. لأنها تجعله كبش الفداء الذي تعلق عليه كل أعمالها الاستعمارية.. هي لن تُعنى بالبحث عنه أصلًا فضلًا عن قتله.

ختم "زورك" قائلًا:

ببساطة "بن لادن" إرهابي جبان.. نعم.. لكنه لم يفعل ضربات سبتمبر.. وليس له أي علاقة بها.. لكن لم يكن هناك كبش فداء غيره على الساحة.. شخص يمكن أن يلام على هذا الفعل.. شخص يمكن أن تقيم حربًا للبحث عنه.. لم يكن هناك فرصة أروع من هذه.. ورغم أن "بن لادن" مات بعد الضربات بشهور بسبب مرض في كليته.. فإنهم أخفوا هذا.. وجعلوه واحدًا من الأشرار الخارقين الجديرين بمجلات الكوميكس الذين لا يموتون أبدًا.. الشر الصارخ الذي يقول لك أنا شر.. وشر جدًا أيضًا.. وينبغي عليك أن ترتعب مني.. وصار يتم تسويقه بواسطة نفس الناس الذين يقولون أنهم يكرهونه.

• • •

قالت "أليكساندريا":

لكن "خالد شيخ محمد" و"رمزي بن شيبة" عضوي القاعدة العتيدين.. اعترفا في مقابلة تلفزيونية مع الإعلامي "يسري فودة" بأنهما وراء أحداث سبتمبر وأنهما خططا لها تخطيطًا كاملًا.. وذكرا تفاصيل تخطيطهما هذا في المقابلة المطولة.

تنهد "زورك" وقال لها:

هذه تحديدًا هي المقابلة التي توهتني كثيرًا وشككتني في كل تحليلاتي بأن ضربات سبتمبر دبرتها المخابرات الأمريكية.. وبدأ تفكيري يتجه رغمًا عني إلى الاتجاه الذي يريدون للعالم أن يقتنع به.. أن القاعدة هي التي نفذت الهجمات.. ها هم أعضاء القاعدة يعترفون بأنفسهم بفخر.. لكن جزءًا آخر من عقلي كان يشعر أن هناك شيئًا ما خطأ.. لم أكن أدري ما هو الخطأ.. حتى وجدته في النهاية.. وجدته بالصدفة.. فأضاء ذلك الجزء من عقلي.. وعرف أنه كان على حق.

قال "مصعب":

وما هو هذا الخطأ؟ أنا حللت الأمر كثيرًا ولم أتوصل إلى شيء يذكر.

قال "زورك":

الحكاية ببساطة هي أنه بعد أقل من سنة على ضربات سبتمبر.. جاء اتصال مفاجئ من رقم غريب ليسري فودة.. هل تريد أن تحصل على سبق لم يسبقك به أحد من صحفيي العالم؟ نحن تنظيم القاعدة.. وإنا نريدك أن تأتينا في باكستان.. وسنسجل معك مقابلة تلفزيونية يراها كل العالم.. وسيعرف العالم كيف حدثت ضربات سبتمبر لأول مرة باعترافات مباشرة من الأشخاص الذين نفذوها.. فذهب يسري إليهم واتبعوا ترتيبات معقدة جدًا حتى لا يعرف المكان الذي يجلس معهم فيه.. حتى وجد نفسه وجهًا لوجه أمامهم.. خالد شيخ محمد ورمزي بن شيبة.. أكبر اسمين في تنظيم القاعدة.. وتمت المقابلة وصُورت بمعدات كانوا قد جهزوها في المكان.. وعاد يسري إلى بلاده وعرض المقابلة في التلفزيون.. عرضها في سبتمبر ٢٠٠٢.. يعني بعد مرور سنة بالضبط على الضربات.. وقد تعمد هذا ليكون يوم عرض البرنامج هو يوم الذكرى السنوية الأولى لهذه الضربات.. فرأى العالم لأول مرة المسؤولين عن الضربات.. يعترفون بلسانهم.. وبعد يومين فقط من عرض المقابلة، توصلت الشرطة الفيدرالية إلى

مقر تنظيم القاعدة في باكستان واقتحمته وقبضت على "رمزي بن شيبة" بينما هرب "خالد شيخ محمد".

كان الكل في حالة تركيز و"زورك" يقول:

مباشرةً اتجهت الأنظار إلى يسري فودة.. مؤكد أنه قال للشرطة الفيدرالية معلومات وصلتهم إلى مكان الإرهابيين.. أو ربما كان يحمل معه جهاز تعقب.. وكثير من المواقع الجهادية أباحت دم يسري فودة ووصفته بالعميل الخائن.. لكن بعد حوالي أسبوع من هذا.. أصدر تنظيم القاعدة بيانًا رسميًا يبرئ فيه يسري فودة من تهمة العمالة.. ويقول أن القبض على رمزي حدث بسبب خطأ آخر لا علاقة ليسري به من قريب ولا من بعيد.. وأن التنظيم لم يقابل يسري في مقر التنظيم أصلًا بل قابله في مكان آخر.. فلا عزاء لمن يقول أنه قد حدث تعقب.

سكت "زورك" قليلًا ثم قال:

ثم جاء الشيء الذي لفت نظري.. التاريخ الذي تمت فيه المقابلة.. حين تشاهد المقابلة نفسها تجد يسري يقول أنها تمت في يونيو ٢٠٠٢.. ثم في مقاله الشهير في مجلة Sunday Times قال أن المقابلة تمت في يونيو ٢٠٠٢.. وفي برنامج "أكثر من رأي" على قناة الجزيرة بعدها بأيام قال أن المقابلة تمت في يونيو ٢٠٠٢.. لكن بعد القبض على رمزي بأيام.. كان يسري ضيفًا في مقابلة مع عبد الله شليفر قال له فيها إن كل الناس تظن أن المقابلة تمت في يونيو ٢٠٠٢ لأنني قلت ذلك في كل مكان.. لكن الحقيقة أنني كذبت.. المقابلة لم تتم في يونيو ٢٠٠٢.. بل تمت قبلها بشهرين.. في إبريل ٢٠٠٢.. سأله شليفر: ولماذا كذبت؟ قال يسري: هناك جهات عديدة تتكلم باسم القاعدة.. فاصطنعت لنفسي نوعًا من الشفرة.. تجعلني أعرف هل الجهة الجهادية التي ستتكلم عن المقابلة بعد المقابلة هي القاعدة، أم أنهم منتحلون.. لو جاء في كلامهم أن المقابلة حدثت في إبريل سأعرف أنهم الحقيقيون.. ولو جاء في كلامهم أن المقابلة حدثت في يونيو مثلما عرضت في برنامجي ومثلما يعرف كل الناس.. سأعرف أنهم منتحلون.

بدأ الجميع يفكر في الموضوع وعيونهم لا تفهم ما الذي يرمي إليه "زورك" الذي أكمل:

حسب كلام يسري.. فهذه الشفرة هي التي عرف بها أن التهديدات التي أتته من المواقع الجهادية والتي كتبت على نفسها اسم القاعدة هي تهديدات يكتبها منتحلون.. لأنهم دائمًا يشيرون في كلامهم أن المقابلة تمت في يونيو ٢٠٠٢.. ولكن

ذلك البيان الذي برأت القاعدة فيه يسري.. عرف يسري أنه بيان حقيقي.. لأن القاعدة أشارت فيه أن المقابلة تمت في إبريل ٢٠٠٢.

قالت أليكساندريا:

معذرة لكني لا أفهم حقًا ما ترمي إليه.

قال "زورك":

ستفهمين بعد قليل يا أليكساندريا الجميلة.. إن يسري لو أراد عمل شفرة فعلًا فقد كانت لديه طرق أخرى كثيرة غير الكذب في تاريخ المقابلة.. كان سيتفق مع التنظيم على كلمة سر مثلًا أو يتركهم هم يتصلون به كما اتصلوا أول مرة.. ولو بحثتِ بحثًا دقيقًا وراء حديثه ستجدين تبريره ضعيفًا جدًا لأن كل البيانات التي أصدرتها المواقع الجهادية المختلفة كانت مذيلة بأسماء كاتبها.. ما عدا البيان الذي برأ يسري هو الوحيد الذي كان مذيلًا بكلمة (المكتب الإعلامي لتنظيم القاعدة).. لا يوجد بيان ادّعى فيه كاتبه أنه من تنظيم القاعدة أو يتكلم بلسان تنظيم القاعدة كما حاول أن يوهمنا يسري.. البيان الوحيد من القاعدة كان مكتوبًا عليه اسم القاعدة.. لكن لماذا كذب يسري فودة علينا؟ هي كذبة قد تظنين أنها صغيرة ولن تغير شيئًا.. فما الفارق بين إبريل ويونيو.. وهو أيضًا ظن أنها صغيرة عندما كذبها.. لكن الحقيقة أن بين إبريل ويونيو.. تنقلب كل الأمور رأسًا على عقب.

نظر لها "زورك" مباشرة وقال:

قد تظنين أن العالم قبل مقابلة يسري فودة لم يكن يعرف أن خالد شيخ محمد ورمزي بن شيبة هما مخططا الضربات.. هكذا يظن كل الناس.. لكن هذا خطأ.. ففي أول أيام يونيو ٢٠٠٢ قبل عرض مقابلة فودة في التلفزيون بأكثر من ثلاثة أشهر.. بدأت جميع مواقع الأخبار والصحف تعلن خبرًا مفاده هو التوصل أخيرًا إلى مخططي أحداث ١١ سبتمبر.. خالد شيخ محمد ورمزي بن شيبة.. لاحظي.. في يونيو ٢٠٠٢ أذاعت الصحف خبر تورطهما.. نفس الشهر الذي قال يسري في كل مكان أنه قابلهم فيه.

سكت "زورك" ثم مشى قليلًا وهو يقول:

ضعي نفسك مكان خالد شيخ محمد ورمزي بن شيبة.. من بداية شهر يونيو والصحف والمواقع الإخبارية كلها تقول أنكما المسؤولان عن أحداث سبتمبر.. الآن توجهت أنظار العالم إليكما وتركزت جهود القوات الأمريكية للبحث عنكما

بالتعاون مع المخابرات الباكستانية.. والكل يتهمكما بأنكما وراء ضربات سبتمبر.. ووسط كل هذا.. تقرران فجأةً.. أن تتصلا بيسري فودة.. الإعلامي.. وأنتما اللذان لم تعقدا أي مقابلة صحفية طوال حياتيكما.. ولا تربطكما به أي سابق معرفة أو ثقة.. وكل هذا لأجل ماذا؟ لأجل أن تخبرا العالم أنكما أنتما المسؤولان عن الضربات؟ العالم أصلًا كله يتحدث عن أنكما المسؤولان عنها والشرطة تبحث عنكما أصلًا.. ما وجهة نظركما في أن تخرجا للعالم في هذا الوقت لتقولا له نعم نحن من فعلها؟

فكرت أليكساندريا قليلًا وقالت:

هل تقصد أنها....

قال "زورك":

نعم.. هذه رائحة تواطؤ.. رائحة حملة إعلامية واحدة.. صحف أمريكا قررت أن تجعل خالد شيخ محمد ورمزي بن شيبة مخططين.. ثم قرر خالد شيخ محمد ورمزي بن شيبة في نفس الشهر أن يخرجا ويعلنا للعالم أنهما مخططان.. لماذا كنتما صامتين كقبرين منذ أحداث سبتمبر من تسعة شهور مضت ولم تعلنا مسؤوليتكما عن الحادث؟ لماذا لم تعلنا عن البطولة الرائعة هذه بعد حدوث الضربات مباشرة بينما ينتظر العالم من أي أحد أي كلمة؟

قال "مصعب":

هل تعني أنهما متواطئان مع أمريكا؟

قال "زورك":

نعم أعني ذلك.. وما فضحهما هو تصرفهما مع يسري فودة.. فبعد عرض المقابلة.. وجدا يسري يقول فيها أنها تمت في يونيو.. ثم وجداه يؤكد على هذا في كل مناسبة.. ولو انتبه أحد إلى أن المقابلة في نفس شهر حملة الصحف الضخمة ضدهما.. سيعني هذا أنهما متواطئان.. لهذا أصدروا بيانًا رسميًا جاء فيه أن المقابلة تمت في إبريل.. قبل حملة الصحف بشهرين.. وبعد ذلك اتصلا بيسري فودة ليخبراه أن يصرح بأن موعد المقابلة الذي كان يؤكد عليه في كل مكان هو موعد خاطئ وأن الموعد الصحيح لها هو إبريل.. وعليه أن يبرر هذا الاختلاف بأي طريقة.

قال الدكتور "هال" الذي كان صامتًا منذ مدة:

ببساطة يا "زورك".. ما الذي يجعل يسري فودة أصلًا يخرج للعالم ويقول أنه كذب.. ثم يبرر الكذبة.. تبريرًا سخيفًا كهذا.. ما الذي يجعله يخاطر بسمعته؟ ما الفارق بالنسبة للعالم إن تمت المقابلة في إبريل أو يونيو أو حتى يناير نفسه.. لا فارق إطلاقًا.. فحقيقة أنه خرج وقال كذبت.. تدل بوضوح أن هناك من طلب منه أن يفعل هذا.. وأنه فعل هذا مضطرًا على مضض.. ومن ذا الذي من مصلحته تغيير موعد المقابلة؟ لا أحد سوى القاعدة لهربوا من شبهة التواطؤ.

■ ■ ■

تحرك "سكوربيون" من جانبي واتجه ناحيتهم وقال لهم فجأةً:

أيها الأعزاء.. أراكم تحدثتم طويلًا عن البرجين لكنكم نسيتم الطائرة التي اصطدمت بالبنتاجون.

قال له "مصعب":

لا لم ننسها ولكن لم نعد ننظر لهذا الموضوع من عظم سخافته.. الطائرة صدمت البنتاجون في زاوية من زواياه كان يجري فيها إصلاحات وترميمات منذ شهور.. وعندما بقى على انتهاء الإصلاحات خمسة أيام.. جاءت الطائرة واصطدمت به.

ضحكت أليكساندريا وقالت:

أنا شخصيًا أعرضت عن الموضوع منذ فترة عندما عرفت أن هناك عملية طوارئ كان موظفو البنتاجون كلهم يتدربون عليها.. عملية تدربهم كيف يتصرفون في حال اصطدمت طائرة بالبنتاجون.. عملية غريبة لكنها رسمية ومعلنة واسمها Pentagon Mascal.

قال لهم "سكوربيون":

وماذا عن المختطفين التسعة عشر.. هل اختطفت الطائرات نفسها مثلًا؟

قال "زورك" هذه المرة:

سبعة منهم تبين أنهم أحياء بعد الضربات.. واشتكوا واستنكروا وتحدثوا في الإعلام واستغربوا أن أسماءهم مكتوبة في قائمة المختطفين.. والبقية أسماؤهم ليست مدرجة في قوائم المسافرين على أي من الرحلات الأربع أصلًا.. بل إن الرحلات الأربع ليس في قوائمها أي اسم عربي من أي نوع.. والقوائم تم إعلانها رسميًا.

قال "سكوربيون":

من الصعب أن نقول أنه لم يكن هناك مختطفين.. هناك مكالمات مسجلة من داخل الطائرات لركاب يستغيثون.. ويقولون أن هناك مختطفين.

قالت أليكساندريا:

دعوا هذه القضية لي.. فقد قتلتها بحثًا.. معذرة يا "هال" أنت رجل الأرقام لكن دع هذه لي.. أولًا.. نسبة نجاح المكالمات للهواتف المحمولة في طائرة تطير على ارتفاع سبعة آلاف قدمًا هي ٠ %.. وكل المكالمات المزعومة تمت والطائرة أعلى من عشرين ألف قدم.. إذًا فكلهم يكذبون.

قال "سكوربيون" باحتجاج:

نعم هذا في البداية في تقريرهم الأولي.. ثم تراجعوا وقالوا أن كل المكالمات التي تمت إنما كانت من هاتف الطائرة الجوي المثبت أمام كل مقعد.. ولا توجد إلا مكالمتان فقط من هواتف محمولة.. وحتى هاتان المكالمتان تمتا والطائرة على ارتفاع خمسة آلاف قدم.

قالت له "أليكساندريا":

هم يقولون هذا لكنهم لا يقولون أن الهاتف الجوي في الطائرات البوينج ٧٥٧ وأخواتها كان غير مفعل في عام ٢٠٠١.. يشهد على هذا الكتالوج التقني الخاص بالطائرات.. وبالنسبة للمكالمتين من الهاتفين المحمولين. فقد تم نشر سجل المكالمات الخاص بهذين الهاتفين المحمولين من شركات الاتصالات الخاصة بهما.. واتضح أنه لم تجر منهما أية مكالمات في هذا الوقت إطلاقًا.

قال لها "سكوربيون":

وماذا عن شهادات أهالي المقتولين الذين استلموا المكالمات.. هل كلهم كاذبون؟ هذا لا يعقل يا أليكس؟

تنهدت أليكساندريا وقالت:

أي أهالي بالضبط؟ زوج الراكبة باربرا أولسون قال في الإعلام أن زوجته كلمته مرتين من هاتف محمول وهي في الطائرة المختطفة.. إحدى المكالمتين مدتها دقيقة والأخرى مدتها ثلاث دقائق.. ثم فضحه تقرير الFBI الرسمي الذي قال أن باربرا عملت مكالمة واحدة فقط ولم تنجح في الاتصال بالطرف الآخر فيها أصلًا.. وذلك الآخر تود بريمن.. هذه المكالمة مدفوعة بالكريديت كارد.. وفيها يتم تحويلك

لخدمة العملاء ثم يحولونك إلى من تريد مكالمته.. تحدث الرجل من داخل الطائرة لخدمة العملاء ورفض أن يحولوه إلى زوجته بحجة أنها حامل.. وظل يحادث خدمة العملاء عشرين دقيقة.. إذًا هناك شخص ما اتصل بخدمة العملاء وقال أنه تود بريمن يتصل من الطائرة المختطفة.. ومكالمته هذه كانت طويلة حتى تعجبت من ردت عليه في خدمة العملاء أن مكالمته لم تنقطع وتعجبت أنه لا يريد أن يحولوه لزوجته.. أيضا إيمي سويني التي قال محقق في الFBI أنها اتصلت به واستغاثت من الطائرة.. كيف له أن يعرف أن هذه هي إيمي سويني وهو لم يسمع صوتها من قبل؟

كان الدكتور "هال" مشغولًا بأمر ما يبحث فيه كل هذا الوقت.. ثم قطع الحديث وهو يعدل نظارته ويقول:

هناك شيء غريب يا رفاق توصلت له الآن.. لقد كنت أبحث منذ مدة في أمر الرادارات العسكرية الأمريكية وكيف لم تبلغ عن الطائرات المختطفة إلا بعد أن سددت ضرباتها.. حقًا إن من رتب لهذه الضربات شخص محترف.

اتجهت أنظار الكل ناحية "هال" الذي قال:

الهيئة العسكرية المسؤولة عن حماية جو نيويورك اسمها NEADS.. المثير والغريب أن المراقبين في NEADS كلهم كانوا في وسط عمليات تدريبية أثناء حدوث الضربات.. هذه العمليات يوضعون فيها داخل ظروف تبدو وكأنها ظروف خطرة على البلاد ويتم تقييم تصرفاتهم.. واحد من هذه التدريبات السنوية اسمه Vigilant Guardian.. وقد وافق وقته في هذه السنة يوم ١١ سبتمبر بالضبط.. في هذا التدريب يوضعون في ظروف وكأن أمريكا تحت الهجوم الجوي.. وفي العملية نفسها أيضًا تكون هناك طائرة مختطفة.. ففي ساعات الصباح الأولى التي حدثت فيها الضربات كان العاملون في NEADS مشغولين في تدريبهم على هذه العملية بينما الطائرات المنفذة للضربات تتجه ناحية أهدافها.. والمراقبون الحمقى لم يميزوا بين ما هو حقيقي وبين ما هو تدريب.

عدل "هال" نظارته الصغيرة وقال:

انظروا.. هناك تسجيل صوتي.. أول إبلاغ عن أن الطائرة ١١ مختطفة كان قبل أن تضرب الطائرة ضربتها بخمس دقائق بالضبط.. يبلغ فيه مركز المراقبة العاملين في NEADS أن هناك طائرة مختطفة دخلت جو نيويورك.. فردو عليه: "أهذا تدريب أم واقع؟" قال لهم: "بل هو واقع".. ورغم هذا.. فإن تفاعل العاملين مع الحدث كان ضعيفًا لأنهم ظنوا أنه جزء من التدريب أيضًا.. وهذا واضح في

طريقة حديث بعضهم مع بعض ومزاحهم في التسجيل.. حتى لمّا رأوا الطائرة تصطدم بالبرج في التلفزيون كانت أحاديثهم تقول أنهم يظنون أنه جزء من التدريب وأن هذا فيديو مسجل.

ساد الوجوم بعد هذا الكلام.. رفع "زورك" يده إلى أذنه بطريقة من يسمع شيئًا عبر جهاز ما وقال:

حقًا؟ على الشاشة الآن؟ حسنًا شكرًا لك.

رفع "زورك" يده إلى الشاشة بجهاز التحكم وفتحها وقال:

إن ما توقعته كان صحيحًا.. لقد تحدثت أخيرًا.. لقد تحدثت سوزان.. سوزان ليندواير.

نظر الجميع إلى الشاشة بتساؤل لتظهر عليها سيدة في أواخر الأربعينات تقف في مؤتمر متواضع وتتحدث.. قال "زورك" وهو يتابعها:

سوزان ليندواير يا رفاق.. كانت عميلة مهمة للمخابرات الأمريكية.. تم سجنها سنة ووضعها تحت المراقبة الصارمة خمس سنوات كاملة.. وإسكاتها عن التحدث إلى أي جهة خمس سنوات أخرى.... لأنها كانت تريد أن تقول للعالم أن أمريكا كانت تعلم بأمر هجمات سبتمبر قبل حدوثها بكثير.. بل إن أمريكا هي التي دبرت هذه الهجمات على نفسها.. لتكون ذريعة تهجم بها على العراق.. والآن بعد مرور أكثر من عشر سنوات.. فكوا عنها الحصار والمراقبة.. وها هي الآن تحكي القصة للعالم في هذا الفيديو الطويل.

قالت أليكساندريا:

أنا أفهم لماذا أرادوا غزو العراق.. ففيها من البترول ما يثير شهية أي أحد.. لكن لماذا هجموا على أفغانستان.. ما الذي لدى هذا البلد حتى تهتم أمريكا بتدبير ضربات وإلقاء اللوم على القاعدة مما يشرع لهم غزو أفغانستان؟

قال "مصعب":

من اجل الأفيون يا أليكس.. ٥٠٠ بليون دولار في السنة... أفغانستان معقل الأفيون في العالم.. ٩٠ % من أفيون العالم يخرج منها.

قال "زورك":

الكلام في هذا الأمر يضايق بعض الناس عندما نقول أن ضربات سبتمبر عمليات مدبرة وكل شيء يشهد أنها مدبرة.. الأمريكان لا يتعلمون من تاريخهم

المعلن والمكتوب.. هل نسوا عمليات المخابرات الأمريكية السابقة.. Operation Northwood وOperation Gladio.. وهي عمليات تقوم فيها أمريكا بعمليات إرهابية وتلقي اللوم على جهات أخرى.. ألقوا اللوم على كوبا في نورثوود وعلى الشيوعية في جلاديو.

كان هناك سؤال يلح على بالك منذ البداية.. وفكرت أن تطرحه أمام هؤلاء.. فتنحنحت قليلًا ثم قلت لهم:

معذرة.. لكن هل هذه الطائرات اختطفت نفسها فعلًا؟ لو لم يكن هناك مختطفون.. ما الذي حصل؟

نظر الجميع للدكتور "هال" وكأنه هو الذي عنده إجابة هذا السؤال.. قال "هال":

إنها تقنية الـHome Run يا عزيزي.. تقنية طورتها معامل الأبحاث الجوية الأمريكية وهدفها حماية الطائرات التي يتم اختطافها.. وهي تقنية تسمح لمركز تحكم معين على الأرض أن يتحكم بالطائرة المختطفة بالريموت كونترول ويوجهها ويجعلها تهبط في المطار الذي يريده هو.. رغمًا عن المختطفين.. هذه التقنية موجودة ومكتشفة منذ عشرين سنة.. ويمكن بها تركيب جهاز توجيه عن بعد في أي طائرة تريد.. هذا الجهاز يأخذ التحكم بالطائرة بشكل كامل.. أجهزتها وأنوارها وأبوابها وكل شيء.

قلت له وأنت تفكر:

هل تعني أن المخابرات الأمريكية استخدمت هذه التقنية للتحكم بالطائرات وتوجهها حيث يريدون؟

قال "هال":

هذا ليس جديدًا.... الطائرة المصرية EgyptAir Flight 99 مثلًا.. تم اختطافها بالريموت كونترول وإسقاطها في المحيط.. حيث وجد الطيارون بعد حوالي نصف ساعة من الإقلاع أن التحكم بالطائرة صار يتم عن بعد ولم يمكنهم السيطرة عليها.

قالت أليكساندريا:

أعجب شيء في العالم هو أن هناك مسلسلًا حكى هذا السيناريو بالضبط قبل الضربات بثلاثة شهور.. مسلسل The Lone Gunmen في أول حلقة منه.. حيث تكون هناك خطة من عصابة للتحكم بطائرة بالريموت كونترول وتوجهها لتصطدم ببرج التجارة العالمي.

الآن أتانا رجل مقنع على عجل وهو يمسك بقناع مميز الشكل وقال:

سيدي.. إن قناع السيد الجديد قد أصبح جاهزًا.

نظر الجميع إليك.. ونظرت إليهم.. ما الأمر.. هل أنت السيد الجديد؟ وما هذا القناع بالضبط؟ لحظة.. هل تعنون أن...

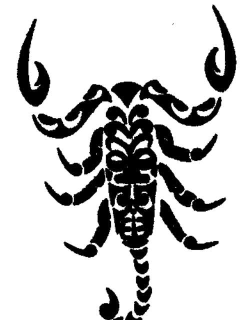
قالت أليكساندريا بمرح:

مرحى.. إنه سيبدو رائعًا عليك أيها الرفيق.

ربت "سكوربيون" على كتفك وقال:

لقد أصبحت جاهزًا يا صديقي.. أنت الآن واحد منا.. لكني لا أريدك أن ترتديه الآن.. تعال معي لنستريح قليلًا من هذه الثرثرة.. فنحن نريد لذهنك أن يكون صافيًا بعد أن ترتدي هذا القناع.

ذهبت مع سكوربيون إلى غرفة جانبية.. كانت غرفة صغيرة بأثاث بسيط وجهاز كمبيوتر حديث.



انتهيت من الاستراحة وعدت مع سكوربيون إلى قاعة المقنعين.. أخذ سكوربيون القناع منهم وسلمك إياه.

أخذت القناع وأنت تنظر إلى داخليته اللامعة.. كم هو متقن وجميل هذا القناع.. قربته من وجهك ببطء ونظرت إلى داخله.. إن نفسك تحادثك أن تكون واحدًا من هؤلاء الفتية.. لقد شعرت معهم بالحرية.. لأول مرة تشعر أنك حر.. لا أحد يملي عليك ما تصدقه وما لا تصدقه.. لا قنوات ومذيعين يصرخون طيلة الوقت ويحاولون إقناعك بأن كذا حصل بسبب كذا.. أنت حر يا فتى.. إنها كلمة غالية فقط لمن يشعر بها.. ولا يشعر بها أي أحد.. قد تكون مسجونًا وراء قضبان حديدية حقيقية لكنك حر.. لأن عقلك حر.. لا يحجر عليه أحد.. لا يأخذه منك

أحد ليفكر لك به ثم يعيده إليك.. أنت الذي تفكر.. قد تخطئ وقد تصيب لكنك تفكر في النهاية.. تفكر لأنك إنسان.. لست فردًا من قطيع.. لاحت ابتسامـــة على شفتيك وأنت تضع القناع على وجهك.. ولمّا وضعته اختلفت أشياء كثيرة.

كل شيء اختلف لمّا وضعته على وجهك.. كل الذين كانوا حولك لم يعد لهم وجود كأنهم تبخروا إلى السماء.. أين أليكساندريا الجميلة؟ والدكتور هال بنظارته الصغيرة التي يعدلها كل حين؟ حتى المكان الذي كنت فيه معهم تغير.. أصبحت الآن وحدك في غرفة مغلقة عليك.. نظرت حولك ببطء يائس باحثًا عنهم في الغرفة الصغيرة.. لكنك لم تجد أحدًا بالطبع.. أين مصـ...

"لا تضيّع سيل أفكارك.. اخرج من هنا".

اتسعت عيناك في رعب حقيقي.. من الذي قال هذا؟ لم يكن هذا صوتًا سمعته أذناك.. كان يبدو كصوت يسمعه عقلك.. بطريقة يصعب أو يستحيل شرحها.. ثم اطمأن قلبك بعد دقائق.. نعم لا بد أن الوحدة جعلتك تهذي.

غرفة كئيبة صغيرة خالية من أي شيء إلا تلفزيونًا صغيرًا قديم الطراز موضوعًا في مكان متوسط في الغرفة.. وطشت ماء صغيرًا موضوعًا في إحدى الزوايا.. وهناك باب للغرفة ونافذة متهالكة مغلقة.. أين أنتم يا أصحاب الأقنعة؟ ألم تقل لك أليكساندريا أنها لن تتركك وحدك؟ ها أنت الآن محبوس وحدك في عالم ندمت أنك دخلته يومًا.. حتى صاحبك الذي دخلت معه قد مات.

"ما زلت تضيع مزيدًا من الوقت في أفكار عاطفية لا تقدم ولا تؤخر.. هذه الغرفة غير مريحة.. اخرج منها حالًا".

ارتفعت دقات قلبك مرة أخرى.. إن هذا الصوت يتحدث ويعاتب.. ليس مجرد هذيان.. هل مت؟ هل هذا هو الموت؟ لكن معلوماتك عن الموت ليست هكذا أبدًا.. توجهت ببطء ناحية الباب.. قدماك خائفتان حقًا وقد أصبحتا تحملان قلبك الذي يبدو أنه سقط فيهما.. فتحت الباب ببطء فضربتْ لفحة شديدة من الهواء وجهك وملابسك وجعلتك تتراجع خطوتين إلى الوراء.. أي جحيم هذا بالضبط؟! لاحظت أن الباب وراءه قضبان حديدية سميكة.. والمنظر الذي تطل عليه هو لا شيء.. فقط هواء عاصف غاضب.. بشيء من الجهد أغلقت الباب مرة أخرى.. وتوجهت إلى النافذة المتهالكة ففتحتها.. نفس القضبان.. ونفس المنظر.. ونفس الهواء.. اللعنة على هذا العالم.

"إنها أرض الإعلام.. لا بد أن الحل في التلفزيون إذًا.. تعامل مع التلفزيون".

ذلك الصوت اللعين.. نظرت بتلقائية ناحية التلفزيون.. ثم ذهبت بتوتر ووقفت أمامه وأخذت تبحث بعينك عن الزر الذي يشغله.. لم يكن إيجاده صعبًا فهو من طراز قديم حيث كل شيء كان كبير الحجم.. فتحت التلفزيون.. تشويش من النوع الذي يشي باقتراب تحسن الصورة.. مرت بعض الثواني وأنت تنظر إلى الشاشة محاولًا معرفة الصورة التي وراء هذا التشويش.. حتى تحسنت وتعدلت واتضحت ورأيتها.

كانت الشاشة تعرض تقريرًا إخباريًا من قناة أمريكية ما.. وصورة صدام حسين على يمين الشاشة وصورة "بن لادن" على يسارها.. والمذيع في المنتصف يقول: لقد وردتنا أنباء هامة مفادها أن الحكومة الأمريكية قد وجدت أدلة من النوع الثقيل تكشف وجود علاقة قوية بين العراق وبين تنظيم القاعدة.. أوردها اليوم "ديك تشيني" نائب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

احتلت منتصف الشاشة صورة ديك تشيني فأصبحت تتوسط صورة صدام و"بن لادن".. قال تشيني: "إن العلاقة قديمة بين صدام وتنظيم القاعدة من أيام التسعينات، ولقد أخبرنا صديقنا وزير الدفاع التشيكي اليوم أن محمد عطا قائد عملية ١١ سبتمبر قد تقابل مع أحد ضباط المخابرات العراقيين الكبار في براغ عاصمة التشيك.. قبل خمسة أشهر فقط من ضربات سبتمبر".

ثم اختفت صورة ديك تشيني وحلت محلها صورة لرجل ملتحٍ.. قال المذيع: ولقد تأكدت هذه الادعاءات بعد تعاون أحد أفراد تنظيم القاعدة المهمين واسمه ابن الشيخ الليبي.. اعترف الليبي أن صدام حسين كان يدرب العديد من عناصر تنظيم القاعدة وأنه كان يزود القاعدة بأسلحة من النوع الخطر جدًا.. أسلحة بيولوجية وكيميائية.. أسلحة دمار شامل.. أسلحة من النوع الذي يقضي على قرى كاملة.. ولقد صرح عدة مسؤولين في الحكومة الأمريكية عن تخوفهم من أن تكون الهجمة القادمة على الولايات المتحدة هجمة نووية أو بيولوجية.. وهذه لن يكون ضحاياها بالآلاف.. بل بالملايين.

صدام حسين يدرب القاعدة؟ حدثتك نفسك لثوانٍ بأن هذا ممكن ولكن..

"هؤلاء الكذابين الأفاعي.. يريدون أن يشرعوا لأنفسهم غزو العراق.. لا بد أن أدلتهم هذه ملفقة".

لم تدري أين تنظر لتجد صاحب هذا الصوت.. من هذا الذي يتحدث؟

"ألم تعرف بعد من أنا؟"

إنه يحاورك.. هذا الصوت.. من هو بالضبط؟

"أنا صوت عقلك".

نظرت عيناك يمينًا وشمالًا ببطء متسائلًا.. ثم تذكرت مشهدًا أتى إلى ذاكرتك الآن.. يبدو أن المفاجأة والحيرة قد أنستك إياه..

بينما كانت يد "سكوربيون" على كتفك.. وأنت تمسك القناع بيدك وتنظر إليه.. وأليكساندريا تقول شيئًا ما بمرح وتشجعك.. قال لك الدكتور هال وهو يعدل نظارته الصغيرة:

تذكر.. إن هذا القناع يشحذ جزيئات عقلك ويوقظها من سباتها فتتحرك وتحرك كل التروس التي بدأ يصيبها الغبار.. فيدور لحركتها ذلك السوبركمبيوتر العظيم الدقيق الذي أهداك إياه ربك لمّا خلقك إنسانًا.. يدور لحركتها عقلك.

وقالت أليكساندريا:

ستجده يحدثك ويعاتبك ويصحح لك ويرشدك.. أنت في أيد أمينة الآن.

نظرت لها نظرات تحمل الكثير من المعاني.. ثم نظرت إلى القناع.. ثم وضعته على وجهك.. ثم وجدت نفسك هنا.

إذًا فهذا ليس صوت أحد.. إنه صوتك أنت.. صوت عقلك.. فليكن.. لكن كيف ستخرج من هنا؟

بدأت تغير بين محطات التلفزيون.. تقارير إخبارية.. مذيعون.. أحاديث صحفية.. بوش.. صدام.. القاعدة.. الإرهابيين.. ١١ سبتمبر.. المسلمون.. الإرهابيون.. صدام.. ١١ سبتمبر.. العراق.. صدام.. أسلحة دمار شامل.. الإرهابيون.. سيدمر الولايات المتحدة.. صدام وهتلر شيء واحد.. لا بد أن نوقفه.. "بن لادن".. ١١ سبتمبر.. محمد عطا.. العراق.. صدام.. الإرهابيون.. الإرهابيون.. الإرهابيون.. الإسلام.. الإرهابيون.. صدام.. العراق.. الحرب.. الإسلام مرة أخرى.. صداع يغزو دماغك.. لم تعد تتحمل.. الإرهابيون.. كفى كذبًا.. ارحموا الناس.. القاعدة.. ضربات سبتمبر.. برج التجارة.. ٣٠٠٠ أمريكي ماتوا.. الثأر.. صدام يهدد أمريكا.. صدام هو الشيطان.. دماغك ستنفجر.. إنهم يغسلون أدمغة الناس.. أنت الذي تحتاج لغسل دماغك من أكاذيبهم.. قبضت على جهاز التحكم بقوة.. صدام.. العراق.. "بن لادن".. القاعدة.. صرخت صرخة غاضبة.. رميت جهاز التحكم.. انكسر جهاز التحكم.. المذيع يتحدث.. صدام.. صدام.. صدام.. اخرس.. وثبتَ كالليث إلى التلفزيون.. سقطت أنت وهو على الأرض.. إنه لا يسكت.. لا

يوجد له سلك.. إنه ما زال يتحدث.. المذيع أصبح مذيعين وثلاثة وعشرة.. ألا يموت هؤلاء أبدًا؟! بروباجاندا.. كفاكم غسلًا للأدمغة.. كفاكم كذبًا.. ماذا؟ الغسل؟ غسيل الدماغ؟ الغسيل.. الغسيل هو الحل.. هل جننت؟ كان هناك طشت هنا أين هو؟ القاعدة ستضرب من جديد.. أسلحة بيولوجية.. صدام غاضب.. أين الطشت؟

توجهت إلى زاوية الغرفة حيث الطشت الصغير المملوء بالماء.. وغمست رأسك كله فيه بقوة.. اغسلوا تلك الأفكار القذرة من دماغي.. اغسلوا هذا الكذب.. رفعت رأسًا يقطر منه الماء.. ونظرت إلى التلفزيون.. المذيع الذي كان يتحدث لم يعد مذيعًا.. لم يعد يحمل وجه مذيع.. بل أصبح يحمل وجه "ديكوي" الشيطاني.. ولما التقت عيناك بعيناه.. ابيضت عيناه كلها وصرخ فيك بغضب.

هرعت إلى الباب وفتحته.. لم تعد هناك قضبان حديدية.. فقفزت وسط الهواء العاصف.. فأخذك بعيدًا إلى حيث ما أخذك.

■ ■ ■

أصبحت في مكان كئيب قذر.. صرخات شخص ما.. مصابيح نيون في السقف شارفت صلاحيتها على النفاد.. فصارت تطفئ وتضيء.. دخلت في ممر.. فور أن خطت قدمك داخله عرفت ما هذا المكان.. إنه سجن.. وهذا ممر بين الزنازين.. زنازين مليئة بمجرمين ذوي ملامح شرق أوسطية.

صرخات شخص ما تأتي من نهاية ممر الزنازين.. شتائم باللهجة المصرية.. صرخات.. وشتائم.. مشيت بحذر ناحية مصدر الصرخات.. صوت مياه تسكب.. وكلما سكبت زادت الصرخات التي بدت مكتومة وكأنها تصدر من شخص مكمم.. أبطأت خطواتك عندما اقتربت من نهاية الممر.. مددت رأسك قليلًا لتنظر.. كما توقعت.. إنهم يعذبون شخصًا ما.. إن لهجتهم المصرية توحي أن هذا سجن مصري.

"قف مكانك واهدأ واستمع.. إنهم قادمون".

الشتائم والهجوم اللفظي تحول من أصحابه إلى توعد بنقله إلى مكان آخر فيه مزيد من العذاب.

"سينقلونه لمكان آخر.. سيمرون من هنا الآن.. تراجع واختبئ في زنزانته.. ستجدها هي الوحيدة المفتوحة بالتأكيد".

من أنت وكيف دخلت إلى هنا؟

كان صوت رجل مصري اللهجة يأتي من خلفك.. وقبل حتى أن تستدير.. انهالت عليك ضربات كثيرة من الرجال.. وشعرت بوعيك يذهب عنك.. ثم سحبوك إلى الزنزانة المفتوحة التي كنت تريد أن تدخلها ورموك بالداخل.. ثم فقدت وعيك تمامًا.

يوم كامل وأنت فاقد لوعيك في تلك الزنزانة ولم يوقظك إلا صوت باب الزنزانة الصدئ وهو يفتح وأصوات أناس يتحدثون سبابًا.. ثم يدخلون فيها رجلًا لم تجد في مثل بؤسه وشقائه ودمائه وألمه.. يتلوى على الأرض.. لا تدري ما الذي فعلوه به.. لكن يبدو من وجهه وجسده أنهم كادوا يقتلونه.. رفع الرجل رأسه ببطء إليك عندما شعر بوجودك.. ثم همد رأسه على الأرض وفقد الوعي.. نظرت إلى ملامحه التي شوهها التعذيب.. إنه هو.. ذلك الرجل الذي تحدثوا عنه في التلفزيون.. ابن الشيخ الليبي.. عضو القاعدة الذي تعاون واعترف بالعلاقة بين القاعدة وصدام.. لم أكن أدري أن هذا هو ما يعنونه بكلمة تعاون.. لكن ما علاقة مصر بالأمر؟

رفعته من على الأرض ووضعته على السرير.. وتركته هناك وأسندت ظهرك إلى الحائط وجلست في زاوية الزنزانة.. لقد ظننت أنك تحررت.. لكن يبدو أنك قد انتقلت من سجن إلى سجن أبشع منه.. لكن لا تنكر.. الاستماع إلى المذيعين كان عذابًا نفسيًا في ذلك التلفزيون.. لكن الوضـ..

لم أكن أعرف ما سأقوله لهم.. لم أكن أعرف كيف أؤلف أي قصة أصلًا.

كان هذا هو الرجل الذي معك في الزنزانة قد أفاق وبدأ يتحدث.. قال:

لما قبضت علي المخابرات الأمريكية.. سألوني سؤالًا غريبًا.. سألوني عن العلاقة بين صدام و"بن لادن".. لم أعرف ما العلاقة بين الشخصيتين أصلًا.. هذا في واد وذاك في واد آخر.. كانت أساليب استجوابهم معي عنيفة.. لكنهم يئسوا مني ليس بسبب أنني أخفي شيئًا.. لكن حقًا لم أقدر حتى على تأليف أي قصة زائفة.

قام من رقاده ببطء وقال:

ثم أرسلوني إلى هنا.. مصر.. أسبوع واحد وتنشط عقلي واخترعت قصة جميلة جعلتهم يرحمونني قليلًا.. لقد رأيت هنا ألوانًا من التعذيب لم أكن أعرف أنها موجودة أصلًا.. آخرها هو الذي قضى علي وجعلني أؤلف تلك القصة.

سألته:

وماذا فعلوا بك؟

قال لك:

أدخلوني في صندوق بهذا الحجم.

وعبر لك بيده عن حجم معين.. دققت النظر في الحجم الذي يمثله.. لم تصدق.. كيف هذا؟ قال الليبي:

هذا ما حصل.. لا تسألني كيف أدخلوني في صندوق بهذا الحجم الذي يزيد حجمه قليلًا على حجم شاشة اللابتوب.. لكن هذا ما حصل.. ظلوا يضربونني ويدفعونني ويحشرونني حتى أدخلوني فيه.. كان صندوقًا حديديًا.. قبض على عظامي كلها.. تركوني فيه يومًا كاملًا بليله ونهاره.. ثم أخرجوني منه فجأةً وانهالوا على عظامي المتكسرة ضربًا.. وهنا فقط قلتها.. قلت أنني أعرف العلاقة.. وأخبرتهم بأكثر قصة خيالية استطاع عقلي أن يتوصل لها.. أعرف أنه تعجبهم هذه الأشياء.

أسندت رأسك على الحائط وسرح عقلك في كثير من الأمور.. تذكرت المقنعين وأحاديثهم لك.. ثم انتبهت فجأةً إلى جملة قالها "زورك".. القضبان الحديدية.. قد تكون مسجونًا وراءها لكنك حر.. نظرت بسرعة إلى القضبان ولمعت عيناك.. قمت من مكانك واتجهت لها.. وبالفعل مررت منها كأن لم تكن.. نظرت وراءك إلى الليبي الذي كان ينظر لك باستغراب.. نظرت حولك في الممر ثم هممت بالمغادرة.

انتظر.. لا تذهب من هنا.

كان هذا هو الليبي يحدثك.. نظرت له فوجدته يشير إلى نافذة زنزانته.. نظرت إليها فوجدت عليها قضبانًا.. لكنها تطل على خارج السجن.. فهمت ما يقصده.. دخلت مرة أخرى إلى الزنزانة عبر القضبان.. ووقفت أمام النافذة.. نظر لك الليبي وانحنى ليجعل لك يداه عتبة تقف عليها.. وبالفعل وقفت عليها وساندك حتى وصلت إلى النافذة بالأعلى.. هؤلاء الحثالة الإرهابيون الجبناء قد يكونون مفيدين أحيانًا.. نظرت إليه نظرة خاوية ثم مررت من قضبان النافذة كأن لم يكن لها وجود.. مررت إلى الخارج.. وخرجت من السجن مرة أخرى.

■ ■ ■

الآن خرجت إلى الحرية.. شوارع ومبانٍ وأناس وسيارات.. أنت في ميدان حيوي جدًا.. مبانيه كلها عالية جدًا تزينها أسماء علامات تجارية شهيرة.. أسماء بنوك وأسماء شبكات إعلامية.. كلها أشهر من نار على علم.. إنه ميدان التايمز في نيويورك.. زحام من الناس.. وزحام من البنوك وشبكات الإعلام.. البنوك تستعبد

الشعوب.. وشبكات الإعلام تستعبد العقول.. مبانيهم جميعًا عالية.. أعلى من كل ما حولها.. في رسالة أنه لا أحد أعظم منا في هذا البلد.. هناك شاشات ضخمة موضوعة على المباني.. تعرض الأخبار والإعلانات التجارية.. وهناك تجمع من الناس يتابعون إحدى الشاشات.. نظرت إلى الشاشة..

المخابرات الأمريكية كشفت أن صدام يريد نقل ستين ألف أنبوبة ألومينيوم.. هذه الأنابيب تستخدم في صناعة اليورانيوم.. إن صدام يريد أن يبيد أمريكا.

حولت نظرك عن هذه الشاشة.. هذه الأخبار لا تصدق.. ما هذا الهراء؟ قابلك تجمع آخر من الناس حول شاشة أخرى.. نظرت..

أبلغت المخابرات الإيطالية المخابرات الأمريكية بأن لديهم عقدًا مكتوبًا بين صدام وبين النيجر في أفريقيا لشراء خمسمائة طن من "الكعكة الصفراء".. وهو شكل من أشكال اليورانيوم.. صدام سيبيدنا.

ألن ينتهوا أبدا من هذا.. أخرجت جهازك السمارت فون وبدأت تبحث عن هذه الأخبار التي سمعتها منذ قليل.. استغرقت في البحث قرابة عشر دقائق.. يا للأفاعي! لقد تم إرسال هذه الأنابيب للفحص الرسمي.. وخرج الفحص بنتيجة أن هذه الأنابيب لا تصلح للاستخدام في صناعة أي يورانيوم ولا تصلح لصناعة أي شيء قريب منه.. لكن الإعلام والمخابرات تجاهلوا هذا التقرير تمامًا وظلوا على موقفهم أن الأنابيب هي لصناعة اليورانيوم.. ثم أعلنها بوش في الأمم المتحدة.. قال إن العراق كان يحاول شراء أنابيب لصناعة اليورانيوم.

العقد الذي بين العراق وبين النيجر لشراء الكعكة الصفراء تبين أنه عقد مزور ومن زوره اعترف بذلك.. إلا أن الإعلام طبعًا لن يقول لك هذا.. إنه يقول لك ما يريدك أن تصدقه.. وهو يعلم تمام العلم أنك ستصدقه.. لأنك إمعة.. لا يجب أن يستمر هذا.. لا بد أن نوقف هذا.. لا بد أن نوقظ هؤلاء الناس.. لا بد أن نرحمهم من هذه الشاشات.. بدا وكأن الشاشات استمعت إلى حبل أفكارك.. فوجدتها قد علا صوتها كلها فجأةً..

القاعدة.. صدام.. الإرهابيون.. تفجيرات سبتمبر.. العراق.. يجب أن ننتقم.. احذروا من صدام.. الـ..

أشحت بوجهك بعيدًا عن هذا الهراء.. نظرت إلى وجوه الناس لترى تأثير هذا عليهم.. إنهم يشاهدون هذا باهتمام.. هناك ملامح عامة مطبوعة على وجوههم كلهم.. هذه الملامح ليست طبيعية.. إنها تبدو وكأنها.. اقتربت أكثر من الناس لترى بوضوح.. إن ملامحهم فيها جمود ذاهل.. وعيونهم سارحة مثل عيون المنومين

مغناطيسيًا.. إنهم يتلقون ما يتلقونه من الشاشات ويمضون إلى طريقهم بهذه الملامح الجامدة والعيون الناظرة إلى اللامكان.. يمشون كلهم في الشوارع مثل الروبوتات.. كلٌ يؤدي ما يؤديه.

بعضهم يتحدث مع رفقائه بحماس وينظر إلى الشاشة.. إنه يردد على مسامعهم ما تقوله هذه الشاشات.. فتحولت ملامح من يحدثهم إلى ملامح جامدة ذاهلة هي الأخرى وصاروا يمشون وراءه.. الأخبار السامة هي مثل فيروس نفسي ينتشر من تلك الشاشات إلى جميع الساكنين في هذه المدينة.. لقد ظننت أنها الحرية.. ظننت أنها مدينة حرة جميلة.. لكن انظر حولك إلى الناس الأحرار.. جامدين ذاهلين يرددون ما يسمعون ببلاهة آلية.. أي حرية هذه بالضبط؟!

صورة ابن الشيخ الليبي تغمر الشاشات.. الناس ينظرون في جمود.. وينقلون ما يسمعونه في جمود.. ثم يمشون في جمود.. أيها الجامدون أفيقوا.. إن دولتكم هذه تجهز لغزو دولة بريئة بعد أيام لتقتل فيها من تقتل وتفجر فيها من تفجر.. أليس لكم أي رأي أو صوت؟ أيها الجامدون الحمقى.. إن الليبي هذا قد زيف قصة خيالية نبتت في عقله هو وحده.. وما أنبتها هو الألم الشديد الذي ألحقوه به.. ما بالكم ألا تبحثون؟ ألا يقرأ أحدكم أي شيء؟ ألا يتأكد أحدكم من أي شيء قبل أن يحدث به زميله؟

لم تعد تحتمل أكثر.. لا بد أن تقول الحقيقة لهؤلاء الناس.. لا ينبغي أن تتركهم هكذا في عماهم.. ولم تضيّع المزيد من الوقت.. تحركت ناحية مجموعة من الرجال يرتدون البدلات ويتحدثون في أمر ما.. قلت لهم ما قلته وأنت تشير إلى التلفزيون.. وبدأت تقنعهم.. نظروا إليك بعيون ساخرة مشفقة على حالك.. ثم أعرضوا عنك.. صرخت شاتمًا إياهم.. ثم انتقلت إلى غيرهم.. أيها الناس لا تظنوا أن هذا الرجل الليبي يتحدث بالحقيقة.. لقد عذبوا هذا الرجل.. وصفقة النيجر الحمقاء هذه مزيفة.. أفيقوا.

بدأ هؤلاء يجادلونك ويدافعون عما سمعوه.. هل أنت مجنون؟ كل هذه الأدلة وما زلت تدافع عن العراق؟ أنت لست وطنيًا.. إن دولتنا في حرب الآن وأنت تدافع عن الإرهابيين.. لا بد أن تدعم جيش بلادك.

إن هؤلاء مغسولة أدمغتهم كليًا.. لكنك لم تستسلم.. أخرجت لهم السمارت فون وأخبرتهم أن هذا كذب بسبب كذا وكذا.. وهذا كذب بسبب كذا.. كان بعضهم قد بدأ يسمع لك والبعض الآخر هزئ بك.. أنت أيها اللاشيء تعرف أمورًا مثل هذه والدولة ورجال الدولة والإعلام كلهم يكذبون؟

فجأةً نظر الكل إلى الشاشات وأشاروا إليها.. ثم أشاروا إليك.. نظرت إلى الشاشات بسرعة.. لقد أصبحت كلها تحمل صورتك.. بهذا القناع المميز الذي ترتديه.. يقولون أنك مختل عقليًا.. يقولون أنك محتال.. يقولون أنك ممول من الخارج.. ويقولون أنك خائن.. تحول البشر الذين في الميدان كلهم بجمود وجوههم وأعينهم الزائغة ناحيتك أنت.. وانقض كل من في الميدان عليك فجأةً.

لم تنتظر قدماك دقيقة واحدة.. فوثبت بعيدًا عن الجميع وابتعدت.. وركضت بأقصى ما تستطيع.. وركضوا وراءك.. ولكن بعضهم تعثر في بعض.. هؤلاء المساجين في عقولهم.. دخلت أحد الأزقة.. واختبأت وراء أحد الصناديق.. ثم لاح لك في السماء ظله.. طائرًا فوق الأرض طافيًا على الهواء.. بملابسه السوداء ونظرته الساخرة وشعره المصفف وملامحه الشيطانية.. إنه "ديكوي".. ذلك اللعين..

هبط على الأرض وبدأ يمشي ناحيتك.. لكنك خرجت من موقعك وتوجهت أنت إليه بكل عزم في جسدك.. كنت تريد أن تخنقه.. لكن الأمر لو كان بهذه السهولة ما كان ليستحق شهرته.. طار "ديكوي" مرة أخرى إلى ارتفاع منخفض جدًا وابتعد عنك بسرعة وظللت أنت تركض وراءه.. ولكنك لمحت شيئًا.. شيئًا خطرًا قاتلًا.. أنت تتجه بكل سرعتك ناحية هوة عميقة.. كأن الشارع قد انكسر أمامك وأنت تركض وتكونت هوة تحت قدميك مباشرة.. وأنت متجه إليها بكل عزمك.. لم تقو قدماك على التراجع.. وارتفعت يداك تلوح في الهواء برعب.. وتجاوزت الحافة.. وتهيأت للوقوع.

ولم يحدث شيء.. بقيت تمشي.. وكأنك تمشي على الهواء بينما "ديكوي" قد نظر إليك بسخرية.. هذا اللعين.. لقد نسيت أنه سيد الوهم والتضليل! نظرت له بغضب.. لكنه لم يعد هناك.. فخرجت من الزقاق ببطء حذر.

توجهت ناحية ميدان آخر.. فقط لتجد نفسك أمام تجمع آخر من الناس.. هناك صوت مألوف وراءهم.. إنه ذلك المغني الغريب الأبيض ذو الشعر الطويل الذي رأيته في العالم السابق.. لقد كان يغني بغضب هذه المرة.. بغضب شديد:

روجوا تلك الأكاذيب التي لديكم

اغتالوا وشوهوا

لستم سوى كلاب إعلام

طفيليات تفعلون أي شيء للحصول على أخبار

من التالي عندكم لتدمروا صورته
أحاديثكم افتراء
وتجارتكم الفضائح
بتلك الكلمات ألتي تستخدمونها
أنتم تقولون أنها مجرد أقلام وما هي بسيوف
ولكن بأقلامكم هذه أنتم تشوهون الرجال وتصلبون الملوك
وأنت لست مجبرًا على قراءة هذا
أنت لست مجبرًا على تصديق هذا
بشرائك لهذا أنت تدعمه
بقراءتك هذا أنت تدعمه
مشاهدة هذا الهراء دعم له
فلماذا تستمر بخداع نفسك
ليس معنى أنك قرأته في مجلة
أو رأيته على شاشة التفزيون
أن تجعله واقعًا
حتى وإن كان الكل يتحدث عن ذلك.

انفتحت بقعة من الضوء في السماء وتوجهت ناحية هذا المغني.. وحملت الشاشات كلها صورته.. توقفت كل القنوات عن بث أي خبر من أخبار العالم وصارت تتحدث عن هذا المغني وحده.. الآن عرفت اسمه.. "مايكل جاكسون".. إنهم يقولون أنه شاذ جنسيًا.. يقولون أنّه يتقزز من عرقه الأسود فغير لون جلده.. يقولون أنه مسخ.. يقولون أنه يتحرش بالأطفال.

ظهر كثير من المصورين الذين أحاطوا به وجعلوا يصورونه فاستضاءت الأجواء بأضواء فلاشات كاميراتهم.. ثم وصلت سيارة الشرطة وقبضت عليه ووضعت الأغلال في معصميه وأدخلوه إلى سيارتهم.. نسى العالم ما يحدث من أخبار في أي مكان وصارت كل القنوات ليس لها هم سوى متابعة أخبار هذا المغني.. لكن لماذا؟

أصبحت تشكر الظروف التي شغلتهم عنك نوعًا ما.. وبدأت تمشي في الاتجاه الآخر وتنظر للأرض.. وأخرجت جهاز السمارت فون وفتحت مواقع الأخبار.. حتى

المواقع لم تعد تتحدث إلا عن جاكسون هذا.. اشتعل الفضول لديك لتبحث وراء كلامهم عنه.. والذي حدثتك خبرتك معهم أنه كذب.. الفضول فقط كان في رغبتك في معرفة الحقيقة وراء كل هذا.

انشغلت بالبحث الذي استغرقك قليلًا.. هذا الرجل كان أسود البشرة حقًا ثم أصبح أبيض البشرة.. عرفت أنه يستحيل على أي شخص أن يغير لون جلده بأي طريقة كانت حتى في العصر الحديث مع أحدث التقنيات المتوفرة في عالم الجلدية.. الأمر عبارة عن بلايين بلايين الخلايا الصبغية التي تغطي جلد أي إنسان.. والتي تكون مبرمجة جينيًا أن تعطي لونًا معينًا ولا يمكن قلب هذا اللون بأي طريقة من الطرق.. لكن هناك شيئًا واحدًا فقط يدمر هذه الخلايا الصبغية كلها ويزيل اللون تمامًا ليحوله إلى اللون الأبيض القطني.. هذا الشيء مرض يدعى البهاق.. ولا أحد حتى لحظتنا هذه يعرف له علاجًا.. أو يعرف حتى سببه.. يمكنه أن يصيبك فجأةً فيغير لك لون جلدك فتتحول إلى أبيض قطني.

وهذا المرض لا يفعل هذا مرة واحدة.. بل بالتدريج.. يقتل خلاياك الصبغية بالتدريج.. في البداية سترى أجزاءً من وجهك ورقبتك قد تحولت إلى اللون الأبيض القطني.. ثم ستتبعها أطرافك.. ثم ظهرك.. ثم يستمر الأمر عبر السنين حتى يقضي على كل الخلايا الصبغية في جسدك.. أثناء اشتغال المرض على قتل خلاياك الصبغية يكون منظرك غريبًا.. مرقشًا مليئًا بالبقع البيضاء هنا وهناك في وجهك ورقبتك ويديك.. ولو كنت نجمًا أسودَ في هوليوود وأصابك هذا المرض وجعل أغلب وجهك ورقبتك ملونين باللون الأبيض.. فسيتعين عليك وضع الكثير من المكياج لإخفاء المناطق السوداء وإحداث توازن في شكل البشرة.. بل إن المرض سيطال الخلايا الصبغية التي على شفتيك فتظهر عليها بقع غريبة.. وسيتعين عليك وضع ملون للشفاه لمحاولة جعل لونها مثل اللون العادي.. إن مايكل جاكسون هو أشهر مريض بهذا المرض في التاريخ.

الأمر ليس حكاية تقزز من عرقه إذًا.. وليس حكاية أنه يحب وضع المكياج لأنه شاذ.. الحكاية مرض يحاول السيطرة عليه للظهور بشكل طبيعي.. لكن طبعًا المكياج لا يجعل أي رجل يضعه يبدو طبيعيًا بقدر ما يجعله يبدو مسخًا غريب الأطوار.

وعندما انتهوا من حكاية تغيير اللون والشذوذ دخلوا في حكاية التحرش الجنسي بالأطفال.. وأدخلوه في محاكمة طويلة خرج منها بريئًا بعد ما اعترف المدعون عليه أنفسهم أنهم رفعوا عليه هذه القضايا لأجل المال.. وليس أي مال..

فقد طالبوا بعشرات الملايين تعويضًا.. لكنهم في الإعلام لا يقولون لنا هذا.. ولن يقولوا.. فقد قرروا اعتبار الرجل من الـTruthers.. لأنه يهاجم كثيرًا من الأمور الفاسدة في الدولة.. يهاجمها بالفن.. والفن مؤثر.. وهو لديه جمهور واسع عريض جدًا.

هل ظننت أنك ستدخل إلى عالمي وتتمشى فيه هكذا كأنما تتمشى في الشانزليزيه؟

انتهت من فورك ونظرت حولك في رعب.. رأيت نفسك واقفًا في ميدان خالٍ ليس فيه أحد.. نظرت إلى السماء تبحث عنه.. الصوت صوت "ديكوي" لكن أين هو؟

أراك تعلمت البحث أيضًا فصرت تبحث ويستغرقك البحث أيها الفاني.

برز أمام وجهك فجأةً كأنما ولدته الأجواء.. كان طافيًا في الهواء كعادته ثم نزل إلى الأرض.

هذه المرة لم يكن ينظر لك بطريقة عادية.. بل لقد ابيضت عيناه ونظر لك بطريقة المفترس الذي يعلم أن فريسته لم تعد تستطيع الهرب.. فتقدم إليك ببطء.. وظللت أنت تتراجع بظهرك حتى تعثرت وسقطت.. وظل هو يمشي متوجهًا إليك بهدوء قاسٍ.. نظرت حولك تبحث عن أي مساعدة.. لكن الميدان كان خاليًا كأنه صحراء.. المشكلة أنه ليس لديك رفيق في هذا العالم.

قطع أفكارك صوت شيء معدني سقط على الأرض بجوارك.. نظرت إليه.. كان سيفًا ملقى إلى الأرض بجوارك تمامًا.. استدرت إلى الخلف لترى الذي أسقطه.. فرأيت أقدامًا مألوفة.. رفعت عينك بسرعة لترى أصحاب الأقدام.

أليكساندريا.. ومصعب.. يقفان بقوة وكل منهما يشهر سيفه الخاص في وجه "ديكوي".

قالت أليكساندريا دون أن تنظر إليك:

ألم أقل لك أنني لن أتركك وحدك في هذا العالم؟

قال مصعب:

احمل سيفك وقاتل معنا.

قمت من سقطتك والتقطت سيفك.. كان سيفًا طويلًا فاخرًا حادًا من الطراز الذي يعطيك ثقة في نفسك بمجرد حمله.. اعتدلت في وقفتك وأشهرت سيفك وقلت لهم:

هذا الشيطان لا يملك جسدًا ماديًا.. كيف ستخترقه سيوفكم هذه؟

قالت لك أليكساندريا:

لأنها سيوفنا نحن.. لو كان هو شيطان الوهم.. فنحن الحقيقة.. والحقيقة تمزق الوهم إذا نزلت عليه.

وانطلقت أليكساندريا بسرعة متجهة إلى "ديكوي" وتبعها "مصعب".. ثم تبعتهم أنت بقوة.. لا بد أن نتخلص من هذا الشيء.. أصابتك ثقة وقوة رهيبة وأنت تركض جوارهما رافعًا ذلك السيف.. شعرت أنه يمكنكم القضاء على ألف "ديكوي".. لكن ما هذا؟ هذا الشيطان..

تحول "ديكوي" إلى خمس نسخ يقف بعضهم بجوار بعض وينظرون لكم بسخرية.. فتوقفتم قليلًا.. هذا الشيطان.. أيهم هو الحقيقي.. رأيتهما وقد انطلق كل منهما إلى الشيطانين اللذين على الطرفين.. فانطلقت أنت ناحية الشيطان الذي في المنتصف.. لكن..

تحول الخمسة "ديكوي" إلى عشرة يقف بعضهم بجوار بعض وينظرون بسخرية.. ثم تحولوا إلى عشرين.. ثم إلى خمسين.. تحلقوا حولكم في دائرة وظلوا يطوفون حولكم.. اللعنة!

وقفتم في منتصف الدائرة.. دقائق من التوتر أصابتكم ثم انطلقتم إلى ثلاثة جوانب من الدائرة.. صاح مصعب: سنمزقهم جميعًا بأنصال سيوفنا.

أصبح الخمسون الذين يطوفون حولكم مائة.. فقد ظهر فوقهم خمسون آخرون يتحلقون في دائرة علوية فوق الدائرة التي حولكم.. والكل يطوف..

ثم عمل كل الطائفين حركة بأيديهم فانفتحت شاشات الميدان كلها.. ورأيتم عليها صوركم.. مع معلومات إخبارية عن أنكم كذا وأنكم كذا... فسمعتم ضجة.. إنهم الشعب المغيب المنوم مغناطيسيًا.. هكذا بكلمتين صاروا يكرهونكم.. تسمع صوت أقدامهم تقترب.. حتى دخلوا إلى الميدان من كل فج.. وحوصرتم في المنتصف.. وظلت الشياطين تطوف حولكم وفوقكم.. يبدو أنكم خسرتم هاهنا..

لاحظت شيئًا غريبًا قد حدث فجأةً.. رأيت كل شيطان من الشياطين قد التصق معصماه بعضهما ببعض وكأن قيدًا قد قيده.. فصارت الشياطين تحاول الإفلات من القيد وفك أيادهم بلا جدوى.. ثم التصقت أرجل كل شيطان بعضها ببعض في قيد آخر.. ثم سقطت الشياطين كلها على الأرض.. واختفت كل النسخ

الشيطانية ولم يبق سوى "ديكوي" الذي أخذ يتلوى على الأرض بقيوده محاولًا الفكاك.

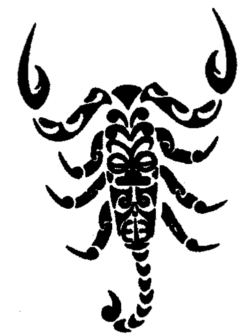
هذه الشياطين تنسى دائمًا أن اليد العليا هنا هي لي أنا.

نظرتم خلفكم كلكم باندهاش حقيقي.. فقد كان هذا هو آخر شخص تتوقعون رؤيته في هذه اللحظة..

"بوبي فرانك".. ذلك الفتى الذي دخلت إليه في غرفته في أول مشاهد هذا العالم.. وهو الذي استدعى "ديكوي" أول مرة.. يبدو أن "ديكوي" قد أفلت من التعويذة بطريقة ما وجعل حياتك جحيمًا.. ويبدو أن "بوبي فرانك" قد استعاد السيطرة عليه الآن.. لكن "بوبي" لم يأتِ وحده.. لقد أتيت أنا معه.. رفيقك.. لقد أنقذوني من الموت في تلك الأرض بمعجزة.. معذرة يا صديقي على الأخطاء التي حدثت في هذا العالم.. لكن شيئًا كهذا كان متوقعًا طالما هو عالم "ديكوي".. عالم الوهم والخداع والتضليل.

■ ■ ■

عدت مع المقنعين إلى داخل قاعدتهم.. احتفى بك الجميع.. حقًا لقد كدت تفقد ذاتك.. كنتم قد قبضتم كلكم على "ديكوي" وأحضرتموه إلى القاعدة.. وأدخله المقنعون في غرفة علقوه فيها من يديه ورجليه.. وتركوه إلى حين.. حتى ينظروا في أمره. أخذك "سكوربيون" من يدك.. حقًا أنت تحتاج لفترة راحة بعد كل هذا.



ذلك الفتى اللعين صاحب التعاويذ اللعينة.. "بوبي فرانك".. أكثر اسم أزعجنا نحن الشياطين.. هو شخص يجعل الشياطين تتحدث بالحق.. وتروي الحقيقة.. هو شخص يقيدنا من أيدينا ومن أرجلنا.. ويهدد بحرق أي شيطان منا لا يقبل

الحديث.. ولكنها مجرد سويعات قليلة يا فرانك.. تلعب فيها معنا لعبتك السخيفة.. ثم سنحولك إلى عبرة تتناقلها الكتب.

فليكن.. من المفترض الآن أن أحدثك بالحقيقة.. حقيقة أشياء لا ينبغي على أمثالك أن يسمعوها هكذا ببساطة.. أسرار ربما تجعلك تخرج أخيرًا من حوض السمك الذي تعيش فيه.. لو سألت السمكة ما آخر شيء تلاحظين أنه موجود في بيئتك؟ ستقول لك الماء.. الشيء يصبح غير ملحوظ لمن يعتاد عليه.. وأنت أيها البشري تعيش في شيء يحيط بك طيلة الوقت.. وتلتقي عيناك به كثيرًا جدًا.. لكنك لا تلاحظ ما يفعله بك.. وإذا سمعتني اليوم ستلاحظ.. وستفهم.. ولن أقدر على خداعك مرة أخرى.. لأن قوة هذا الشيء تكمن في عدم شعورك به.. وفور أن تلاحظه وتعرف كيف يعمل لا يعود له أي تأثير عليك.

تخيل أن رجلًا يدعى زيد يعيش في الجاهلية.. خرج زيد من بيته فأتاه رجل بنبأ مثير.. يا زيد ألم تعلم؟ لقد زنا فلان.

لكن فلانًا هذا رجل صالح.. غضب زيد على الرجل وحذره من أن يعود لمثل هذا الحديث عن الصالحين.. ثم مضى زيد إلى وسط المدينة.. فأصبح كل رجل يقابل زيدًا يقول له: ألم تعلم؟ إن فلانًا قد زنا. أصبح كل من في المدينة يقول هذا.. ساعتها سيصدق زيد.. وسيقول: اللعنة على فلان هذا الذي كان يدعي الصلاح أمامنا طيلة الوقت. هذه هي البروباجاندا في أبسط صورها.. أن تسمع نفس الخبر من مصادر كثيرة.. والعقل الباطن يتخذ لا إراديًا وضعية التصديق ناحية أي بروباجاندا.. طالما أن الكل يتحدث بالأمر.. فلا بد أنه قد حدث.

المشكلة أن فلانًا لم يزنِ.. ولم يره أحد يزني.. لكن البروباجاندا بدأت من عند رجل واحد حكى حكاية أمام مجموعة من الناس عن أن فلانًا قد زنا.. فذهب كل منهم يحدث بالأمر.

لكننا لم نعد في الجاهلية.. ولم نعد نعيش في قرى صغيرة.. في السابق كانت البروباجاندا تنتقل عبر الألسنة من واحد إلى اثنين أو ثلاثة أو عشرة.. أما الآن فقد خرج للبروباجاندا قرون استشعار.. وصار لها أقمار تدور حول كوكب الأرض.. وصار لها في كل بيت نافذة.. وبمجرد أن تفتح تلك النافذة سترى فيها رجالًا يتحدثون ويخبرونك بأمور أنها حدثت.. رجال يدخلون إلى غرفة معيشتك وغرفة نومك.. رجال كثيرون.. يرتدون بدلات أنيقة ويصففون شعورهم وينظرون في عينك مباشرة كل يوم ويخبرونك بما يريدون.

لو رفعت عينك عن هذه السطور ونظرت حولك الآن.. قد ترى هذه النافذة.. التيلي.. أو التيوب.. أو الشاشة.. أو التلفزيون.. بأي اسم تطلقه عليها حسب المكان الذي تعيش فيه.

الآن امسك جهاز التحكم.. وافتح التلفزيون.. وشاهد ما يعرض على الشاشة.

بعد دقيقة واحدة من مشاهدة التلفزيون يتوقف الجزء الأعلى من الدماغ عن العمل وهو الجزء المسؤول عن التفكير.. ويعمل الجزء الأسفل وهو الجزء المسؤول عن التلقي.. هذه الحالة تدعى Alpha State.. جرب أن تفكر في شيء ما جديًا وأنت تشاهد التلفزيون.. ستجد صعوبة في فعل ذلك حتى وأنت واعٍ تحاول فعله.

هذه مجرد بيانات عادية بديهية لأي مطلع في علم الأعصاب.. لاحظ أن الأطفال يسكتون عندما تشغله لهم وتتركه.. لأن أدمغتهم تتحول إلى وضع التلقي.. والآن لو أغلقنا التلفزيون سيعود العقل إلى الحالة العادية المفكرة Beta State.. ويصبح قادرًا على التفكير في أي شيء.. هذه هي قوة هذا الجهاز الساكن الموضوع بأناقة في غرفة معيشتك.. إنه جهاز يمرر البروباجاندا إلى عقول هيأها للتلقي بلا أي تفكير.

لكن تذكر ما قلته لك.. هذا الشيء الساكن يصير بلا تأثير فور أن تنتبه له وتعرف طريقة عمله.

دعني أحدثك بالسر الأول.. هناك ترس مهم جدًا لا تعمل أي آلة بروباجاندا إلا به.. هذا الترس هو التكرار.. تكرار سماعك للخبر من أكثر من شخص.. به تعمل البروباجاندا.. لكن لو سمعت خبرًا واحدًا في التلفزيون من شخص واحد.. فعقلك الباطن سيتعامل معه مثلما تعامل زيد مع أول شخص قال له أن فلانًا قد زنى.. لن يهتم كثيرًا.. لكن لو تكرر الخبر في كثير من القنوات.. وقاله كثير من الرجال.. فعقلك الباطن سيعتبره حقيقة.

تكرار الشيء يجعلك تصدقه.. حتى وإن كان هذا الشيء ضد مسلماتك.. أريد أن أقنعك أن ٢ + ٢ تساوي ٥... ماذا أفعل؟ ربما آتي بستيفن هوكنج وأجعله يتحدث بطريقته العلمية ويحدثك عن الرياضيات الجديدة التي يمكن أن تجعل ٢ + ٢ تساوي ٥.. ثم آتيك بفائز بجائزة نوبل وهو يقول: نعم هناك حالات يمكن أن تكون فيها ٢ + ٢ تساوي ٥... ثم متحدث آخر.. ثم آخر.. وأكرر هذا حتى تبدأ أنت في التصديق.. وتقول.. نعم ربما أصلًا ٢ + ٢ تساوي ٥.. من الذي قال لنا أنها ٤ أصلًا!

طبعًا هؤلاء العلماء لن يخدعوا أحدًا فهذا ليس ديدنهم.. إنما كان هذا مثال على تأثير التكرار من شخصيات مسؤولة في مجال ما..

ليس شرطًا أن يكون نفس الخبر يتكرر.. بل يمكن أن تكون أخبار كثيرة هنا وهناك كلها تتجه بك ناحية تصديق شيء معين.. وفور أن تصدقه ستبدأ بعدها تلقائيًا في الترويج له.. ستتحول إلى ترس في عجلة البروباجاندا.. تتحول إلى بوق لهم.. تدعو إلى ما يدعون إليه.. هذا هو السر الأول.. أنه إذا رأيت خبرًا يتكرر ويتكرر.. أو رأيت أخبارًا متتالية متنوعة كلها تتجه بك إلى تصديق شيء ما.. اعلم أنك لا تشاهد أخبارًا عادية.. أنت تشاهد بروباجاندا.

ستقول لي: وما المشكلة في البروباجاندا أصلًا؟ إن القنوات ووكالات الأخبار التي تنقلها هي هيئات كاملة ضخمة وشهيرة جدًا.. بمراسلين وصحفيين ومذيعين كل همهم هو الإخبار بالأخبار.. إن لم نصدق هؤلاء.. فمن يمكن أن نصدق إذًا؟

هذه هي بالضبط عقلية الإمعة.. مثلك ومثل أغلب من رأيتهم من جنس البشر.. الإمعة هو من يقول إذا أحسن الناس أحسنت.. وإذا أساءوا أسأت.. وإذا ظلموا ظلمت.. يعني الذي لا رأي له.. صاحب عقلية الغنمة.. التي تسوقها يمينًا أو شمالًا فتساق معك.. دائمًا يبحث عن شخص آخر ليفكر له.. يبحث عن شخص آخر ليتمسح في آرائه.. هو شخص يُشترى ويُباع في سوق العقول بثمن بخس.. لا يقيم له أحد وزنًا.. فلو أن هؤلاء المذيعين صدقوا سيصدقهم.. ولو أن هؤلاء المذيعين كذبوا سيصدقهم.

إذًا ليست المشكلة في صدق هؤلاء أو كذبهم.. المشكلة في عقلية الغنمة التي تجعلك تساق وراء ما يقولونه لك بلا تفكير.. وعقلية البغبغاء الذي يردد ما يقال له..

دعنا ننتقل إلى السر الثاني.. إن كل بروباجاندا تراها قد برزت فجأةً بشكل محموم سواء في التلفزيون.. أو في الصحف.. هي بروباجاندا مصنوعة.. لم تظهر هكذا بالصدفة.. بل هي مدبرة ومقرر إطلاقها في الوقت الذي انطلقت فيه.. بالطريقة التي انطلقت بها.

صانعو البروباجاندا اليوم هم الأغنياء والساسة.. الحكومة وأصحاب المال الكبار.. البروباجاندا هي طريقة هؤلاء في التواصل معنا نحن الشعب.. ليبيعوا لنا شيئًا ما.. سواء يبيعون لنا منتجًا.. او يبيعون لنا أفكارًا.. أو حربًا.. او مرشحًا سياسيًا... وركز فيما أقول.. أنا أتحدث عن صنع البروباجاندا وليس صنع الأخبار.. فيمكننا أن نذهب الآن لنحدث شغبًا في مكان ما وقتلًا وهرجًا ومرجًا..

هكذا نحن صنعنا خبرًا.. لكن طريقة عرض هذا الخبر في التلفزيون هي البروباجاندا.. سيعرضونه بطريقة تتماشى مع مصلحة الحكومة والكبار.. وهذا هو السر الثاني.. إذا رأيت أي بروباجاندا.. اعلم أنها مصنوعة من الكبار.

السر الثالث صادم نوعًا ما.. إن أي بروباجاندا تراها هي على الأغلب كذبة.. والكذبة التي يحتاجون أن ينشروها باستخدام البروباجاندا هي غالبًا تحمل وراءها شيئًا حقيرًا جدًا.

لعلك تذكر كيف عرضوا أخبار ضربات سبتمبر.. فجروا البرجين بأنفسهم ثم أطلقوا بروباجاندا كاسحة أقنعت الجميع أن من وراء هذا هو تنظيم القاعدة يعاونه صدام.. ثم أطلقوا بروباجاندا أكثر كسحًا تدعو إلى إعلان الحرب على هذين البلدين للقضاء على الإرهاب.. مليون شخص ماتوا في العراق.. وربع مليون في أفغانستان.

هل تعرف معنى كلمة مليون وربع شخص؟ إن أكبر استاد كرة قدم يسع مائة وخمسين ألف شخص.. نحتاج لثمانية ملاعب ريو دي جانيرو.. يملأهم الناس كلهم حتى آخر مقعد.. رجال بعائلاتهم بأطفالهم بنسائهم.. كل هؤلاء ماتوا.. فقط لإشباع رغبات بعض النخبة في المزيد من البترول والمزيد من الأفيون.. ولو كنت في أمريكا وقتها كنت ستصفق للجنود الأمريكان وهم يلقون القنابل على هؤلاء الناس وأنت تأكل شطائر الهامبرجر.. لماذا؟ لأنك تجلس أمام التلفزيون كثيرًا.. إن السيطرة العقلية لا تحتاج إلى أقطاب نوصلها إلى دماغك.. ولا إلى تنويم مغناطيسي.. إنها تحتاج فقط منك أن تفتح التلفزيون.

هل روحك ما زالت تشعر بمعنى أن هناك أناس يموتون.. أم أن الأمر بالنسبة لك أصبح مجرد عدد.. لا فرق بين عشرة ماتوا أو ألف ماتوا أو مليون ونصف ماتوا؟

كل الجدات كانت تقول.. إن مشاهدة التلفزيون كثيرًا ستخرب دماغكم.. كنت ربما تهزأ من كلامهن.. ولكنها حقيقة.. من يشاهد هذا الشيء ينتهي به الأمر بدماغ خربة كعلبة صفيح مدهوسة.

أصبحت دماغك الخربة هذه تؤيد القتل والحرب وتدعم الظلم والتشريد الذي تمارسه فئة ما على فئة.. لمجرد تصديقك لهذه الأمور التي سمعتها أو شاهدتها على الشاشات.. أين روحك؟ هؤلاء الأرواح المقتولة.. ألم يكن للواحد منهم ابنة صغيرة بريئة؟ أو زوجة.. أو جد أو جدة.. ألم تكن لهم حياة؟ أم أنهم

أتوا إلى العالم هكذا بطريقة شيطانية وكل همهم هو فعل هذا الشيء الذي تظن أنهم فعلوه؟!

أغلب الناس يصدقون المذيعين في التلفزيون.. هذا شيء نفسي.. شخص كهذا يرتدي هذه البدلة ولديه هذا البرنامج الذي يشاهده ملايين وهذا الاستوديو الخاص.. لا بد أنه شخص مهم.. لا بد أنه يعرف ما يتحدث عنه.. ورغم أنه شخص لم نقابله ولم نعرفه يومًا.. فإنه يخبرنا ماذا نفعل.. وبماذا نؤمن.

وأصحاب البدلات هؤلاء لا يكتفون بالكذب على شعوبهم طيلة الوقت.. بل هم يعملون كأنهم أعواد ثقاب لإشعال النار في المكان الذي يتواجدون فيه.. يقنعونك في النهاية أن هناك طرفين متصارعين.. وأنت تصدق بمشاهدهم وأخبارهم وأحاديثهم الكثيرة أنه فعلًا هناك حرب قائمة وكره متبادل وبغض.. فتشتعل الحرب الخامدة ويقوم الناس بعضهم على بعض ويتقاتلون وتتناثر الدماء.. فتتعلق في رقاب أصحاب البدلات مسؤولية كل روح أزهقت.. تعلقًا أشد من تعلق المسؤولية برقبة القاتل الذي أزهق الروح.. لأن الفتنة أشد من القتل.. وأنت.. يا من سمعت أحاديث هؤلاء على أريكتك ثم تحولت إلى بوق يردد كلامهم بلا ميزان.. تتعلق برقبتك مسؤولية كل روح أزهقت.. وليس لك أي عذر.. ليس عذرًا أنك أحمق وإمعة وتصدق ما يقال لك عبر هذه الشاشات.

سعر الكذب عالٍ جدًا في زماننا.. لذلك تجد صاحب البدلة هذا غني جدًا.. إنهم يدفعون له الكثير ليكذب.. انظر إليه.. مليونير وقح يجعجع ويكرر.. ما الذي يجعل أي شخص يصدق وغدًا غنيًا كذوبًا متملقًا كهذا؟ هل تدرك مدى غباء عقلك؟ البروباجاندا هي التي فعلت بك هذا.. أصبحت عندما ترى العديد من الأوغاد الأغنياء يتحدثون في أمر ما بصوت عالٍ.. تصدقهم.

السر الرابع.. جميع قنوات الأخبار والصحف في دولتك.. على كثرتها وتعددها وتباينها.. كلها يتحكم بها رجال يُعدون على أصابع اليد الواحدة.. كلها تتبع أيديولوجية واحدة وفكر واحد وإن ادَّعت كل واحدة منها أنها مختلفة.. سأعطيك مثالًا بالدولة التي نشأ فيها التلفزيون وقنوات التلفزيون ونشأت فيها البروباجاندا.. باعتبارها الدولة التي نسخت عنها كل دول العالم بلا استثناء هذا النظام نفسه.. سأعطيك مثالًا بأمريكا.

أمريكا فيها حوالي ٢٠٠٠ قناة تلفزيونية و١٥ ألف محطة راديو و١٣٠٠ جريدة و٢٠ شركة إنترنت و٦ استوديوهات أفلام.. هؤلاء هم بوابات الملتيميديا في

أمريكا.. إن هؤلاء.. ولك أن تتخيل ضخامة ما أتحدث عنه.. كلهم بكل ما فهم ومن فهم تملكهم ٦ شركات كبيرة فقط.. ستة رجال كبار يتحكمون بهذا كله.. سأذكر الستة مع أمثلة على أشهر الأسماء التي يملكونها..

ComCast

تمتلك شبكات قنوات إخبارية مثل NBC وCNBC وMSNBC واستوديوهات أفلام مثل Universal Studios وDreamWorks وشركات إنترنت مثل AT&T

News Corp

تمتلك قنوات Fox الإخبارية وجرائد مثل Wallstreet Journal و Sunday Times وThe Sun وNew York Post واستوديوهات أفلام مثل 20th Century Fox و21th Century Fox

Time Warner

تمتلك قنوات إخبارية مثل CNN وقنوات متخصصة مثل HBO وNBA وAdult Swim وCartoon Network واستوديوهات أفلام مثل Warner Bros وNew Line Cinema وCastle Rock.

CBS

تمتلك قنوات إخبارية مثل شبكة CBS وقنوات متخصصة مثل شبكة Showtime وشركات إنترنت شهيرة مثل CNET وLast.fm

Walt Disney

تمتلك قنوات إخبارية مثل ABC وقنوات متخصصة مثل A&E وHistory وESPN واستوديوهات أفلام مثل Walt Disney وMarvel وTouchstone

Viacom

تمتلك قنوات متخصصة مثل MTV وNickelodeon وVH1 وBET وComedy Central استوديوهات أفلام مثل Paramount Pictures

قد تبدو هذه القنوات أو الصحف متنافسة.. لكنها في الحقيقة مجمعة على أيديولوجية واحدة.. كلها توصل لك نفس الرسالة.. بطرق مختلفة ووجوه مختلفة وأقلام مختلفة.. ودعني أخبرك بمعلومة ربما تكون قد سمعتها من قبل.. هؤلاء الرجال الستة الذين يملكون الميديا في أمريكا كلهم يهود.

المذيعين على هذه القنوات كلهم يقرأون من نص مكتوب على شاشة أمامهم.. وأحيانًا كثيرة يرسل النص نفسه إلى جميع القنوات وجميع المذيعين في كل

قنوات الستة الكبار.. فيقول كل المذيعين كلهم في أمريكا نفس العبارة.. بالنص.. ولقد تم فضحهم وتجميع عباراتهم المتشابهة هذه على الإنترنت أكثر من مرة.

الدولة.. ورجال الإعلام.. والبنكيون الكبار.. كلهم في علاقة صداقة وثيقة أبدية مؤبدة.. لأنه لو سقط طرف من هذه الأطراف من الصداقة.. سينهار هذا النظام تمامًا.. لذلك لا شيء يسمح له بأن يخرب هذه الصداقة.. حتى وإن تغير رجال الدولة.. وتغير رجال الإعلام.. والدولة التي لا تسيطر على الإعلام يسقطها الإعلام.

لا تظن أن أصدقاء النظام الإعلاميين هؤلاء تؤنبهم ضمائرهم مثلًا بين الحين والآخر.. لا.. إطلاقًا.. بل هم يعتبرون أنفسهم وطنيون جدًا أكثر من أي شخص آخر في الدولة.. لأن ولاءهم هو للدولة.. والدولة هي الحكومة.. وهم يعرفون أنهم ذراع مهم جدًا من أذرع الحكومة.. ربما هم أهم ذراع على الإطلاق.

السر الخامس.. لا يسمح بعرض أي خبر أو جملة لا تعجب الحكومة على أي من قنوات الميديا كلها.. غير مسموح بهذا.. ولو أفلت خبر أو جملة أو تعبير من أحد من المذيعين أو الصحفيين العاملين في القناة يكون فيه هجوم على الحكومة أو تسفيه لها فإن هذا الشخص يتم استبعاده فورًا من القناة بأمر صاحب القناة.. لأن صاحب القناة تربطه علاقات صداقة مع الحكومة.

كثير من المذيعين أيام حرب العراق تم استبعادهم وطردهم من قنواتهم رغم شهرتهم وقوتهم.. فقط لأنهم عارضوا الحرب.. اعتبروهم خونة لأوطانهم ولا يدعمون جيش بلادهم..

Peter Arnett مثلًا، مذيع الـCNNالعتيد والقديم.. قال عدة تصريحات أنه ضد الحرب على العراق.. في اليوم التالي كانت هناك ما يقرب من ١٥٧ كاريكاتور تسخر منه أوتصوره نائمًا مع صدام على السرير.

أي صحفي يكتب أي شيء ينتقد الحرب.. يكون مصير مقاله الرمي في القمامة.. فقط المقالات الصارخة بالحرب وبالإرهابيين وبصدام هي التي كانت تنشر فقط.

هناك أناس أغنياء جدًا حاولوا شراء دقائق على القنوات الكبيرة أثناء حرب العراق لإظهار إعلانات ضد الحرب.. وكان لديهم المال الكافي وأكثر لأجل هذا.. لكن كل القنوات رفضت عروضهم بلا استثناء.

هذا المثال على حرب العراق هو مجرد توضيح للنظام الذي يحكم من وراء الستار.. ابحث عن هذا النظام في أي دولة في العالم تقريبًا ستجده موجودًا

بأساساته الثلاثة.. دولة.. إعلاميون.. بنكيون.. ويكون ترتيبهم كالتالي: البنكيون هم الأعالي في القمة.. ثم الدولة.. ثم الإعلاميون.. هذا الترتيب لا بد أن يكون هكذا.. ولا يسمح له أن يكون على أي شكل آخر.. الدولة التي تحاول أن تسيطر على البنكيين لتكون هي في القمة يسقطها البنكيون.. الدولة التي تهمل السيطرة على الإعلام وتعطيه الحرية ليكون فوقها يسقطها الإعلام.. هذا النظام العتيد هو نظام عالمي الآن.. ولا ينبغي اللعب فيه أبدًا.. وكل هؤلاء الكبار الثلاثة.. البنكيون والإعلاميون ورجال الدولة.. دائمًا أوغاد.. ولهذا هم أصدقاء.. ولو صلح واحد منهم أكله الآخرون.

السر السادس.. إن قنوات الإعلام لا تعرض بروباجاندا ٢٤ ساعة.. إنما تكون البروباجاندا في المواسم.. وتكون مكثفة.. لكن في الأوقات العادية.. هناك شيء آخر تعرضه قنوات الإعلام.. شيء أقل حقارة من البروباجاندا.. لكنه حقير على أي حال.. هذا الشيء يدعى الـVideo News Release.. أو الـVNR.

هذه ببساطة عبارة عن تقارير بالفيديو عن أمور معينة.. مرسلة للإعلام من إحدى جهتين.. فإما أن ترسلها الحكومة.. أو ترسلها الشركات الكبرى التجارية.

لو أن الـVNR مرسل من الحكومة.. فإن الهدف هو الدعاية لفكرة تريد الحكومة أن تروج لها.. ولو كان الـVNR مرسل من الشركات الكبرى.. فالهدف هو الدعاية لمنتجات هذه الشركات بطريقة غير مباشرة.. الخدعة هي أن القنوات الإخبارية تعرض هذه التقارير دون أن تقول لك أنها مرسلة لها من أي مكان.. يعني هذه التقارير بالرسائل المبطنة التي فيها تأتيك متنكرة على هيئة أخبار.

هل رأيت مرة بعض القنوات تجري مقابلات مع الشعب في الشارع لتسألهم عن شيء معين؟ في أوقات يكون هناك أمر جلل قد حدث في الدولة أو حتى في الأوقات العادية الهادئة.. هذه المقابلات كلها VNR.. مرسلة من الحكومة للقنوات.. وكل هذه المقابلات مفبركة.. كلها بلا استثناء.. سواء في وقت السلم أو الحرب.. سواء كان الحديث عن الاقتصاد أو النظام السياسي أو عن الفئات التي تكرهها الحكومة أو حتى عن أسعار الباذنجان.. كلها VNR تفبركها الحكومة كل حين وترسلها إلى القنوات.. وبالطبع تدفع الحكومة أموالًا جيدة للقنوات لعرض هذه التقارير.

أي متحدث يظهر على هذه القنوات.. تحت أي اسم كان.. خبير في كذا.. محلل لكذا.. استشاري في كذا.. كل هؤلاء VNR.. كلهم عن بكرة أبيهم.. لا أستثني أحدًا..

وهم لا يقولون إلا الآراء التي تمشي مع توجه الحكومة.. أنت لن تسأل عن مدى خبرة هذا الخبير في التحليل أو الاستشارة.. أنت فقط تسمع له.. وهو يقول دائمًا ما تريد الحكومة أن تقنعك به.

ربما لا تصدق حقًا أن الدولة تمسك بخيوط الإعلام هكذا.. هناك مكتب يدعى Pentagon Pundits.. هذا مكتب يتبع وزارة الدفاع الأمريكية.. يتقابل فيه جنرالات سابقون ورجال دولة سابقون وينظمون ظهورهم في التلفزيون في قنوات كذا وكذا.. ويتحدثون على أنهم مصادر مستقلة.. فتتوهم أنت أنهم حقًا خبراء سياسيين أو عسكريين.. والحقيقة أنهم موجهين من الحكومة ليقنعوك بكذا وكذا.

اقرأ أيضا عن Operation Mockingbird وهي عملية تسمح للمخابرات الأمريكية أن تضع البروباجاندا التي تريدها في الأخبار والصحف والراديو والأفلام السينمائية.. أي بروباجاندا تريدها... بدون أسئلة.

أنا أضرب لك مثلًا بأمريكا لأنها الأم الرؤوم التي تعلمت منها كل الحكومات الأخرى كل هذه الأمور.. فلا تقل أن هذا في أمريكا وليس في دولتي.. بل هو في دولتك.. ويحدث تحت أنفك كل يوم.. ولو بحثت قليلًا لوجدته كما هو هكذا.. وربما وجدت ما هو أسوأ.

كل مذبحة حصلت.. أو حرب.. لا بد قبل أن يفعلوها أن يعلنوا للناس ما يبررها.. لو وجدت هذا التبرير في طريقك.. ارم به في أقرب قمامة.. هذا VNR حكومي.. لا بد أن تعرفه عندما تراه.. فلا يوجد تبرير يقتل به الأبرياء.. ويتساقط به الأطفال مضرجين بدمائهم.. وترمل به النساء.. لا يوجد تبرير لهذا.

دعنا من تقارير الحكومة قليلًا.. هل رأيت مرة تقرير فيديو فيه دراسات صحية أو إلكترونية عن شيء ما؟ وفي التقرير مقابلات مع عدد من الناس المختصين بكذا أو كذا.. وفي حديثهم تجد نصائح خفية تتجه ناحية شيء ما أو منتج ما.. لن تفهم قصدي إلا بمثال..

كان هناك تقرير ذات مرة عن إيميلات مزيفة خادعة تأتيك على الإيميل وفور أن تفتحها تدمر لك جهازك.. وكان هناك أشخاص يتكلمون من شركة Trend Micro عن أهمية برامج الحماية وعن أنها تطورت الآن جدًا للحماية من هذه الأمور.. ويقول التقرير أن شركة Trend Micro واحدة من الصاعدات في هذا

المجال.. وكأنهم ضمنيًا يقولون اشتروا منتج Trend Micro.. هذا VNR مرسل إلى القناة من شركة Trend Micro.

هذه طريقة الإعلان الغير مباشر.. الإعلان الذي يتنكر في شكل تقرير إخباري.. كل الشركات الكبيرة تفعل هذا لأن هذا ناجح جدًا.. وبالمناسبة الإعلان المتنكر في شكل VNR يكون أكثر تأثيرًا من الإعلان المباشر.

السر السابع سيبدو عجيبًا نوعًا ما.. هناك شركات رسمية متخصصة في صنع الكوارث.. أو بكلمة أدق.. تزييف الكوارث.. هذه الشركات يكون فيها ممثلون مدربون تدريبًا فائقًا ومختصون مكياج محترفون جدًا في عمل الدماء والأشلاء والجروح والكدمات.. ولديها فريق محترف من المصورين الذين يصورون الكارثة المزيفة ويجعلونها تبدو حقيقية تمامًا لا شك فيها ولا يمكنك أن تكشفها ولو كنت حاضرًا أثناء الحدث.. لم تفهم شيئًا؟ حسنًا.. ركز معي أكثر.

أحيانًا حتى يدربوا فرق الإنقاذ أو فرق الإسعاف أو فرق الإطفاء على التعامل مع كارثة معينة.. يجب أن يضعوهم في أجواء تماثل تمامًا الأجواء الحقيقية.. مثلًا أجواء انفجار قنبلة في مكان ما وسقوط العديد من الجرحى والقتلى.. حتى تحترف فرق الإنقاذ عملها يجب أن يتم تدريبهم على أجواء تبدو حقيقية تمامًا.. لذلك هم يتصلون بهذه الشركات المتخصصة في صنع الكوارث.. ويتم صنع كارثة مزيفة ما لهذه الفرق ليتعاملوا معها.. حتى إذا حصلت كارثة حقيقية.. يكونوا مدربين ومجهزين تمامًا لها.

هناك شركات مثل Burson Marsteller وهي شركة صنع كوارث كبيرة وعالمية ولها فروع في ٣٥ دولة.. وشركة Crisis Cast.com.. ولو دخلت موقعهم مثلا ستجد لديهم فريقًا كاملًا من الممثلين والأخصائيين النفسيين والمنتجين حتى يصمموا كارثة ويقنعوك أنها فعلًا حقيقية.. هناك شركة FlashPoint وشركة Magnum Servecies وشركة Salter Mitchell والأخيرة هي شركة متخصصة كما تقول في موقعها بوضوح شديد في تغيير سلوك الناس وتغيير رأي الناس.. هكذا تقولها بصراحة.

ما المشكلة في كل هذا؟ المشكلة أن الحكومة تستعين بمثل هذه الشركات في عمل كوارث معينة وتصويرها.. ويغطيها الإعلام تغطية بروباجاندا كبيرة.. وذلك لأجل إقناع الشعب بشيء ما أو ذريعة لإصدار قانون ما أو لاتهام أشخاص تكرههم الحكومة أو فقط لتلهي الناس على طريقة "انظر العصفورة".. فيلتهوا بالكارثة وينسون شيئًا فشيئًا ما تفعله الحكومة أو فعلته أو ستفعله.

مثال على هذا هو التفجيرات الإرهابية التي تمت أثناء ماراثون بوسطن في ٢٠١٣.. حيث انفجرت قنبلتان قرب خط نهاية الماراثون وسقط ثلاثة قتلى وعدد كبير من الجرحى.. ونزل كثير من الصور في الإعلام للحادثة أظهرت الكثير من الناس الساقطين على الأرض مضرجين بدمائهم والكثير من الصراخ والبكاء والكثير من الدماء المتناثرة على الأرض والكثير من الهرج والمرج.. ثم تبين أن كل هؤلاء ممثلين من النوع الذي يسمونه Crisis Actors أو ممثلي الكوارث المزيفة.. وهم مثل الذين لدى شركات الكوارث.. كل الدماء والجروح والأشلاء وحتى القنابل التي انفجرت كلها مزيفة.. والهدف هو إقناع الكونجرس بتمرير قانون في غاية الخطورة هو قانون CISPA.. وهو يسمح للحكومة بأن تطلع اطلاعًا كاملًا بلا شروط على كل المحادثات الخاصة التي يجريها الناس على كل مواقع السوشيال ميديا بلا استثناء.. مما يسهل للحكومة حسب زعمها مزيدًا من القوة في تتبع الإرهابيين الذين يقومون بمثل هذه الهجمات الدموية كل حين.

حدث إسقاط تمثال صدام كان مدبرًا.. ومن أسقطه هو فريق تابع للمارينز الأمريكي يدعى فريق Psycological Operations Team أو فريق العمليات النفسية.. هكذا هو اسم الفريق بالضبط.. كل هؤلاء كانوا ممثلين وكل هذا كان مزيفًا.. الجندي الذي تسلق ليضع العلم الأمريكي على وجه التمثال.. ضرب التمثال بالفأس.. شد التمثال بالحبال.. الناس التي تتقافز على وجه التمثال بعدما سقط.. كل هذا كان مدبرًا لتصدير صورة نفسية إلى العالم مفادها أن العراقيين يريدون لأمريكا أن تحررهم وأنهم فرحين جدًا بهذا.

بالطبع ليس معنى هذا أن تظن أن كل الأحداث الدموية التي ربما تسمع عنها هي أحداث مفبركة.. لا أبدًا.. لا تكن أحمق.. إنما تعلم البحث حين ترى أي حدث.. فأحداث ماراثون بوسطن مثلًا لم ينكشف زيفها إلا بسبب وجود الكثير من الباحثين النابهين الTruthers في أمريكا.. وهم يعرفون كل الألاعيب ولا يخدعهم أحد أبدًا.. وهم الذين فضحوا الأمر ببحثهم وملاحظتهم.

السر الأخير.. هو تكتيك يستخدمونه كثيرًا.. اقتنصه عندما تراه.. أحيانًا تجدهم يعبرون لك بعبارات عائمة أثناء حكايتهم لخبر ما.. تعبيرات مثل "بعض الناس يقولون كذا".. "قال أحدهم كذا".. "قال مصدر مقرب كذا".. حينما يحيلونك إلى شيء مجهول.. اعلم أنهم يقولون رأيهم هم.. وهم يضعونه في هذه الهيئة دائمًا.

تجدهم أيضًا يستخدمون مصطلحات من النوع العائم الذي لا يمكن أن يعارضه أحد.. ادعموا الدولة.. ادعموا جيوشنا.. الحرية.. الديمقراطية.. وهكذا.

إذا لم تكن حذرًا.. ستجعلك الميديا تكره الناس المظلومين.. وتحب الناس الظالمين.. اعرف طريقتهم حتى لا تنخدع عندما تراها.. فإذا حدث حادث ما.. الحدث نفسه حقيقي.. لكن أي تكرار محموم لفكرة معينة في الميديا تعليقًا على الحدث هي بروباجاندا.. وأي بروباجاندا هي مصنوعة.. وأي بروباجاندا مصنوعة هي كذب.. أي مقابلات في الشوارع مع الشعب هي كذب.. العبارات العائمة هي كذب.. أي متحدثين أو خبراء أو محللين هم كذابون.. هذه قواعد اجعلها دليلًا مبدئيًا لعقلك عندما تنظر لأي خبر.. ثم ابحث بعد ذلك.. واعرف الحقيقة بنفسك.. أو ابحث عن كلام الـTruthers.. الكاشفين للحقائق.. ستجدهم متناثرين هنا وهناك يحللون.. سيساعدك بحثهم في بحثك.

■ ■ ■

هذه الأسرار السبعة تخص الأخبار السياسية والإعلانات غير المباشرة لأصحاب الأموال.. لكن مرة أخرى.. ماذا سنعرض في باقي ساعات اليوم؟ انتهينا من البروباجاندا.. انتهينا من الـVNR.. كيف سنجني مالًا؟ المال يأتي بزيادة عدد المشاهدين.. مزيد من المشاهدين يعني مزيدًا من الإعلانات.. لو كان هناك موسم بروباجاندا.. فهو موسم رزق.. الكل سيفتح التلفزيون وسيشاهد.. وسنحرص ساعتها على أن نكون متصدرين حق التصدر وأن نعرض البروباجاندا بالطريقة الأشد إثارة بين الجميع.. سنصرخ كثيرًا ونخون الكثير من الناس وندق الطبول كما يحلو لنا.. لكن ماذا عن المواسم العادية التي ليست فيها بروباجاندا.. كيف سنكسب المشاهدين؟

بالتفاهة.. انشر التفاهة يأتيك الناس من كل فج عميق.. الأخبار الرخيصة التافهة التي ليس لها أي أهمية للعالم.. لكنها مسلية ومثيرة للاهتمام.. هذه هي.. انشرها وزينها وحسنها وكررها وزد فيها.. وستفاجأ أن الناس تتابعك خصيصًا.

المشاهير وأخبارهم وفضائحهم هو شيء رائع جدًا.. استزد من هذا.. الناس تحب المشاهير.. لكن ليس أخبار المشاهير العادية.. الناس تحب أن تسمع فضائح.. فلان تحرش.. فلان سكران.. فلان يهاجم فلانًا...فلانة تنتقم من فلان.. لو تمكنت من شيء كهذا ستحقق مشاهدات لا تتخيلها.. لو لم تتمكن من شيء.. اخترع شيئًا.. ابحث عن شيء ما يمكن أن يساء فهمه من فنان أو فنانة.. ثم

عندما يوضحه الفنان اعتذر أنت.. لا مشكلة.. المهم هو وقت عرضك للخبر نفسه.. المهم هو الناس التي ستشاهد.. كل شيء آخر غير مهم.

لا تجد أخبار مشاهير مثيرة للجدل؟ فليكن، ابحث عن فضائح الناس العادية.. الأشياء التي عن الجنس.. الاغتصاب.. الجنس مع الأب أو مع الأخت.. الجنس مع الأطفال والقواصر.. القتل البشع.. هذه هي الأخبار التي تبيع.. الأخبار الأخرى ببساطة لا تبيع.. تسونامي الكارثة التي راح فيها ٢٠٠ ألف شخص مثلًا لا تبيع.. اعرضها كخبر عارض غير هام.. الناس لا تحب الأخبار التعيسة.

عندما تكون صاحب قناة إخبارية.. ما الذي تريد أن تعرضه للعالم في الأوقات الهادئة؟ لديك خبر عن أنفلونزا الخنازير.. وخبر عن خنزير يستطيع التزلج على الجليد في فيرجينيا.. ما الخبر الذي ستفضله؟ أنت تريد أن تزيد من عدد المشاهدين.. الناس لا تحب الأشياء المملة.. بل تحب الأشياء المثيرة حتى لو كانت تافهة.. لماذا تبقي القناة على ذلك المذيع أو ذاك رغم أنه تافه أو مستفز؟ إنها تبقي عليه لأنه تافه ولأنه مستفز.. هذا يشعل الأجواء أكثر.. هذا يزيد عدد المشاهدين.

هل تعلم أنه في الكونغو مات ٥ مليون شخص في ٩ سنوات فقط.. بمعدل حوالي نصف مليون شخص في السنة.. ما يعادل ١٥٠٠ شخص في اليوم.. هل علمت هذا؟ لماذا ماتوا؟ المجاعات والحروب الأهلية.. لا أحد يقول لك هذا.. كن صريحًا معي هل تعلم اسم أي مدينة في الكونجو؟ هل تعلم أي شيء عن الكونجو غير أن اسمها الكونجو؟ لا؟ لماذا؟ لأنهم لا يأتون لك بهذه الأخبار.. كيم كارداشيان أهم.. الكونجو أكبر مأساة في تاريخ البشرية بعد الحرب العالمية الثانية والكثير لا يدرون أصلًا أن هناك مشكلة في الكونجو.. أي مشكلة من أي نوع.. هذه المأساة لا يعرضونها في التلفزيون.. لأن هناك خنزير يمكنه التزلج على الجليد في فيرجينيا.. ثم إنهم يجددون من أنفسهم.. لا يتعبون أبدًا.. يجدون أشياء جديدة كل أسبوع.. يغرفون من التوافه ويلقون علينا.

ابتكر أفكار برامج تافهة.. الناس تحب البرامج.. لكن ليس أي برامج.. برنامج The Bachelor.. هذا الرجل الوسيم الغني.. سيختار اليوم من تتزوجه من ١٢ فتاة.. كلهن يتسابقن لأجل هذا.. كلهن يبكين لأجل هذا.. وتراهن يتأثرن جدًا ويعبرن كم يحببنه.. هكذا الرجل الرائع.. الوسيم الغني.. انس أي شيء آخر.. علم الفتيات أن تختار الغني الوسيم اللامبالي على الغيور صاحب الحياء.. زدني من هذه البرامج والتفاهات.. وستتفاجأ من كمية المشاهدين.

أشغل الناس وألههم في توافه الأمور دائمًا.. لا توجه أفكارهم ناحية الظلم وأخطاء الدولة واستبداد البنكيين والفقراء الذين يزدادون فقرًا والأغنياء الذين يزيدون غنى.. علمهم أن هناك أشياء أخرى أكثر أهمية عليهم الإسراع للحاق بها.

لا تريد أن تكون قناتك قناة فضائح وبرامج تافهة؟ تريد أن تكون قناة جادة.. وتريد مشاهدين.. لا مشكلة.. انظر فيمَ يختلف الناس وأبرز اختلافهم.. ضعه تحت العدسة المكبرة.. ابحث عن أي قضية مثيرة للجدل واطرحها.. ولا تسمح أثناء طرحك لها أن يخف الجدل فيها أو أن تصل لحل.. بل احرص على أن يزيد الجدل أكثر.. اجعل المشاهد عندما يفتح التلفزيون يجد نفسه متنقلًا بين التفاهة والعصبية والاختلاف والبروباجاندا والـVNR حتى يصاب بالخدر أو بالجنون أو بالتبلد.

■ ■ ■

كان "ديكوي" واقفًا وكلتا رجليه مضمومتان مقيدتان بعضهما إلى بعض.. ويداه مرفوعتان منفرجتان مقيدة كل واحدة منهما إلى السقف.. وأمامه كنا نقف كلنا.. نحيط به ونستمع إليه.. "زورك" و"أليكساندريا" و"هال" و"مصعب" وأنا وأنت و"بوبي فرانك".. وكثير من المقنعين.. كنا نستمع إليه وكأن على رؤوسنا الطير.. من الممتع أن تسمع شيطانًا يتحدث بالحق.. قالت له "أليكساندريا":

لكن هناك شيئًا لم أفهمه.. شخص مثل جون ستيوارت.. صاحب البرنامج الساخر الشهير The Daily Show على قناة Comedy Central.. والذي يهزأ أسبوعيًا بالبروباجاندا ويفضح القنوات الكبيرة وتكتيكاتهم ويسخر منها ويسخر من تصرفات الحكومة.. والرجل له شعبية لا تصدق.. وحاز على جوائز هوليودية كبيرة مثل إيمي وجرامي وأعطي الدكتوراة الفخرية.. وأنت تقول أن الميديا تستبعد منها أي شخص يتحدث ضدها.. وتعامله بقسوة.. كيف هذا وهو الذي يسخر منهم سخرية مريرة كل أسبوع.. هذا البرنامج على Comedy Central التي هي تابعة لـ Viacom.. واحدة من الست الكبار.

ابيضت عينا "ديكوي" بشكل مخيف وهو يتكلم ويقول:

جون ستيوارت يضحكك على أشياء ينبغي أن تحزن عندما تسمعها.. هذه هي المشكلة.. أن هذه الأشياء الجادة أصبحت بالنسبة لك مادة كوميدية هازئة غير جادة.. والحقائق عندما تقال بشكل هزلي وضاحك.. لا يكون لها قيمة نفسية عندك.. ولن تورث عندك أي نوع من الغضب.. بل تورث الضحك.. هذه لعبة

نفسية نسمح بها في الميديا.. جرب أن تقول لأصدقائك شيئًا جادًا ولكن قله لهم بشكل نكات وسخرية.. لن يأخذه أحدهم على محمل الجد.. ولاحظ أن ستيوارت يقول دائمًا أن برنامجه هزلي وغير حقيقي ويصر على هذا.. ولو كان برنامجه يعرض نفس الأشياء لكن بطريقة جادة.. لم يكن ليسمح له بالعرض أصلًا.

قالت "أليكساندريا":

إذًا فما يقوله بشكل ساخر وهزلي هو حقائق؟

أومأ "ديكوي" برأسه إيجابًا وقال:

كثير منه كذلك نعم.

قال له "مُصعب":

إذًا فالإنترنت هو المنفذ الوحيد للأخبار الحقيقية.. لو أغلقنا التلفزيون تمامًا واعتمدنا على السوشيال ميديا في معرفة الأخبار.. والتي تكون مليئة بالـTruthers.. سنكون في أمان.

لاحت ابتسامة ساخرة على شفتي "ديكوي" وبدا أشبه بثعبان وهو يقول:

بعد الفضائح المتوالية للميديا خاصة بعد حرب العراق.. وبسبب جهود الـTruthers على السوشيال ميديا.. وبسبب أن السوشيال ميديا نفسها قد أصبحت أكثر جذبًا للناس وأكثر تأثيرًا باعتبارها في يدك طوال الوقت.. قررنا أن ندخل على السوشيال ميديا.. فأنشأنا ما يدعى بالـAstroturfers أو اللجان الإلكترونية.

كان الكل صامتًا و"ديكوي" يتابع:

موظفون يجلسون في مكاتب ولهم دوام رسمي.. عملهم هو إنشاء حسابات على السوشيال ميديا.. حسابات بأسماء وهمية.. ينزلون بها إلى الساحة وينتقون المنشورات ذات الشعبية العالية والمتوسطة ويكتبون تعليقاتهم عليها.. يهاجمون كل ما يقال على الإنترنت ويكون مختلفًا عما يقال في التلفزيون.. فمثلما هناك موظفون في كل قناة إعلامية مهمتهم هي الكذب عليك.. هناك موظفون في السوشيال ميديا أيضا مهمتهم هي الكذب عليك.. ولا تقتصر مهمتهم على التعليقات بل ينشرون منشورات مدعومة ماديًا لتصل إلى أكبر عدد.

سكت "مصعب" قليلًا وقال له:

هكذا صار الأمر صعبًا.. كيف يعرف الشخص العادي الحقيقة؟ لو فقد الثقة في التلفزيون ودخل للسوشيال ميديا.. سيجد هؤلاء.. فلن يدري أين الحقيقة.. يستحيل أن يعرفها.

قال له "ديكوي":

بل إنه من السهل جدًا أن تعرف موظف اللجان الإلكترونية عندما تراه.. أولًا تجد كلامه هو كلام البروباجاندا التلفزيونية نفسه بلا أي اختلاف.. ثانيًا تكشفهم من لغتهم.. تجدهم يكررون كلمات معينة هجومية في تعليقاتهم.. تشعر أنهم يهجمون.. كأنهم غاضبون من شيء ما.. وكلماتهم تتراوح ما بين السافلة في بعض الأحيان والنابية إلى السوقية إلى الساخرة الهازئة.. لكن لن تجد في كلماتهم نقدًا محترمًا أبدًا.. بل دائمًا هو نقد تسفيهي لما يكتب وتسفيه لعقول من يصدق.. عندما تجد تعليقًا فيه هذه المعايير.. ابتسم وتجاهله تمامًا.. فهذا Astroturfer.

سأله الدكتور "هال" وهو يعدل نظارته:

ماذا عن ويكيبيديا؟ أنا أعتمد علها أحيانًا في بحوثي.. هل وصلت لها أيديكم أيضًا؟

ابيضت عينا "ديكوي" وهو يجيب:

ويكيبيديا هي موسوعة حرة.. كل شخص في العالم يمكن أن يكتب فها.. لكن هناك صفحات معينة لقضايا معينة لا يمكنك أن تعدل فها أبدًا.. صفحات تتبنى فكرة البروباجاندا التلفزيونية نفسها.. صفحة أحداث سبتمبر مثلًا.. ستجدهم يسردون السيناريو الذي تصدره البروباجاندا نفسه.. لم تعد ويكيبيديا حرة للأسف بعد أن أنشأت خدمة الـPR Service أو الـWiki-PR.. وهي خدمة من موقعهم لصفحات معينة مدفوعة ومحمية بحيث تعين ويكيبيديا للصفحة مراقبين على مدار الساعة.. فلو حاول أحد أن يكون هو الفارس المغوار الذي سيعدل في الصفحة ويصحح المعلومات سيجد أن تعديله قد تم تعديله مرة أخرى في الدقيقة التالية.. باختصار.. يمكنك أن تعتمد على ويكيبيديا في القضايا العادية غير الحساسة.. ولكن لا تجعلها مصدرك الأساسي في البحث فلم يعد لها مصداقية.

كان "ديكوي" يحاول شد أغلاله الحديدية بكل ما أوتي من قوة.. لكن بلا فائدة.. في هذه المرة وهو يشد بدأنا نلاحظ أن الحلقة المثبتة في السقف يمكن أن

تكون في خطر من هذا الشد.. نظرت إليك فوجدتك قد لاحظت نفس الشيء.. فهمست إلى "بوبي فرانك" بالأمر.. فأسر إلي أن هذه الأغلال مؤقتة.. وأن هذا الشيطان قد تنفك عقدته هذه بعد حين وينتقم.. كان "ديكوي" يقول وهو يشد الأغلال:

هناك مشكلة لديكم أيها المقنعون.. نحن انتهنا لها واستغللناها.. أن بعضكم يكونون من المبالغين في نظرية المؤامرة.. فالشخص العادي يجد نفسه بين جانبين.. أحدهما هو الميديا التلفزيونية والصحف.. وهو جانب مليء بالكذب والتزوير والبروباجاندا.. والجانب الآخر هو الإنترنت.. مليء بالمبالغات من المغرقين في نظرية المؤامرة.. مبالغات هي كذب أيضًا.. هذه المبالغات عندما يراها ويرى غباءها وعدم منطقيتها، يرمي بالإنترنت بأكمله وراء ظهره ويتجه للتلفزيون.

قالت له "أليكساندريا":

و أين هي الحقيقة إذًا؟ كيف يعرفها الشخص العادي؟

قال لها "ديكوي":

الحقيقة ليست في الميديا.. الحقيقة في الإنترنت.. لكن عليه أن يعرف المبالغات المراهقة.. فكما وضعت له معايير يعرف بها اللجان الإلكترونية هناك معايير يعرف بها كذب المبالغين في نظرية المؤامرة.. معايير بسيطة جدًا أيضًا.. المعيار الأول هو السخافة.. مثل أن ترى مقطع فيديو يخبرك أن هناك وجه شيطان خرج من دخان انفجار البرجين.. وأن هذا دليل على مؤامرة شيطانية.. تحديد السخافة يختلف من عقل إلى عقل.. معظم المراهقين ينخدعون بالسخافة ويظنونها حقيقة.. وبالمناسبة نحن من نشرنا هذا المقطع حتى نعمق في ذهن الشخص العادي أن من يكتبون على الإنترنت ضد ضربات سبتمبر هم حمقى.. والدليل انظر إلى عقولهم.. نحن نفعل هذا دائمًا.. أكثر من نصف مقاطع ومواقع المؤامرة الحمقاء نحن الذين ننشرها.

غضب مصعب وهم بالانقضاض على "ديكوي" وضربه.. إلا أن إشارة من يد "زورك" أوقفته.. نظر "ديكوي" إلى مصعب بسخرية ثم أكمل ما كان يتحدث به:

هناك معيار ثانٍ تعرف به المبالغين في المؤامرة.. البعثرة وعدم التنظيم واستخدام الألوان الكثيرة وانعدام التناسق في عرض الكلام واستخدام الموسيقى التحفيزية والغامضة والمرعبة.. هذا المعيار يجعلك تعرف أن هذا من عمل مراهق.. المعيار الأخير هو غياب المصادر.. تراه يقول كلامًا كثيرًا بلا مصادر في

وسط كلامه أو في نهاية كلامه.. وربما يحيلك إلى مصادر مجهولة.. مثل قال مصدر مقرب كذا.. قال مسؤول كذا.. نفس التقنية التي يستخدمها الكذابون في الإعلام تتكرر هنا أيضًا.

خيم صمت لدقائق كاملة.. الكل كان يفكر في كلام "ديكوي" بينما كان "ديكوي" ينظر إلى الجميع بلا مبالاة.. ثم قال لهم:

هل تدري يا "زورك".. أنتم بصراحة شديدة ليس لكم مصداقية عند غالبية الناس.

قال له "زورك" بهدوء:

ولماذا؟

قال "ديكوي":

الإنترنت ليس له مصداقية يا "زورك".. مهما تحدثتم على السوشيال ميديا.. يبقى التلفزيون عند عموم الناس له مصداقية أقوى.

قال "زورك":

لماذا؟ لماذا يصدق الناس التلفزيون وقد كذب عليهم كل تلك المرات؟

قال له "ديكوي":

المسألة ليست مسألة تصديق.. بل المسألة مسألة تأثير.. في أي حادثة من الحوادث تحدث.. يمكنك أنت أن تعمل حلقة وثائقية احترافية كاملة على اليوتيوب تبين فيها حقيقة هذه الحادثة.. لكن كم مشاهدة ستحقق حلقتك هذه.. ألف؟ عشرة آلاف؟ مائة ألف على الأكثر؟ لكن انظر إلى التلفزيون.. عدد مشاهديه بالملايين.. لا توجد مقارنة بينه وبينك.. خاصة أن التلفزيون يحدث بروباجاندا.. يعني يأتيك بعشر ساعات أو أكثر في اليوم الواحد لعشرة برامج في مختلف القنوات تتحدث عن هذه الحادثة.. ويكرر هذا في اليوم الذي يليه.. واليوم الذي يليه.. ويصرف آلافًا مؤلفة في سبيل هذا.. بينما أنت تعاني حتى تصمم وتصور حلقة واحدة فقط مدتها ساعة.. لا يمكنكم أن تهزموا التلفزيون يا "زورك" بطريقتكم هذه.. لذا.. كل وثائقياتكم الجادة ومواقعكم وصفحاتكم التي توضح الحقائق على الإنترنت نحن لا نحاربها لأن عدد مشاهديها قليل.. بالآلاف.. مقارنة بعدد مشاهدي التلفزيون الذين دائمًا يكونون بالملايين.

ثم أكمل "ديكوي":

ما يجعل التلفزيون ذا تأثير أقوى من السوشيال ميديا واليوتيوب بكثير هو أن التلفزيون يأتيك بالشيء دون أن تطلبه.. بل في التلفزيون أنت تجد الشيء فقط يبرز أمامك وأنت جالس تقلب بين القنوات.. لكن في اليوتيوب، حتى تشاهد شيئًا ما.. يجب عليك أن تطلبه بنفسك.. في السوشيال ميديا حتى تأتيك منشورات صفحة ما يجب أن تطلب هذا بنفسك.. لذلك فإن السوشيال ميديا الخاصة بي مثلًا وأنا شيطان ستجدها كلها منشورات من صفحات شيطانية أنا اشتركت فيها.. بينما السوشيال ميديا الخاصة بواحد منكم ستكون مليئة بمنشورات المقنعين أصحاب الحقائق.. السوشيال ميديا ثوب أنت تخيطه بنفسك على حسب ما تريد.. ليأتيك بنوعية الأخبار التي تريد.

قالت "أليكساندريا":

ماذا تعني يا هذا.. هل تريد أن تحبطنا؟ نحن لسنا من النوع الذي..

قاطعها "ديكوي" قائلًا:

أنا أود أن أرشدكم للطريقة الوحيدة التي تقدرون بها على أن تحطموا أسطورة البروباجاندا.. وتكونون أنتم الإعلام البديل.

همت أليكساندريا بالرد لكن "زورك" أوقفها بحزم وقال لـ"ديكوي":

هات ما عندك.

ابيضت عينا "ديكوي" بشيطانية وهو يقول:

الحل هو أن تُدخلوا أعمالكم هذه إلى كل بيت من بيوت الناس كما دخل التلفزيون كل بيت من بيوت الناس.. أن تعرضوا أعمالكم في غرف جلوس الناس كما يعرض التلفزيون أعماله في غرف جلوسهم.

قال " زورك":

تقصد أن تكون لنا قنوات تلفزيونية؟ هل تعرف كم تكلفة عمل قناة واحدة فقط؟

قال الشيطان "ديكوي":

بل إن هناك طريقة يا عزيزي "زورك" ليكون لكم عدد لا حصر له من القنوات التلفزيونية مجانًا.. وتُدخلون هذه القنوات التلفزيونية إلى كل بيت من البيوت وكل غرفة معيشة.

سكت "زورك" متسائلًا.. فقال له "ديكوي":

كلمة واحدة سأقولها لك.. تقنية الـIPTV.

بدأ الجميع ينتبه.. قال "ديكوي":

هذه التقنية ببساطة عبارة عن قنوات تلفزيونية على الإنترنت.. أي شخص في العالم يمكنه أن يشاهدها.. وتستطيع أن تضع فيها أي شيء يحلو لك بلا أي رقابة من أي نوع.

قال "زورك" باهتمام:

هذه القنوات سمعت بها.. مشاهدتها تتم عبر الإنترنت.. يمكنك أن تشاهدها على اللابتوب أو السمارت فون.. لكن ما الفائدة؟ هي مثلها مثل الإنترنت.. لن يدخل عليها إلا الساعي إليها.. لن تدخل غرفة معيشة كل شخص مثل التلفزيون.

قال "ديكوي":

بل يمكنك أن تجعل المشاهد يعرض هذه القنوات على شاشة التلفزيون العادية الخاصة به في غرفة جلوسه وهو متكئ على أريكته.

قال "زورك":

كيف هذا؟

قال "ديكوي":

يبدو أنك لا تتابع تطورات الأمور في مجال التكنولوجيا يا عزيزي.. ألم تسمع بأجهزة الـAndroid TV Box؟

قال "زورك":

بل سمعت بها.. وعندنا واحد هناك.. هذا هو.. إنه موصل بالشاشة الكبيرة هناك.. نحن نستخدمه في تشغيل اليوتيوب على شاشة التلفزيون.. أو تشغيل الأفلام.

نظر "ديكوي" إلى الجهاز والشاشة وقال:

ولا تدري أن هذا الجهاز يستطيع أن يفتح لك قنوات الـIPTV؟ وأن هذه الخاصية هي أهم شيء فيه أصلًا؟

بدا "زورك" متحمسًا من وراء قناعه وقال له:

أرني.. أرني كيف هذا.

أعطى "زورك" جهاز التحكم لديكوي.. الذي صوبه للجهاز وعمل بعض الخطوات التي ظهرت على الشاشة حتى انتهى.. ثم ضغط "ديكوي" زر التشغيل..

وفجأةً اشتغلت قنوات الشوتايم وقنوات النايل سات والهوتبيرد كلها بكفاءة عالية.. وأخذ يقلب بينها وكأنه يستخدم جهاز ريسيفر عادي.. لكن الفرق أن كل القنوات المشفرة من جميع الباقات أصبحت ظاهرة ومفتوحة.

قال "ديكوي":

إن تقنية الـIPTV موجودة كما ترى أمامك.. لكنها مستخدمة لتشغيل القنوات الشهيرة المعروفة مثل الشوتايم باستخدام الإنترنت.. يعني لتكسر شفرة الشوتايم وتشاهدها على الإنترنت دون الحاجة إلى الاشتراك.. هكذا يستخدمون الـIPTV حاليًا.

قالت أليكساندريا:

لم أفهم منك شيئًا.. ما المهم في هذا؟ من قال أننا نريد كسر شفرات القنوات المشفرة؟ من قال أننا نريد أن نشاهد قنواتهم التابعة لهم.. نحن قاطعناها على التلفزيون.. تريدنا أن نشاهدها الآن على الإنترنت؟ هل أنت أحمق يا هذا؟ ألا..

أسكتها "زورك" بإشارة ثم أشار لديكوي أن يكمل.. فقال "ديكوي":

أنا ضربت مثالًا بالشوتايم فقط لأشرح المعنى من هذه التقنية.. هذه التقنية تمكنك من مشاهدة القنوات على التلفزيون بدون الحاجة لريسيفر.. كل ما تحتاجه هو جهاز يتصل بالإنترنت مثل هذا الـAndroid TV Box.

قالت "أليكساندريا" بعصبية:

ما زلت لا أفهم.. ما الفائدة؟

قال لها الدكتور "هال" وهو يعدل نظارته:

أليكساندريا العزيزة.. إن الـIPTV معناها أنه يمكننا الآن أن نصنع قناة تلفزيونية أنا وأنت.. ويمكن للناس أن يشاهدوها في منازلهم على شاشات تلفزيوناتهم عبر أي جهاز Android TV Box مثل هذا.. الآن ديكوي أدخل عنوانًا شغل به قنوات الشوتايم.. لو أدخل عنوانًا آخر.. يمكن أن تشتغل به قنواتك التي صنعتها أنت.

قالت أليكساندريا:

وكيف أصنع قناة تلفزيونية أصلًا يا "هال"؟ الأمر مكلف جدًا.

قال "هال":

القناة هي مجموعة مقاطع فيديو متتالية.. ضعي أي مجموعة مقاطع فيديو وشغلي بعضها وراء بعض.. هكذا صممت برنامجًا يوميًا لقناة.

قالت "أليكساندريا":

يعني الآن يمكنني أن أصنع قناة تلفزيونية أجعلها تعرض مقاطع الفيديو التي أريدها والأفلام التي أريدها.

قال لها "هال":

نعم.. وتسميها باسمك.. قناة أليكساندريا.

قالت "أليكساندريا":

وأي شخص يمكنه مشاهدتها على شاشة التلفزيون العادي عبر جهاز الـAndroid TV Box هذا؟!

قال لها "هال":

بالضبط.. وكل يوم تضعين فيها قائمة مقاطع فيديو متتالية جديدة.

قالت "أليكساندريا":

هذا مذهل!

قال "ديكوي":

اسمعني يا "زورك" جيدًا ولا تجعل أحدًا يقاطعني.. فما تبقى لي معكم هو بضع دقائق.. بعدها تنفك قيودي هذه.

صمت الجميع وقال "ديكوي":

في البداية يا "زورك" أنت ستصمم جهازًا مثل الـAndroid TV Box هذا.. ولنسمه مثلًا زوركسترا.. عمل جهاز مثل هذا هو شيء بسيط يستطيع أن يفعله أي طالب أنهى كلية الهندسة.. هو مجرد شريحة تضع عليها البرنامج الخاص بك.. وتغلفها بغلاف أسود أنيق وتكتب عليها Zorkestra.. هذا هو جهازك.

هذا الجهاز سيكون عبارة عن جهاز يضعه المشاهد في غرفة جلوسه بدلًا من الريسيفر.. فيعرض له القنوات التي صممتها أنت يا زورك.. ويرمي تمامًا قنوات التلفزيون العادية بكل ما فيها من كذب ودجل ونفاق.. قنواتك أنت ستكون فيها الأخبار الحقيقية.. قنواتك ستكون هي الإعلام الحقيقي المستقل.

لكن كيف تجعل المشاهد العادي يختار جهازك أنت ويرمي جهاز الريسيفر بكل القنوات التي اعتاد عليها؟ لأنك في جهازك الزوركسترا ستصمم له باقة قنوات سيسيل لها لعابه وستجبره إجبارًا على ترك أي جهاز في العالم وفتح جهازك أنت وحدك.

ستصمم له باقة كاملة من القنوات الترفيهية.. قنوات متخصصة بالأفلام.. قنوات متخصصة بالمسلسلات.. قنوات للبرامج.. قنوات متخصصة بالكارتون.. قنوات متخصصة بالموسيقى.. قنوات متخصصة بالوثائقيات.. قنوات دينية متخصصة.. وهكذا.. يمكن أن تصمم عشرات القنوات.

وسط هذه الباقة الترفيهية ستضع أنت قنواتك الخاصة بك.. التي تعرض رسالتك أنت.. فبينما هو يقلب بين القنوات الترفيهية الرائعة التي صممتها له أنت.. سيقابل في طريقه قنوات الأخبار الخاصة بك أنت.. والتي ستعرض الأخبار بطريقة موضوعية محايدة صادقة غير متحيزة لأي فصائل سياسية.. وستعرض انتقادًا لاذعًا لكل الأخبار التي تعرض يوميًا في البروباجاندا التلفزيونية العادية.

قالت "أليكساندريا":

وكيف يمكنني أن أصمم قناة أفلام أجنبية مثلًا؟

قال لها "ديكوي":

سهلة جدًا.. أنا لدي على الهارد ديسك الخاص بي مثلًا مجموعة من الأفلام.. لنقل مثلًا ألف فيلم.. كلها أفلام جديدة تغطي آخر ثلاث سنوات.. قناتي مثلًا سيكون اسمها Moviza.. سأجعل قناتي تختار كل يوم مجموعة من أفلام الهارد ديسك التي عندي وتعرضها كل يوم.. سأصمم قناة أخرى مثلًا اسمها Zorkestra News أعرض فيها مقاطع إخبارية أصورها أنا وفريقي من الـTruthers بطريقة احترافية نكون نحن فيها الإعلام البديل.

هكذا من يشتري جهاز الزوركسترا يمكنه أن يرمي أي جهاز ريسيفر لديه في القمامة.. لأن الريسيفر العادي أفلامه قديمة تتخللها كثير من الإعلانات.. وبرامجه وقنواته الإخبارية كلها كذب وصراخ.. بينما أفلام جهاز الزوركسترا بلا إعلانات ولا أي تضييع للوقت.. وبرامجه تعرض الحقيقة المجردة بلا كذب.

قال الدكتور "هال":

الفكرة رائعة جدًا فعلًا لكن فيها مشكلة واحدة.. الحقوق.. هذه الأفلام التي ستعرضها على العالم.. أنت لم تشتر حقوق عرضها.. ولو رفعت عليك أي شركة من شركات الأفلام دعوى قضائية ستقضي عليك.

قال لهم "ديكوي":

أنتم ستبثون بروباجاندا مفادها أن حكاية الحقوق هذه هي حكاية حمقاء لا تستفيد منها سوى الشركات الكبيرة.. ستقولون في البروباجاندا أنه ليس من حق أي شركة أن تحتكر حقوق أي عمل فني إلا فترة معينة من الزمن ولتكن ثلاثة أشهر.. ثم يصير العمل الفني من حق الجميع.. لأن كل فيلم من هذه الأفلام يكسب خلال ثلاثة شهور ملايين لا حصر لها أكثر بكثير جدًا من تكلفة إنتاجه.. ليس من حقهم أن يتكسبوا منه طوال حياتهم.. هذا طمع.. وهذا احتكار للفنون غير مقبول.. لا يفيد أحدًا سوى أصحاب الأموال.. وسيحب الناس كلامكم لأن الناس يكرهون أصحاب المال الأوغاد ويكرهون الطمع.

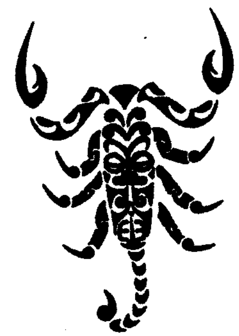
وفجأةً فك ديكوي قيدًا ثم فك القيد الثاني.. ثم ابيضت عيناه وصرخ.. فتغيرت أجواء العالم واهتزت لصرخته.. وأخرج المقنعون سيوفهم.. أما بالنسبة لي أنا وأنت فقد ابيضت الشاشة كلها في عيوننا وأصبحنا نسمع صراخ بوبي وصيحات المقنعين.. وكانت الصورة تخفت شيئًا فشيئًا وكأنها تبتعد.. ثم عادت الصورة إلى صفائها فوجدت نفسي معك في تلك الغرفة التي بدأنا منها أول مرة.. غرفة بوبي.

كل شيء كان مبعثرًا هنا وهناك.. سمعنا صرخة ديكوي من بعيد.. ثم سمعنا سبع صرخات أخرى لسبعة شياطين فوقف الشعر على أجسادنا وانطلقنا هربًا من الغرفة.. ونزلنا على السلم.. ثم قفزنا على الكرولر.. التي انطلقت بنا مذعورة هي الأخرى بعيدًا عن هذا كله.

■ ■ ■

هذا الديكوي أوحى لي بفكرة رائعة بالمناسبة.. حكاية قنوات الـIPTV هذه.. أنا سأصمم قنوات خاصة بي منذ اليوم.. سأعمل باقة قنوات.. المفترض أن ينتشر هذا الأمروكل الهواة تكون لهم باقات وتدخل إليها كلها بجهاز واحد.. فترى قنوات مصممة كثيرة جدًا.. تختار منها ما تشاء.. أين هو سكوربيون ربما يساعدني في عمل باقتي.. ها هو ذا الرجل.

سأدعه يثرثر لك قليلًا.. هل تعرف لماذا لا أشارككم أحاديثكم؟ لأنني حفظت ثرثرته هذه لمّا أتيت هنا قبلك...



تعال الآن.. إنه آخر دور لي لأختار.. لقد اكتفيت من الإثارة.. دعني أنظر قليلًا.. تبقت خمسة عوالم.. نقود وقرود وكون ونرد وحسناء غاضبة.. ما رأيك في النقود.. لا أظن.. سأختار شيئًا هادئًا.. سأختار الكون.. إن منظره رائع جدًا.. هيا بنا يا رفيق السافلين.

■ ■ ■



العالم الثالث

حطت راحلتنا الإلكترونية أمام بوابة مهيبة جدًا هذه المرة.. بوابة هي أعظم من أعظم شيء يمكن أن يخطر ببالك في تصورك للبوابات.. بوابة تقف في كامل زينتها وسط سور عالٍ ممتد إلى مد بصرك من الجهتين.. لم نكن قد أخذنا وقتنا الطبيعي في الانبهار بعد. حتى فُتحت البوابة ببطء وخرج منها بسرعة رجال يرتدون زيًا يوحي بالأهمية الشديدة لهذا المكان.. لقد اعتدنا في هذا العالم أن ندخل نحن إلى البوابات.. أما هذه المرة فهناك من يخرج من البوابة إلينا.. رجال خرجوا إلينا في كامل درجات حماسهم.. وطريقة نظراتهم إلى الأرض وهم يتجهون إلينا توحي بأهميتنا نحن وسيادتنا عليهم.

انفتحت أبواب الكرولر عند اقترابهم وكأنها تراهم.. ومد أحدهم يده لمساعدتنا في النزول.. تجمعوا حولنا.. فألبسوا كل واحد منا عباءة طويلة ووضعوا على رؤوسنا شيئًا يشبه التيجان.. وتوجهوا معنا إلى البوابة في تشكيل يُظهر من التوقير أكثر مما يظهر من الحماية.. انفتحت البوابة عند اقترابنا منها.. نظرنا من باب الفضول لنرى من يفتحها فلم نجد.. إن بوابات هذا العالم تنفتح وحدها دائمًا.. حانت منا نظرة تلقائية إلى الداخل متوقعين أن نرى شيئًا لا مثيل له.. وعلى الرغم من استعدادنا لأن ننبهر، فإن نظرة واحدة منا إلى البنيان الواقف بالداخل أبهرتنا وأخفقت قلوبنا.

مشينا ناحية الصرح العظيم الذي بدا لنا بعيدًا في البداية.. لكنه أصبح يقترب منا وكأنه يمشي إلينا كلما مشينا إليه.. فلم نمش أكثر من عشر خطوات لنقف بعدها أمام بابه الهائل المزين بالذهب.. كان القصر كله مبنيًا على الطراز القوطي الذي يوحي بالعراقة.. بغض النظر عن كل هذا.. ألا تسمع تلك الضجة في الداخل؟ كأنها أصوات تتحدث بصوت عالٍ.. انفتحت بوابة القصر الخشبية الذهبية الفاخرة لنشاهد ما يحدث بالداخل.. وحقًا كان هذا أعجب منظر يمكن أن نراه أو يراه مخلوق على وجه الأرض كلها.

لم يكن ما بالداخل قصرًا كما اعتقدنا أنه سيكون.. كان أول ما رأته عيوننا هو جمع غفير من البشر.. في قاعة هائلة الحجم.. يجلسون على ما يشبه المدرجات التي تحد القاعة عن يمينها وشمالها.. وبين المدرجين في وسط القاعة يبدو شيء أشبه بمنصة لم نتبينه جيدًا.. كان الجمع الغفير من الناس الجالسين

هنا وهناك يتحدث كلٌ منهم مع زميله بحماس شديد.. مما جعل صوت القاعة عاليًا جدًا.. وقد تضخم أكثر مع سعتها وانغلاقها.. كان هناك بعض الواقفين القلائل هنا وهناك بطريقة منظمة مثل الحرس.. وفور أن انفرج باب القاعة ورأونا بعباءاتنا والرجال يحيطون بنا سكتت الأصوات فجأةً وانتبه إلينا كل الحاضرين ولم نعد نسمع إلا وقع أقدامنا على الأرض الخشبية.

نظرنا أنا وأنت باندهاش لم نستطع إخفاءه إلى هذا المشهد.. إلى أن بدأ الحرس حولنا يشيرون لنا أن نتقدم.. بدأنا نمشي ببطء.. إن العباءة تعطي الإنسان شعورًا بالهيبة لا شك فيه خاصة حين تمشي بها وسط جمع صامت ينظر إليك في ترقب.. نحن الملوك هنا فيما يبدو يا فتى.. مشينا بخطوات بطيئة وأخذنا ننظر بفضول إلى هؤلاء الجالسين بينما نمشي.. وهنا اتسعت عيوننا اتساعا غلب على كل الاتساعات التي قبله.. كان ما نطالعه الآن هو الشيء الذي يجعل هذا المشهد هو الأعجب في العالم كله.

للوهلة الأولى بدا عدد من الوجوه الجالسة مألوف لنا نوعًا ما.. ثم ما إن تبينا من هم حتى تسمرنا مكاننا ونظرنا إلى باقي الوجوه.. يمكنك أن تميز أينشتاين بشعره المميز جالسًا هناك.. وفولتير جالسًا هناك.. داروين بلحيته جالسًا هناك.. يمكنك أن ترى نيوتن هنا.. ورذرفورد هناك.. وأرسطو بالأعلى هناك.. يجلس بجانبه ابن سينا وابن رشد.. وهذا هناك هو جاليليو.. كان شكلنا عجيبًا جدًا ونحن ننظر إلى وجوه الجميع حولنا في ذهول.. حتى انتبهت إلينا الوجوه وأصبحوا ينظرون إلينا في شيء من الاستغراب.

أين نحن بالضبط؟ ما الذي أدخلنا هذا العالم بالضبط؟ أشار لنا الحراس أن نتقدم.. فتقدمت وأنا لم أعد أرى أين أخطو.. مَن مِن المفترض أن أكون أنا؟ ومن تكون أنت؟ كنا نتقدم إلى نهاية القاعة حيث هناك كرسيان.. أو لنقل عرشان.. تقدم الحراس صانعين لنا صفين لنمشي خلالهما.. أنا لا أدري أين نحن؟ لكن من الواضح أننا سنشارك في حدث رهيب ينقله لنا هذا العالم.. إن العقول التي لمحتها جالسة هنا يمكن أن تهتز لها جنبات هذا القصر بأكمله.. فكيف تجمعها قاعة واحدة؟ بل كيف سنشرف نحن على هذا الجمع.. ولماذا؟

جلس كل واحد منا على عرشه.. ونظرنا إلى جموع الجالسين.. ثم انتهت إلى المنصة الموضوعة في منتصف القاعة.. ويبدو أن الدهشة تصر على أن تصحبنا في كل شيء ننظر إليه في هذا العالم.. منصة متوسطة الحجم مبنية من الطوب.. عليها نقوش وزخارف لا حد لروعتها.. الغريب لم يكن هذا.. الغريب كان في هذه

الأشياء الغريبة التي تتحرك فوق المنصة.. أشياء حمراء تتحرك في الهواء بطريقة سينمائية لتشكل رمزًا معينًا.. ثم تتحرك لينفصل بعضها عن بعض.. ثم تجتمع مرة أخرى لتكون ذلك الرمز مرة أخرى في حركة متصلة شبيهة بطريقة عرض اللوجو الثلاثي الأبعاد في بداية أفلام السينما.. الفارق أن هذا لم يكن يحدث على شاشة.. بل كان يحدث في الهواء.

إن ما نشاهده أمامنا حسب فهمي هو هولوجرام.. وهي تقنية تعرض أفلامًا مسجلة ولكن في الهواء دون الحاجة إلى شاشة.. فترى الأشياء مجسدة كما لو كانت جزءًا من عالمك الواقعي.

بدأت الغرائب التي نراها مع كثرتها تجعلنا نغض الطرف عن كثير منها ونبدأ في التفكير في معنى هذا كله.. برغم أن كل شيء ممكن في أرض السافلين فإننا ما زلنا قادرين على التعجب والاندهاش في كل مرة.. نسيت أن أخبرك باسم هذا العالم في البداية لمَّا كنا في الكرولر.. لماذا لم تذكرني؟ نحن هنا في عالم الإلحاد.. وأنا أحاول أن أفهم منذ دخلنا إلى هذا المكان علاقة كل هذا بالإلحاد.. لكن لا تتعجل الأمور.. سنفهم كل شيء في اللحظات التالية.

فُتح باب القاعة الكبير الذي دخلنا منه أول مرة ودخل منه رجال أشداء يجرُّون معهم شيئًا هلاميًا يضعونه داخل شبكة.. وهذا الشيء يتحرك من جميع مواضعه وكأنه قنديل.. اتفقنا ألا نندهش ونحاول التركيز على المعاني.. قال لنا أحد الحراس الذين بجوارنا والذي كان يبدو مميزًا بزيه عن بقية الحراس:

سيداي لقد أتوا إليكما بأهواء الرجال.

لم أفهم جيدًا ما يريد أن يقوله هذا الرجل فأشرت إليه أن يقترب وأشرت إليه مستوضحًا.. فمال على رأسي وقال:

لقد جمعنا يا سيدي أهواء الرجال في هذه الحاوية.. حتى نبعدها تمامًا عن مناقشتنا هذه.. هذه مناقشة عقول تبحث عن الحقيقة.. الحقيقة وحدها.. ولهذا جمعنا الأهواء لنبعدها عن ساحتنا.

بدأت أفهم قليلًا ما نحن بصدده هنا.. قلت للرجل:

خذوها فاحرقوها خارج المبنى.

تحرك الرجل إلى مجموعة الرجال الأشداء وأخبرهم بما قلت فتحركوا بسرعة وشدوا وراءهم ذلك الشيء العجيب إلى خارج القاعة.. لم أكن أعرف أن أهواء الرجال يكون شكلها هكذا.

ثم ناديت هذا الرجل فأتاني مسرعًا.. وملت عليه وأخذت أهمس إليه بأمور وبهمس لي.. دعني أفهم ما هذا الشيء الذي نحن خلاله هنا.. وما هدفه بالضبط.. حتى يمكنني أن أشرح لك.. كان هذا رجلًا يثرثر في الشيء دون أن تطلبه.. هذا النوع من البشر يروق لي.. أخذنا الحديث قليلًا وأنا أتعجب منه في كل جملة حتى فهمت كل شيء.. فشكرته وربتُّ على كتفهِ.. ثم عدت واسترخيت على العرش.. هل تدري ما هذا الشيء الذي نحن بصدده هنا يا صديقي؟ أراهن أن الأمر سيروق لك جدًا.

أتدري فيمَ اجتماع هذه العقول كلها؟ عرفتَ أن فهم علماء وفلاسفة ورجال دين.. كل هؤلاء هنا لأجل أن يجيبوا علي الأسئلة الصعبة النهائية التي شكلت إجاباتها تحديًا كبيرًا للإنسان عبر التاريخ.. تحديًا بين أعظم الفلاسفة وأكبر العلماء التجريبيين وأتقى رجال الدين.. كيف بدأ الكون؟ هل خلقه أحد؟ هل خلقنا أحد؟ من أين أتينا؟ وكيف أتينا؟ وإلى أين سنذهب عندما نموت؟ ولماذا نحن هنا؟ من هو الله؟ هل هو موجود حقًا؟ أين هو بالضبط؟ ومن الذي خلق الله؟ وغيرها من الأسئلة الوجودية النهائية.. ونحن هنا لنصل فيها إلى نتيجة.

تسألني ما هي فائدتي أنا وأنت هنا؟ نحن الذي سنحكم على نقاش هؤلاء وسنستخرج الرأي النهائي الصحيح من هذا كله.. بأي صفة؟ بصفة الشعب.. نحن نمثل العامة.. ولقد وضعونا هنا حكمًا بين هؤلاء العلماء جميعًا.. وهذا ليس غريبًا، فكل هؤلاء العلماء في الأصل كان هدفهم في زمانهم توجهنا وتوجيه البشرية لما يرونه الأصح.. فموقفهم الطبيعي هو التبارز الفكري وموقفنا الطبيعي كشعب هو الاستماع والاقتناع.. لذلك فقد أزيلت أهواؤنا مع أهواء الرجال وأحرقت هناك ولم تبق لنا إلا عقولنا.. أي أننا الآن صرنا غير متحيزين إلى ديننا.. بل أصبحنا محايدين تمامًا.. وننتظر من كل طرف من الأطراف أن يقنعنا برأيه.. والآن هيا راقب.. هناك شخص ما يتقدم من المنصة.

ذلك الرجل الذي تقدم من المنصة العجيبة هو نفس الرجل الذي كنت أهمس معه منذ قليل.. يبدو أنه ذو شأن ما هنا.. كأنه هو الذي يشرف على تنظيم هذا الاجتماع.. وقف الرجل بجانب المنصة وتوجه صوبي وتحدث بصوت هادئ واضح للجميع بفعل تقنية عجيبة ما ليس للميكروفونات دخل بها.. كان يقول:

مرحبا بالجميع في هذا الاجتماع التاريخي على هذه الأرض.. والذي يجب أن نخرج منه اليوم بنتيجة تؤكد لنا إجابة الكثير من الأسئلة التي حيرتنا.. ولذلك

جمعنا كل الأطراف بعضها مع بعض.. ليَطلع بعضهم على أفكار بعض مباشرة بدون وسيط.. وأخرجنا منهم أهواءهم حتى لا يكون هناك تحيز من أحد منهم إلى فكرة معينة.. فقط يحركهم العقل ولا شيء غير العقل.. واسمحوا لي أن أعرفكم أولًا بطريقة تنظيم هذا الاجتماع التاريخي.. في البداية أقول لكم أن اسمي هو "آدم".. وأنا منظم هذا الاجتماع.

كان الرمز الهولوجرامي الأحمر فوق المنصة يدور حول نفسه ببطء معطيًا لمحة تكنولوجية رائعة إلى هذا الجو العجيب.. لاحظنا أن الباب قد انفتح قليلًا وأدخل الحراس علينا رجلًا.. ضيقت عيني فور أن رأيته.. كان رجلًا بهي الوجه.. بهي الثياب.. بهي الحضور.. طويل وسيم ذو لحية بنية متوسطة وشعر بني طويل مسترسل إلى كتفيه كأنه يقطر ماء.. يرتدي عباءة بنية غامقة تتخللها عباءة بنية فاتحة.

أشار "آدم" إلى الرجل الداخل وقال:

دعوني أعرفكم بمن سيمثل الدين في مناقشتنا هذه.. إن اسمه هو "المبارك".

يبدو كلقب وليس كاسم.. لكن الرجل حقًا له حضور قوي جدًا.. ولا أدري أين رأيته من قبل.. دخل "المبارك" ووقف في جانب من جوانب القاعة.. بينما توجه "آدم" ناحية المنصة التي اختفى من عليها الرمز الأحمر وبدأت تظهر عليها صور أخرى تدعم وتشرح كلام "آدم" بينما يتحدث.. وسأتركها لخيالك حينًا وسأشرح بعضها حينًا آخر.. كان "آدم" يقول:

في البداية علينا أن نحدد القواعد المعمول بها في هذه المناقشة.. لأنها كما تعلمون مناقشة هامة وصعبة وتحتاج لقواعد صارمة.. في مناقشتنا هذه هناك كلام فلسفي.. وهناك كلام علمي.. وهناك كلام ديني.. بالنسبة للنظريات الفلسفية.. سنقبلها كلها بلا استثناء.. فهي فلسفة عقلية ولا حجر عليها.. أما بالنسبة للعلم فنحن سنفرق في قبول كلام العلم بين الفرضية والنظرية والحقيقة العلمية.. نحن في مناقشتنا هذه لا نقبل الفرضيات العلمية أبدًا.. ونقبل النظريات العلمية المعترف بها فقط.. ونقبل طبعًا الحقيقة العلمية.. وكشرح مبسط جدًا للموضوع من أجل أصدقائنا الذين عاشوا في أزمان قديمة قبل صك هذه المصطلحات.. بالنسبة للعلم مثلًا عندما يرى أن الأشياء تسقط دائمًا من أعلى لأسفل.. فالفرضيات هي اقتراحات.. لماذا تسقط الأشياء.. ربما كانت تسقط بسبب كذا أو ربما كذا.. أما النظرية فهي واحدة من هذه

الاقتراحات ولكن لها مشاهدات وتجارب عملية تثبت صحتها وليس هناك تجربة واحدة أو دليل واحد يعارضها حتى اليوم.. فإن وُجد دليل واحد يعارضها سقطت النظرية واعتبرت لاغية.. نحن سنقبل النظريات العلمية المُتفق على صحتها في هذا الزمن.. أما الحقيقة العلمية.. فهي قولنا ببساطة: "إن الأشياء تسقط إلى الأرض".. هي شيء مفروض علينا ولا يمكننا تغييره.. يعني الحقيقة العلمية هي الشيء الذي تُوضع الفرضيات والنظريات لتفسيره.

ثم أشار بيده إلى "المبارك" وقال:

أما بالنسبة للدين.. نحن نعتبر هنا أن الدين هو الكلام الذي قاله أو الفعل الذي فعله رجل قال عن نفسه أنه نبي مرسل من عند الله.. هذا الكلام يشمل كتابه المقدس الذي يقول أنه كلام الله.. ويشمل الوصايا والأحكام التي أمر بها النبي متبعيه بلسانه.. وبالتالي لدينا ثلاثة رجال تُنسب إليهم الأديان الثلاثة الكبرى.. اليهودية تنسب إلى "موسى".. والمسيحية تنسب إلى "عيسى".. والإسلام ينسب إلى "محمد".. أما الكلام الذي قاله أصحاب هؤلاء الأنبياء أو تابعوهم بعد وفاتهم فلا يُعتد به في هذه المناقشة.. نحن سنحاكم الدين كما جاء به النبي بنفسه فقط.. لن نُدخل أنفسنا في لعبة الشك في ما إذا كان تابع النبي يعمل بكلام النبي أم يعمل من عند نفسه واجتهاده الذي قد يصيب وقد يخطئ.. طالما سنتبع الطريقة العلمية في المناقشة والبحث فلا شيء في العلم يدعى حسن الظن بأحد.. كل نبي قادر تمامًا على أن يُعبر عن دينه بنفسه تعبيرًا كاملًا.

نظرت إلى الحضور فوجدت الكلام قد أثار اهتمامهم نوعًا ما.. كان "آدم" يقول:

اعتمادًا على هذه القاعدة أتينا بكلام الأنبياء الثلاثة ووضعناه تحت التحقيق.. التحقيق في مدى صحة نسبة هذا الكلام إليهم.. حتى يمكننا أن نعتمده في مناقشتنا هذه.. بالنسبة للكلام والفعل الخاص بالنبي محمد فقد ثبت بطريقة علمية بحتة نسبته إلى "محمد" بما لا يدع مجالًا للشك أبدًا وهذا ما سنشرحه ببساطة الآن.. أما الكلام المنسوب إلى النبي عيسى في المسيحية أو إلى النبي موسى في اليهودية فلا يوجد شيء علمي موثوق يثبت (علميًا) نسبته إلى عيسى أو إلى موسى.. الأمر معتمد على حسن الظن بالناقلين.. ونحن لا يمكننا أن نُدخل دينًا ونحاكمه هاهنا ونحن لسنا واثقين بطريقة علمية بأن الكلام الذي نقلوه لنا هو من كلام نبي ذلك الدين حقًا.

بدأ شيء من الهمهمة المعترضة يحدث بين بعض الحضور لكن "آدم" تجاهل هذا ونظر إلى صور تكونت على الهولوجرام وأكمل يقول:

بالتالي نحن سنعتمد الدين الإسلامي ليعبر عن بقية الأديان الأخرى في هذه المنازلة ولن نعتمد نظرة أو رأي أي دين آخر غيره.. والموضوع ليس فيه أي تحيز من أي نوع.. إنما تم اختياره اختيارًا علميًا محضًا.. فكما نرى أمامنا على هذا الهولوجرام.. علميًا.. علميًا فقط.. اهتم المسلمون بكلام "محمد" اهتمامًا بلغ حد الكمال.. هذه النقطة الحمراء الكبيرة هناك تمثل النبي "محمد".. وهذه الموجات الصغيرة الدائرية التي تخرج منها هي الكلام الذي يتكلمه النبي محمد.. انظروا.. فور خروج الموجات تهافت ناحيتها مجموعة من النقاط الصغيرة الزرقاء.. هؤلاء هم أصحاب محمد.. إنهم يسمعون كلامه الآن.. ثم كما نرى تفرقت النقاط الصغيرة وبدأت تخرج منها موجات صغيرة أيضًا.. إنهم يتحدثون بما سمعوه من كلام محمد.

تقدمت قليلًا لأركز أكثر.. أكمل "آدم":

الآن اقتربت الصورة كما ترون من نقطة واحدة من النقاط الزرقاء والتي تمثل صحابيًا واحدًا.. كما ترى اقتربت منها نقطة خضراء تمثل واحدًا من التابعين.. والتابعي هو الذي رأى الصحابي ولم يرى النبي.. أخذت النقطة الخضراء الكلام من الصحابي ونقلته إلى نقطة بنفسجية تليها.. هذه النقطة البنفسجية تمثل رجلًا يدعى (راوي).. وهو رجل صالح بعد جيل التابعين.. ينقله هذا الراوي إلى نقطة بنفسجية تليه تمثل راويًا آخر.. ثم إلى نقطة بنفسجية تالية وهكذا حتى يصل النقل إلى نقطة كبيرة حمراء تشبه النقطة الأولى.. هذه النقطة الحمراء الأخيرة تمثل رجلًا يدعى "المخرّج" وهو الرجل الذي كتب القول الذي ينتقل عبر هذه السلسلة في كتاب كبير جمع فيه مئات الأقوال يسمى "كتاب حديث".. وكتب في هذا الكتاب أسماء كل رجال السلسلة الذين نقلوا هذا القول وكل قول استطاع أن يصل إليه من أقوال النبي.. أي أنه كتب كل قول وكتب أسماء كل الرواة الذين نقلوا هذا القول حتى وصل إلى التابعي ثم إلى الصحابي ثم إلى النبي.. لدينا ستة كتب كبيرة للحديث جُمعت فيها أحاديث النبي محمد وأفعاله.. ولكن هذا كله لا يعني شيئًا بالنسبة للعلم ولا يجعله يأخذ الكلام على أنه موثوق.. فربما يكذب أو يبدل أي عضو في هذه السلسلة الكلام المنقول.. وبالتالي لا يكون موثوقًا.. إلا أن المسلمين حقًا فعلوا شيئًا عجيبًا جدًا.. أجبر العلم أن ينحني وينظر إلى الكلام ويعتبره كلامًا موثوقًا رغمًا عن أنفه.. بل اعتبره العلم

أكبر كلام موثوق نُقل في التاريخ.. والآن لننظر إلى الهولوجرام بتمعن حتى نفهم ماذا فعل المسلمون.

اقتربت الصورة في الهولوجرام من إحدى النقاط البنفسجية.. ذلك الذي يسمى "راوي".. فتابع "آدم":

و الآن انظر جيدًا.. هذا رجل من الرجال الذين نقلوا الحديث في السلسلة.. انظر إليه وتنبه.

برزت أشياء أشبه بالعدسات المكبرة أحاطت بالنقطة البنفسجية التي تمثل الرجل.. أشار إليها "آدم" وقال:

هذه العدسات المكبرة تمثل رجالًا عاصروا هذا الرجل الذي ينقل الحديث.. وكانوا يراقبون أحواله مراقبة محكمة.. يراقبون أخلاقه طوال حياته.. ويقولون حكمهم عليه في النهاية.. ليبلغوا من سيأتي بعدهم من الأجيال.. مثلا يقولون أن هذا الرجل كان يتصف بالفضيلة أو يقولون كان رجلا كذابًا.... ليس هذا فقط، بل إنه لو ثبت من مراقبتهم له أنه ذو أخلاق عالية فهم لا يعتبرونه عندهم راويًا موثوقًا للحديث إلا عندما يختبرون قوة حفظه، فيقولون مثلًا هذا الرجل قوي الحفظ.. أو هذا الرجل سيئ الحفظ.. فلا يقبلونه إلا لو نجح في الاختبارين.. أن يكون ذا أخلاق عالية جدًا وذا ذاكرة قوية.

أشار "آدم" بإصبعه وقال:

والآن راقب جيدًا.. لو كان الرجل كذابًا.. انظر ما يحدث معي.. تختل السلسلة كلها كما ترى وتصبح روابطها متعرجة ومهزوزة بعد أن كانت مستقيمة.. وبالتالي فإن هذا القول المنقول عن النبي والذي يسمى "حديث" يكون حديثًا مكذوبًا ولا يُعتد به عند المسلمين.. حتى لو كذب الرجل مرة واحدة في حياته فقط.. فهم لديهم حساسية مفرطة ضد من كذب.. يسقطونه من حساباتهم مباشرة.. مرة أخرى ننظر إلى سلسلة أخرى من الرجال.. ونقترب مرة أخرى من نقطة بنفسجية تمثل راويًا من رواة الحديث.. وها هو تحيط به العدسات كما ترى.. هذا الرجل على خلق عالٍ جدًا ولم يكذب في حياته قط لكنه سيئ الحفظ.. أيضًا تختل السلسلة كلها.. والحديث يسمى حديثًا ضعيفًا.. ولا يُعتد به.. إذًا لا يُعتد سوى بالحديث الذي يكون رجاله كلهم على درجة عالية من الخلق وعلى درجة عالية من قوة الحفظ.. ومعنى درجة عالية من الخلق أي أنهم لم يفعلوا السيئات الكبيرة طوال حياتهم مثل شرب الخمر أو الزنا أو الربا أو الغيبة أو السرقة أو الظلم.. ولم يفعلوا السيئات الصغيرة أيضًا.. ولم يُر منهم أو يسمع عنهم أي سوء

مطلقًا طوال حياتهم.. باختصارٍ هم لا يقبلون من يُبلغ حديثًا عن النبي "محمد" إلا أن يكون رجلًا صالحًا شديد الصلاح ورعًا تقيًا حافظًا سيرته عطرة عند كل الناس في مجتمعه وخارجه.

نظر "آدم" للعدسات وقال:

هذه العدسات التي تراها تهرع لمراقبة كل نقطة في السلسلة تشكل ما يسميه المسلمون علم الرجال أو علم الجرح والتعديل.. وبالنسبة للسلاسل نفسها التي تمثل كل قول من أقوال النبي أو أفعاله حتى ينتهي إلى كتاب من كتب المخرجين.. تشكل ما يسمونه "السند".. والقول أو الحديث نفسه الذي تنقله السلسلة يسمى "المتن".. باختصار.. كل قول من أقوال النبي محمد لدينا أسماء من نقلوه كلهم وسجل أحوالهم وأخلاقهم وقوة حفظهم كلهم.. فكما نرى.. بهذه الطريقة، الأحاديث الصحيحة هي بما لا يدع مجالًا للشك كلام قاله "محمد" حقًا أو فعله "محمد" بلا أدنى شك علمي في هذا.

سكتت الهمهمات وانتبه الرجال إلى حديث "آدم" وهو يقول:

أما بالنسبة للقرآن فقد كان انتقاله بطريقة أكثر قوة من هذه بكثير.. انظر معي إلى الهولوجرام.. هذه النقطة الحمراء تمثل النبي.. ها هو يتلو القرآن كما ترى.. وتأخذه عنه وتحفظه جميع النقاط الزرقاء (الصحابة).. ثم هذه النقاط الزرقاء أصبح يجتمع على كل واحدة منها عشر نقاط على الأقل من النقاط الخضراء (التابعين) يحفظون القرآن عن هذا الصحابي.. وكل نقطة من النقاط الخضراء التي حفظت تأتيها ما يقرب من عشر نقاط بنفسجية يحفظون عنهم القرآن وهؤلاء البنفسجيون الذين يحفظون القرآن يدعى كل واحد منهم (قارئ حافظ).. وكل قارئ حافظ بنفسجي من العشرة تأتيه عشر نقاط بنفسجية أخرى يحفظون عنه القرآن.. وكل عشرة يأتي كل واحد منهم عشرة.. فكل عشرة ينتج عنهم مائة حافظ.. وكل مائة ينتج عنهم ألف حافظ.. وكل ألف ينتج عنهم عشرة آلاف حافظ.. وهكذا في كل جيل حتى يومنا هذا نجد ملايين الحُفاظ.. وكل قارئ حافظ في هذه السلسلة لا يعتبر حافظًا رسميًا ويأخذ شهادة سند متصل بالنبي أو ما يسمى "الإجازة" إلا إذا قرأ القرآن كله بدون خطأ واحد في أي حرف واحد أمام شيخه الذي لقنه فإن أخطأ أعاد من البداية.. وشيخه فعل هذا مع شيخه.. فإذا نجح يأخذ شهادة سند متصل مكتوب فيها اسمه واسم شيخه وشيخ شيخه وهكذا وصولًا إلى النبي "محمد".. جيل كامل يحفظ القرآن عن جيل كامل عن جيل، عن جيل، حتى جيل "محمد".. هذه الطريقة تسمى التواتر..

آلاف الحُفاظ يقرأون القرآن كاملًا بدون خطأ عن آلاف الحفاظ في كل جيل من جيلنا هذا حتى جيل النبي.. ويستحيل في هذه الطريقة الخطأ أبدًا.. ولو في حرف واحد.. فالحديث العادي ينقله عن كل رجل رجل أو رجلان أو ثلاثة.. لكن القرآن ينقله عشرة رجال على الأقل عن كل رجل.. فيستحيل تواطؤ العشرة على السهو أو النسيان.. وكل الرجال في هذه السلاسل طبعًا معروفة أسماؤهم.

وأخيرًا قال "آدم" بطريقة من ينهي الحديث في هذه النقطة:

كما نرى، هذه الطريقة في النقل عن "محمد" تمنع تمامًا أي نوع من حسن الظن وتمنع تمامًا أي نوع من الشك في صحة الكلام المنقول.. هذا لم يوجد في المسيحية ولا في اليهودية.. بل إنه لا يُعلم لهاتين الديانتين سند متصل حقيقي بغض النظر عن معرفة أحوال من نقلوه... وبهذا فإننا علميًا.. علميًا فقط.. سنأخذ بالكلام الذي يقوله محمد عن الله وسنعتبره هو الكلام الديني الذي سيواجه العلم وسيواجه الفلسفة في منازلتنا هذه.. والرجل الذي سيمثل الدين اليوم هو "المبارك" وهو من حُفاظ القرآن وحُفاظ الحديث.

ثم التفت "آدم" إلينا وقال:

سيداي.. هل لديكما أي تعليق أو تعديل عما ذكرت حتى الآن؟

مهلًا.. إنه يتحدث إلينا أنا وأنت.. ما رأيك؟ أنت ترى بنفسك.. بالنسبة للعلم فلا يقبلون الفرضيات لأنها غير مثبتة.. وبالنسبة للدين لا يقبلون الكلمة فيه إلا إذا كانت مُثبتة إلى نبي.. ولا يوجد كلام مُثبت علميًا نسبته إلى نبي إلا كلام النبي "محمد".. قرآنه وحديثه.. ولا يقبلون الضعيف من الحديث.. إذًا فقد قمنا بعملية "فلترة" أو تصفية كاملة لكل ما هو غير مثبت سواء في العلم أو في الدين.. وما تبقى بعد الفلترة هو الذي سيتواجه هنا لنرى كيف سيتعارض وكيف سيتفق.. في رأيي أنهم أرسوا قواعد قوية فولاذية وصحيحة ومنطقية جدًا جدًا قبل بدء هذه المنازلة.. لقد تحمست يا صديقي.. لذلك قلت لآدم:

أكمل يا فتى.. لقد أثرت شوقنا.

سكت "آدم" قليلًا وكأنه يجهز لبدء شيء كبير ثم قال:

سأذكر الآن طريقة المناقشة وآلياتها.. عندما أطرح أي سؤال سيضيء مقعد من المقاعد.. وهذا يعني أن الجالس على هذا المقعد يجب أن يقف ويتحدث بما يُلخص أفكاره وأبحاثه في جواب هذا السؤال.. في كل سؤال سنجعل الفلاسفة يتكلمون أولًا.. ثم العلماء التجريبيون.. لأن كلام الفلاسفة يعتبر رياضة عقلية

تجعل عقولنا تتحرك عن سباتها.. فتكون مهيأة بعدها لاستقبال رأي العلم.. وستكون إضاءة المقاعد سواء للفلاسفة أو العلماء مرتبة تاريخيًا.. أي أن المقعد الذي سيضيء أولًا سيكون هو مقعد الرجل الذي أدلى بأول رأي في هذه المسألة.. ثم يضيء مقعد رجل آخر هو ثاني من ذكر رأيه فيها وهكذا.. ثم سيكون رأي "المبارك" هو الرأي الأخير الذي سيقال بعد كل هذه الآراء كلها ليخبرنا برأي الدين.. وتذكروا أثناء إضاءة المقاعد أن الضوء الأخضر يعني أن هذا الشخص فيلسوف.. والضوء الأحمر يعني أن هذا الشخص عالم تجريبي.

كان الجميع صامتًا يتابع باهتمام.. قال "آدم":

إذًا سنبدأ الآن.. وسنطرح السؤال الأول.. هل هذا الكون الذي نعيش فيه جميعًا ونمشي على أرضه ونتنفس هواءه ونطالعه من وراء التليسكوب، هو كون موجود هكذا بحالته هذه منذ الأزل؟ أم أن له بداية؟ ولو كانت له بداية فما الذي ابتدأها؟ أو مَن؟ أهو الله أم شيء آخر؟

فجأةً أضاء مقعد "أرسطو" بالضوء الأخضر.. وهو رجل بلحية بيضاء قصيرة وشعر أبيض قصير نازل على جبينه... قام "أرسطو" واقفًا وقال:

ليس الكون الذي نعيش فيه هو الأزلي.. هذا كلام غير دقيق.. بل المادة التي صُنع منها الكون هي الأزلية.. هذه المادة سميتها أنا "الهيولا".. هذه الهيولا لطالما كانت موجودة منذ الأزل.. والله موجود أيضًا منذ الأزل.. لكن هذه الهيولا فيها خاصية مهمة.. هي خاصية عشق الله.. هذا العشق جعلها تتحرك تلقائيًا من نفسها لتصنع هذا الكون وحدها بدون تدخل من الله.

سأله "آدم" باهتمام:

إذًا أنت تؤمن بوجود الله؟

قال "أرسطو" مباشرة:

نعم بالطبع.. وأنا أنزهه تمامًا عن أي نقص بحديثي هذا.. فنحن إذا قلنا أن الكون لم يكن موجودًا ثم أوجده الله فجأةً.. فهذا يعني أن الله لم يكن قادرًا على الخلق ثم جاء عليه وقت وأصبح قادرًا على الخلق.. فخلق الكون.. هذا لا يجوز في حق الله.. إذًا فالحل لهذه المعضلة هو أن الهيولا موجودة منذ الأزل مثلها مثل الله.. والله لم يخلقها ولم يخلق الكون.. وإنما هي التي تحركت لتصنع هذا الكون تعبيرًا عن عشقها لله.. والله فقط كان دوره أن يُثير حبها له فتتحرك له عشقًا.. وإثارته لحبها ليس قصدًا منه ولكن هذا طبع فيها هي لا دخل له فيه.

هنا أضاء كرسي "ابن سينا" بضوء أخضر.. فقام الطبيب الفيلسوف "ابن سينا" وهو رجل حاد الوجه حاد اللحية يرتدي عمة بيضاء.. قال "ابن سينا" وهو ينظر إلى "أرسطو" بإعجاب:

مكثت طويلًا جدًا أقرأ كتب "أرسطو" وأحاول أن أفهمها حتى حفظتها.. وفي النهاية فطنت إلى ما فيها من النور والذكاء.. المسلمون لم يكونوا يستسيغون الفلسفة ويرون فيها كفرًا للوهلة الأولى.. لكني وجدت أن الفكر الإسلامي قادر على استيعابها.. و..

قاطعه "آدم":

لا يُسمح لك بهذا الاستطراد الشخصي.. اذكر رأيك في الموضوع باختصار يا سيدي.

تحرج "ابن سينا" قليلًا لكنه قال:

حسنًا.. معذرةً.. الكون فعلًا هو شيء موجود مع الله منذ الأزل.. مثلما أن النور موجود مع الشمس منذ أن وُجدت الشمس.. والحرارة موجودة مع النار منذ أن وُجدت النار.. وسأشرح لماذا.. لأننا عندما نقول أن الله خالق.. فإننا نعني حتمًا أن الخلق هو صفة موجودة فيه منذ الأزل.. فلو سلمنا بعد ذلك أنه خلق الكون في وقت معين من الأوقات كما يتصور معظم المسلمين.. سنقع في مشكلة.. تعالوا نفكر في الله قبل أن يخلق الكون.. هل كنا نستطيع أن نسميه خالقًا وقتها؟ بالطبع لا.. لأنه لم يخلق الكون بعد.. كيف لا نستطيع أن نسميه خالقًا في ذلك الزمن والمفترض أن الخلق صفة أزلية فيه؟ إذًا فالمخرج من هذه المعضلة أن نؤمن أن الكون أزلي مع الله.. لكن الله هو الذي خلقه.. كيف يكون هذا؟ ببساطة كلمة خلقه هنا لا تعني الخلق بالمفهوم التقليدي.. بل تعني أن الكون صادر عن الله منذ الأزل.. مثلما نقول أن الشمس خلقت نورًا.. أو أن النار خلقت حرارة.

ثم أضاء بالضوء الأخضر كرسي رجل ذي لحية طويلة وعمة مميزة.. كان هذا هو "أبو حامد الغزالي".. من أهم علماء ومفكري المسلمين في ذلك العهد وقد قام قائلًا:

لقد نسي "ابن سينا" صفة مهمة جدًا لله لو أنه تذكرها لحُلت معضلته.. لقد نسب لله صفة الخلق.. لكنه نسي صفة الإرادة.. نعم الله خالق منذ الأزل.. لكن له إرادة منذ الأزل أيضًا.. هذه الإرادة جعلته يخلق الكون في زمن معين أراد أن يخلقه فيه.. هكذا حلت القضية.

ثم أضاء ضوء أخضر آخر في مكان آخر.. كان هذا هو "ابن رشد".. من فلاسفة المسلمين في الأندلس.. كان يرتدي عمة بيضاء أيضًا ويبدو رجلًا مفكرًا ساهمًا.. قال "ابن رشد":

تصور "ابن سينا" باطل.. هو كأنما يجعل الله خالقًا رغمًا عنه.. ليس باختياره.. مثل أن الشمس تصدر نورًا رغمًا عنها وليس باختيارها.. وأيضًا كان رد "الغزالي" عليه باطلًا.. يقول أن الله اختار بإرادته خلق الكون في زمن معين.. هذا غير منطقي.. فقبل أن يخلق الله الكون.. كان الله وحده يعيش منذ الأزل.. والأزل معناه زمن لا متناهي في الماضي.. لو قسمت هذا الزمن اللامتناهي قبل خلق الكون إلى أزمان.. ستجد أن كل هذه الأزمان متماثلة.. لا فرق بين زمن منهم وزمن.. لا ميزة لزمن منهم على زمن.. كلها أزمان متماثلة في سيل الزمن اللامتناهي.. لماذا اختارت إرادة الله الأزلية أن تخلق الكون في زمن معين منهم دون آخر؟ ما الذي رجح للرب أن يخلق الكون في هذا الزمن بدلًا عن ذلك الزمن المماثل له تمامًا؟ هل ما رجح هذا الاختيار هو سبب خارجي؟ هذا لا يصح لأنه لا شيء يؤثر على الله وعلى اختياراته.

قال له "آدم" بهدوء:

أبطلت كلام هذا وذاك ولم تذكر لنا الحل من وجهة نظرك.

قال له "ابن رشد":

هما أثبتا لله صفة الخلق منذ الأزل.. لكن كلًا منهما تصورها تصورًا خاطئًا.. والصحيح هو أن الكون أزلي لأن صفة الخلق عند الله أزلية.. وأنا هنا أقصد الخلق الحقيقي بإرادة الله.. ليس رغمًا عنه كما يدعي "ابن سينا" فهذا لا يصح.. ولا أقصد أيضًا أنه خلقه في زمن معين بإرادة أزلية كما يقول "الغزالي" فهذا لا يصح.. بل أقصد أن الله يخلق الكون في كل لحظة منذ الأزل وحتى الآن.. ولهذا فالكون أزلي.. فلو غاب الله عن الكون طرفة عين لانهار الكون كله.

ثم أضاء نور أخضر عند كرسي رجل ذو عمة زرقاء ولحية متوسطة وملامح عربية أصيلة.. كان هذا هو "ابن تيمية".. أحد علماء المسلمين الكبار جدًا.. قال "ابن تيمية":

إن "ابن رشد" قد نجح في إبطال كلام "ابن سينا" و"الغزالي" بحجج جميلة وأهنئه على هذا لكنه قد أعادنا مرة أخرى إلى فكرة "أرسطو" أن الكون أزلي مع الله.. الفرق فقط أنه يقول أن الله خلقه عن رغبة منه.. بل هو يخلقه في كل ثانية.. أي أنه أبطل ما هو باطل ولجأ بدلًا منه إلى باطل آخر.. والحقيقة أن

أقربهم إلى الحق كان "الغزالي" لمّا اقترح فكرة الإرادة لكن خطأه كان أنه تصور أن الله خلق الكون بها في زمن معين.. وهذا باطل وكان سهلًا على "ابن رشد" أن يبطله لأن الأوقات قبل خلق الكون كلها متماثلة.. لا ترجيح لأحدها عن الآخر.

قال له "آدم" وهو يفكر:

إذًا هلا أخبرتنا عما تراه حلًا لهذه المشكلة؟

قال "ابن تيمية":

الحل بسيط.. الله خالق منذ الأزل نعم.. لكن لا يوجد شيء اسمه الكون موجود منذ الأزل.. ستقول إذًا ماذا عن الله قبل أن يخلق الكون؟ سأقول ومن قال لك أن الكون هو أول مخلوق.. لم يثبت هذا في قرآن ولا حديث.. بل ثبت أن هذا الكون واحد من مخلوقات الله.. وكان قبله أشياء مثل القلم ومثل العرش.. أنت تتصور أن الكون هو أول مخلوق لأنه هو الشيء الذي حولك وتعيش فيه.. لكن هذا غير صحيح.. بل خلق الله قبله كذا وكذا وكذا حتى نصل لأول مخلوق.. قبل أول مخلوق كان الله وحده ولم يكن معه شيء.. كان ولا يزال متصفًا بصفة الإرادة.. لكن ليست الإرادة التي فهمها "الغزالي".. بل الإرادة التي قال الله عنها في القرآن: "إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون".. يعني إذا أراد شيئًا، فإن هذا الشيء يكون مباشرة في الحال دون تأخير إلى وقت معين كما افترض "الغزالي".. مثلما نقول كسرت كذا.. طلقت فلانة.. شيء يحدث في الحال.. فبعد أن كان الله وحده، شاء أن يخلق أول مخلوق فانخلق أول مخلوق في الحال والتو.. ثم شاء أن يخلق ما بعده فانخلق.. إلى أن شاء الله أن يخلق الكون فانخلق الكون.

قال له "آدم":

هل هذا يعني أنه لا توجد خطة لله؟ هو يفعل عندما يريد فقط؟ ألا يخطط لأمور ستحدث في المستقبل في أزمنة معينة لتحدث مثلًا؟

قال ابن تيمية:

طبعًا هناك خطة.. وهي لا تتعارض مع كن فيكون.. الخطة فقط تهتم بالأحداث التي ستحدث وترتيبها.. أما عن كيف ستحدث فبعضها يكون مخلوقات يخلقها الله بكن فيكون مثل خلق آدم.. وبعضها يكون تقديرات يقدرها الله مثل إخراج آدم من الجنة مثلًا.. كل هذا مكتوب في الخطة.

سأله "آدم":

ومن كتب هذه الخطة؟ هل الله هو الذي كتبها؟

قال "ابن تيمية":

أول شيء خلقه الله هو العرش.. ثم خلق بعده القلم.. ثم قال للقلم اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.. فكتب القلم كل ما سيكون من أحداث إلى يوم القيامة.. كتب القلم الخطة كاملة.. وتنفيذها يكون بإرادة الله أن يخلق كذا فينخلق في التو.. ثم يخلق كذا فينخلق.. ثم يقدر الله أن يحدث كذا فيحدث وهكذا.. حسب الخطة المكتوبة.

سكت "ابن تيمية" قليلًا ثم قال:

إنهم يفهمون الأزلية خطأ.. الأزلية الحقيقية ليست أزلية المخلوقات.. بل أزلية الأحداث.. والأحداث أزلية لأن أفعال الله هي التي تُحدثها.. فالله يفعل كذا ويفعل كذا منذ الأزل.. أفعاله أزلية لأنه أزلي.. إذًا كل إثباتاتهم الرياضية وغير الرياضية على أن الأزلية موجودة هي إثباتات صحيحة كلها.. لكنها لا تعني أزلية المخلوقات بل أزلية الأحداث.. أزلية المخلوقات وهم كبير.. لو قلنا من الذي خلق الإنسان.. الله.. ومن الذي خلق الله.. هذا سؤال لا يصح.. لأنه لا ينبغي لك أن تبحث عن تفسير للتفسير.. لو ظللت تبحث عن تفسير للتفسير ثم تفسير لتفسير التفسير وهكذا إلى ما لا نهاية فلن تصل في النهاية إلى تفسير أبدًا.. إن معنى كلمة أزلية أن الأشياء لو سلمنا بها فستعني أنه لن يوجد أي شيء من هذه الأشياء.. لأن أسبابها تمضي إلى ما لا نهاية فلن يوجد لها سبب.. وبالتالي لن توجد.. لا بد من تفسير ليس له تفسير.. هذا هو الله.

قال "آدم":

هذا منتهى كلام الفلاسفة في شأن الأزلية.. وكل من جاء بعد هذا وتحدث في أمرها أعاد نفس هذه المعضلات ولم يقدم شيئًا جديدًا.

هنا ومض ضوء أصفر بشكل متقطع وسط المقاعد.. نظر الجميع باستغراب إلى المقعد.. لم يكن هذا من ضمن الألوان المتفق عليها.. حتى صاحب الكرسي بدا مرتبكًا لا يدري هل يقف أم أن هذا عطل فني.. لا أظن أن في مثل هذا العالم أعطال فنية.. سمعت صوت "آدم" يقول:

معذرةً.. نسيت أن أخبركم أن الضوء الأصفر المتقطع يعني أن من سيقوم هو أديب.. لا هو فيلسوف ولا هو عالم.. معذرةً مرة أخرى عن هذا السهو.. الآن يقف السيد الكاتب والشاعر الشهير "إدجار آلان بو".

وقف "إدجار" محرجًا نوعًا ما.. هذا هو الرجل الذي يعتبر الأب الروحي لأدب الرعب.. رجل ذو ملامح مميزة جدًا وبدلة سوداء تعطي إيحاء بالكآبة أكثر من إيحائها بالأناقة.. قال "بو":

معذرةً لا أفهم بالضبط دوري في هذا المجمع الرائع.. فكل ما قلته كان معتمدًا على خيالي وحده.. بالنسبة لموضوع أزلية الكون هذا فلقد تخيلت ذات مرة تخيلًا في إحدى قصائدي وتدعى "يوريكا".. قلت نصًا إن الله قد خلق بإرادته شيئًا صغيرًا جدًا أشبه بجسيم صغير.. ثم انفجر هذا الجسيم الصغير لتخرج لنا منه جميع جسيمات هذا الكون.. ولمّا خرجت هذه الجسيمات بدأت تنجذب بعضها إلى بعض فكونت مجموعات تدعى المجرات.. ثم تباعدت هذه المجرات بعضها عن بعض بفعل الانفجار الأول وما زالت تتباعد حتى الآن.. ثم بعد حين من الزمن سينهار الكون ويعود إلى ذلك الشيء الصغير الذي كانه أول مرة.

هنا اشتعل ضوء أحمر عند أحد الكراسي.. ووقف تبعًا له رجل هو الشخصية الأكثر تأثيرًا في تاريخ العلم التجريبي.. وقف بشعره الثائر الشهير ونظرته التي تشع ذكاءً حادًا جدًا.. كان هذا هو "ألبرت أينشتاين".. الذي قال بصوته المميز:

جميلة هذه المناقشات الفلسفية والتي ألاحظ أنها تتعدل وتتصحح مع كل قول.. وانبهرت بكلام الشاعر "بو".. لا أدري كيف استطاع أن يتخيل نظرية البيج بانج وتوسع الكون ونحن قد مكثنا عشرات السنين حتى عرفنا سيناريو منطقي لها.. بينما هو فعل هذا قبلنا بكثير جدًا اعتمادًا على خياله فقط.. بالنسبة لكلامكم عن أزلية الكون هذا يذكرني بأكبر خطأ ارتكبته في حياتي كعالم.. قبل أن أتحدث عن خطأي أود أن أقول أن هذا الأمر قد أخذ منا كعلماء تجريبيين جهدًا كبيرًا لسنوات طوال مثلما أخذ من الفلاسفة حتى وصلنا فيه إلى قول فصل.. فنحن كعلماء تجريبيين كان بيننا صراع علمي شهير على هذه النقطة.. أهناك بداية للكون أم هو أزلي؟ ولقد حسمنا هذا الجدل الطويل الذي أتعبنا سنوات وسنوات.. حسمناه حسمًا علميًا في النهاية.. وإن لهذا قصة.

سكت "أينشتاين" قليلًا ثم أكمل:

ذات يوم توصلت إلى معادلات النسبية العامة التي تسمى بمعادلات المجال، لم أستطع أن أصدق ما تقوله لي هذه المعادلات.. لقد كانت تخبرني أن هذا الكون ليس ساكنًا كما يتصور الجميع.. هذا الكون إما أنه يتوسع وإما أنه ينكمش.. كانت تخبرني أن هناك قوة جذب بين كل الأجرام هي قوة الجاذبية ولا

توجد قوة أخرى تقابلها.. لو صدقت المعادلة سأصدق أن الكون الساكن الجميل الذي أومن به يجب أن ينهار على نفسه بفعل هذه القوة الجاذبة التي تجذب كل محتوياته بعضها ناحية بعض.. أو ربما يكون الحل أن الكون يتوسع منذ البداية هاربًا من سلطة الجاذبية هذه.. لكن ما الذي سيجعله يتوسع أصلًا؟ لم أدر جوابًا للسؤال.. ولهذا احتلت على المعادلات حيلة.. فأضفت مقدارًا وهميًا للمعادلة سميته "الثابت الكوني" يعادل قوة الجذب هذه بالضبط.. فعلت هذا حتى أبقي على تصوري البدائي الأول صحيحًا.. وهو أن الكون ساكن.. لا يتوسع ولا ينكمش.

سكت "أينشتاين" وعلى وجهه علامات خجل طفولية مما فعل ثم قال:

بعد هذا بسنوات جاءني أحد الرياضيين الروس الموهوبين هو "ألكسندر فريدمان" وأثبت لي بالرياضيات أن معادلاتي بعد إزالة الثابت الكوني الوهمي منها تقول بوضوح أن هذا الكون يتوسع ولا ينكمش، لكنني لم ألق بألًا لكلامه.. وبعدها بسنوات جاءني رجل آخر من بلجيكا هو عالم وراهب في نفس الوقت.. كان اسمه "جورج لوميتر" وطرح أمامي نفس الكلام الذي أخبرني به الروسي.. قلت له أن هذا الكلام قديم وسمعته من قبل وأنه هراء.. صدمه رد فعلي وصدمه أن هناك من فكر في نفس الكلام وأثبته قبله.

نظر "أينشتاين" إلى ناحية ما ورفع يده بالتحية لجورج لوميتر الذي كان بين الجالسين.. فرد عليه التحية.. أكمل "أينشتاين" وهو ينظر للراهب بامتنان:

لم يستسلم الراهب لكلامي وأخبرني وقتها بنظريته الجديدة التي تقول أن هذا الكون كان نقطة صغيرة ثم انفجرت.. وتوسعت الشظايا من الانفجار وكونت كل هذه الأجرام وما زالت تتوسع حتى اليوم.. نفس الكلام الذي تلاه علينا منذ قليل ذلك الشاعر "بو".. إن مجرد رفضي النظر في كلام ذلك الراهب أعطاه عدم مصداقية في جميع الأوساط.. لكنه استمر سنوات بعدها وهو يحاول إقناع الناس بإصرار بنظريته.. ولقد نجح فعلًا حتى إن العلماء قد انقسموا إلى فريقين.. فريق يؤمن بكلامي والفريق الآخر يؤمن بكلام الراهب.. ومن فصل بيننا في النهاية هو اكتشاف صديقي الفلكي "هابل".. ومن الأفضل أن أدعه يتحدث هو في هذه النقطة.

أضاء ضوء أحمر بجانب "أينشتاين".. كان هذا هو العالم الفلكي الأمريكي "هابل" والذي يسمى التلسكوب الشهير باسمه.. كان رجلًا ذا ملامح تعطي إيحاءً بالخطورة.. قال "هابل":

بعد اكتشافي بتلسكوبي الشهير لأول مرة وجود مجرات أخرى غير مجرتنا.. علمت أن هذه المجرات ترسل لي رسالة.. كانت تريد أن تقول لي شيئًا مهمًا.. في البداية لم أنتبه.. لكن فجأةً فهمت.. فهمت رسالتها لي.. ببساطة من المعروف أن الضوء العادي حين تحلله إلى طيفه تجد أن هذا الطيف له لون معين حسب طول الضوء الموجي.. ربما يكون لون الطيف أزرق أو أخضر أو أصفر أو غيره من الألوان.. الضوء الذي له طول موجي أكبر يُظهر عند التحليل طيفًا أحمر.. والذي له طول موجي أقصر يُظهر عند التحليل طيفا أزرق.

برزت صور على الهولوجرام تشرح كلام "هابل" بالصور.. فأشار لها وهو يكمل:

عندما حللت الضوء الذي يأتينا من المجرات الأخرى.. وجدت أن طيفه ذو لون أحمر.. ومع الوقت يتجه ليكون أكثر احمرارًا.. دلني هذا إلى أن الضوء الآتي لنا من المجرات طوله الموجي يتزايد مع الوقت.. لم يكن لهذا سوى معنى واحد فقط: أن النجم الذي يصدر ذلك الضوء هو في الحقيقة يبتعد عنا.. وكلما ابتعد عنا زاد طوله الموجي وبالتالي ظهر طيفه أكثر احمرارًا. كانت هذه المشاهدة صحيحة من جميع الاتجاهات.. لقد أجريت التجربة على حوالي ٤٠ مجرة حولنا.. وكل مرة أخرج بنفس النتيجة.. عندها فهمت الرسالة التي حدثتني بها النجوم.. الرسالة التي أخبرتني أن كل هذه النجوم والمجرات التي حولنا هي في الحقيقة تبتعد عنا.

أشار "هابل" إلى "أينشتاين" وأكمل:

بسرعة دعوت صديقي "أينشتاين" ليزورني في مرصدي وأطلعته على تجاربي.. قلت له أن الراهب كان على حق في كل كلمة قالها.. هذا الكون يتوسع فعلًا.. ولأن "أينشتاين" رجل علم حقيقي.. فقد اعترف أن حكاية الثابت الكوني الوهمي هذه كانت أكبر خطأ ارتكبه في حياته.. واعترف أن كوننا هذا يتوسع فعلًا.. وأنه كان شيئًا صغيرًا ثم أخذ يتسع ويتسع وحتى الآن لم يتوقف عن الاتساع.. كانت هذه هي أول مشاهدة تدعم نظرية البيج بانج.. والتي كانت وقتها لا تزال فرضية.

أضاء ضوء أحمر عند رجل رومي يرتدي نظارة ويسرح شعره إلى الجانب الأيمن.. هذا "جورج جاموف" الفيزيائي الروسي الذي قام وقال بشيء من العصبية:

لم يعجبني ما يحدث في الأوساط العلمية.. لم تلق فرضية البيج بانج رواجًا عاليًا حتى بعد مشاهدات "هابل".. لأنه في المقابل كانت هناك فرضية أخرى

مدعومة إعلاميًا بشكل كبير.. "نظرية الحالة الثابتة" التي خرج بها علينا "فريد هويل" الذي كان خبيرًا في الدعاية لفكرته في كل مكان.. وهي فرضية تقول أن هذا الكون العظيم موجود منذ الأزل كما هو وعناصره تجدد نفسها باستمرار منذ الأزل وتتكون كلها باستمرار في النجوم بفعل حرارة النجوم العالية جدًا التي تسمح لكل عناصر الجدول الدوري أن يتكون بعضها من بعض واحدًا تلو الآخر.

بحث "جاموف" بعينه بين الجالسين عن "هويل" لكنه لم يجده.. كان كأنه يريد أن يعاتبه.. ثم قال:

"هويل" كان يسخر من فرضية البيج بانج طيلة الوقت.. بشكل مستفز.. لكنه لم يكن يدري أن سخريته هذه خدمت البيج بانج خدمة عظيمة.. أذكر في تلك المقابلة معه في الراديو لمّا سخر من الانفجار وقال أن الكون ليس فتاة راقصة تخرج من كعكة الحفلة كالـ"بيج بانج".. كانت تلك دعابة ظريفة جدًا وقتها بالنسبة للناس.. دعابة جعلت اسم البيج بانج يلتصق بالفرضية.. وأصبح اسمها فرضية البيج بانج.. لكن الخدمة الجليلة الحقيقية التي قدمها لي كانت أثناء سخريته أيضًا من الفرضية في إحدى المرات لمّا قال: "لو كان هناك انفجار حدث فعلًا فليبحثوا لنا إذًا عن بقايا ذلك الانفجار".. كلمته هذه أوحت لي أنه لا بد حقًا أن تكون هناك بقايا.. وقلت في نفسي أنه طالما حدث الانفجار في درجة حرارة عالية جدًا جدًا في الماضي فيجب أن يتبقى اليوم منه بعد مرور ١٤ مليون سنة أي إشعاع قابل للقياس.

سكت "جاموف" ثم قال:

اعتمادًا على حساباتي وحدها أثبتُّ أن هذا الإشعاع، لو أنه موجود الآن فعلًا، ستكون درجة حرارته ٣ درجات مطلقة.. لم تكن هناك في أيامي أي طريقة حديثة يمكننا بها قياس هذا الإشعاع الذي افترضته.. ولذلك، كل كلامي لم يلق رواجًا كبيرًا وظل "هويل" متصدرًا بفكرته الخيالية المدعومة إعلاميًا.

أضاء ضوءان أحمران في مكان ما.. وقام رجلان ألمانيان هما "آرنو بنزياس" و"روبرت ويلسون".. قال "ويلسون":

نحن لا دخل لنا بالفلك أو بالفيزياء، إنما نحن باحثون نعمل في مختبر لأحد شركات الاتصالات.. وكنا نقوم بتجربة خاصة بالاتصال اللاسلكي.. بنت شركتنا لأجل التجربة هوائيًا عملاقًا للتواصل مع أحد الأقمار الصناعية الأولى.. تجربتنا هذه دون أن نقصد أثبتت بما لا يدع مجالًا للشك حدوث البيج بانج وحصلنا

بسببها على جائزة نوبل في الفيزياء.. الفكرة ببساطة أننا لم ننظر إلى الفضاء بالتلسكوب العادي، بل نظرنا إليه بذلك الهوائي العملاق الذي سميناه الراديو تليسكوب.. فلمّا نظرنا به إلى الكون وجدنا أن هناك صوتًا مزعجًا خافتًا يأتي من كل مكان في الكون حولنا.. أينما وجهنا الراديو تليسكوب نحصل على نفس الصوت المزعج.. صوت يأتينا على شكل موجات ميكروويف خافتة في كل مكان.. كل من استخدم الراديو تليسكوب قبلنا لم يُعر هذا الصوت اهتمامًا لكننا شعرنا أن هذا شيء مهم.. لقد تفتحت أفهامنا إلى أن هذا الصوت لا يأتينا من قمر صناعي.. ولا يأتينا من أي شيء محسوس.. هذا الصوت يأتينا من الكون نفسه.

قال صاحبه "بنزياس":

لمّا استشرنا أصدقاءنا الفلكيين في هذا الأمر قفزوا فرحًا لأنهم فهموا معنى اكتشافنا.. لقد تبين لهم أننا اكتشفنا بالصدفة بقايا الإشعاع الذي كان يتحدث عنه "جاموف" من عشرين سنة.. هذه الموجات الخافتة التي سجلها جهازنا على شكل صوت مزعج كانت في الحقيقة صادرة من الفوتونات القديمة المتخلفة عن انفجار البيج بانج.. والتي انتشرت في كل مكان في الفضاء بعد الانفجار.. نحن سميناها إشعاع الخلفية الكونية.. فرضية "جاموف" كانت تقول أن هذه الفوتونات أخذت تخفت عبر الزمن وتقل طاقتها شيئًا فشيئًا وقال أن هذه الفوتونات الخافتة يجب أن تكون حرارتها الآن بعد مرور كل هذه السنين ٣ درجات مطلقة فقط.... كل هذه كانت افتراضات من "جاموف".

قال "ويلسون" وهو ينظر إلى "جاموف" نظرة خاصة:

نحن رصدنا هذه الموجات الخافتة واستطعنا أن نقيس درجة حرارتها لنجدها ٢,٧ درجة مطلقة.. أقل ربع درجة تقريبا عن كلام "جاموف".. كانت هذه أقوى مشاهدة تجريبية أثبتت فرضية البيج بانج وحولتها إلى نظرية وجعلتها تهزم كل الفرضيات الأخرى المنافسة لها... ولهذا أعطينا على إثباتنا هذا جائزة نوبل.. لكن كانت هناك مشكلة عويصة وقفت أمام النظرية.. مشكلة في هذا الإشعاع الخافت الذي رصدناه نفسه.. هذا الإشعاع كانت درجة حرارته متماثلة في جميع أرجائه.. وهذا لا يتفق مع طبيعة الكون الحار في أماكن والبارد في أماكن أخرى.. لم نفهم وقتها لماذا يرسم هذا الإشعاع الخافت صورة مختلفة للكون عما هي حقيقته.

كان "جاموف" يتابع "ويلسون" بتركيز وهو يكمل:

ربما هو ليس إشعاعًا متبقيًا من انفجار الكون على أية حال.. ربما كان إشعاعًا قادمًا من نجوم قريبة.. عاد العلماء وقاسوا درجة حرارة الشعاع بكل السبل المتاحة وقتها فأكد لهم في كل مرة أن درجة حرارته واحدة دائمًا.. ليست مختلفة.. هذا الشعاع لا يعبر عن الكون كاملًا.. هذا الشعاع كاذب.. كان هذا هو الوتد الذي هدد بسقوط النظرية كاملة.. وساد إحباط عام بين العلماء.

قال "بنزياس" وهو يبتسم:

ثم كانت المفاجأة لمّا أرسلت ناسا مركبة فضائية متطورة اسمها COBE خصيصًا لقياس درجة حرارة هذه الموجات الخافتة المتبقية من الانفجار العظيم عن قرب.. لعلها تجد أي عدم تجانس في درجة الحرارة في أماكن عن أماكن وتنقذ النظرية من السقوط.. وكانت المفاجأة.. كشفت المركبة فعلًا وجود اختلاف في درجات الحرارة في أماكن عن أماكن أخرى.. ليس هذا فقط.. بل تمكنت من رسم خريطة حرارية للكون بأكمله بناءً على اختلاف درجات الشعاع.. خريطة توضح أماكن المجرات والنجوم بدقة شديدة جدًا.. لقد كنا على حق منذ البداية.. هذا الشعاع هو أدق شيء يعبر عن الكون.. بل إن هذا الشعاع هو خريطة الكون كله.

قال "ويلسون":

ثم جاء الإثبات الأخير والنهائي للنظرية.. جاء لمّا تم اكتشاف أن كثافة هذا الكون متجانسة في جميع أنحائه.. فلو نظرت إلى الناحية اليمنى منه.. أو إلى الناحية اليسرى التي من المفترض أنها بعيدة جدًا عنها وليس بينها وبينها علاقة.. ستجد نفس الكثافة.. العلماء فهموا معنى هذا.. معناه أن هذه النقطة اليمنى.. وتلك النقطة اليسرى البعيدة عنها.. كانتا منذ زمن بعيد معًا في نفس الظروف.. ظروف دفعت بهذه النقطة إلى اليمين وتلك إلى اليسار.. ظروف واحدة.. نفس كلام نظرية البيج بانج التي تقول أن كل مناطق الكون كانت ذات يوم معًا في حساء واحد ودرجة حرارة واحدة وكثافة واحدة ثم اندفعت بسرعة واحدة في جميع الاتجاهات.. ولهذا نجد كثافة الكون متماثلة في كل مكان.. كان هذا أكبر انتصار للنظرية وبهذا أخيرًا تم اعتمادها رسميًا في جميع الأوساط كنظرية تثبت وتفسر علميًا بداية الكون.

قال له "آدم":

هل أفهم من كلامكم هذا أن العلم أثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن الكون له بداية؟ وأن هذه البداية هي ما تعبرون عنه بالبيج بانج؟

قال "بنزياس":

بالطبع.. العلم أثبت هذه النظرية بما لا يدع مجالًا للشك.. بالمشاهدات التي ذكرناها اليوم وبمئات المشاهدات الأخرى التي لا يتسع المجال لذكرها.

تدخل "أينشتاين" قائلًا:

أحب أن أضيف إثباتًا علميًا بسيطًا على أن كوننا هذا يستحيل أن يكون أزليًا... العناصر المشعة التي في الكون.. لو كان الكون أزليًا لانطفأت هذه العناصر منذ دهور طويلة.. ولكن حقيقة أنها ما زالت مشعة حتى الآن.. يعني أنها عندما تكونت أول مرة كانت طاقتها الإشعاعية كاملة.. ثم فقدت طاقتها تدريجيًا عبر ملايين السنين وتبقى منها اليوم ما يشع أمامنا.

قال "آدم":

إذًا يمكننا اعتبار أن البيج بانج نظرية مثبتة بالمشاهدات ولا توجد أي تجارب تعارضها؟

قال له "بنزياس" بثقة:

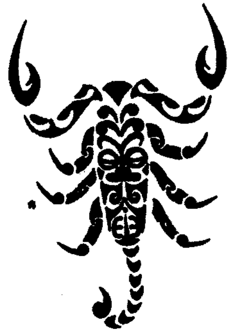
بالضبط.. وهي التي نبني عليها أبحاثنا لاستكشاف باقي ألغاز الكون.. بقية الفرضيات ليست عليها مشاهدات تثبتها.. لكن في النهاية فإن نظرية البيج بانج لم تستطع بعد أن تخبرنا بحقيقة لحظة الصفر.. لحظة ما قبل الانفجار.. لم تعرفنا ما الذي كان موجودًا قبل الانفجار.. ولم تعرفنا لماذا حدث الانفجار.. لأجل هذا بنى العلماء معملًا كبيرًا في سويسرا يدعى "سيرن" مهمته محاكاة نفس ظروف البيج بانج حتى يتمكنوا من فهم اللحظة الأولى وما قبلها.

قال "آدم":

إذًا لقد قال العلم كلمته أن الكون له بداية.. واتفق هذا مع نظرة الفلاسفة عبر الزمن والذين توصلوا بدورهم إلى أن الكون ليس أزليًا.. إنما خالقه هو الأزلي.. لكن ماذا عن رأي الدين في هذا الأمر؟

هنا قمت أنا.. معذرةً أيها المجمع العلمي الكريم.. قبل أن يتحدث الدين بأي شيء.. لا بد أن يستريح الجميع قليلًا.. هذا ضروري حتى تستريح عقولنا.. انحنى لي آدم موافقًا وأشار إلى الحراس فأغلقوا الهولوجرام وبدأ العلماء يقومون من أماكنهم.. ولمحنا بينهم سكوربيون يشير لنا لنتبعه.. هذا الرجل موجود في كل مكان

حقًا.. تبعناه حتى أدخلنا إلى غرفة جانبية.. وقدم لنا مشروبًا ساخنًا.. وأشعل سيجارة.. وعرض علي واحدة فاعتذرت منه.. ثم عرض عليك واحدة.



عدنا إلى عروشنا وجلسنا كلنا.. ودخل "المبارك" من الباب.. إن الدور دوره الآن ليتحدث برأي الدين في المسألة..

نظر الجميع إلى "المبارك".. كان يبتسم ابتسامة هادئة وهو يقف في إحدى زوايا القاعة.. قال "المبارك":

لا يمكنني أن أتحدث عن الدين في وجود قامات أمثال "الغزالي" و"ابن تيمية".. فهما أولى بالحديث مني.

قال "آدم":

بالتأكيد هما أولى بالحديث منك.. ولكن قد تم اختيارك أنت لأنك رأيت ما لم يرياه وشهدت تطور العلم والحضارة.. كما أنك سمعت ما لم يسمعاه ممن جاء بعدهما من العلماء.. كما أنك تحفظ كلامهما وتسير على دربهما هما وغيرهما من العلماء.. ثم إن دورهما اليوم كان فلسفيًا بحتًا.

قال "المبارك":

في هذه الحالة يمكنني الحديث.. يمكنني أن أقول في البداية أن أفضل حديث فلسفي حل جميع المشاكل الفلسفية للموضوع هو كلام "ابن تيمية".. ولكن هناك مشكلة بسيطة.. نحن يمكننا أن نناقش إمكانية أن تكون المخلوقات أزلية أم لا ونثبت أنها ليست أزلية.. كل هذا جميل.. لكن لا يمكننا أن نتحدث بهذا الحديث على الله تعالى.. لأن الأزلية هي أصلًا تعبير من تعبيرات الزمن.. هي زمن لا متناهي في الماضي.. والله تعالى هو خالق الزمن.. فكيف نُجري عليه قوانين زمنية لا نهائية وهو سبحانه الذي خلق الزمن.. بتعبير آخر لا يصح أن نقول أن الله

أزلي.. لأن كلمة أزلي ستعني أنه مطبقة عليه قوانين الزمن.. تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.. فهو ليس كمثله شيء.. لا نقول عنه إلا كما قال هو عن نفسه أنه هو الأول.. وهو الآخر.. وكلمة الأول وحدها تلغي مفهوم الأزلية تمامًا.. وهو من أسمائه الحسنى سبحانه.

ثم نظر "المبارك" ناحية الفلاسفة وقال:

ربما كان أرسطو محقًا لمّا تخيل أن المخلوقات تعشق الله.. يمكننا أن نتخيل هذا حين نقرأ في القرآن "وإن من شيء إلا يسبح بحمده".. لكنه أخطأ في ما عدا ذلك بالطبع.. ولقد حل الفلاسفة المسلمون معضلته حلًا رائعًا.

ثم نظر "المبارك" ناحية العلماء وقال:

بالنسبة لرؤية الإسلام عن الكون وتكون الكون وهيكل الكون فالحقيقة أن محمدًا قد أبلغنا بوصف للكون يماثل تمامًا صورة الكون التي توصلتم لها بعد كل هذه السنين.. وإنه شيء مخجل أن المسلمين في عصر النهضة العلمية والصناعية الحديثة لم ينتبهوا لهذا مع أنه كان مكتوبًا في القرآن بوضوح شديد قبل ألف وأربعمائة عام.

قال له "آدم":

هذا ادّعاء واسع يا سيدي.. يجب أن تحدثنا بأمثلة.

قال "المبارك":

سأحتاج إلى الهولوجرام إذًا لكي يدعمني بالصور.

قال "آدم":

هو رهن إشارتك.

قال "المبارك":

حتى نفهم تصور القرآن للكون يجب أن نفهم مصطلحاته الكونية.. ولست من الطائفة الذين يلوون ذراع المصطلحات القرآنية لتتوافق مع اكتشافات العلم.. بل هذا اتجاه أكرهه وأحاربه.. وأرى أنه يحرج الذين يفعلونه.. لأنهم يركضون ليُطوعوا كلمات القرآن لتتوافق مع فرضية علمية ما عن الكون.. ويصرخون.. هذا ما قاله القرآن قبل ألف وأربعمائة عام.. ثم حين يثبت خطأ الفرضية العلمية وتُستبدل بفرضية أخرى أجدهم يدفنون رؤوسهم في التراب.. ثم يخرجونها بعد ذلك ليحاولوا تطويع كلمات القرآن لتتوافق مع الفرضية

الجديدة.. وهكذا.. هؤلاء يتحدثون باسم الإسلام والحقيقة أنهم أكثر من يؤذون صورة الإسلام.. الصحيح أننا حتى نفهم مصطلحات القرآن، يجب أن نفهمها بلغة العرب البسطاء الذين نزل القرآن فيهم.. ولا نلوي ذراع لغتهم لتتوافق مع أي شيء حديث.

توجه "المبارك" ناحية الهولوجرام وهو يقول:

فقط ثلاثة مصطلحات لو فهمتها ستجعلك تفهم وصف القرآن للكون بشكل كامل كما نزل على محمد.. "السماء".. "السماوات".. "السماء الدنيا".

رفع "المبارك" يده ناظرًا إلى السقف فانفتحت قبة القاعة العلوية فجأةً وظهرت السماء فوقنا بنجومها البديعة.. فرفع الكل رؤوسهم ينظرون والمبارك يقول:

السماء في اللغة العربية هي كل ما ارتفع فوق رأسك وأظلك.. سقفًا كان أم جوًا أم قبة سماوية كالتي نراها فوقنا.. أي شيء يظلك.. فلمّا كان السقف مغلقًا فوق رؤوسنا قبل قليل كان اسمه سماء في اللغة العربية.. ولمّا انفتح السقف وظهرت القبة السماوية.. فهي في اللغة العربية اسمها سماء أيضًا.

قال "المبارك":

لكن القرآن ميز ثلاثة أشياء كلها فوقنا.. السماء.. السماوات.. السماء الدنيا.. أجرينا بحثًا شاملًا لكل المرات التي ذكرت فيها كل كلمة من الثلاثة حتى نفهم الفرق بينهم بالضبط.. بدون الاعتماد على تأويلات المتأولين.. بل بالاعتماد على القرآن وحده.. كل كيان من الثلاثة يورد القرآن أوصافًا دقيقة تدلنا عليه.

فجأةً اختفت كل النجوم من القبة السماوية فوقنا وصارت السماء كلها سوداء معتمة.. قال "المبارك":

بالنسبة للسماء.. قال عنها القرآن "والسماء ذات البروج".. هذا أول وصف نعرف به السماء في القرآن.. والبروج عند العرب وعند القدماء هي تجمعات من النجوم تتشكل في هيئة معينة.. بعضها أبراج شهيرة مثل الجدي والجوزاء وغيرها.. وبعضها أبراج صينية.. وبعضها أبراج ذات أسماء أخرى.. المهم أن كل تشكل من النجوم تنبه له أي أحد من القدماء وسماه أي اسم فهو برج.. إذًا السماء في القرآن هي الشيء الذي فيه بروج.

ظهرت النجوم مرة أخرى في القبة السماوية فوقنا ولكن هذه المرة في تشكيلات تصل بينها خطوط مضيئة ليتضح شكلها أكثر.. ثم قال "المبارك":

ثم قال القرآن "والسماء ذات الحُبُك".. والحُبُك في اللغة العربية هي الطرق المتشابكة.. مثل الرمال عندما تهب عليها الريح فتحدث فيها أشكالًا كأنها طرق رفيعة متشابكة متداخلة.. أو مثل الخيوط المتشابكة أو المنسوجة نسجًا مُحبكًا.. يقول القرآن أن السماء ذات حبك.. لم يعرف أحد ما يقصده القرآن تحديدًا بهذا الوصف الغير معتاد.. ما معنى أن تكون هذه السماء ذات حُبُك؟

نظر "المبارك" إلى الأعلى وقال:

كما ترون.. لم يحدث شيء في الهولوجرام.. لأن العرب لم يفهموا ما معنى هذا بالضبط.. كل ما عرفناه عن صفة السماء في القرآن أنها ذات بروج.. وأنها ذات حبك.. وهناك شيء أخير.. قال الله عن السماء: "من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصّعّد في السماء".. ويصّعّد بالشدة على حرف الصاد والعين.. يعني من يصعد شيئًا فشيئًا.. فكل من يصعد في السماء من البشر يضيق صدره كلما صعد أكثر وأكثر.

عاد "المبارك" ينظر إلى الحضور ويقول:

ثم هناك شيء في القرآن يدعى السماء الدنيا.. أو السماء القريبة.. قال عنها الله في القرآن: "إنا زينا السماء الدنيا بزينةٍ الكواكب".. لاحظ هنا.. يقول "بزينةٍ الكواكب".. بالتنوين.. يعني حدد حصرًا أنه جعل زينة السماء الدنيا هي الكواكب.. والكواكب عند العرب غير النجوم.. فالنجوم هي تلك النقاط المضيئة التي تملأ السماء.. أما الكواكب فهي النقاط البادية المتلألئة البراقة الزاهرة المتجلية في الليل.. لا مقارنة بين بريق ولمعان الكوكب وبريق النجم الخافت.. لذلك قال عن الكواكب أنها زينة.. ولذلك شبهها في موضع آخر بالمصابيح لمّا قال: "ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح".. كأنها مثل المصابيح التي كان يعلقها العرب في السقف.. يقول الله لقد زينا السماء الدنيا بهذه الكواكب المضيئة الجميلة الشبيهة بالمصابيح.. وهي خمسة كواكب فقط.. عطارد والزهرة والمريخ وزحل والمشتري.. الإنسان القديم أو حتى الحديث لا يستطيع أن يرى بعينه أي كواكب غيرها في السماء.. إذًا هناك خمسة كواكب.. خمسة مصابيح تزين السماء الدنيا.. بالنسبة للعربي فهو يقول عن هذه الكواكب الخمسة أنها كواكب سيّارة.. لأنه لاحظ أنها تسير ولا تكون ثابتة في موضع واحد من السماء.. هكذا عرفنا السماء الدنيا بأن فيها الكواكب الخمسة.

كان الجميع ينظرون في السماء التي بدت فيها خمس نقاط لامعة فعلًا ألمع بكثير من كل النقاط الأخرى في السماء.. قال "المبارك":

ثم يقول الله عن السماء الدنيا: "وجعلناها رجومًا للشياطين" ويصفها فيقول عنها أنها "حفظًا من كل شيطان مارد * إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب".. فهو يقول أنه جعل في السماء الدنيا شهبًا تُرجم بها الشياطين.

لاحظنا أن هناك شهبًا تلمع في السماء كل عدة ثوانٍ.. واحد يلمع هناك والآخر يلمع هنا.. كان منظرًا جميلًا.. قال "المبارك":

ثم قال القرآن للعربي: "ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق".. والطرائق المسارات.. هو يعرف أن هناك خمسة مسارات للخمسة كواكب في السماء.. لكن القرآن الآن يقول له أن هناك سبع طرائق.. لم يفهم العربي طبعًا لأنه لا يرى سوى خمسة فقط.

نظر "المبارك" إلى السماء بكواكبها وشهبها وقال:

إذًا أصبحنا نعرف كعرب أن "السماء الدنيا" فيها خمسة كواكب وربما سبعة.. وفيها شهب.. وأن "السماء" فيها بروج وحبك.. لكن أليست السماء الدنيا هي السماء؟

ثم أجاب "المبارك":

بل لقد اتضح أن "السماء" مقسمة إلى سبع سماوات وأن أدنى واحدة منهن هي السماء الدنيا.. يقول الله في القرآن: "ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات".. سوّى الشيء بمعنى حسّنه وعمل عليه تعديلًا ما.. يعني أنها كانت سماء عادية فجعلها الله سبعة مستويات.. وتسوية السماء سبعًا قد فُصلت في موضع آخر في القرآن عندما قال "فقضاهن سبع سماوات".. وقضى بمعنى حكم.. يعني أصدر حكمًا بتمييزها إلى سبعة مستويات.. فسواهن بمعنى قضاهن أي حكم بتمييزهن سبعة مستويات بعد أن كن سماء واحدة.

ثم عمل "المبارك" حركة بيده تشير إلى شيء يعلو على شيء وقال:

ثم قال الله عن السماوات أنها "سبع سماوات طباقًا" يعني بعضها فوق بعض.. والسماء كما اتفقنا هي كل ما ارتفع فوقك وأظلك وعلاك.. والسماوات هي عدة طبقات مرتفعة فوقك وتظلك.. يعني إذا كنت في مبنى.. وفوقك سبعة أدوار.. الدور الأول الذي فوق رأسك هو سماء.. وكل دور فوق الدور الأول هو سماء أيضًا.. وسقف المبنى هو سماء.. فكلها إذًا سماوات.. وبعضها فوق بعض.

نظر "المبارك" إلى السماء وقال:

ثم قال الله للعربي: "خلق السماوات بغير عمد ترونها".. ترونها يعني أنتم قادرون على رؤية السماوات السبع بأعينكم.. وقال أيضًا: "قل انظروا ماذا في السماوات والأرض".. يعني هم قادرون أن ينظروا ما الذي يوجد في في السماوات السبع لو أرادوا.. وقال في موضع آخر: "وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون".. بمعنى أنهم قد مر عليهم بعض من عجائب السماوات لكنهم لم يؤمنوا.. وحتى يؤكد أكثر قال: "ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقًا * وجعل القمر فيهن نورًا وجعل الشمس سراجًا".. لم يقل جعل القمر لهن نورًا بل قال جعل القمر فيهن نورًا.. يعني جعل القمر نورًا في السماوات السبع.. إذًا عندما تنظر إلى القبة السماوية فأنت تنظر إلى السماوات السبع.. وسترى القمر نورًا فيهن.. إذًا فهم العربي أن هذه القبة التي ينظر إليها فوق رأسه هي في الحقيقة سبع سماوات.. لكن كيف يميز بين بعضها وبعض؟ هو عرف أن أول سماء منها هي السماء الدنيا وفيها الشهب والكواكب الخمسة وربما السبعة.. لكن ماذا عن الست سماوات الباقية؟ كيف يمكن أن يفرق بينها؟

أشار "المبارك" إلى الأعلى وهو يكمل:

الله لم يقل في قرآن أو حديث أي كلمة عن محتويات أي سماء من السماوات الست التي فوق السماء الدنيا.. أما عن التمييز بينها جميعًا فقد قال الله في القرآن: "الذي خلق سبع سماوات طباقًا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير".. يعني انظر إلى السبع سماوات الطباق التي فوقك.. لن ترى فيهن تفاوتًا.. يعني لن ترى بينهن اختلافًا أو تباينًا.. لن تستطيع أن تميز بينهن بنظرك البشري القاصر.. مهما حاولت تدقيق النظر وإعادته أكثر من مرة.. لن ترى أي صدوع أو شقوق أو حدود تبدو وكأنها فوارق بين سماء وسماء.. فالنجوم والكواكب والشهب كلها متناثرة هنا وهناك لا يستطيع بصرنا رؤية من منهم فوق الآخر ومن تحت الآخر.. كل ما نعرفه هو أن الشهب والكواكب في السماء الدنيا.. ماذا بقي؟ لم يبق إلا النجوم في بروجها.. إذًا لا بد أن الست سماوات الباقية كلها فيها بروج.

قال "المبارك" مفكرًا:

لكن هل نستطيع أن نصعد إلى السماوات أو حتى إلى السماء الدنيا؟ قال الله: "يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض

فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يُرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران".

أشار "المبارك" فتهيأ رجل صغير الحجم في وسط القاعة ثم طار ناحية السماء.. وظل يطير حتى وصل إلى الأفق.. ثم فجأةً عاد وهو في غاية الرعب.. ثم اختفى الرجل.. بدا الكل مندهشًا غير فاهم.. قال "المبارك":

أيها الإنس وأيها الجن.. إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات يعني إن استطعتم أن تخترقوا أي واحدة من السماوات السبع وتنفذوا منها فانفذوا.. وإن استطعتم أن تخرجوا من الأرض وتنفذوا خارجها فانفذوا.. لن تستطيعوا أن تنفذوا من هذه أو من تلك إلا بسلطان.. والسلطان هو القوة أو القدرة المعينة أو النفوذ المعين.. ولو نفذتم بدون هذا السلطان.. سيُرسل عليكما شيء عجيب وصفه بكلمتين.. "شواظ من نار" و"نحاس".. الشواظ من نار يعني اللهب.. فقط اللهب بدون النار اسمه شواظ.. والنحاس هو الدخان الذي بلا نار.. يعني سيرسل عليكما لهب ودخان بلا نار.. شيء عجيب لم يفهمه العربي.. لكنه شيء خطر.. وهو يظهر له لو حاول الخروج من أي واحدة من السماوات السبع.. ولو حاول الخروج من الأرض.. وسيحتاج إلى سلطان ليحميه منه.

قال المبارك:

نقطة أخيرة عن السماوات من القرآن.. قال الله: "ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير".. يقول أنه بث الدواب في السماوات وفي الأرض.. والدابة عند العرب هي كل ما يمشي على الأرض من حيوان أو إنسان أو طير وكل ما يسبح في الماء من دواب البحر من سمك وغيره.. يعني ليست الأرض فقط فيها دواب.. بل إن السماوات أيضًا فيها دواب.... قد تظن أن دواب السماء هي الملائكة لكن الملائكة ليست من الدواب يقول الله: "ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة".. فهناك دواب في السماوات والأرض وهناك ملائكة.. والدواب ليست حيوانات فقط بل إن الإنسان نفسه دابة.. يقول الله "إن شر الدواب عند الله الذين كفروا".. إذًا هو يقول للعرب أن هذه السماوات والأرض التي ترونها فوقكم يعيش فيها دواب أمثالكم وأمثال الدواب التي تمشي على أرضكم.. لا تظنوا أنها فارغة أو أنها مجرد زينة.. ولهذا يقول الله عن نفسه "رب العالمين".. أي رب العوالم الكثيرة.. ليس عالمكم فقط.. بل إنه رب عوالم كثيرة. هكذا صار العربي ينظر للسماء بشكل مختلف..

فبدلًا من النظرة العادية الجامدة إليها كزينة.. الآن صار ينظر لها وهو يعرف أن هناك من يعيش في هذه النجوم البعيدة والبروج.

ختم "المبارك" هذه النقطة فقال:

الرجل العربي القديم الذي قرأ القرآن.. كان يعرف أن كل هذه القبة السماوية التي فوقه اسمها سماء.. وأن هذه السماء مقسمة سبعة مستويات.. وأنه غير قادر على التمييز بينهم ببصره.. لكنه يعلم أن أول واحدة هي السماء الدنيا القريبة منه.. وهي مليئة بالشهب وفيها خمسة كواكب وربما سبعة.. ثم هناك بعدها ست سماوات.. هذه الست سماوات فيها البروج بنجومها التي يراها لامعة فوقه.. وهو يعرف أن هذه السماء بمستوياتها السبعة كلها ذات حبك.. كأنها ذات طرق متشابكة أو شيء من هذا القبيل.. ويعرف أن السبع سماوات يعيش فيها كائنات عاقلة ودواب.. وأنه لو حاول الخروج من الأرض أو من أي سماء منهن سيصيبه دخان بلا نار فيه نار بلا لهب.. هكذا كانت نظرته إلى الكون بعد القرآن.

ثم قال "المبارك":

انتهينا من السماوات.. بقيت الأرض.. يقول ربي في القرآن: "وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يُسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأُكُل".. يعني هذه الأرض التي تمشي عليها فيها قطع متجاورات.. هذه القطع المتجاورة فيها جنات ونخيل وأعناب.. لكن ليس بعضها مثل بعض في الثمار.. فبعضها خصب كثير الثمار والأشجار وبعضها غير ذلك.. لم يكن العربي المسلم قد خرج من المدينة المنورة ساعتها إلى أي مكان.. ومحمد يقول له أن في الأرض قطع متجاورات يختلف بعضها عن بعض في الطبيعة والخصوبة وفي نوع وكثرة الثمار.

ظهرت على أرض القاعة.. قطع كبيرة من الأرض متجاورة فيما يشبه الخريطة.. بعضها مليء بالزروع وبعضها صحراء.. لكنها قطع كثيرة.. قال المبارك:

ثم جاء في القرآن: "الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن".. يعني مثلهن في العدد.. فكما خلق الله من السماء سبع سماوات، خلق الله من الأرض سبع أراضٍ.. بتفصيل أكثر للفظ.. الله خلق (من) الأرض سبع أراضٍ.. يعني كل السبع أراضي خلقهم الله (من) هذه الأرض.. فكما كانت السماء سماءً واحدة.. وسواها الله إلى سبع سماوات.. أيضًا كانت الأرض واحدة.. وخلق الله منها سبع

أراضٍ.. لكن أين هي السبع أراضي؟ نحن لا نرى إلا أرضًا واحدة.. لا بد أنها أراضٍ بعيدة عنا ولم نرها.. لكن مهلًا.. ألم يقل الله أن الأرض فيها قطع متجاورات بعضها يختلف عن بعض في الغنى والزرع؟ هذه أراضٍ بعيدة لم نرها أيضًا.. إذًا فالسبع أراضي هي هذه القطع المتجاورة نفسها.

تغير منظر القطع المتجاورة الكثيرة وصارت سبع قطع متجاورة كبيرة.. ثم قال "المبارك" بلهجة من يقول شيئًا أخيرًا:

في النهاية يقول الله في القرآن: "يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل".. يكور الشيء يعني يجعله كرة.. مثلما يكور العربي عمامته.. يعني يمسكها ويلفها على رأسه.. يقول له الله أنه يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل.. وهذا يحدث في تكوير العمامة حين يمسك بطرفها ويلف بعضهما على بعض.. فهو يكور هذا على ذاك.. ويكور ذاك على هذا.. لذلك كان أول من انتبه أن الأرض كرة هم المسلمون.. بعد الاعتقاد السائد أنها مسطحة دائرية كأنها قرص.. فأصبح شكل الكرة هو فكرة العرب المسلمين الأوائل عن الأرض بعد القرآن.

تحولت الأرض المسطحة التي تحمل القطع المتجاورة السبع إلى كرة تحمل سبع قطع متجاورة.. ثم قال "المبارك":

أرض على شكل كرة.. فوقها سماء دنيا فيها شهب وكواكب فوقها ست سماوات فيها بروج.. كيف خلق الله كل هذا؟ كيف بدأ؟ ما هي الحكاية من أولها؟

نظر "المبارك" إلى السماء والأرض ثم أشار إلى الأرض وقال:

قال الله: "هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات".. وانتبهوا هنا لأن ألفاظ القرآن دقيقة جدًا.. يقول أنه خلق لنا ما في الأرض من جبال وبحار ونبات وحيوانات وطيور.. لاحظ.. خلق "ما في الأرض".. ليس "خلق الأرض" نفسها.. يعني الأرض كانت موجودة.. إنما هو الآن يتحدث عن أنه خلق "ما فيها".. ثم يقول أن قصده قد تحول إلى السماء فسواها سبع سماوات.. ولاحظ هنا أيضًا.. السماء كانت موجودة.. إنما هو الآن يتحدث عن أنه سواها.. فالسماء والأرض كانتا مخلوقتين.. إنما هو هنا يقول أنه خلق "ما في" الأرض.. ثم سوى السماء سبعة مستويات.. وطالما هو خلق ما في الأرض ثم تحول إلى السماء.. فالسماء كانت موجودة بينما هو يخلق ما في الأرض.. يعني السماء مخلوقة قبل الأرض.. فالترتيب يكون.. خلق السماء.. خلق الأرض.. خلق ما في الأرض.. قسم السماء سبعة مستويات.

قال "المبارك":

ثم فصل أكثر فقال: "أأنتم أشد خلقًا أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها *متاعًا لكم ولأنعامكم".. الآن عرف العربي أن السماء والأرض خُلقتا في ست مراحل متتالية.. أربع مراحل للسماء ثم مرحلتان للأرض.. بالنسبة للسماء فهو بناها.. كيف بناها؟ بمراحل أربع.. "رفع سمكها" ثم "سواها" ثم "أغطش ليلها" ثم "أخرج ضحاها".. ثم بالنسبة للأرض فهو دحاها.. يعني بسطها ويسرها للمعيشة.. كيف دحاها؟ في مرحلتين: "أخرج منها ماءها ومرعاها" ثم "الجبال أرساها".

أكمل "المبارك":

أول شيء بدأ بالسماء.. فرفع سمكها.. والسمك هو الارتفاع والعلو.. يعني رفع ارتفاعها.. وهو مثل أن يكون لديك شيء مرتفع عالٍ فترفعه أكثر وأكثر.. مثل أن يكون لديك مبنى مرتفع فتزيد في حجمه أكثر وأكثر.. ثم سواها.. وتسوية الشيء يعني تحسينه وتعديله.. لا يوجد تفصيل أكثر.. ثم أغطش ليلها.. أغطش يعني أظلم ليلها.. يعني زاد في إظلام ليلها أكثر وأكثر.. ثم أخرج ضحاها يعني أنه بعد أن أظلم ليلها أكثر وأكثر حتى صار شديد الإظلام أخرج ضحاها.. يعني أخرج نورها من ليلها.. هكذا انتهى من السماء.. ثم تحول إلى الأرض فدحاها.. أخرج منها الماء والمرعى الذي هو الزرع.. ثم أرسى الجبال فيها.. فجعلها جاهزة لكم ولأنعامكم يعني حيواناتكم.. هذه ست مراحل.. ثم لو أضفنا بعد هذه الست.. المرحلتين اللتين أخبر بهما في الآيات الأولى.. خلق ما في الأرض كله من مخلوقات.. ثم قسم السماء سبعة مستويات.. فسيصبح لدينا الآن ثماني مراحل.. رفع سمك السماء ثم تسويتها ثم إظلام ليلها ثم إخراج نورها من ليلها ثم أخرج الماء من الأرض والمرعى ثم أرسى فيها الجبال ثم خلق ما في الأرض من مخلوقات ثم سوى السماء سبع سماوات.. هكذا كان العربي يرى مراحل خلق السماء والأرض الكاملة بعد القرآن.. ثم بعد هذا طبقًا للقرآن أيضًا.. كان خلق الملائكة ثم خلق الجن ثم خلق الإنسان.

ثم قال "المبارك":

ثم أضاف مرحلة أخيرة.. ليست أخيرة في الواقع بل هي مرحلة أولية.. يبدو أنها حدثت أثناء بناء السماء.. يقول الله في القرآن: "أوَلم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما".. "أوَلم ير" عندما تأتي في القرآن تكون

بمعني أوَلم يعلم.. مثل: ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل.. يعني: ألم تعلم ما حدث لأصحاب الفيل؟ هنا يقول أوَلم يعلم الذين كفروا.. أن السماوات والأرض كانتا رتقًا.. والرتق هو الشيء المسدود الأصم الذي ليس فيه فتحات.. يعني كانتا مجموعتين بعضهما إلى بعض مخيطتين ملتئمتين بعضهما في بعض في كيان واحد.. مرتوقتين بعضهما إلى بعض في "رتق" واحد.. أي أنهما كانا كيانًا واحدًا مصمتًا.. ثم يقول.. فنزعنا بعضهما من بعض وفرجناهما.. إذًا فالعربي الآن أصبح يعلم أن السماوات بكل ما فيهن من كواكب وبروج نجوم وشمس وقمر كل هذا كان مع الأرض في كيان واحد ثم انفرج هذا الكيان.. وبعده بدأت مراحل خلق السماء ثم الأرض.

ثم قال "المبارك" بلهجة من يختم شيئًا طويلًا:

معذرة على الإطالة وهي ليست من عادتي.. شرح المصطلحات يبدو صعبًا علينا نحن.. لكن العربي كان يفهم هذه المصطلحات مباشرة لأنها لغته.. كل هذا الشرح فعلته دون أن أنظر للموضوع حسب نظرتنا الحديثة أو أحاول التوفيق بينها وبين القرآن.. هذا الشرح هو فقط للمفردات العربية كما كان يفهمها عرب القبائل الذين نزل فهم القرآن.. وحتى أعتذر لكم عن هذه الإطالة دعوني أعوضكم عنها بشيء مثير.

رفع "المبارك" يده إلى الأعلى بحركة مميزة.. فبدا وكأننا نتحرك إلى أعلى.. واختفت جدران القاعة فجأةً.. وصرنا نصعد إلى السماء:

دعونا نقترب الآن من السماء لنرى التصور الحديث للكون.. ونرى هل يتفق مع نظرة العربي المسلم القديم.. دعونا نصعد ببطء.

بينما كنا نصعد بدأنا نرى أرض السافلين من أعلى.. ورأينا العالمين اللذين مررنا بهما ولمحات من العوالم الأخرى.. صعدنا أكثر وصغرت أرض السافلين أكثر حتى لم تعد ظاهرة وبدأت معالم الكرة الأرضية العادية في الظهور.. بقاراتها السبع قال المبارك:

كما ترون.. عندما صعدنا لننظر إلى الأرض من علٍ وجدنا أنها في الحقيقة سبع أراضٍ.. على هيئة قطع متجاورة.. نحن نسميها اليوم قارات.. آسيا.. أفريقيا.. أوروبا.. أمريكا الشمالية.. أمريكا الجنوبية.. أستراليا.. أنتارتيكا.. سبع قطع متجاورات.

ظللنا نصعد حتى وصلنا إلى السحب.. قال "المبارك":

انتهوا لأن الأكسجين سيضيق كلما صعدنا.. العربي سمع هذا في القرآن.. لكنه لم يجربه طبعًا.

عمل "المبارك" حركة بيده فصرنا داخل ما يشبه الفقاعة الزجاجية الشفافة ونحن نصعد:

هكذا صرنا بأمان.. لنصعد أكثر.. أصبح الجو رائقًا هنا بلا سحب كما نرى.. هذه طبقة الستراتوسفير من الغلاف الجوي.. الآن لنصعد أكثر.. وانظروا جيدًا.

رأينا كلنا ما يشبه الوابل من الشهب.. يضرب السماء هنا وهناك.. قال "المبارك":

هنا طبقة الميزوسفير.. قطع الغبار التي تسقط من الفضاء على الأرض تحرقها طبقة الميزوسفير هذه فتصير شهبًا حارقة.. وعددها كبير جدًا.. لدينا حوالي عشرون ألف شهاب يضربون الأرض كل يوم من أيام السنة وهناك أيام معينة يتضاعف فيها هذا العدد.. من أين تأتي الشهب؟ تأتي من خارج الأرض.. من الفضاء.. تحديدًا من الغبار والقطع المتناثرة في أرجاء المجموعة الشمسية كلها.. هذه هي الرجوم التي تحدث عنها القرآن.. وفي الحقيقة إن كثرتها فوقنا كما نرى تمنع أي جسد كان أن يحاول اختراق الأرض إلى الفضاء.. سواء كان شيطانًا أو إنسانًا أو أي شيء.. وإنما خص القرآن الشياطين بها لأنه يعلم أنه لا يوجد من مخلوقاته من يستطيع أن يخترق الأرض بجسده هكذا إلى الفضاء سوى الشياطين.. وعندما يفعلون هذا ستتبعهم وترصدهم شهب حارقة ثاقبة.

استرسلنا في الصعود.. كانت الشهب حقًا حولنا في كل مكان.. وكانت تصطدم بزجاج الفقاعة بشكل مخيف.. بعضها حجمه صغير كحبة البازلاء الحارقة.. وبعضها كبير كحجم قبضة اليد.. وبعضها كحجم كرة القدم.. ينطلقون هنا وهناك حولنا وفوقنا وناحيتنا بشكل مخيف.. ثم بدا لنا كأن طبقات الغلاف الجوي قد بدأت تنتهي وبدأنا نخرج خارج الأرض.. وهنا رأينا شيئًا عجيبًا جدًا.. كان هناك ما يشبه الغلاف من السحب حول كوكب الأرض.. لكنها ليست سحبًا عادية كالتي نراها في جو الأرض.. بل سحب مخيفة.. كأنها متسخة.. والأكثر رعبًا هو أن فيها صواعق رعدية تنطلق في أرجائها هنا وهناك كل حين.. توقفت الكرة الزجاجية التي نصعد بها قليلًا وقال "المبارك":

دعوني أقدم لكم.. البلازما الغبارية.. Dusty Plasma.. وهي شكل من أشكال البلازما يكون مركزًا في الفضاء على هيئة سحب.. ما هي البلازما أصلًا؟ هي الشيء الذي يشكل ٩٩,٩ % من الفضاء الخارجي.. كل الوسط البين كوكبي والبين نجمي

والبين مجري اسمه بلازما.. وتكون لها عدة أشكال.. واحدة منها اسمها البلازما الغبارية.. وهي هذه السحب المخيفة.. والتي تتركز كحلقات حول كل كوكب من كواكب الكون واسمها Circumsolar Ring.. أو كسحب كبيرة بين الكواكب اسمها Interplanetary Clouds.. أو كسحب ضخمة هائلة بين نجوم المجرة الواحدة واسمها Molecular Clouds كل هذه السحب تسمى سدم أو Nebula.. وهي منتشرة وموزعة في الفضاء في كل مكان.

نظرنا إلى السحابة المخيفة المحيطة بالكوكب و"المبارك" يقول:

مشكلتها أنها مليئة بالصواعق.. كأنها سحابة مكهربة.. لو دخلنا فيها بأجسادنا طبعًا ستكون نهايتنا.. يجب أن نكون محفوظين في زجاجة سحرية كهذه أو نكون في مركبة فضائية محفوظة.. لمّا كان الله يقوْل في القرآن أن من يحاول أن ينفذ من الأرض أو من السماء سيجد شيئًا عجيبًا عبارة عن دخان بلا نار فيه لهب بلا دخان.. كان يتحدث عن هذه التي أمامنا.. دخان بلا نار هو هذه السحب الكبيرة.. ولهب بلا نار هو هذه الصواعق.. وهذه هي حقيقتها.. لهب يحرق بلا نار.. وهذه التشكيلات ليست موجودة حول الأرض فقط بل هي موزعة في أرجاء السماوات كلها.

ثم دخلنا فجأةً في وسط السحابة المحيطة بالأرض فضربتنا الصواعق من كل مكان حتى خفنا على أنفسنا.. لولا زجاج الفقاعة المتين الذي لم يهتز.. كان منظرًا مرعبًا بحق.. أكملنا طريقنا بأمان.. حتى خرجنا من السحابة.. لقد قال القرآن.. لا تنفذون إلا بسلطان.. وحقًا لم ننفذ إلا بسلطان.. لم ننفذ إلا بمركبة كهذه.. أكملنا طريقنا ابتعادًا.. رأينا كثيرًا من هذه السحب منتشرة هنا وهناك.. رأينا القمر ورأينا الكواكب المحيطة.. وكلما ابتعدنا أكثر وجدنا كوكبًا.. حتى عددنا خمسة كواكب.. عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل.. قال "المبارك":

هذه الخمسة كواكب التي كانت تلمع في السماء.. والتي قال الله عنها أنها موجودة في السماء الدنيا.. وتنهوا عندما نصعد أكثر لأننا سنجد كوكبين آخرين.. أورانوس ونبتون.. وهما اللذان أخبر القرآن عن وجودهما لمّا قال أن فوقكم سبع طرائق.. سبعة كواكب سيّارة.. بالنسبة للكوكب الثامن بلوتو فقد أسقطه العلماء من اعتباره كوكبا مع تطور ملاحظتهم للفضاء لمّا وجدوا أنه ليس كوكبًا وإنما مجرد جرم من أجرام حزام Kupier الذي يحيط بالمجموعة الشمسية كلها ويحد لها حدودًا.

كنا متجهين خارج المجموعة الشمسية و"المبارك" يقول:

المجموعة الشمسية هي السماء الدنيا التي فيها الكواكب.. والتي تأتينا منها القطع الغبارية التي تتحول إلى شهب تضرب الأرض.. حتى الآن النظرة القرآنية دقيقة.. المفترض أننا الآن سننفذ من السماء الدنيا إلى السماوات التي تلها.

خرجنا من حزام Kupier.. وفجأةً وجدنا سحابة كبيرة جدًا ضخمة تحيط بالمجموعة الشمسية كلها.. سحابة مكهربة أيضًا مثل كل السدم المكهربة المتوزعة هنا وهناك.. لكن هذه كانت مكهربة وكبيرة ومحيطة بكل المجموعة الشمسية.

قال "المبارك":

ها نحن نريد أن ننفذ من السماء الدنيا إلى السماء التي بعدها.. وها نحن نواجه ذلك الشواظ من نار ونحاس مرة أخرى.. أو السحب المكهربة.. هذه السحابة المحيطة بالمجموعة الشمسية اسمها Orot Cloud.

دخلنا في السحابة واحتملنا كثيرًا من الصواعق هنا وهناك على زجاج الفقاعة حتى خرجنا من السحابة والمجموعة الشمسية كلها.. الآن زادت الفقاعة سرعتها..

قال المبارك وهو يشير بيده:

انظروا حولكم إلى النجوم.. كل هذه نجوم مثل الشمس.. بعضها يمسك حوله كواكب وبعضها لا.. نحن الآن في منطقة تدعى Sun Neighborhood يعني حي الشمس.. الحي من المجرة الذي فيه الشمس.. وهو مليء بالنجوم كما ترون.. وأغلبها نجوم مرئية من الأرض.. أبرزها نجم الشعرى اليمانية هناك ونجم الشعرى الشامية هنا ونجم إبسيلون.. وكل هذه النجوم التي حولنا محددة أيضًا بسحابة كبيرة تضمها كلها.. اسمها Local Interstellar Cloud.. وهي مثل سحب الفضاء.. سحابة كهربائية.. حي الشمس الذي تحيط به هذه السحابة هو السماء الثانية.. وإنّا خارجون منها الآن إلى التي تلها.

قال "المبارك":

الآن تنهوا فسننطلق بسرعات عالية حتى نرى التكوينات الكبيرة في الكون.. سترون الآن بينما نصعد ملامح مجرتنا العزيزة درب التبانة.. والتي هي على شكل حلزون.. درب التبانة يمكن أن تراها وأنت على الأرض على هيئة قوس ضخم ضبابي من النجوم.. منظرها جميل جدًا من الأرض بالمناسبة.. وها نحن وسط نجومها.. إن فيها حوالي ٤٠٠ بليون نجم.. شيء لا يصدق.. وها نحن بسرعتنا هذه

نخرج منها.. إن درب التبانة هي السماء الثالثة.. وهي واضحة يمكن رؤيتها من الأرض.

بدأنا نرى الكثير من المجرات مختلفة الأشكال والألوان هنا وهناك متناثرة وسط الفضاء الأسود في مشهد يُسكر الأبصار.. الآن يفترض أننا في السماء الرابعة.. قال "المبارك":

هذه المجرات التي حولنا هي مجموعة مجرات اسمها Local Group.. وهي مجموعة فيها مجرات شهيرة ومن ضمنها مجرتنا.. انظروا إلى اليمين هناك.. هل ترون هذه المجرة التي تبدو مثل القرص؟ هذه مجرة أندروميدا.. وتلك الدائرية هناك هي مجرة المثلث Triangulum.. لماذا اسمها مثلث؟ لأنها ضمن برج المثلث Triangulum.. نعم فتلك الأبراج التي كنا نراها على الأرض لا تحتوي على نجوم فقط.. بل إن فيها مجرات.. وهي تبدو لنا نقاطًا مضيئة وسط البرج فنظنها نجمات.. إن الـLocal Group هذه هي السماء الرابعة وفيها ٥٤ مجرة.. وكثير من محتوياتها ظاهرة لنا من الأرض.. أشهر هذه المحتويات هما مجرة أندروميدا ومجرة المثلث اللتان يمكن أن نراهما في ليلة ليلاء لا قمر لها.

نظرنا إلى كل هذا بانبهار وبدأنا نبتعد أكثر ونصعد أكثر بسرعة حتى أصبحنا في فضاء واسع ونرى حولنا عدة مجموعات من المجرات متباعدة هنا وهناك.. قال "المبارك":

مرحبا بكم في السماء الخامسة.. إن فيها عدة مجموعات من المجرات.. هذه المجموعات مجتمع بعضها مع بعض في عنقود عظيم جدًا.. اسمه عنقود فيرجو Virgo Supercluster.. يمكن رؤية محتوياته من الأرض أيضًا مثل مجرة بودي الحلزونية التي تتبع مجموعة M81.. ومَجرة قنطورس التي تتبع مجموعة قنطورس وغيرها.. عنقود فيرجو هو السماء الخامسة.. وفيه مائة مجموعة من المجرات.. فيها حوالي ألفا مجرة.

ابتعدنا أكثر من هذا.. فإذا مجموعات من العناقيد متناثرة هنا وهناك.. إن هذه العناقيد تبدو مثل مدن فضائية كبيرة فيها كثير من الأنوار التي تضيء في الظلام.. مثل أن تنظر إلى مدينة من شباك الطائرة في الليل.. كل ما تراه هو أنوار.. هذه أيضًا أنوار لكنها متجمعة في شكل عناقيد.. قال "المبارك":

نحن في السماء السادسة.. سماء العناقيد أو الـSuperclusters.. نحن بعيدون جدًا عن الأرض الآن.. كل شيء حولك عبارة عن عناقيد.. مختلفة الأشكال بلا ترتيب معين.. والآن دعونا نزيد السرعة لنصل إلى السماء الأخيرة.

صعدنا فوق العناقيد وظللنا نصعد ونصعد حتى بدأت العناقيد تكون بعيدة.. وتبين لنا أن هذه العناقيد كلها متجمع بعضها مع بعض في أشكال أخرى.. خيوط كبيرة ضخمة وسط الفضاء الأسود.. كانت تصغر كلما ابتعدنا عنها.. قال المبارك:

والآن إنها السماء السابعة.. كما ترون.. كل شيء هنا أصبح عبارة عن خيوط.. متشابكة.. متشعبة.. في كل خيط منها عناقيد.. وفي كل عنقود مجموعات.. وفي كل مجموعة مجرات.. وفي كل مجرة نجوم.. وحول كل نجم كواكب.. وحول كل كوكب أقمار.. هذه الخيوط هي الكون.. يسمها العلماء Galaxy Filaments.. والقرآن قال: "والسماء ذات الحبك".. انظروا حولكم في كل مكان ونحن في السماء السابعة.. كل شيء عبارة عن مجموعة كبيرة من الحبك.. مجموعة كبيرة من الـGalaxy Filaments.

قال "المبارك":

هل نستطيع أن نرى محتويات السماء السادسة والسابعة من الأرض؟ العناقيد والخيوط.. لا يمكننا هذا.. إذًا كيف قال الله أنه يمكنكم أن تروا كل ما في السماوات؟ لأنه بين الحين والآخر تأتينا مشاهد من السماء السادسة أو السابعة.. مشاهد مثيرة جدًا يمكننا أن نشاهدها.. المثير في هذه المشاهد أنها انفجارات.. تأتينا من أبعد سماءين.. ويمكننا أن نرى هذه الانفجارات ونحن على الأرض.. نراها على هيئة نقطة مضيئة.. تظل مضيئة بضع دقائق.. أو ربما ساعة كاملة.. ثم تنطفئ.. هذه الانفجارات اسمها انفجارات أشعة جاما.. هذا مثل الانفجار الشهير الذي سموه 080319B والذي استمر ٣٠ ثانية والذي جاءنا من مسافة ٧,٥ بليون سنة ضوئية.. وهذا أبعد من عنقود فيرجو وأبعد من كل العناقيد المعروفة.. أبعد من السماء الخامسة والسادسة.. هذا انفجار أتانا من السماء السابعة.

ثم رفع المبارك يده وخفضها فاختفى الكون كله.. لم يعد هناك شيء.. ثم نظر إلينا وقال:

الآن سنرى نشأة الكون.. سنرى كيف خلقت هذه السماء.. في البدء كانت نقطة.. هذه هي هناك ترونها وسط اللاشيء.

فجأةً كبرت هذه النقطة إلى كرة شفافة كبيرة جدًا مثل المنطاد الضخم.. في لحظات.. قال المبارك:

كبر الكون فجأةً تريليون تريليون تريليون مرة.. بدون مقدمات.. ألم يقل القرآن أن المرحلة الأولى من بناء السماء أنه رفع سمكها.. رفع ارتفاعها.. كبرها أكثر وأكثر.. حتى صارت الآن كبيرة كفاية ليبدأ منها كل شيء.

وفجأةً ظهرت في هذه الكرة الشفافة الكبيرة نقاط ملونة كثيرة تتحرك وتتغير ألوانها.. قال "المبارك":

الآن ظهرت الكواركات.. واجتمع بعضها على بعض لتكون أشياء أعقد هي البروتونات والإلكترونات.. والتي نتج عن تصادمها فوتونات مضيئة.. فصار الكون مليئًا بالفوتونات والبروتونات والإلكترونات.. كلها مكدسة في هذه الكرة التي لم تعد شفافة.. بل صارت مضيئة بضوء مكتوم.. لماذا هو مكتوم؟ لأننا لو دخلنا لهذه الكرة الآن سنجد البروتونات والإلكترونات والفوتونات يتضارب بعضها مع بعض.. فتمسك البروتونات والإلكترونات بالفوتونات وتمنعها من الجريان.. والفوتونات هي الضوء.. وحين يكون ممسوكًا هكذا يظهر بشكل مكتوم.. فكان الكون كله عبارة عن حساء مضيء بضوء مكتوم.. هذا التحول من الشفافية إلى الكواركات إلى البروتونات والإلكترونات والفوتونات حتى وصلنا إلى هذا الحساء المكتوم المضيء هو قول القرآن.. "سواها".. وهي المرحلة الثانية من بناء السماء.. ونلاحظ أنه قال رفع سمكها (فسواها).. حرف العطف هنا هو الفاء.. يعني المرحلة الثانية حدثت فورًا بعد الأولى.. وحسب التقدير الحديث فبين انتفاخ الكرة الشفافة وبداية ظهور النقاط الملونة فها هو زمن يسير جدًا قدره تريليون جزء من الثانية.. وبعد ظهور النقاط الملونة استمرت عملية التسوية ١٠ ثوانٍ تحولت فيها النقاط إلى بروتونات وإلكترونات وفوتونات مضيئة بضوء مكتوم.

تقدم المبارك من الكرة المضيئة بالضوء المكتوم ولمسها وقال:

هذه الكرة مصمتة.. مسدودة.. لأن الفوتونات ممسوكة ومحبوسة داخلها.. لا تقدر على أن تخرج.. البروتونات والإلكترونات تمسك بها.. هذا قول القرآن "رتقًا".. هذه الكرة المصمتة.. العلماء يسمون الكون في مرحلة الكرة المصمتة هذه أنه Opaque Universe يعني مصمت.. مسدود.. لا ترى عينك من خلاله.. هذا هو الرتق. ولكن انظروا معي.

بدأت الكرة تكبر وبدأت الفوتونات تجد حرية أكثر في التحرك حتى نجحت الفوتونات في الهروب من الكرة والخروج خارجًا وحين تخرج الفوتونات يختفي ضوؤها لأن الفوتون لا يضيء إلا إذا اصطدم بشيء ما.. في الداخل كان يصطدم بالبروتونات والإلكترونات لكنه الآن خرج إلى الفراغ حيث لا شيء يصطدم به

فاختفى ضوؤه.. بالنسبة للكرة فقد تحولت من كرة مصمتة مضيئة بضوء مكتوم إلى كرة متخللة بعضها مضيء.. لأن هناك فوتونات هربت وأخرى ما زالت بالداخل.. قال "المبارك":

الآن صار الكون عبارة عن كرة تتخللها فتحات أو ما يعبرون عنه بكلمة Transparent Universe.. يعني صار يُرى من خلاله.. يمكنني لو نظرت من خلال الكرة أن أرى الجهة الأخرى.. هذا هو تعبيره أن السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما.. لقد فتق الكرة المصمتة فصارت متخللة بالفتحات.

قال له "آدم":

وهل هذه الكرة المصمتة كان فيها السماوات والأرض؟

قال "المبارك":

نعم.. فالتفاعل بين الثلاثة مكونات الموجودة في حساء الكرة المصمتة نتج عنه كل شيء في الكون.. حساء البروتونات والإلكترونات والفوتونات هذا نتج عنه حالات المادة الأربع.. فهذه المكونات التي في الحساء حين يتفاعل بعضها مع بعض بطريقة سينتج عنها جسم صلب.. وحين تتفاعل بطريقة ثانية سينتج عنها سائل.. وحين تتفاعل بطريقة ثالثة سينتج غاز.. وحين تتفاعل بطريقة رابعة سينتج بلازما.. البلازما هي ٩٩ % من الكون وهي السماء.. والـ١ % الأخرى موزعة بين صلب وسائل وغاز.. لكن ما الذي حدث للكرة بعد أن تفتقت؟

ظلت الكرة تكبر وتخرج منها فوتونات أكثر حتى خرجت منها كل الفوتونات.. عندها أظلم الكون كله فلم تعد ترى أي ضوء فيه.. حتى أصبحنا لانرى أيدينا.. قال "المبارك":

هربت الفوتونات كلها من الكرة.. وانتشرت في الفضاء حرة.. ولم تجد شيئًا تصطدم به.. فأظلم الكون كله.. وهنا لِمَ قال القرآن.. أغطش ليلها.. فلمّا كانت Opaque كانت مضيئة.. ولمّا أصبحت Transparent صارت أكثر إظلامًا.. ثم الآن صارت مظلمة تمامًا.. هذا التدرج هو كلمة أغطش ليلها.. يعني زاد في ظلمة ليلها حتى أظلمه تمامًا.. هذه المرحلة المظلمة من الكون يسمها العلماء Dark Ages واستمرت فترة طويلة جدًا.

وفجأةً برزت أضواء في الكون هنا وهناك.. كأننا كنا في مدينة مظلمة ثم فتح الكل أنوارهم تباعًا.. قال "المبارك":

وهنا المرحلة الأخيرة.. الفوتونات التي هربت من الكرة اجتمعت إلى الإلكترونات وكونت هيدروجين.. ثم اجتمع الهيدروجين إلى الهيدروجين فكونوا خيوطًا كبيرة.. داخل كل خيط كرات.. كل كرة هي شمس أولية.. هذه الشموس الأولية هي أول ظهور للضوء في هذا الكون المعتم.. ولقد كانت تضيء في كل مكان تباعًا هكذا كما رأينا.. هنا يقول القرآن عن المرحلة الأخيرة.. أخرج ضحاها.. وانظر إلى كلمة أخرج.. يعني كان شيئًا مختفيًا ثم أخرجه.. هكذا انتهت مراحل خلق السماء كما وصفها الله وكما وصفتها نظرية البيج بانج المعتمدة.. رفع سمكها.. سواها.. الرتق أو الكرة المسدودة.. فتق الكرة.. أغطش ليلها.. أخرج ضحاها.

ختم "المبارك" قائلًا:

بالنسبة لحكاية أن المجرات يتباعد بعضها عن بعض فقد قالها القرآن أيضًا لمّا قال: "والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون".. يقول الله إنّا بنينا هذه السماء بأيد (بقوة وقدرة).. وإنا لموسعون.. يعني نحن نزيدها سعة ونوسع أرجاءها.. وموسعون تفيد الاستمرار.. فنحن كنا موسعون في السابق ونحن موسعون الآن.. وسنستمر موسعون.

والآن بدأت الفقاعة الزجاجية تهبط بسرعة شديدة.. ومررنا في أثناء هبوطها بكل السماوات السبع نزولًا حتى المجموعة الشمسية ثم دخلنا في جو الأرض ثم ظهرت القارات.

قال "المبارك" وهو ينظر إلى الأرض الجميلة:

بعد أن بنى السماء بكل مجراتها ونجومها.. خلق كوكب الأرض.. وبعد أن خلقها يقول أنه دحاها.. ودحاها يعني أخرج منها ماءها ومرعاها ثم أرسى الجبال فيها.. بالنسبة للماء فالفرضية الأكثر قبولًا اليوم هي أن الماء الذي على الأرض قد خرج من الأرض نفسها.. ثم ظهرت النباتات الأولى.. ثم الجبال.. وقد ثبت علميًا أن الجبال كانت مرحلة متأخرة بعد خروج الماء والنبات.

نزلنا إلى أرض السافلين إلى القاعة التي كنا فيها.. واختفت الفقاعة الزجاجية.

ختم "المبارك" قائلًا:

إذًا الدين يتفق مع العلم بأن الكون له بداية ويتفق معه في طريقة هذه البداية.. لكن هناك مشكلة بسيطة توقف أمامها العلم الحالي.. كيف بدأ البيج بانج؟ لا أحد يدري.. لو قال أحدهم أن النقطة الصغيرة البادئة لكل شيء أتت من العدم.. لأصبح هذا ضد قواعد العلم نفسه.. فلا يوجد شيء ينتج من لا

شيء.. الدين يحل هذه المعضلة.. فيقول أن الله هو الذي خلق هذه النقطة الصغيرة وهيأ عوامل انفجارها.. لكن هل خلقها من العدم؟ لا لم يخلقها من العدم بل لم يكن قبلها عدم أصلًا.. كانت قبلها مخلوقات أخرى.

وهنا أضاء كرسي بأنوار كثيرة متعاقبة.. وقام عنه رجل ذو شكل ملفت جدًا.. لم يكن يجلس مع الجالسين.. بل كان واقفًا مقابل "المبارك".. كان رجلًا يرتدي السواد الفاحم.. لكن لم يكن هذا هو الملفت.. الملفت هو أن هذا الرجل كان يرتدي قناع الأناركية الأبيض الساخر المميز.. بدأ الرجل يتكلم ويقول:

معذرةً ولكن هذه طريقة الدينيين الأزلية دائمًا وهي تستفزني.. أنت تقول أيها "المبارك" أن العلم لم يعرف بعد ما الذي سبب البيج بانج.. وبالتالي تقول أن الله هو الذي خلقه.. أنتم تسدون الثغرات بإلهكم.. في كل منطقة لم يتوصل لها العلم في عصر من العصور.. تقولون هي هكذا لأن الله جعلها هكذا.. فلو اكتشف العلم سبب الانفجار ثم وقف عاجزًا عن تفسير المرحلة التي قبله ستقولون.. لأن الله خلقها هكذا.. ستظلون هكذا أبد الدهر.. ولو صدقناكم ما تعلمنا شيئًا ولا كان العلم قد اكتشف سبب أي شيء.

سكت "المبارك" برهة ثم قال له:

هذه يا سيدي مشكلة قديمة بين الدينيين والملحدين مع أنها ليست مشكلة أصلًا.. الملحدون يقولون أن المتدينين يجعلون الله في الثغرات التي لم يتوصل العلم لها.. فهو إله الثغرات.. والمتدينون يردون بأن الملحدين هم الذين يجعلون العلم في الثغرات.. فعندما يواجهون شيئًا يعجز العلم أمامه تمامًا يقولون هذا لا علاقة لله به بل هو شيء لم يتوصل العلم لتفسيره بعد.. فهو علم الثغرات.. وإله الثغرات.. الفريقان يملآن الثغرات بما يكافئ عقيدتهم.. هؤلاء يملأون ثغراتهم بالله وهؤلاء يملأون ثغراتهم بعلم مستقبلي ربما يصلون له ذات يوم.

ثم أكمل "المبارك" قائلًا:

فلسفيًا لا يوجد تعارض بين الاثنين.. فلسفيًا فقط يمكننا أن نقول.. الله يخلق بالعلم.. الله يحيط بكل شيء علمًا.. الله عليم.. الله عالم الغيب والشهادة.. الإنسان أيضًا عنده علم.. لكن علم الإنسان بالنسبة لعلم الله كنقطة في بحر.. إذًا فلسفيًا فقط لو زاد الإنسان من علمه حتى صار علمه كالبحر.. لصار الإنسان إلهًا.. بعبارة أخرى فلسفيًا أيضًا نقول.. الإنسان لا يعلم ماذا وراء الانفجار العظيم.. لكن الإله يعلم.. ولو زاد الإنسان من علمه قليلًا سيعلم.. ولو

زاد أكثر سيعلم أكثر وسيرى أكثر وأكثر.. حتى يصل افتراضيًا إلى علم الإله.. وهذا طبعًا لا يكون فالله يقول: "وفوق كل ذي علم عليم".. أي أن الله العليم دائمًا فوق كل علم يتعلمه أي أحد.. نحن لا نعترض أن علم الإنسان يمكنه أن يتوصل إلى كذا وكذا بل نحن نشجع هذا ونأمر بهذا.. لكن هناك حد لعلم الإنسان وضعه الله.

لقد تحدى الله في القرآن كل الناس فقال: "يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له".. لو طبقنا هذه الآية مثلًا على من يؤمن بالعلم التجريبي وحده من دون الله.. الله يقول لهم.. يا من تؤمنون بالعلم من دون الله، علمكم مهما تطور عبر الزمن فلن يتمكن من خلق شيء ضعيف مثل الذباب ولو اجتمع علماء العالم له.. فنحن لا نضع الله في الثغرات التي لم يتوصل لها العلم... بل نضع حدودًا نقول فها أنه يمكن للإنسان أن يمشي ما يحلو له حتى يصل إلى هذه الحدود.. لكنه لن يتعداها أبدًا.. حدود هي علم أيضًا.. لكنه علم لا ينبغي إلا لله وحده.. أحد هذه الحدود مثلًا خلق ذبابة.. هذا الحد وضعه الله منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام.. ولا يزال قائمًا وسيظل إلى يوم الدين.. إن الحقيقة التي نعلمها الآن هي أن الذبابة شيء معقد جدًا وحلم مستحيل تمامًا بالنسبة للعلم.

* * *

قمت من مكاني وقمت أنت أيضًا ورفعت يدي بما معناه أن هذه الجلسة قد انتهت.. لقد اتفقت الفلسفة مع العلم والدين في أن الكون له بداية.. واتفق العلم مع الإسلام بالضبط في طريقة حدوث هذه البداية.. هكذا تمت إجابة السؤال بنجاح.

تقدم منا حراس آدم باحترام.. ثم انحنوا لنا وصنعوا لنا بينهم طريقا مشينًا فيه حتى وصلنا إلى الباب.. لقد استمتعت بهذه المناقشات.. بعضها كان مملًا.. ولكن الهولوجرام أضفى جوًا من الروعة للأمر.

هيا تعال إلى الكرولر.. فلقد أتعب هذا العالم فكري وأحتاج أن أرتاح قليلًا عند سكوربيون.. حملتنا الكرولر خارجًا وسط تحيات الحراس وتحيات آدم الذي خرج لنا من الباب.. ثم عاد إلى الداخل بعدما انطلقنا.

مشت بنا الكرولر في أرض السافلين حتى أوصلتنا إلى هارموني.. هنا الراحة يا صديقي.. هنا أريكتي الوثيرة.

والآن منذ هذه اللحظة أنت الذي ستختار العالم التالي الذي تريد أن نزوره.. منذ هذه اللحظة وحتى النهاية.

حتى تنظر إلى النوافذ وتنتقل بينها يمكنك الآن أن تذهب إلى آخر صفحة في هذا الكتاب فستجد فيها وصف العوالم المتبقية.. اختر منها واحدًا وانطلق بنا إليه.

...



العالم الرابع

إنه الليل في هذا العالم السافل.. كنا نتحرك على "الكرولر" ببطء ينذر باقتراب شيء ما.. أدرت بيدي بكرة الراديو في لوحة التحكم والذي يشبه راديوهات التسعينات.. صوت الحشرجة المعروفة تتخللها أصوات أناس بعيدين يتحدثون.. وكلما أدرت البكرة أكثر اتضحت أصواتهم أكثر.. سمعنا موسيقى إخبارية مستعجلة جاء بعدها صوت رجل يقول بطريقة رتيبة: "هذا وقد أعلنت حكومة كولومبيا صباح هذا اليوم عن مكافأة قدرها عشرة ملايين دولار أمريكي لمن يمسك بذلك المجرم حيًا أو ميتًا.. المجرم الذي أحرق كولومبيا وقتل مئات الأبرياء بلا أي ذنب.. "بابلو إسكوبار".. تاجر المخدرات الأكثر ثراء والأشد قسوة والأعظم نجاحًا في التاريخ بأكمله.. الرجل الذي يُصَدِر وحده نصف الكوكايين الموجود في العالم اليوم.. الرجل الـ....

توقفت "الكرولر" وانفتحت أبوابها وصمت الراديو فجأةً.. كنا ننظر إلى بوابة العالم الثاني.. الأمر لا يبشر بخير.. هناك أدخنة كثيرة تتصاعد في الجو وأصوات سيارات شرطة غاضبة.. وطائرات هليكوبتر تمشط الأجواء بقلق.. انفتحت البوابة.. ودخلت أنا وأنت وسط كل هذا.. هناك الكثير من الهرج والمرج بالداخل.. نحن في كولومبيا في بداية التسعينات.. ذلك المجرم الذي سمعت اسمه في الراديو منذ قليل.. بابلو إسكوبار.. إن العالم كله يبحث عن هذا الرجل اليوم.. وهذه ليست عبارة أدبية.. بل إنني أعنيها حرفيًا.. دعني أجعل أجواء هذا العالم تشرح لك بنفسها.

إن المشهد الذي واجهنا أول ما دخلنا كان مشهد مزدحمًا جدًا.. للوهلة الأولى كانت هناك سيارات عسكرية كثيرة ورجال عسكريون كثر مختلفة أزياؤهم.. كلهم مشغولون.. وطائرات تحوم حولنا وحولهم.. ورجال تحقيقات ينحنون على الأرض كل حين يجمعون الأدلة.. هناك رجال عصابات مجرمون تمتلئ أجسادهم بالأوشام يمشون في مجموعات على الناحية الأخرى من الشارع.. لا أدري كيف يجتمع هؤلاء وهؤلاء في مكان واحد.. أولئك شرطة كما يبدو من هيئاتهم وهؤلاء مجرمون كما يبدو من أوشامهم.. والأهالي المذعورون ينظرون من شبابيكهم من وراء ستائرهم إلى هذا المهرجان.. الكل قد اجتمع اليوم في شوارع كولومبيا لأجل هدف واحد.. البحث عن رجل واحد وتصفيته.. "بابلو إسكوبار".

دخلنا وسطهم أنا وأنت.. نحن أيضًا هنا للبحث عن "بابلو إسكوبار" بالمناسبة.. لماذا نبحث عنه؟ لأننا في عالم المخدرات.. ولا تذكر المخدرات دون أن يذكر "بابلو".. الماستر كما يسميه أصحابه.

تقدم معي في هذا الزحام.. تلك القوة من الرجال الضخام الأشداء بملابسهم العسكرية وخوذاتهم الواقية وأسلحتهم الكبيرة هناك هم دلتا فورس Delta Force.. أقوى فرقة عسكرية في الجيش الأمريكي.. وهي فرقة مدربة فقط للإمساك بأباطرة الإرهاب في نظر أمريكا.. مثل "بن لادن".. هذه الفرقة تمشط كولومبيا اليوم فقط للإمساك ببابلو إسكوبار.. والرجال ذوو المعاطف الزرقاء الذين ينحنون على الأرض كل حين ويتحدثون في خطورة لن أحتاج إلى تعريفك بهم لأن اسمهم مكتوب على ظهور معاطفهم.. F.B.I.. مكتب التحقيقات الفيدرالي.. وهم هنا لجمع الأدلة ومكافحة الإرهاب والقبض على بابلو أيضًا.

الطائرات الهليكوبتر المزعجة فوق رؤوسنا بداخلها رجال يرتدون ملابس عسكرية مموهة ويحيطون أنفسهم بكميات ضخمة من الأجهزة والأسلاك.. هذه فرقة أمريكية عسكرية متخصصة بالتعقب.. تدعى الـCentra Spike.. وهم يبحثون عن "بابلو" من الجو.. عبر تتبع الإشارات الملتقطة من الهواتف التي يمكن أن يستخدمها.. ويرسمون عبر هذه الإشارات خريطة تقريبية للموقع الذي ربما يكون فيه.. وخريطتهم تتطور تدريجًا وتضيق مع كل تعقب ناجح.

بجانب هؤلاء وهؤلاء هناك رجال يرتدون ملابس عسكرية سوداء خطرة المنظر.. فرقة Search Bloc العسكرية الكولومبية.. فقط أنزه وأكفأ وأقوى رجال الشرطة في كولومبيا هم من ينضمون لهذه الفرقة.. يجاورهم رجال بمعاطف زرقاء يشعرون بالخطورة وينحنون على الأرض كل حين أيضًا مكتوب على ظهور معاطفهم كلمة DAS.. مكتب التحقيقات العسكري الكولومبي.. وهو مثل الـFBI ولكن في كولومبيا.. هذا تعاون بين الحكومة الأمريكية بأخطر أجهزتها والحكومة الكولومبية بأخطر أجهزتها إذًا.. هل عرفت درجة خطورة الرجل الذي نبحث عنه؟

على الجانب الآخر من الشارع كان هناك رجال ضخام.. يمسكون بأسواط وسكاكين.. تملأ أجسادهم الأوشام الإجرامية.. هؤلاء عصابة Los Pepes المنافسة لبابلو.. وهي عصابة دموية مجنونة هدفها الوصول إلى رأس "بابلو" عبر قتل وسلخ وتعذيب أي شخص كانت له علاقة به من قريب أو من بعيد.. ويظهر ذلك

من الدماء التي تقطر من أسواطهم وسكاكينهم.. بابلو بالنسبة لهم حوت أكل كل شيء في السوق.. وتصفيته تخلي لهم الجو.

ما جعل الأمر في غاية الجنون هو أن كل هؤلاء يمشطون كولومبيا منذ أكثر من سنة كاملة للبحث عن رجل واحد دون جدوى.. كان الرجل مثل الشبح.. اشتهر أمره عالميًا وأصبحت وكالات الأنباء في جميع أنحاء العالم تتحدث عنه.. مما أغرى القتلة المحترفين وصائدي الجوائز من جميع أنحاء العالم بالسفر إلى كولومبيا للإطاحة برأسه الثمين.. لن تستغرب لو وجدت قتلة روسيين أو يابانيين يمشون حولنا.. بعض هؤلاء القتلة المحترفين جاء من أجل العشرة ملايين دولار.. وبعضهم جاء فقط لإطفاء شعلة التحدي التي أشعلها الأمر في روحه القناصة.. فكلما ازداد الهدف صعوبة ازدادت المتعة.. وازداد المجد.. كان هذا باختصار تفسير كل ذلك الزحام الذي رأيناه في المشهد الأول.

اقتربنا من أحد الحوائط.. صورة "بابلو إسكوبار" مع كلام كثير عن أنه المطلوب الأمني رقم واحد في العالم اليوم وعن الجائزة المعروضة على رأسه.. نظرنا أنا وأنت إلى وجهه بفضول حقيقي لنرى الرجل الذي قلب العالم كله هكذا.. بدا وكأن عيوننا قد اندهشت قليلًا.. كان رجلًا وسيمًا بملامح هادئة ونظرة ساخرة مميزة.

اقتربت الأجواء بنا من الصورة وتموهت كل الموجودات حولها حتى لم نعد نرى أي شيء تقريبًا عدا الصورة.. ثم نظر لنا "بابلو" من داخل الصورة وابتسم ابتسامة بزاوية فمه تحرك معها شاربه المميز.. ودخلت أجواؤنا في أجوائه ببطء.. كان يبدو وكأننا قفزنا إلى داخل الصورة.

■ ■ ■

كان "بابلو" واقفًا في غرفة في الطابق الثاني لأحد البيوت.. مبتسمًا تلك الابتسامة التي ابتسمها لنا في الصورة.. كان بكامل أناقته وبجانبه أخوه "روبيرتو" يحدثه في أمر ما.. كان "روبيرتو" يقول له:

تعرف أنني أحبك "بابلو".. ما تريد أن تقوم به هو شيء في غاية الجنون.. أتفهم أنك تريد الاحتفال بعيد ميلادك اليوم.. لا مشكلة لدي.. أما أن تأمرني أن أجري اتصالاتي لأحضر لك فرقة موسيقية كاملة لتعزف لك هنا في هذا المكان المطلق السرية فهي خطوة حمقاء.. لأن أول ما سيفعلونه بعد أن يخرجوا من هنا هو أن يبلغوا عنك الشرطة.. إن العالم كله يبحث عنك الآن.

قال له "بابلو" بهدوء ولا مبالاة:

إن "بابلو إسكوبار" سعيد في هذا اليوم.. وسيحتفل رغمًا عن أنوف الجميع.

قال أخوه:

لا تحلم أصلًا أن هناك فرقة موسيقية ستوافق على أن تأتي إلى هنا أنت لا تدري ما الذي...

قطع حديثه فجأةً صوت عزف احترافي يأتي من الطابق السفلي... اتسعت ابتسامة "بابلو" واتسعت عينا "روبيرتو" وهو يقول:

ما هذا؟! إذًا فقد أتيت بهم بالفعل.. فليكن يا "بابلو".. فليكن.. لقد سئمت من جنونك وعدم تقديرك لخطورة موقفك دائمًا.. أنا سأحزم حقائبي وأرحل من هنا.

لم يعلق "بابلو" وأخذ يدندن باللحن الذي تعزفه الفرقة من الأسفل وخرج من الغرفة نازلًا إليهم محييًا بسعادة بالغة.. أهذا هو الرجل الذي يبحث عنه العالم اليوم؟ توقعته أكثر إجرامًا مما يبدو.. بدأ "روبيرتو" يحزم أغراضه بالفعل في حقيبة صغيرة وهو يسب عدة سبات كولومبية.. ثم أمسك بالحقيبة وشدها إليه بقسوة وفتح الباب ثم نزل على السلم.. كان "بابلو" بالأسفل جالسًا وسط الفرقة مستمتعًا بعزفهم يغني معهم ويدندن.

بدت ملامح "روبيرتو" متجهمة وهو ينزل بغضب ويفكر في الخطوة التالية التي سيفعلها لتأمين أخيه المتهور ولم تأت في عقله فكرة أفضل من قتل جميع أعضاء الفرقة بعد أن ينتهوا.. لكن هؤلاء الأغبياء كيف وافقوا أصلًا وأتوا إلى هنا؟ قطعت أفكاره نظرة واحدة منه إلى الفرقة اتسعت عيناه بعدها في دهشة حقيقية.. لقد كان ما يراه أمامه هو آخر شيء يتوقعه في هذا العالم.. تلك الفرقة التي تعزف حول "بابلو".. كانت فرقة من الرجال الذين يرتدون النظارات السود الكبيرة.. كانت فرقة من العميان.

لم يتمالك "روبيرتو" نفسه.. فانفجر في الضحك.. ووضع حقيبته على الأرض في سعادة ناظرًا إلى بابلو نظرة لوم مرحة وانضم إلى الفرقة بجانب أخيه وأخذ يدندن معهم هو الآخر.. حقًا إن فرقة من العميان لن يعرفوا إلى أين هم ذاهبون وأمام من يعزفون.. أخذ الجميع يغني أغنية "Happy Birthday to you " لبابلو بأصوات سعيدة ضاحكة.. وبعد أن انتهوا قام "بابلو" من مجلسه وقال:

أيها السادة شكرًا لكم جزيلًا.. سعدت بوجودكم.. وإني أود أن أخبركم أمرًا لا

أدري كيف ستتقبلونه.. أنتم كنتم تعزفون اليوم في عيد ميلاد السيد "بابلو إسكوبار".. الذي هو أنا.

وجم الجميع وارتعشت أطرافهم.. لكن "بابلو" تحدث معهم بصدق وطمأنهم تمامًا وأعطى كل واحد منهم في يده عشرين ألف دولار.. وغادروا المكان فرحين كلهم.. لم يكن منهم أي خوف.. كانوا عميانًا.

بعد رحيلهم جلس "بابلو" على الأريكة متنهدًا وأمسك بجهاز التحكم وشغل التلفزيون.. كان التلفزيون يعرض مشهدًا من فيلم بالأبيض والأسود.. كان في المشهد رجل يرتدي معطفًا أسودَ طويلًا وطاقية سوداء وملامحه غير واضحة من هذه الزاوية.. فجأةً تموهت الصورة حول التلفزيون وأصبح الرجل ذو الطاقية وحده واضحًا.. كان يمشي بخفة في إحدى المزارع.. بدا وكأن كل شيء حولنا فجأةً يتحول إلى الأبيض والأسود ثم أخذتنا الأجواء أخذًا إلى ذلك الرجل داخل التلفزيون.

■■■

بدا وكأننا انتقلنا إلى داخل فيلم قديم بكل تلك الأجواء البيضاء والسوداء حولنا.. لكن هذا لم يكن فيلمًا.. بل لقد انتقلنا إلى الأربعينات.. ليست أربعينات القرن العشرين.. بل أربعينات القرن التاسع عشر.. أي كما نقولها بالأرقام ١٨٤٠.. كان ذلك الرجل ذو الطاقية والمعطف الطويل واقفًا في أحد الحقول يشاهد من بعيد بعض المزارعين الذين يعملون بكد.

إنهم سكان أمريكا الجنوبية.. وهم يعملون في مزارعهم وحقولهم ويمضغون شيئًا ما تحت أسنانهم كلهم.. شيء يجعلهم يعملون ساعات طويلة دون كلل.. ذلك الشيء الذي يمضغونه.. إنها أوراق نبات الكوكا.. مصدر الكوكايين.. أو "هبة الآلهة" كما يسمها الأهالي هنا.. عندما تمضغ هذه الأوراق يتسرب الكوكايين منها إلى داخل جسدك ويعطيك قوة تجعلك قادرًا على العمل ثلاثة أضعاف ما تقدر عليه عادة.. هو يشعل جسدك إشعالًا ويحمس كل عضلاتك للعمل.. هذه حقيقة علمية لا مبالغة فيها.

و فجأةً أظلم العالم حول الرجل ذي الطاقية وبدأت النيران تأكل الأجواء.. الاحتلال الإسباني والاكتشاف الأول لأمريكا الجنوبية.. كان احتلالًا قاسيًا جدًا.. هناك رجل ما بملابس عسكرية يبدو متعجبًا من ذلك الشيء الذي يمضغه الأهالي طيلة الوقت.. أرى واحدًا من الأهالي يعطيه ورقة من أوراق الكوكا ليريه إياها.. الإسباني يمضغ هبة الآلهة.. تمر دقائق.. يتسرب الكوكايين إلى داخل

جسده.. انظر إليه.. إنه يشعر بالسعادة ويخبط على كتف من أعطاه إياها وهو يضحك.

لكن الإسبان خافوا من هذا الشيء الذي يُمضغ.. هذا الشيء يعطي شجاعة وقوة حقيقية لمن يمضغه.. هذا الشيء يجعل الأهالي أكثر صعوبة في السيطرة عليهم.. لأجل هذا منع الإسبان مضغ هذا الشيء تمامًا وسموه بالنص أنه "رجس من عمل الشيطان" an evil agent of the devil.. لكن في مقابل هذا المنع لم يستطع السكان العمل في المزارع أو في مناجم الذهب بكفاءة.. إن كفاءتهم انخفضت لأقل من النصف.. فاضطر الإسبان للسماح به مرة أخرى.. وبدأت الكنيسة الكاثوليكية الإسبانية تزرعه أيضًا.. ثم بدأ تصديره من أمريكا الجنوبية إلى أوروبا.

تموهت الأجواء حول الرجل ذي الطاقية مرة أخرى والذي لا أدري من هو بالضبط.. ثم زال التموه من حوله فرأيناه يمشي في أحد شوارع أوروبا.. لقد انتقل الكوكايين إلى هناك.. نرى إعلانًا كبيرًا على جدران أحد المنازل.. نوع جديد من الخمر نزل إلى السوق.. Vin Mariani.. مكتوب في الإعلان أنه ليس خمرًا عاديًا.. بل هو مزيج من الخمر والكوكايين.. وأنت حين تمزج هذين الشيئين يخرج لك مركب جديد.. مركب يؤدي إلى نشوة أكثر من الكوكايين العادي وإسكار أقل من الخمر العادي.. وقوة أعظم.. وثقة بالنفس لا حدود لها.. مشروب أصبح يستخدمه الجميع بلا استثناء في ستينات القرن التاسع عشر.. الـ١٨٦٠.. حتى المفكرين والكتاب أُعجبوا به جدًا.. آرثر كونان دويل.. جول فيرن.. ألكساندر داماس.. سيجموند فرويد.. كلهم كانوا يشربونه.. كان شيئًا مثل السحر حقًا.

فجأةً انقلبت كل أجوائنا إلى أجواء مشوشة تمامًا.. نظرنا حولنا.. هناك شيء غير طبيعي يحدث هنا.. فجأةً تلونت الدنيا وتم جلبنا مرة أخرى إلى حيث يجلس "بابلو إسكوبار".. إن الرجل كان يغير قناة التلفزيون عبر الريموت... يبدو أن هذا هو ما أنهى وجودنا عند ذلك الرجل ذي الطاقية.. حقًا لن نفهم هذا العالم أبدًا.. نظرنا تلقائيًا إلى التلفزيون لنرى القناة التي حول "بابلو" إليها.

كانت إحدى القنوات الإخبارية.. كانوا يعرضون كلمة الرئيس الأمريكي "ريجان" في الحملة الشهيرة التي أطلقها منذ عدة أسابيع فقط.. حملة الحرب على المخدرات War On Drugs.. تلك الحرب التي أعلنتها أمريكا فجأةً على كل الدول التي تُصدر لها المخدرات وعلى رأسهم كولومبيا.. فجأةً طلبت أمريكا رسميًا من حكومة كولومبيا أن تُسلم لها زعماء تجارة المخدرات الكولومبيين لتتم

محاكمتهم وسجنهم في أمريكا.. وذلك حتى يوقفوا التدفق الرهيب من المخدرات الذي يدخل إلى الولايات المتحدة كل عام.. وبالطبع كان أكبر تاجر مخدرات في كولومبيا والعالم كله في ذلك الوقت هو "بابلو إسكوبار".. ولذلك كان هو المطلوب رقم واحد في هذه الحملة.

ظل الرئيس "ريجان" يتحدث و"بابلو" ينظر له بغل حقيقي.. كان كل شيء يسير على ما يرام لسنوات وسنوات حتى قرر هذا الرئيس الأمريكي المتحذلق أن يقيم الحرب على الجميع هكذا.. ورغم أن "بابلو" كان قد اشترى ذمم أكابر الرجال في كولومبيا فإن أحدًا منهم لم يُطلعه على سر هذا التحول المفاجئ لأمريكا.. ما الذي تغير؟ لماذا هذه الحرب الشعواء المفاجئة.. لا أحد كان يعرف الحقيقة وقتها.. بدأت الأجواء تتموه حول التلفزيون وتبقى صورة "ريجان" وحدها هي الواضحة وهو يتكلم.. واقتربت الأجواء من "ريجان".. والتفت "ريجان" لينظر إلينا.. اقتربنا منه ببطء حتى دخلنا إليه في مكانه.

■ ■ ■

كان "ريجان" جالسًا في سيارة فاخرة جدًا.. غرفة معيشة كاملة بأرائكها وستائرها بداخل سيارة.. يجلس بمواجهته نائبه "بوش" الأب.. وبجوارهم رجل أنيق وسيم يدعى "أوليفر نورث".. كان التاريخ في لوحة السيارة الفاخرة يشير إلى قبل سنة كاملة من إعلان "ريجان" للحرب على المخدرات.. كان "بوش" الأب يقول لـ"نورث":

هل تدري يا "نورث" أنك ستكون كبش فداء رائعًا جدًا في حال فشل هذه العملية التي اقترحتها علينا؟

قال له "نورث" بهدوء:

وهل ظننت أنني أحمق حتى أقترح على أمريكا عملية كهذه لو أن فيها نسبة مخاطرة واحد في المائة؟

توقفت السيارة لحظات ونظرنا من نافذتها للخارج.. كانت هناك بوابة تنفتح لنا بهدوء لتدخل فيها سيارتنا الفاخرة.. وفور أن فُتحت تلك البوابة، رأينا منظرًا عجيبًا جميلًا أبهر عيوننا كلنا.. حقل أفيون واسع على مد بصرنا.. زهور الأفيون كانت طويلة جدًا وبيضاء ومتجاورة بشكل مبهر.. والأجمل أننا كنا نمشي بالسيارة وسط هذا الحقل متجهين إلى قصر عظيم أبيض اللون كان منظره بهيًا جدًا

وسط هذا الكم من الزهور البيضاء الطويلة.. لاحظت أن الرئيس "ريجان" و"بوش" ينظران بانبهار من الشباك بينما بدا "نورث" هادئًا ينظر إلى انبهارهما.

إننا الآن نحن ورئيس الولايات المتحدة ونائبه ذاهبون لمقابلة زعيمة المخدرات الفاتنة "سونيا أتالا" في قصرها.. يقولون عنها أنها كانت أغنى وأقوى امرأة في العالم في الثمانينات.. يقولون عنها أنها هي التي كانت تحكم بوليفيا من وراء الستار.. يسمونها ملكة الكوكايين.. فكما أن "بابلو إسكوبار" هو ملك الكوكايين المسؤول عن نصف كوكايين العالم، فسونيا أتالا هي المسؤولة عن النصف الآخر.. كانت ضابطة في الجيش البوليفي ومعها وسام يشهد بأنها أفضل قناصة رأتها أوساط الجيش منذ قرون.. لكن "سونيا أتالا" كان لها لقب آخر تُعرف به في أوساط العصابات.. لقب غريب نوعًا ما.. يسمونها "ملكة الثلج".. سموها به لأنها تحب اللون الأبيض حبًا جمًا.. حتى إنهم قالوا أنها احترفت بيع الكوكايين فقط لأنه أبيض.

قبل أن نكمل وندخل هذا القصر الأبيض دعني أشرح لك سريعًا ما نعيشه الآن حتى تزول علامة الاستفهام التي تكونت فوق رأسك وأنت تشاهد رئيس الولايات المتحدة يذهب لمقابلة زعيمة من زعماء المخدرات.. وحتى لا تتوه أثناء متابعتك للأحداث القادمة.. ركز قليلًا لأن ما سأقوله سيكون مُركزًا وصادمًا نوعًا ما.. سأعرفك السر وراء إعلان أمريكا الحرب على المخدرات هكذا فجأةً.. السر الذي لم يكن يعلمه "بابلو إسكوبار" نفسه على عظم إمبراطوريته.

الحكاية هي أن هناك حكومات شيوعية بدأت تبرز في الدول القريبة من أمريكا.. دول مثل بوليفيا ونيكاراجوا والسلفادور وجواتيمالا وكوبا.. هذه الحكومات الشيوعية كلها كانت خطرًا كبيرًا على أمريكا.. لأنها ببساطة شيوعية.. وشيوعية تعني أنها مدعومة مباشرة من روسيا.

ولأن أمريكا تعشق أسلوب الطفيليات في هدم كل ما يُحتمل أن يكون كيانًا مستقرًا يهدد وجودها.. فقد تولت أمريكا إنبات تنظيمات مضادة للشيوعية في كل دولة من تلك الدول الشيوعية.. كان الهدف الأساسي هو أن تبقى الصراعات دائرة كما هي في تلك الدول الشيوعية.. حتى لا تستقر تلك الدول بعد حين وتكون خطرًا حقيقيًا على أمريكا.. أهم تلك التظيمات التي أنبتتها أمريكا كان التنظيم المحارب للحكومة الشيوعية في دولة نيكاراجوا.. ذلك التنظيم الثوري المسلح الذي أثار الكثير من الجدل والذي أُطلق عليه اسم الكونترا Contras.

روسيا لم تسكت على هذا التنظيم.. وتحركت بسرعة لأجل إجهاضه، فزودت حكومة نيكاراجوا الشيوعية بمبلغ خمسة بلايين دولار كبداية لمحاربة الكونترا.. ووعدتهم بالمزيد كل شهر حتى يتم القضاء على التنظيم تمامًا.

كان على "ريجان" و"بوش" أن يجدا طريقة للرد على هذه الخطوة ودعم تنظيم الكونترا بأموال كثيرة جدًا في وقت قصير جدًا.. ولأن أمريكا كانت مشغولة في مئات الأشياء المُكلفة الأخرى.. لم يكن أمام "ريجان" و"بوش" إلا أن يقبلا الاقتراح المجنون الذي عرضه عليهما الكولونيل الوسيم "نورث".. عرض للحصول على بلايين الدولارات في وقت قصير للغاية.

اقتراح "نورث" كان كالتالي.. وركز معي في كل كلمة.. وكل اسم..

أن تشتري المخابرات الأمريكية خمسمائة طن من الكوكايين الخام من عصابة "روبيرتو سواريز" الشهيرة في بوليفيا..

تنقل المخابرات هذا الكوكايين الخام إلى معامل خاصة في بوليفيا تملكها زعيمة المخدرات الفاتنة "سونيا أتالا" لتحويله إلى كوكايين بودرة جاهز للاستخدام..

تنقل المخابرات الأمريكية بودرة الكوكايين الجاهزة هذه إلى أمريكا ليبيعوها هناك لشبكة مخدرات كبيرة في أمريكا هي شبكة الإخوة "أوشوا"..

عملية الشراء ثم التجهيز في المعامل البوليفية ثم النقل لأمريكا ثم البيع ستحتاج إلى حوالي سنة لأن الكمية ضخمة جدًا.. وبالتالي سيتم نقلها على دفعات أسبوعية بإشراف وتأمين وتعتيم كامل من المخابرات الأمريكية..

هذه الدفعات عند بيعها ستربح منها أمريكا بلايين شهرية لا حصر لها.. هذه البلايين ستكون من نصيب تنظيم الكونترا.. لدعمهم بالسلاح والتجهيزات.

باختصار، كان اقتراح "نورث" هو أن تتحول المخابرات الأمريكية CIA لأكبر عصابة مخدرات في التاريخ تشتري خمسمائة طن كوكايين من بوليفيا وتدخله إلى أمريكا وتبيعه هناك وتكسب نقودًا تدعم بها الكونترا.. المشكلة أنه كان على "بوش" و"ريجان" أن يفعلا هذا كله في الخفاء.. لأن الكونجرس لن يوافق على شيء كهذا أبدًا.

■ ■ ■

نعود إلى حقل الزهور البيضاء والقصر الأبيض.. نزلنا من السيارة ومشينا ناحية القصر.. الباب نفسه لونه أبيض.. ذوق هذه السيدة راقٍ جدًا بالمناسبة..

كل شيء هنا فاخر جدًا.. وأبيض جدًا.. لوهلة ظننا أننا في الجنة.. دخلنا للقصر المهيب.. كما توقعت، كان اللون الأبيض طاغيًا على الأثاث والستائر وتماثيل المرمر والرخام بالداخل.. وفي خضم كل هذا البياض خرجت لنا "سونيا".

أول شيء سيلفت نظرك في "سونيا " عندما تراها لأول وهلة هو ذلك الشعور الذي يأتيك بأنها فتاة في العشرينات.. اللافت في الموضوع أن "سونيا" كانت أغنى وأقوى امرأة على وجه الأرض وقتها أيام الثمانينات.. ستقول لنفسك في أول وهلة، كيف وصلت هذه الصغيرة البريئة لكل هذا؟!

ولكن حين تتحدث إليك "سونيا " سرعان ما سيزول شعورك الأول بالدهشة ويحل محله شعور بعدم الاطمئنان.. إن هذه الفتاة في صوتها بحة تشعر فيها بقسوة وبرودة لا حد لهما.. لست أميل إلى المبالغة لكن هذا ما شعرت به للوهلة الأولى.. كما أن ملابسها الجلدية البيضاء الفاخرة جدًا وكل الأبيض الذي حولها يعمق شعورك بالبرودة.

قالت "سونيا" فجأةً للرئيس "ريجان" بدون مقدمات أو سلام وبصوت هو للأفعى أقرب:

يراودني سؤال كنت أود أن أسأله لأي رئيس دولة أقابله يومًا، هل تسمح لي سيدي الرئيس؟

قال "ريجان" باهتمام:

بالطبع.

قالت "سونيا" وهي تضيق عينيها الرماديتين الباردتين:

هل شعوبكم حمقى لهذه الدرجة؟

نظر لها "ريجان" بتساؤل مندهش فأكملت قائلة:

هل حقًا تظن الشعوب في هذا العالم أن حكوماتهم تحارب المخدرات؟ هل يظنون حقًا أن أي حكومة في هذا العالم تحارب المخدرات فعليًا؟ المخدرات هي ثاني أكبر تجارة في العالم، دخل اقتصادي رهيب للدولة.. هل حقًا يظنون أن الحكومة تحاربها؟ ألم يفطنوا بعد أن الحكومات هي التي تمرر المخدرات إليها بقدر معلوم وتكسب منها بقدر معلوم؟!

قال "ريجان" بابتسامة:

من قال لك هذا أيتها الجميلة؟ الحكومات تحارب المخدرات طبعًا.. لكن ليس كل المخدرات.. إنما نحارب المخدرات التي يتناقلها التجار الصغار.. حتى لا يُزعجوا التجار الكبار.. تجار المخدرات الكبار يكسبون بلايين لا حصر لها.. وما يكسبونه يغسلونه بطرق كثيرة حتى يدخلوه في البنوك بصورة رسمية.. خمسمائة بليون دولار تدخل لبنوكنا كل سنة من تجارة المخدرات.. كثير من البنوك تقوم قواعدها على أموال تجار المخدرات المغسولة هذه.. لأنهم يوفرون سيولة رهيبة مستمرة غير منقطعة للبنك.. وطالما البنوك تستفيد فاقتصاد الدولة يستفيد.. نحن دائمًا نقول أننا نبذل جهدنا لمحاربة تجار المخدرات الكبار.. لكن تجدينا في نفس الوقت حين نجد معهم بلايين يريدون غسلها وإدخالها للبنوك.. فنحن نسهل أمورهم.. هذه بلايين.. فائدة للدولة.

بدا بريق عيني "سونيا" معجبًا بكلام الرئيس وقالت:

ظننتك ستتحدث بالهراء المعتاد وتقول أن الحكومة تبذل ما بوسعها لمحاربة المخدرات لكن التجار يطورون من أساليبهم.. فلا تنقطع المخدرات من أي دولة أبدًا.

قال "ريجان" بنبرة حكيمة:

الحكاية هي أن شعوبنا لا يدرون شيئًا وليست لديهم الرفاهية الذهنية أصلًا للتفكير في مثل هذه الأمور.. كل إنسان هنا منشغل في كيفية البقاء حيًا في هذه الغابة التي صنعها لهم النظام.. يولد الواحد منهم ليجري في الغابة منذ صغره.. يجري لئلا يرسب في المدرسة بكل ضغطها وتوترها.. يجري لئلا يرسب في الجامعة بكل تعقيداتها وأساتذتها.. يجري ليحصل على وظيفة براتب جيد.. يجري ليتزوج.. يجري ليربي أطفاله.. ثم يجري ليتعالج حتى يطيل فترة بقائه بضع سنين في هذه الدنيا.. ثم يجري ليموت.. صدقيني ليست لديه الرفاهية ليفكر في مثل هذه الأمور.

قالت "سونيا" وهي تشير إلى عقلها:

تورط الدول بديهي باستخدام هذا.. هل يعقل أن دولة بكامل أجهزتها العسكرية والرقابية والبنكية، تمر من تحت أنفها بلايين الدولارات هكذا كل شهر من شهور السنة في تجارة المخدرات؟ لا أعرف كيف يمكن لشخص أن يصدق هذا؟!

تدخل "نورث" قائلًا:

إن سيدي الرئيس يعرف تمامًا أنك يا "سونيا" أكبر تاجرة مخدرات في العالم تقريبًا وبغض النظر عن البلايين التي تستفيد منها البنوك.. فأنت لديك شبكة كاملة من المرتشين في كافة مراكز الحكومة.. مدراء شرطة يأخذون قسطهم الشهري ليغضوا الطرف.. مدراء مطارات يأخذون قسطهم الشهري ليغضوا الطرف.. قضاة يأخذون قسطهم الشهري ليغضوا الطرف.. أنت تشترين "أطراف" الحكومة كلها.. البنوك مستفيدة منكِ.. وأشخاص مهمون في الحكومة أيضًا مستفيدون منكِ.. كيف يعقل أن يحاربوكِ؟ وبالمناسبة نحن هنا لنتباحث بشأن الأطنان التي سنوردها إلى معاملك والتي..

بدا وكأن أنوار المكان قد خفتت فجأةً وخفتت الأصوات فجأةً.. نظرنا إلى النافذة.. أصبح يتعاقب فيها الليل والنهار بسرعة.. عدنا لننظر إلى "سونيا" والآخرين لنجد أوضاع وقوفهم قد تغيرت.. حيث أصبحت "سونيا" جالسة على الأريكة تنظر إلى بعض الأوراق واضعة ساقًا على ساق وحولها الثلاثة رجال يتحدثون معها.. تغيرت ملابسهم جميعًا عما كانت.. لقد تقدم الزمن بنا سنتين كاملتين.. هذا المشهد هو ما حدث في هذه الغرفة مع نفس الشخصيات بعد سنتين من المشهد الأول.

كانت "سونيا" تقول:

والآن قد بلغ الكوكايين الذي تاجرتم فيه حوالي ألف طن.. كنتم تتحدثون عن خمسمائة في البداية.. تحياتي سيادة الرئيس لقد دعمت تنظيم الكونترا.. لكنك أصبحت أكبر تاجر مخدرات في العالم.. أنت أكبر مني الآن.

ابتسم الرئيس "ريجان" ابتسامة غامضة وصمت بينما قال "بوش":

ليست المشكلة في الألف طن فقط.. المشكلة أننا في سبيل نقل هذه الكمية كلها، أصبح لنا طريق آمن معتاد يوصل الألف طن خاصتنا من بوليفيا إلى مقر عصابة الإخوة "أوشوا" في أمريكا.. تكمن المشكلة في أن الإخوة "أوشوا" أصبحوا يستخدمون هذا الطريق الآمن في نقل الكوكايين الخاص بهم هم أيضًا إلى أمريكا.. فتم إغراق بلادنا بما هو أكثر بكثير من ألف طن من الكوكايين.. وبالتالي رخص سعره في أمريكا وأصبح متاحًا للكل.. وتحول الأمر إلى وباء اجتاح أمريكا كلها في أقل من سنة.. وباء الكوكايين.

ضحكت "سونيا" كالأفعى وقالت:

إن أكثر ما يضحكني في الموضوع هو ظهورك في التلفزيون سيدي الرئيس بعد

أن أتخمت أمريكا كلها بالكوكايين.. ثم أصبحت تظهر وتتحدث في التليفزيون بحكمة عن المخدرات وكيف أنها خطر قومي على الولايات المتحدة.. وأعلنت عن حملة War On Drugs التي صاحبتها حملة إعلانية ضخمة.. إعلانات يتحدث فيها رجال الشوارع وينظرون للكاميرا وينصحون الأمة بكلمة بليغة.. "فقط قل لا" Just say no.. ولا يدري أحد أنك أنت السبب في هذا الوباء.. ألم أقل لك يا سيدي أن شعوبكم حمقى.

قال الرئيس "ريجان":

هذه الحملة وهذه الكلمات لم تكن تكفي.. كان لا بد أن نغطي على فعلتنا هذه بشكل عملي.. لأجل هذا أعلنّا الحرب على تجار المخدرات الكولومبيين وكأنهم هم سبب هذا الوباء.. جعلناهم كبش الفداء.. وأرسلنا أكفأ قواتنا للقبض عليهم في بلادهم.

■ ■ ■

خفتت الأضواء والأصوات مرة أخرى.. هناك تغير آخر في الزمن يحدث الآن.. انتقلنا بضعة شهور إلى الأمام.. نظرنا إلى "سونيا" والرئيس وصاحبيه.. الكل متوتر جدًا وهم ينظرون إلى شاشة التلفاز التي تعرض أخبارًا عاجلة من كولومبيا.. كان هناك رجل واحد جن جنونه من إعلان هذه الحرب على المخدرات.. وجن جنونه أكثر لصدور القانون الأمريكي بتسليم تجار المخدرات الكولومبيين إلى أمريكا للمحاكمة.. رجل واحد كان يعرف أن كل هذه الحرب الدائرة في كولومبيا هي لأجل الإمساك به هو.. لأنه أكبر تاجر مخدرات في العالم.. رجل واحد هو "بابلو إسكوبار".

لكن ما لم يكن يعرفه هو أن الإمساك به وقتله سيكون تعويضًا رهيبًا تقدمه أمريكا لشعبها بعد أن أغرقته في الكوكايين.. لكن يبدو أن ذلك الرجل ليس سهلًا.. ها هو ذا يفجر تفجيرًا جديدًا إرهابيًا في كولومبيا الآن.. لم يكن تفجيرًا عاديًا هذه المرة.. لقد تخطى كل الحدود.. لقد فجر "بابلو إسكوبار" قبل دقائق وزارة العدل الكولومبية كلها.. والتي يُطلق عليها قصر العدالة Palace Of Justice.. فجرها بكل القضاة الذين كانوا بداخلها.

قال الرئيس "ريجان" بغل واضح:

لست أفهم كيف يفعل هذا بنا رجل واحد.. مخابراتنا وقواتنا الخاصة ومحققينا وأجهزتنا ورجال العصابات والقتلة المحترفين من جميع أنحاء العالم..

كلهم يبحثون عنه منذ سنة.. وما زال قادرًا على التفجير هنا وهناك.. وهذه المرة جرؤ على..

قاطعته "سونيا" بصوت بارد:

لأنكم حمقى.

نظر لها الجميع بدهشة وقال "ريجان":

ماذا تقولين؟ ماذا تقصـ...

قاطعته مرة أخرى:

مع احترامي لكل قواتكم ومخابراتكم.. لكنكم جميعًا أغبياء.. لا يفل الحديد إلا الحديد.. تاجر المخدرات لا يصل إليه إلا تاجر مخدرات مثله.

قال لها "نورث":

هراء.. إن تجار المخدرات أيضًا يبحثون عنه مثلنا منذ سنة كاملة بلا جدوى.

قالت "سونيا" بذلك الصوت ذو البحة المقلقة:

لأنهم لا يكافئونه.. قلت لا يصل إليه إلا من هو مثله.. وليس مثل "بابلو إسكوبار" أحد سواي في هذا العالم.. أنا الوحيدة التي أفهم كيف يعمل وأعرف كيف يهرب منكم جميعًا.. وكيف يذيقكم ما يذيقكم.. ولو كنت مكانه لفعلت مثله وربما أكثر.. لأنكم أغبياء.

قال "بوش" الأب:

إذًا ماذا تنتظرين؟ الحرب دائرة هناك.. يمكننا أن ندعمك بكل ما تطلبين.

ضيقت "سونيا" عينها وقالت:

أنتظر فشلكم.. لا طعم للنجاح في أمر ما إلا بعد أن يفشل به الآخرون.. وبعد فشلكم أعدكم أن تزين رأس "بابلو" هذا طلقة فضية من بندقيتي القناصة.

نظر لها "ريجان" بدهشة حقيقية:

قناصة؟ هل أنت قناصة؟

قالت له "سونيا":

ولم العجب سيدي الرئيس.. ألا تدري أن أعظم من مسك القناصة في العالم النساء؟ نحن أطول بالًا وأكثر تركيزًا وأدق ملاحظة.

قال لها "نورث":

هراء.. أنتن لـ.

قاطعته "سونيا" وهي تشير إلى صورة كبيرة على الجدار لامرأة فاتنة ترتدي زيًا عسكريًا وقالت:

"لودميلا بافيلتشينكو".. روسية.. أذاقت قوات هتلر الويل في الحرب العالمية الثانية.. كانوا يسمونها Lady Death.

ثم أشارت بسرعة لصورة أخرى مقابلة لها وقالت:

"روزا شانينا".. روسية أيضًا.. ابنة تسعة عشر عامًا فقط.. أول امرأة قناصة تمنح وسام المجد.

كان الجميع صامتًا ينظرون إلى "سونيا".. لاحظوا أنها تعلق صور الكثير من الفتيات القناصات هنا وهناك.. هذه المرأة تعشق القناصة حقًا.. قالت "سونيا" بنرجسية:

حان الوقت لأن تروا قناصة محترفة أخرى.. لكن هذه المرة من بوليفيا.. قناصة ستثبت لكم أنكم مهرجون.. قناصة ستصل إلى رأس غريمكم الوسيم هذا في خلال أيام معدودات.

نظرنا إلى التلفزيون.. ما زال يعرض صور "بابلو إسكوبار" في ركن الشاشة ويعرض النيران الرهيبة التي اندلعت في قصر العدالة.. نيران تجمعت حولها الكثير من قوات الإطفاء يحاولون إطفاءها بلا جدوى.

مرة أخرى تموهت الدنيا حول التلفزيون.. ولم نعد نرى تقريبًا سوى الشاشة والنيران التي يصورها ووجه "بابلو" الساخر.. بدأت الأجواء تقترب من النيران أكثر وأكثر.. حتى بدا وكأننا دخلنا إلى وسط النيران.. وعلى الفور تحول المكان غير المكان.. و..

* * *

فجأةً وجدنا أنفسنا تحت السرير وفوقنا مرتبة من مراتب السرير تغطينا وملاءات تخفي وجودنا تمامًا.. بجانبنا كان "بابلو إسكوبار" لكنه هنا صغير لم يكمل الخامسة من عمره بعد وبجانبه أخوه "روبيرتو" الذي يكبره بسنة واحدة وأخته "جلوريا" الصغيرة.. أخرجت رأسي من بين الملاءات لأرى ما الأمر.. كان باب الغرفة يشتعل بنيران رهيبة.. وهناك صرخات رجال كثيرين يحاولون كسره من الخارج.. ويقسمون بكل غالٍ أنهم سيدخلون لقص رؤوسنا.

لقد أخذنا مشهد النيران في التلفزيون إلى مشهد نيران آخر من طفولة "بابلو".. طفولة قضاها في فترة اشتعلت فيها الحرب الأهلية بين الليبراليين والمحافظين في كولومبيا.. كان الحل الوحيد أمامك في تلك الأيام هو أن تغلق عليك باب بيتك ليلًا وتتظاهر أنك ميت.

كانوا يأتون إلى المنازل ويقتلون أهلها ويرمون جثثهم خارجها.. من هم الذين يأتون؟ لن تدري أبدًا.. ما زالت الضربات على الباب أمامنا تتصاعد وتتصاعد.. حتى أصبح صوتها على الباب منذرًا بكسره.. وفجأةً انكسر الباب.. ودخل علينا أكثر من عشرين رجل غاضب..

سمعنا طلقات غزيرة جدًا توقعنا بعدها أن نسمع صوت ارتطامها بأثاث المنزل الخشبي فوقنا.. لكننا سمعنا أصوات تساقط الرجال وصرخاتهم.. كانت الطلقات قادمة من خلفهم.. طلقات الجيش الكولومبي.. في الدقائق التالية كنا جميعًا خارجين من المنزل نمشي في صف من الناجين من المنازل الأخرى يحيط بنا رجال الجيش.

كان "بابلو" الصغير يبدو مندهشًا أكثر منه خائفًا.. كانت هناك جثث مرمية على المزاريب وجثث أخرى معلقة على أعمدة الإنارة.. إن عصابات "الكوزميروس" قد شبّت النار في معظم الجثث.. وبقت رائحة اللحم المحترق تزكم أنوفنا.

بين كل هؤلاء الناجين كان هناك رجل بدا شكله عجيبًا نوعًا ما.. كان يرتدي معطفًا أسود طويلًا وطاقية سوداء ولا يبدو جزعًا بل يبدو نظيفًا لامعًا.. كان يمشي بتؤدة إلى جوار "بابلو" وأخيه.. أليس هذا هو الرجل الذي دخلنا له في التلفزيون ذات مرة وكانت الأجواء بالأبيض والأسود؟ نعم إنه هو.

كان الظلام شديدًا ونحن نمشي.. لا يضيء طريقنا سوى نيران المنازل المحترقة خلفنا.. نيران تراقص مزيدًا من النيران.. مرة أخرى تموهت الأجواء كلها حتى لم نعد نرى سوى ذلك الرجل ذي الطاقية وحده دون غيره.. ومرة أخرى أخذنا هذا العالم إلى عالم آخر يخص هذا الرجل.. عالم كل شيء فيه أبيض وأسود.

* * *

ذلك الرجل ذو الطاقية يتجرع الـVin Mariani بنشوة لا مثيل لها.. ليس هناك أحلى من شراب يجمع الخمر والكوكايين.. نحن في الـ1860.. دخل الرجل إحدى الصيدليات.. دخلنا وراءه.. اشترى الرجل شيئين من هنا.. وها هو يخرج من الصيدلية ويفتح الشيء الأول في عجالة.. إنه علبة صغيرة فيها بودرة.. اسم شركة

الأدوية المصنعة يبدو مألوفًا لنا.. Park Davis.. الرجل يفتح علبة البودرة الصغيرة.. ثم يضعها على أنفه ويستنشقها استنشاقًا.. إنها كوكايين.. في تلك الأيام كان الكوكايين يباع في الصيدليات لأي أحد.. بل إن إعلان الشركة عنه وقتها كان بليغًا جدًا.. كانوا يقولون "إنه سيجعل الجبان شجاعًا وسيجعل الصامت بليغًا وسيجعل المتألم لا يتألم".

أخذ الرجل العلبة الثانية التي اشتراها.. كانت علبة شراب سعال.. الشركة تبدو مألوفة أيضًا.. شركة Bayer الألمانية.. والدواء اسمه "هيروين".. اتسعت عيوننا.. هيروين؟ الرجل يفتح علبة الشراب ويشرب الزجاجة كاملة.. ومثل هذا كان يفعله سكان أوروبا كلهم.. حتى النساء والأطفال.. الكوكايين والهيروين كانا شيئين رائعين يحبهما الناس.. وكانا ينتهيان من السوق فور نزولهما بأيام.. هذا الرجل ذو الطاقية يرينا أشياء عجيبة حقًا.

ظللنا نمشي وراءه.. الصورة تموهت من حوله ثم زال تموهها لنجد أنفسنا قد سافرنا من أوروبا إلى أمريكا.. تحديدًا إلى ولاية أتلانتا.. وهناك إعلان على الجدار.. الـFrench Wine Cocal.. نوع جديد من الخمر في أمريكا.. كان هناك صيدلي في أتلانتا اسمه الدكتور "بيمبرتون".. رأى الأعاجيب التي يفعلها خمر الـVin Mariani في أوروبا فأحب أن يصنع المستحضر الخاص به في أمريكا والذي يعتمد على نفس الفكرة.. الكوكايين مع الخمر.. في كل زجاجة خمر من خمره كان يضع ما يعادل خطًا من الكوكايين.. وحين أقول "خطًا" فأنا أعني ذلك الخط الذي يصنعه المدمنون بالأمواس هذه الأيام حين يجعلون البودرة على هيئة خطوط يستنشقونها واحدًا وراء الآخر. كان مكتوبًا في الإعلان عنه أنه المشروب الذي سيجلب لك اللذة والبهجة والذكاء.. وحقًا كان مشروبه يفعل هذا.. المشروب السحري الذي غش تركيبته من الـVin Mariani كان يباع بشكل كبير جدًا في أتلانتا فقط ولم يخرج خارجها لأن الرجل لم يكن قد أنشأ له شركة كبيرة بعد.

وبغض النظر عن "بيمبرتون" وتركيبته في أتلانتا فإن الكوكايين نفسه كان قد انتشر في أمريكا كلها وعشقته أمريكا جدًا.. نرى ذلك الرجل ذا الطاقية الآن يدخل إلى أحد الهايبر ماركتس الشهيرة.. Sears & Roebuck.. ووقف في الداخل أمام إعلان لفت أنظارنا حقًا.. حقيبة بلاستيكية صغيرة يعلنون عنها بقولهم "هدية الضيافة للأصدقاء" A Welcome Present for Friends at the Front.. كانت حقيبة فيها كوكايين وهيروين ومحاقن وإبر.. هكذا كانت تباع بكل فخر.. لو

أردت أن تقضي مع أصدقائك ليلة جميلة مليئة بالنشوة.. فهذه الحقيبة هي ما ستحتاجه.. هذا الرجل اشترى تلك الحقيبة وخرج من الهايبر ماركت وفتحها في الشارع وبدأ يستخدم ما فيها بحماس.

وفجأةً وبدافع من بعض الحركات الإصلاحية نزل قرار في أتلانتا بتحريم الخمر في هذه الولاية تمامًا.. كان هذا في ثمانينات القرن التاسع عشر.. الـ١٨٨٠ كما نقولها بالأرقام.. فاضطر الدكتور "بيمبرتون" إلى إجراء تعديل في تركيبته الخمرية السحرية.. فأزال الخمر تمامًا من التركيبة ووضع بدلًا منه ماءً محلى بالسكر.. فأصبح ماء مسكر وكوكايين.. وغير اسم المنتج ووضع له اسمًا جديدًا.. كوكا كولا... وفجأةً تحولت الزجاجة التي في يد الرجل ذي الطاقية إلى زجاجة كوكا كولا.. نظر إليها باستغراب ثم شرب منها.. كان منتشيًا.. وهذا طبيعي.. فكوكاكولا تلك الأيام كان فيها خط من الكوكايين في كل زجاجة.

تلونت الدنيا تدريجيًا وعدنا فجأةً إلى حيثما كنا قبل أن نأتي إلى هنا.. أين كنا؟ كنا عند "بابلو" الصغير وهو يمشي مع الناجين ووراءهم منازلهم المحترقة.. وقبل حتى أن نلتقط أنفاسنا.. وفور أن نظرنا إلى تلك النيران.. تموهت الدنيا حولها وأصبح كل ما نراه هو نار مشتعلة.. نار أخذتنا إلى نار أخرى.. في مكان آخر.

■ ■ ■

هذا العالم تنقلاته سريعة جدًا ألا ترى هذا.. كنا نقف أمام مقلب قمامة يحترق.. كان يحترق ويحرق معه جميع المنازل التي تحيط به.. كانت منازل لفقراء معدمين.. كانوا يستفيدون من هذه القمامة ببيع الأشياء التي فيها.. كانوا يعيشون على خير القمامة.. والآن هي تحترق أمام أعينهم.. وصوت احتراق قلوبهم يغلب على صوت النيران في الأجواء.. كان العديد منهم يبكون حسرة على منازلهم.. وعلى قمامتهم.

كان هناك عدة مسؤولين يقفون وسط الأهالي بينما يطفئ رجال المطافئ النيران.. المسؤولون يثرثرون ويعدون الفقراء كالعادة.. الفقراء يستمعون لهم في إحباط.. ووسط كل هذا توقفت سيارة سوداء فاخرة جدًا ونزل منها الرجل.. "بابلو إسكوبار".. كان هذا قبل الحرب التي أعلنتها أمريكا على تجار المخدرات.. ترك الفقراء كل المسؤولين الذين كانوا يحدثونهم وتجمعوا كلهم حول "بابلو".. كان هذا شيئًا عجيبًا.. أليس من المفترض أنه مجرم؟

على الفور تعاقد "بابلو" مع شركة عقارية كبيرة وبنى لهؤلاء الفقراء البسطاء

أربعمائة بيت صغير جميل سلمهم إياهم واحدًا واحدًا.. وها نحن نرى هذه البيوت الآن مبنية بدلًا من مقلب القمامة.. ثم رأينا نفس الناس متجمعين حول "بابلو" في امتنان حقيقي.. الناس هنا تعشق "بابلو إسكوبار" لو لم تكن تعلم.. هذا الرجل ينفق من ثروته الكثير جدًا لمساعدة فقراء بلدته.. معظم البيوت في دولة كولومبيا بكافة أرجائها لو دخلتها ستجد فيها صورة "بابلو" معلقة.. سيقولون لك أنه الرجل الذي أكرمهم.

لقد خدم الكثير جدًا من الناس خدمات جليلة.. الناس الذين لا وظيفة لهم كانوا يذهبون لبابلو.. فيعطيهم راتبًا شهريًا ويكلف رجاله أن يبحثوا لهم عن عمل.. الشباب الذين لا يستطيعون دفع مصاريفهم التعليمية... يدفعها لهم "بابلو" كاملة.. مرضى السرطان والإيدز أو أي مرض آخر.. يدفع لهم مصاريف علاجهم.. ويعين موظفين مخصوصين حتى يتأكد من أن جميع من يأتيه طلبًا للنقود هو فعلًا يحتاجها.. في الأعياد مثل الكريسماس كان يعين موظفات مخصوصات يذهبن لشراء الكثير جدًا من ألعاب الأطفال والحلوى ويوزعنها على الأطفال.. خمسة آلاف لعبة توزع في كل عيد.. كان فلاحو كولومبيا يسمونه "روبن هود" بسبب كل تلك الهدايا التي يغرقهم بها طيلة الوقت.

كان "بابلو" رجلًا طيب القلب حنونًا وقاسيًا وعنيفًا جدًا.. لا تدري كيف جمع هذا بشري واحد.. البعض كان يعتبره قديسًا.. والبعض كان يعتبره وحشًا رهيبًا دمويًا.. تتذكر كل الأشياء الرائعة التي فعلها بأمواله.. ثم تتذكر كل الأشياء الشنيعة والقتل والتفجير الذي فعله.. تقول عنه منظمة فوربس أنه سابع أغنى رجل في العالم.. لكنهم لم يستطيعوا تقدير ثروته الحقيقية أبدًا.. لأن الكثير جدًا منها كان مُخبأً في جدران كثير من البيوت التي يملكها.

كان "بابلو" واقفًا والفقراء حوله فرحون لا يعرفون كيف يعبرون له عن سعادتهم.. وكان هناك أطفال يلعبون بالكرة في ملعب صغير بناه لهم بابلو وسط البيوت الصغيرة.. كان "بابلو" شاردًا ينظر إلى الكرة.. وعلى الفور تموهت الموجودات كلها وبقت الكرة وحدها واضحة.. ثم زال التموه من حول الكرة لنجد أنفسنا في مكان آخر.. وعند كرة أخرى.. وأطفال يلعبون بها في شارع آخر.. نرى بينهم "بابلو" وهو ابن عشر سنين.. ونرى أخاه "روبيرتو" بجانبه.. كان معهم ستة أطفال آخرون.. دعني أعرفك.. هؤلاء الثلاثة النظيفون نوعًا ما مقارنة بالباقين هم الإخوة "أوشوا" Ochoa Brothers.. هؤلاء لما كبروا صاروا أكبر عصابة مخدرات في أمريكا.. ألا تذكرهم من حديث نيكسون وسونيا؟

أما ذلك الفتى هناك والذي تبدو على وجهه صبغة الإجرام هو "جاتشا" Jose Rodriguez Gacha.. لقد تحول "جاتشا" إلى مجرم عديم الرحمة لما كبر.. كان ساديًا.. ترأس واحدة من أكبر منظمات المخدرات في أمريكا اللاتينية.

وانظر هناك إلى ذلك الفتى ذي الشعر الطويل الذي يجري بالكرة.. اسمه "لهدار" Carlos Lehdar.. وهو من أعز أصدقاء "بابلو" ومن أكبر زعماء المخدرات في كولومبيا.

وأخيرًا ذلك النحيل هناك هو El Mugro أي "القذارة".. ولا أدري لماذا اختاروا له هذا الاسم.. لم يصبح "القذارة" زعيم مخدرات هو الآخر.. لكنه أصبح الحارس الشخصي لـ"بابلو" فيما بعد.

باختصار.. كنا نشاهد مباراة كرة قدم بين أكبر زعماء تجارة المخدرات في العالم.. إن أشكالهم لا يبدو عليها ذلك أبدًا.. مثلهم مثل أي أطفال يتصايحون ويلعبون ويتدافعون.

فجأةً جاءت سيارة شرطة وتوقفت بجانب الصغار ونزل منها شرطي ممتلئ الجسم.. أخذ منهم الكرة وعاتبهم بعنف.. لم يفعل تجار المخدرات الأطفال شيئًا.. لكن "بابلو" الصغير جمعهم إليه ثم اتفق معهم أنهم سيرمون حصى على سيارة الشرطة لو أتت مرة أخرى وأوقفت مباراتهم.. كان لدى "بابلو" حس قيادي منذ صغره.. وبالفعل أتت سيارة الشرطة مرة أخرى.. واستقبلها الأطفال بالحصى حتى كسروا زجاجها.. وعلى الفور جرى الأطفال وجرت الشرطة وراءهم حتى أمسكت بهم وساقتهم إلى القسم.. قال لهم الضابط الكبير مدير القسم:

هل تعرفون ماذا سأفعل بكم؟ ستذهبون إلى السجن.. أتدرون ما هو السجن؟ إنه المكان الذي سيعلمكم الأدب الذي لم يعلمه لكم أهلكم.

هنا رد عليه "بابلو" وقد كان أصغر الأطفال الموجودين سنًا:

نحن لم نفعل شيئًا خاطئًا.. لقد تعبنا من هؤلاء الرجال الذين يأتون كل حين ويأخذون كرتنا.. ما مشكلتهم بالضبط.. الزجاج؟ يمكننا أن ندفع لهم ثمن الزجاج.

كان صغيرًا لكنه لم يجد في نفسه أي خوف للتحدث إلى مدير القسم بهذا الصوت القوي.. لم يكن أحد يدري بأن "بابلو" سيحكم هذه المدينة يومًا ما.. وسيشتري كل مدراء الشرطة هؤلاء.. وأنه سينشئ منظمة كبيرة تضم منظمات كل رفاقه هؤلاء.. منظمة تدعى "ميديلين" Medelin.. منظمة تضم منظمة "بابلو" ومنظمة "جاتشا" ومنظمة "لهدار" وتشارك في بعض الأعمال مع منظمة الإخوة

"أوشوا".. كانت منظمة "ميديلين" هي أكبر منظمة مخدرات في العالم.. حتى أتى ذلك القرار الأمريكي.. فاختفى كل رؤوسها الستة وأصبح الجميع يبحثون عنهم بحثًا محمومًا بلا جدوى.. مخابرات وقوات وعصابات.. ثم أتت لحظة انقلبت الموازين كلها رأسًا على عقب... لحظة انضمت فيها "سونيا أتالا" إلى قافلة البحث.

■ ■ ■

اقتربت الصورة من ذلك النحيل الذي يدعى "القذارة".. وجدنا وجهه النحيل قد انقلب فجأةً وتبدلت بنا الأجواء كلها لنجد "القذارة" مقلوبًا مربوطة إحدى قدميه بهليكوبتر يتدلى منها وهي تطير عاليًا بعصبية وتطلق النار علينا.. نحن الذين وجدنا أنفسنا فجأةً مختبئين مع "بابلو" وأخيه وراء أحد الجدران.. كنا نرى الهليكوبتر ولا ترانا.. كانوا يعلقون "القذراة" بهذا الشكل وهناك من يهدده بأنه إن لم يخبر عن مكاننا سيقطعون عنه الحبل.

كان الحبل طويلًا متدليًا من الهليكوبتر التي تطير على مستوى مرتفع جدًا.. والنحيل "القذارة" معلق فيه ويساق يمينًا وشمالًا.. رأينا امرأة برزت من الهليكوتر.. امرأة ترتدي زيًا أنيقًا أبيض اللون جلديًا.. كان "القذارة" ينظر لها ويصرخ ويبلغها بمكاننا.. مثله مثل القذارة حقًا.. كانت هذه هي "سونيا أتالا".. التي أمسكت قناصتها بسرعة وأطلقتها بدون انتظار ثانية واحدة.. أصابت طلقتها الحبل الذي كان يمسك بالقذارة فسقط.. وربما يكون قد مات لا ندري.. لكن أمطارًا من الرصاصات نزلت على المكان الذي كنا نختبئ فيه.. لكننا نجحنا في الهرب.

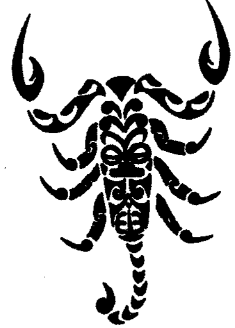
بدت "سونيا" عصبية جدًا واقتربت الأجواء من عينها الرماديتين الجميلتين.. التي ضيقتهما وأغلقت إحداهما.. تموهت الدنيا ودخلنا إلى عينها وخرجنا لنرى ما تراه.. انتقلنا بضعة أيام إلى الأمام.. كانت "سونيا" تنظر من منظار بندقيتها هذه المرة إلى "جاتشا".. كان يتحدث مع ابنه المراهق "فريدي" في إحدى المزارع.. ونيرانٌ حولهما في كل مكان.. وهناك قوة قوامها حوالي ألف رجل ما بين جيش وشرطة كلها تمشط المزرعة بحثًا عن "جاتشا".. نجحت "سونيا" في التوصل لمكان "جاتشا" بخطة بسيطة.. أن تقبض الحكومة على ابنه المراهق "فريدي" بأي تهمة غبية لا صحة لها.. وتبقيه في السجن فترة طويلة يلقى فيها أسوأ أنواع المعاملة.. ثم تخرجه فجأةً.. وبعد أن تخرجه كانت تعلم أنه سيذهب لمقابلة أبيه بطريقة ما.. فهي تعرف هؤلاء الكولومبيين جيدًا.. هم يقدسون العائلة جدًا ولو كانوا أعتى مجرمين.

وبالفعل توجه "فريدي" لمقابلة أبيه في إحدى المزارع.. ليجدوا السماء قد أسقطت عليهم جنودًا.. "سونيا" كانت تحتفظ لنفسها بمكان الضحيتين.. وكانت تنظر لهما مليًا من قناصتها.. ثم حسمت قرارها لمَّا رأت "جاتشا" يعاتب ولده ويحتضنه في مشهد أبوي.. وهنا انطلقت من قناصة "سونيا" طلقة فضية أصابت رأس "فريدي" الصغير.. ورأت في منظار قناصتها كيف جن جنون "جاتشا".. كان ينظر هنا وهناك محاولًا تحديد مكانها.. ثم إنه فعل شيئًا عجيبًا جدًا.. أخرج فجأةً قنبلة يدوية عادية.. ولوح بها وهو يتحدث بحديث لا تسمعه من هذا البعد طبعًا.. لكن واضح أنه سباب.. ثم نزع "جاتشا" فتيل القنبلة.. ووضعها في فمه.. فانفجرت في وجهه وقتلته على الفور.. وهنا أرخت "سونيا" زمام قناصتها وأظهرت عيناها الجميلتان تعبيرًا يقول أنها كانت تقصد ما حدث كما حدث.. وأنها سعيدة جدًا لهذا.

إن دخول "سونيا" إلى الساحة كان مميتًا بالنسبة لعصابة "ميديلين".. وما هي إلا أيام وسلم الإخوة "أوشوا" أنفسهم للشرطة.. ولأن "أوشوا" وإخوته متعاملين مع الحكومة الأمريكية منذ البداية فقد تم الاحتيال على القانون عن طريق محامين كبار وثغرات هنا وهناك.. وخرج "أوشوا" وإخوته بكفالة ضخمة دفعوها بكل بساطة.. ولم يبق إلا "بابلو" وأخوه وصديقه "لهدار" ذو الشعر الطويل.

■ ■ ■

كانت النيران في كل مكان حولنا في مزرعة "جاتشا".. كنا نريد الخروج منها إلى مشهد آخر.. رأينا ظلًا يقترب منا.. لم نتبينه جيدًا وسط الدخان.. كنت أسعل سعالًا شديدًا.. اقترب الظل أكثر حتى عرفناه.. إنه سكوربيون.. رائع.. لقد أصابني هذا العالم بالدوار.. أشار لنا سكوربيون لنتبعه.. مشينا وسط أحراش ونيران وأدخنة وجثث.. وأدخلنا سكوربيون إلى أحد المباني وأغلق الباب الفولاذي خلفه.. ثم ابتسم لنا بهدوء.. كانت قاعة صغيرة مكيفة مليئة بأجهزة الكمبيوتر.. ما الذي كان يفعله "جاتشا" بقاعة كهذه؟ من الصعب أن تعرف الآن.



عدنا من الاستراحة.. فتحت أحدث جهاز كمبيوتر وجدته أمامي في تلك القاعة.. لا بد أن نتابع ماذا فعلت سونيا.. هذه الشيطانة.. يا إلهي إن هذه الفتاة لا تضيع وقتًا!

بناءً على تعليمات "سونيا" تم تجميد كل حسابات "لهدار" في البنوك وتم تدمير جزيرته الخاصة التي كانت تدعى Norman Cay.. وتلك كانت الجزيرة التي يمر عليها كل الكوكايين الداخل أو الخارج من كولومبيا.. كانت منتجعًا كبيرًا يعيش ويعربد فيه كما يحلو له.. المئات من الحفلات والمئات من الفتيات اللاتينيات.. والآن احترق كل هذا وامتلأت الجزيرة برجال يرتدون ملابس عسكرية ويدمرون كل شيء.. ووسطهم فتاة واحدة ترتدي زيًا عسكريًا ذا لون أبيض.. "سونيا أتالا".. فتاة ظلت في الجزيرة ثلاثة أيام تحاول أن تجمع الأدلة من هنا وهناك حتى عرفت المكان الذي يختبئ فيه "لهدار".. وانطلقت بقوة من الرجال إلى مكانه بسرعة.. ولكن قبل أن تصل إليه كان قد سلم نفسه للشرطة.. شعرت غريزة القناصة التي بداخلها بالغيظ والغضب.. تم شحن "لهدار" إلى أمريكا وما زال حتى يومنا هذا يقضي فترة سجنه الأبدية هناك.

وفجأةً وبدون سابق إنذار حدث شيء ما أشعل النيران أكثر في قلب "سونيا".. سلم "بابلو إسكوبار" نفسه للحكومة.. كان خبرًا صادمًا جدًا.. لكن ليس الأمر بالبساطة التي يبدو بها.. الحقيقة هي أن "بابلو" عقد صفقة مع رئيس كولومبيا "جافاريا".. صفقة تقول أنه مستعد أن يوقف الحرب والتفجيرات المجنونة التي يقوم بها يوميًا في كل مكان في البلد بشرط أن يُلغى تمامًا القانون الأمريكي الخاص بتسليم تجار المخدرات إلى أمريكا.. يُلغى رسميًا في نص قانوني واضح.. وبشرط أن يدخل "بابلو" السجن لمدة ٣٠ سنة يتم تخفيفها إلى ٧ سنوات فقط.. وبشرط ألا يدخل "بابلو" السجن الحكومي العادي بل يبني لنفسه سجنًا خاصًا به.. هو الذي يبنيه ويؤمنه تأمينًا كاملًا.. وأن يكون سجنًا على طراز منتجعات الخمس نجوم.. كانت الشروط جنونية ولكن كولومبيا كانت قد تحولت لجحيم حقيقي.

اتصل الرئيس "جافاريا" بنائب الرئيس "بوش" الأب للتفاهم معه.. "بوش" طبعًا لم يوافق على كل هذه الشروط.. لكن "جافاريا" عرف كيف يجعله يوافق.. أمسكه من اليد التي تؤلمه.. فالحقيقة أن الرئيس الأمريكي أيامها كان يجمع تصويتات الأمم المتحدة لعمل حرب على "صدام" ليخرجه من الكويت.. وكان الرئيس "جافاريا" مصوتًا ضد القرار.. فوافق "جافاريا" على تغيير صوته ليوافق

على حرب الخليج.. بشرط أن يوافق "بوش" على شروط "بابلو" ويلغي قانون التسليم هذا تمامًا.. وبالفعل وافق "بوش" على إلغاء القانون.. ولهذا كانت هناك كلمة تقال في كولومبيا: إن حرب الخليج قد أتت بالسلام إلى كولومبيا.

وها هو "بابلو إسكوبار" يخرج أخيرًا من مكمنه في جمع كبير من رجال يحرسونه.. كان يرتدي البلو جينز كعادته وتي شيرت أبيض عاديًا جدًا ونظارات شمسية.. ويمسك بالراديو الموتورولا الخاص به.. كان الوضع خطرًا جدًا لأن الكثيرين لم تكن مصلحتهم في أن يتفق "بابلو" مع الحكومة.. دخل "بابلو" إلى هليكوبتر خاصة بالرئاسة.. طارت به على الفور تجاه سجنه الذي بناه خصيصًا من أجل نفسه.. سجنه الذي كان يطلق عليه اسم "الكاتدرائية" La Cathedral.. سجن ليس فيه من كلمة السجن أي حرف أو صفة.. كان أشبه بفندق.. وها هو "بابلو إسكوبار" ينزل من الهليكوبتر ويتجه في صف من الحراس إلى منتجعه وبجانبه أخوه "روبيرتو".. ووسط كل هذا لمحت ذلك الرجل ذا الطاقية والمعطف الأسود.. لا أدري ما دخله بكل هذا لكنه كان واقفًا على المبنى المقابل وعباءته تتطاير مع الهواء.. وكالعادة حين نراه تموهت الأجواء لتأخذنا بعيدًا عن هنا إلى عالم من الأبيض والأسود.

■ ■ ■

عدنا بالزمن إلى الوراء.. أمريكا.. السنوات الأولى من القرن العشرين أو الـ١٩٠٠كما تقال بالأرقام.. الكل كان منتشيًا.. أدمغة الكل كانت تسبح في مستويات عالية دائمًا.. لأن الكوكايين إلى جانب أنه يزيد من ثقتك بنفسك وقوتك فهو يجعل دماغك تسبح في بحر من الدوبامين.. والدوبامين هو هرمون السعادة.. فتصبح منتشيًا دائمًا.. كان أصحاب الأعمال يُجبرون العمال على تناول الكوكايين لأنه يزيد من قدرتهم على العمل بشكل كبير.. لكن هذا خلق مشكلة بسيطة.. إنه يزيد من شجاعة الطبقة الكادحة.

حين تتناول الكوكايين فأنت تشعر أنك لا تقهر ولا يخيفك شيء.. هذا يجعلك أكثر خطرًا على النظام من الشخص العادي.. وكذلك الحشيش لم يكن ممنوعًا.. لكن الحشيش كان يصنع مشكلة من نوع آخر.. فأنت حين تتناوله ورغم أنه يجعلك أبله فإنه يجعلك تفكر بشكل أوضح.. والنظام لا يريد منك أن تفكر بشكل أوضح.. ولذلك اتخذت الحكومة الأمريكية قرارها بعد تفكير.. لا بد لهذه الأشياء كلها أن تحرم.. كان هذا أكثر أمنًا.. لكن كان يجب أن يجدوا ذريعة تبرر هذا التحريم المفاجئ.. وقد وجدوا هذه الذريعة ببساطة.

أخرج الرجل ذو الطاقية من معطفه الأسود الطويل جريدة محلية شهيرة وبدأ يقرأ فيها.. كان العنوان غريبًا: "شياطين الكوكايين السود".. يقول المقال أن هناك علاقة بين زيادة نسبة العنف في الشوارع وبين الكوكايين.. يقول كاتب المقال أن من يتناول الكوكايين غالبًا هم السود المجرمون بالفطرة.. وعندما يأخذونه يتحولون إلى وحوش كاسرة لا يمكن إيقافها.. يتحولون إلى شياطين.. شياطين تغتصب النساء البيض في الشوارع طيلة الوقت.. يقول المقال بالنص: "أن تعطي الكوكايين للنيجرو هو أسوأ من أن تحقن كلبًا بالسعار".

أثار هذا المقال ومقالات شبيهة غضبًا جماهيريًا كبيرًا.. غضبًا جماهيريًا ضد السود.. لأن الشعب لم يكن قد تعافى بعد من العنصرية ضدهم.. فقرار تحريرهم من العبودية لم يكن قد مضى عليه أربعون عامًا.. وفجأةً بدأنا نرى رجال الشرطة في الشارع بجوار ذلك الرجل ذي الطاقية يجرون وراء السود ويضربونهم بالنار ويعتقلونهم ويضربونهم ضرب الكلاب.

وفجأةً بعد هذه الأحداث أصدرت الحكومة الأمريكية قرارها.. تم تحريم الكوكايين.. والحشيش.. وكافة المواد التي تجعلك سعيدًا.. وشجاعًا.. كان قرارًا شهيرًا جدًا اسمه Harrison Narcotics.

بعد هذا القرار اضطر الدكتور "بامبيرتون" صاحب الكوكا كولا إلى إزالة الكوكايين من تركيبته.. فلم يعد في تركيبته خمر ولا كوكايين.. فكر في تغيير اسم المنتج مرة أخرى من كوكاكولا إلى اسم آخر..فكر في إزالة كلمة كوكا التي ترمز للكوكايين لكنه عدل عن رأيه وفكر في أمر آخر.. سيبقي الكوكايين كما هو في التركيبة لكنه سيزيل منه الألكالويد المسبب للنشوة والذي يدعى "الإيكوجينين".. وهكذا فعل.. وأصبح الكوكايين الموجود في الكوكاكولا حتى يومنا هذا هو كوكايين معالج.. وأصبحت هناك شركة متخصصة في إزالة الألكالويد من الكوكايين لأجل شركة كوكا كولا.. تدعى شركة Stepan.. وهي الشركة الوحيدة حتى يومنا هذ المصرح لها بشراء الكوكايين لمعالجته.. هذه الشركة تستورد سنويًا أكثر من ١٥٠ طن من الكوكايين لأجل الكوكا كولا.. تحولت الزجاجة في يد الرجل ذي الطاقية مرة أخرى.. هذه المرة أصبحت كوكاكولا بالكوكايين المعالج.. ظل يشرب منها ويشرب ثم أبدى تعبيرًا ممتعضًا ورماها بعيدًا.. فلم تعد تسبب أي نشوة.

تابعنا الزجاجة بأبصارنا وهي تطير في الهواء.. وفجأةً تموهت الأجواء وانتقلنا إلى زجاجة أخرى.. في مكان آخر.. انتقلنا إلى المنتجع الذي بناه "بابلو إسكوبار" لنفسه وسماه سجنًا.. ولقد رأينا هناك عجبًا.

■ ■ ■

ها نحن أولاء في هذا العالم أنا وأنت كما وجدنا أنفسنا نقضي اليوم مع "بابلو إسكوبار" وأخيه في هذا المنتجع.. كان هذا الرجل عجيبًا جدًا.. لن تتخيل ما رأيناه.. كان هناك طابور من الزوار يأتونه كل يوم في هذا المنتجع ومئات من الرسائل ترد عليه يوميًا.. الزوار يأتونه طلبًا للمعونة المالية أو الاستشارات.. نعم فبالنسبة لهم كان "بابلو" بطلًا لا يحدث في التاريخ سوى مرات نادرة.. بطل أتى من بيئة الشارع مثلهم ووصل إلى أعلى قمة يمكن أن يصل إليها أي أحد.. كان وقته مشغولًا طوال اليوم بمقابلة الزائرين وتعيين موظفين خاصين للتأكد من حاجتهم للمال فعلًا.. وكان يعقد الكثير من الحفلات وتأتيه الكثير من الفتيات يبتن عنده أيامًا.. وكان يزوره نجوم المجتمع من الممثلين والرياضيين والسياسيين.. ذات مرة عقد احتفالًا لملكات جمال كولومبيا وقضين عنده أيامًا.. كان الأمر جنونيًا لدرجة أنه كان يتصفح المجلات وينتقي منها فتيات موديلز يعجبنه.. فيأتون بهن إليه من أي مكان في العالم.

كان يمارس تجارته كما كان بل وبكفاءة أكبر.. الفرق أنه الآن أصبح مؤمَّنا أكثر.. تحت حراسة الحكومة.. حقًا كان "بابلو" ذكيًا جدًا.. ووسط ذلك الطابور اليومي من الزوار.. رأينا أنا وأنت زائرة جميلة جدًا.. فاتنة.. ترتدي ثوب سهرة أبيض شديد الأناقة.. أنا وأنت كنا نعرفها جيدًا.. "سونيا".. والتي يبدو أنها قررت أن تأتي بنفسها إلى هنا.. كانت واقفة في الطابور وسط الفقراء.. كان مظهرها عجيبًا وهي واقفة وبجانبها امرأة فقيرة مكافحة أكل عليها الزمن وشرب تحمل طفلها العاري وتنظر لسونيا بنظرات لايمكن التعبير عنها بالكلمات.. وكان وراءهما رجل نظيف يرتدي عباءة سوداء وطاقية سوداء.. هذا الرجل بدأ يستفزني.. يبدو لي أنه لا يظهر إلا في المصائب.. ويبدو لي أنه لا أحد يراه سوانا.. دخلَتْ "سونيا أتالا" إلى سجن الكاتدرائية الشهير وتوجهت إلى الغرفة التي يجلس فيها "بابلو".. لم يكن "بابلو" يعرفها شكلًا.. وكان هذا المشهد..

بدأ المشهد بعدة فتيات جميلات يمازحهن "بابلو" بالداخل.. ثم دخلت "سونيا".. حقًا إنها فاتنة هذه الأفعى.. ولو أنني مخرج سينمائي لتفننت في إظهار لقطة دخولها هذه ولأخذنَّ عليها جوائز سينمائية عديدة.. كانت بهية لدرجة أن "بابلو" سكت غير قادر حتى عن سؤالها من هي.. فقط سكت "بابلو" وانتظرها حتى تتحدث.. دخل في تلك اللحظة الرجل ذو المعطف الأسود لكن أحدًا لم يهتم ولم يلاحظ وجوده.. قالت "سونيا" كلمة واحدة بدت كافية جدًا للتعارف:

"سونيا أتالا".

توتر "بابلو" توترًا حقيقيًا سببته المفاجأة.. وسببه أنه لم يتوقع أن تكون منافسته ملكة الكوكايين بهذا البهاء والجمال.. وتعجب أن الظروف لم تجمعهما في أي مرة من قبل.. وتعجب أكثر من أنها جاءت إلى هنا بنفسها.. لم يكن يعلم عن علاقتها بالحكومة الأمريكية.. ولم يكن يعلم أنها تريد رأسه.. لم يكن يعلم أنه منذ دخولها إلى الساحة بدأت الحرائق والخسائر وبدأ شركاؤه يتساقطون.. ولم يبق إلا هو جالسًا في سجنه المؤمن فرحًا مطمئنًا.. لم يفهم الجميع سبب هذا الوجوم الذي ظهر على "بابلو" وتلك الداخلة لم تقل سوى كلمة واحدة فقط.

توتر حرس السجن وتأهبوا لاتخاذ حركة ما.. لكن "بابلو" لاحظ الحركة ورفع يده بحزم.. ثم إنه في اللحظة التالية طرد كل الموجودين بما فهم أخيه.. فقط بقي وحده معها.. وكنا أنا وأنت أيضًا هناك.. نحن لا يرانا أحد في هذا العالم كما تعرف.. أيضًا كان هناك ذلك الرجل الغير مفهوم ذو الطاقية السوداء والعباءة.. بدا واضحًا الآن أنه غير مرئي هو الآخر.. أتراه زائرًا إلى هذا العالم مثلنا؟ لا يبدو لي كذلك.. في تلك اللحظات اقتربت "سونيا" من "بابلو" بخطوات بطيئة وهي تقول:

اليوم سيكون هو آخر يوم لك.

تحفزت يد "بابلو" على شيء ما في جيبه فنظرت إلى يده وأكملت:

في هذا المكان.

تعجب قليلًا من قولها فقالت:

يجب أن ترحل من هنا يا "بابلو".. إنهم آتون لقص رأسك.. الرئيس "جافاريا" الذي عقدت معه المعاهدة سيخرقها وسيرسل إليك قوة لن تدري عن مداها إلا لو رأيتها.. سيقتلونك وسيجعلون منك أكبر كبش فداء في هذه اللعبة.

قال لها بغضب:

ولكن هذا ليس من مصلحتهم.. ثم ما مصلحتك أنت بالذات ولماذا أتيت إلى هنا؟

قالت له بهدوء:

أنت أحمق يا "بابلو".. كان من المفروض أن تتعاون مع الحكومة مثل أصدقائك الإخوة "أوشوا".. أو مثلي أنا.. فالمصالح مشتركة.. ولكنك تحب العمل وحدك كالأحمق.

قال لها بدهشة:

أنت تعملين معهم؟ ولماذا أنت هنا لتحذيري إذًا؟

قالت له بهدوء أفعى:

حتى أقتلك.

لم يفهم "بابلو" شيئًا.. لو كانت تريد قتله لماذا تحذره.. ولو كانت تريد قتله كيف تأتي وتتحداه هكذا في مقره.. قالت له "سونيا":

لا تفكر كثيرًا يا "بابلو".. أنا القناصة التي ربما سمعت أنها تسعى وراءك والتي أذاقت منظمتك الويل.. وأسقطت أصدقاءك واحدًا تلو الآخر.. ولم يتبق لها سوى رأسك الوسيم.. ولقد علمتُ أن الحكومة ستأتي لقتلك غدًا هنا في منتجعك الفاخر.. وأنا لا يعجبني أن يقتلوك قبل أن أقتلك أنا.. ولهذا أتيت لأحذرك لتهرب من هنا.. وأكمل المطاردة التي أفسدتها علي باستسلامك ودخولك لهذا المنتجع.

■ ■ ■

كان "بابلو" ينظر لها في دهشة صامتة.. وحوله تموهت الصورة كلها.. نظرنا إلى "سونيا".. كانت واضحة والصورة متموهة حولها هي أيضًا.. ولما زال التموه أصبحنا في مكان آخر.. أنا وأنت.. و"بابلو" و"سونيا".. وصاحب الطاقية.. المكان هو أحد أحياء المدينة.. كان هناك الكثير من الجنود.. ما يقرب من مائة رجل.. هليكوبترات التعقب تعلو الأجواء وقد نجحت في تحديد موقع "بابلو إسكوبار" بعد أن غافل الجميع وهرب من السجن فجأةً.. شهورًا ظلوا يبحثون عنه حتى نجحوا في تعقب اتصال واحد قام به بغير حذر.. اتصال بابنه "جوان" ليطمئن عليه.. ولقد وصلوا إلى مكانه أخيرًا.. إنه في ذلك المبنى هناك.. الرجل ذو الطاقية يقف على سطح مبنى قريب ينتظر.. "سونيا" اندست في مبنى مواجه وأعدت قناصتها الفضية جيدًا.. القوات تستعد لاقتحام المبنى.. فجأةً خرج حارس "بابلو" الشخصي من المبنى.. فتم رشه مباشرة بمئات الطلقات.. تحفزت "سونيا" على قناصتها ووجهتها ناحية سطح المبنى.. ثم فجأةً برز "بابلو" على سطح المبنى يجري.. نظرنا إلى الأسفل.. كانت القوات قد بدأت تدخل إلى المبنى لتلحق ببابلو على السطح.

أصبحنا نشاهد المنظر من قناصة "سونيا".. "بابلو" على السطح يحاول أن يجد مكانًا يقفز إليه.. جاء رأس "بابلو" في منتصف علامة القناصة.. تحفزت يد "سونيا" على الزناد.. لكن "بابلو" انحنى فجأةً ليختفي وراء أحد الصناديق.. لم

تمض ثوانٍ إلا وفتحت القوات باب السطح ونزلوا على السطح كأنهم النمل.. كان هؤلاء هم قوات الـDelta Force الأمريكية لمكافحة الإرهاب العالمي.. كانت نهاية "بابلو" حتمية.. يستحيل أن تهرب من كل هذا إلا لو كنت شيطانًا.. خرج "بابلو" من وراء الصندوق وأصبح ظاهرًا مرة أخرى في قناصة "سونيا".. كان يركض والقوات تشهر أسلحتها ناحيته وتستعد للإطلاق على الفور.. وهنا فعل "بابلو" شيئًا عجيبًا.

استدار فجأةً ونظر إلى "سونيا" مباشرةً بنظرة ساخرة.. توترت سبابة "سونيا" على الزناد وضيقت عينيها الجميلتين.. كان "بابلو" في هذه الأثناء قد أخرج مسدسه بسرعه وصوبه إلى رأسه وأطلق بسرعة وهو ينظر إليها ساخرًا.. ثم سقط على الأرض.. ومن ورائه جاءت عدة طلقات أصابه بعضها وهو ساقط وأخطأه بعضها.. أطلقت "سونيا" سبة بلغتها وأرخت صمام بندقيتها.. وتراخت صمامات قلوبنا بعد كل هذا التوتر.

"بابلو إسكوبار" الرجل الذي دوخ قوات أمريكا كلها سقط اليوم على هذا السطح.. كان دائمًا يقول بأنه يفضل قبرًا في كولومبيا على أن يذهب إلى سجن في أمريكا.. ولقد حقق مقولته اليوم.

في أيامنا هذه وبتكنولوجيا اللحظة الواحدة يمكن للمرء أن يصير أسطورة في لمح البصر.. أسطورة تتناقلها المجلات العالمية والقنوات ثم تختفي الأسطورة وتموت بنفس سرعة ظهورها لأنها لم تكن أسطورة أصلًا.. غثاء سيل يذهب سريعًا.. أما الأساطير الحقيقية مثل "بابلو إسكوبار" فقد نقشت أسطورتها ببطء حتى وصلت لمرحلة الأسطورة التي تُعرف عالميًا بالاسم الأول فقط.

كانت جنازة "بابلو" مهيبة جدًا.. مشى فيها أكثر من عشرين ألف شخص.. واليوم، الناس من كل أنحاء العالم يأتون لزيارة قبر "بابلو إسكوبار" لأخذ صورة تذكارية عنده.. أعظم مجرم في التاريخ.. بل إن قوات الـDelta Force التي هجمت عليه فوق ذلك السطح أخذوا صورة تذكارية مع جثته.. صورة اشتهرت جدًا وذاع صيتها في تلك الفترة.. أمريكا قتلت "بابلو إسكوبار".. أمريكا انتصرت في جولة مهمة جدًا من حربها ضد المخدرات.. ورغم أن نسبة المخدرات التي تدخل أمريكا لم تنقص ميلليجرامًا واحدًا بعد مقتل "بابلو".. بل ربما زادت.. فإن الجميع كان يهلل ويهتف لأمريكا.. War On Drugs.. أكبر حملة في التاريخ على المخدرات.. كانت في حقيقتها حملة هزلية.. لم تكن إلا غطاء يخفي به الكبار أفعالهم القذرة.. هذا على مستوى أمريكا.. وكل الحملات الصغيرة التي تجد الدول قد أطلقتها فجأةً ضد المخدرات هي أيضًا حملات هزلية الغرض منها التغطية على صفقة ما من

صفقات الكبار.. هنا في أرض السافلين نعرف السافلين بأسمائهم.. حتى عندما تعود لتعيش في عالمك العادي تكون مرتاح البال ولا يخدعك أحد.

* * *

انحنى ذلك الرجل ذو القبعة السوداء على جثة "بابلو".. وتموهت الأجواء كلها حوله.. اقتربنا منه محاولين أن نرى شيئًا من ملامحه.. لكننا لم نقدر.. وعندما زال تموه الأجواء أظهر لنا مشهدًا بالأبيض والأسود.. يبدو أننا لن ننتهي من هذا الرجل أبدًا.

لقد تعبت نفسي من هذه الانتقالات الزمنية.. لكن يبدو أنها على وشك أن تنتهي.. أخذنا هذه المرة إلى العشرينات.

بعد تحريم الكوكايين والحشيش استيقظت بعض الحركات الإصلاحية وطالبت بتحريم الخمور أيضًا.. لأن الخمور في حقيقتها أكثر مدعاة للعنف من سواها لأنها تلغي العقل تمامًا فلا يعرف شاربها ما فعل؟ ولا متى فعل؟ وأين فعل؟ ليست مثل المواد المخدرة التي حرموها والتي تبدو كحلويات أطفال في إثارتها للعنف إلى جانب الخمور.. والعجيب أن هذه الحركات قد لاقت نجاحًا كبيرًا وانقسم الناس في أمريكا إلى قسمين.. فريق يؤيد الجفاف Dry.. وفريق يؤيد البلل Wet.. يعنون بالجفاف منع الخمر تمامًا وتجفيف أمريكا منها.. ويعنون بالبلل العكس.. وفي حركة مفاجئة من الحكومة الأمريكية.. صدر قرار بتحريم الخمر تحريمًا تامًا في أمريكا كلها.

وهنا نظر ذلك الرجل ذو الطاقية ناحيتنا.. للمرة الأولى نرى ملامحه بوضوح.. تبدو ملامحه مألوفة نوعًا ما.. عرفته.. إنه "آل كابون".. أبو المجرمين وسيدهم في عالمنا الحديث.. كان هو طيلة الوقت إذًا.. لكن ما دخله بكل الأحداث التي شهدناها؟ لا ندري.. كانت هناك حركة غير اعتيادية تحدث حول "آل كابون" الآن.. هل ترى ما يفعله الناس في الشوارع بأمريكا؟ إنهم يرمون زجاجات الخمر في الشوارع.. الكازينوهات تكسر براميل الخمر وتسيلها في الشوارع.. من كثرة زجاجات الخمر أصبح الناس يقسمون أنفسهم فرقًا.. فريق يجمع الزجاجات.. وفريق يمسك بها وفريق يكسرها وفريق ينظف الزجاج المكسور.. وفريق يحمل البراميل وفريق يضربها بالفؤوس.. أصبحت شوارع أمريكا أنهارًا من الخمر تسيل لتصب في أقرب نهر أو تنزل إلى المجاري.. مباشرةً استحضر ذهني ما قرأته عن يوم حرمت الخمر في الإسلام وكيف كان الصحابة يسكبونها من الجرار حتى امتلأت بها طرقات وسكك المدينة أنهارًا.

وبينما أنا أنظر إلى الأمريكيين وهم يسكبون زجاجات وبراميل الخمر هنا وهناك إذ رأيت بعض العرب يرتدون ملابس القدماء ويتحدثون العربية ويمسكون بجرار خمر ويسكبونها معهم.. إنها الصورة التي استحضرها عقلي منذ ثوانٍ.. رأيتها حية متشكلة أمامي.. هذا جنون. نظرت إلى هؤلاء وإلى هؤلاء.. عجبًا لهذا التاريخ الذي تتكرر مشاهده.. وعجبًا لهذا العالم.. مهلًا مهلًا انظر هناك.

كان هناك مجموعة من الأمريكيين ومجموعة من العرب القدماء يجرون وراء رجل روماني يرتدي ملابس قليلة ويبدو شعره وكأنه عناقيد عنب.. وهو يحاول أن يهرب منهم.. هذا "باخوس".. إله الخمر عند الرومان.. ها هم يحيطون به.. وها هم العرب يستلون سيوفهم ويخرج الأمريكان بنادقهم.. وها هو يستلقي بدمائه على الأرض.. أمسكت برأسي.. لقد بدأت أصاب بالجنون من مشاهد هذا العالم.. وقعت عيني بعدها على "آل كابون" وهو ينظر إلى كل هذا بتشفٍ وسعادة بالغة لم أفهم سببها.. ثم استدار وغادر المكان.. وغادرنا وراءه.

■ ■ ■

إن تحريم الخمر في أمريكا كان مثل الفرصة الذهبية التي أتت على طبق من ذهب لعصابات المافيا في أمريكا والعصابات الأخرى.. هؤلاء نشاطهم كان محدودًا في الدعارة والقمار وأعمال الإجرام العادية.. لكن بعد تحريم الخمر.. أصبح لهم نشاط رئيسي هام جدًا.. تهريب الخمر.. ورغم أن المخدرات كانت قد مُنعت هي الأخرى قبل الخمر فإن الخمر كانت أم الخبائث.. وأم المرغوبات.. فكان تركيز العصابات عليها.. كان "آل كابون" هو أكبر مهرب للخمر في تلك الفترة.. ينافسه في ذلك كثير من عتاة الإجرام.. ولأجل هذا التنافس.. اندلعت حروب عصابات كثيرة جدًا.. حروب مميتة شكّلت ملامح العشرينات ذات الزئير.. العشرينات المتوحشة.. أو Roaring Twenties كما يدعونها.

كان هناك الكثير من المهربين.. حتى إنك لتجد واحدًا في كل مربع سكني.. كانوا يصنعون الخمر في كل مكان تقريبًا.. ويخبئون الزجاجات في أماكن مبتكرة.. مثلما يحدث مع المخدرات في أيامنا هذه.. وكانوا يرشون كبار المسؤولين في الدولة كما يفعل تجار المخدرات أيامنا هذه.. عندما تُحرم أي شيء مرغوب جدًا فهذا ما يحدث في المقابل.. انتشرت الجريمة انتشارًا رهيبًا وزادت حروب العصابات زيادة رهيبة.. وفجأةً.. وبعد حوالي عشر سنوات.. فطنت الحكومة الأمريكية أن الجريمة التي منعت الخمور لأجل الحد منها قد زادت أضعافًا مضاعفة بسبب منع

الخمر.. عندها نزلت البشائر في الجرائد بأن الحكومة تنظر في قانون تحريم الخمر وتجهز لإلغائه.

جن جنون "آل كابون".. وجن جنون زعماء المافيا وزعماء العصابات كلهم.. إن تشريع الخمر مرة أخرى سيعني أنها ستكون متاحة للجميع وسيرخص سعرها وستنهدم تجارتهم كلها رأسًا على عقب.. تلك التجارة التي أصبحوا يتحاربون عليها حروبًا شنعاء.. كلها ستنهدم كأن لم يكن لها وجود.. بقرار واحد فقط من الحكومة.. ولأول مرة في تاريخ الإجرام والمجرمين.. يدعو المجرمون بعضهم بعضًا إلى اجتماع عاجل.. اجتماع لكبار زعماء عصابات الإجرام في أمريكا والعالم.. اجتماع تاريخي في عالم الإجرام.. كان اسمه Atlantic City Conference.. تموهت الصورة حول "آل كابون" الذي كان يبدو غاضبًا جدًا.. وانتقلنا معه إلى داخل المؤتمر.. مؤتمر مجرمي العالم.

■ ■ ■

نجلس معًا داخل قاعة مؤتمرات تبدو وكأنها أُعدت للأمم المتحدة.. يجلس معنا اليوم أعتى مجرمي العالم في تلك الفترة المتوحشة.. يجلس بجانبي Johnny Torrio الملقب بالثعلب.. زعيم المافيا في شيكاجو مدينة الإجرام.. بجانبك أنت يجلس لوسيانو المحظوظ Lucky Luciano بتلك الطعنة الغائرة في وجهه.. وهو زعيم المافيا في الولايات المتحدة الأمريكية كلها.. يجلس بجانبه هناك رئيس الوزراء.. ليس رئيس وزراء الحكومة وإنما هكذا يلقبونه في عالم المجرمين.. يدعى Frank Castello زعيم إمبراطورية القمار.. في الجهة المقابلة يجلس الكثير من الزعماء ذوي الأشكال التي لا تسر وبينهم يجلس رجلنا صاحب الطاقية.. آل كابون.. هناك أيضًا الملك سليمان أو Charles Solomon الروسي المتعجرف اليهودي المجرم.. بجانبه يجلس الرجل الملقب بـ"الدماغ".. Mayer Lanskey.. والكثير جدًا من المجرمين الذين لن أعدهم لك لأن المؤتمر كان قد بدأ الآن.. افتتحه لوسيانو المحظوظ بقوله:

الحكومة منعت الخمر.. أرادت أن تحد من العنف.. لكن ما حدث هو أن هناك زيادة في العنف.. والآن تريد الحكومة أن تسمح بالخمر مرة أخرى بعد أن عرفوا خطأهم.

رد عليه الثعلب:

نحن أمام فاجعة كبرى ستضرب عالمنا في مقتل.. هم سيجعلون الشيء الذي نتاجر فيه بأغلى الأثمان الآن متاحًا.. عندما كان محرمًا كان غاليًا.. أما الآن فهو متاح ولا قيمة له.. والـ..

تدخلت أنا في النقاش مقاطعًا الثعلب في منتصف كلامه بجراءه وقلت:

أنا لا أفهم شيئًا.. الخمور كانت ممنوعة.. والآن ستصبح مسموح بها.. أفهم من كلامكم أن الدولة بهذه الحركة وحدها قضت على تجارة تهريب الخمور كلها؟

قال لي "آل كابون":

نعم.. هو كذلك.. وفيمَ اجتماعنا هنا إذًا؟

قلت لهم:

ولماذا لا تفعل الحكومة هذا مع المخدرات حتى تقضي على تجارة المخدرات؟ إنهم يمنعون المخدرات ويقبضون على من يجدونها بحوزته ويسجنونه ويحاكمونه وكأنه الشيطان ذاته.. لماذا لا يسمحون بالمخدرات كما سمحوا بالخمور؟

قال الثعلب غاضبًا:

هل تريد أن تقضي علينا تمامًا يا فتى؟ لو سمحوا بالمخدرات أيضًا سنجلس نحن في بيوتنا.. سنعود لما كنا نفعله منذ قرون.. الدعارة والقمار وهذه الأمور التي لا يقارن ربحها بربح تجارة الممنوعات.. الحكومة أسدت لنا معروفًا كبيرًا لا يدرونه لمَّا منعوا هذه الأشياء.. فهي مرغوبة جدًا عند الناس.. وسيشتريها الناس بعد منعها ولو باع الواحد منهم كل ما يملك.. فأجسادهم لم يعد بإمكانهم السيطرة عليها. لقد تكونت فيها شهوة جديدة لم تكن فيها.. رغبة رهيبة في هذا الشيء.. رغبة تجعلهم يفعلون أي شيء في العالم لأجل شمة واحدة أو حقنة واحدة أو شربة واحدة من هذا الشيء.

قلت له محتجًا:

ولكن لو سمحوا بالمخدرات وجعلوها متاحة للجميع سيزيد عدد المدمنين عليها وستتكون مشكلة رهيبة أخرى و..

هنا تحدث رئيس الوزراء مقاطعًا إياي في هدوء.. قال لي:

مهلًا أيها الفتى.. يبدو أنك حقًا لا تعرف شيئًا.. اسمعني جيدًا.. لولا أن الحكومة سمحت بالخمور ببساطة وبقرار واحد ما كنت رأيتنا الآن ونحن زعماء الجريمة في العالم قد اجتمعنا هنا اليوم حتى نجد حلًا لهذه المصيبة التي أحلت

بنا.. انظر حولك إلى وجوه الحاضرين هنا.. كل هؤلاء يتاجرون في تهريب الخمر.. واليوم هؤلاء كلهم مهددون بالجلوس في بيوتهم.. الخمر شيء شرير.. نحن نعرف هذا جيدًا.. وكذلك المخدرات شيء شرير.. ولكن قوانين المنع الصارمة هذه.. مداهمات البوليس.. المحاكمات الشديدة.. حبس المتعاطين والبائعين.. كل هذا كان أغبى طريقة من الحكومة للتعامل مع هذا الشر.. إن المنع بهذه الطريقة قد جعل هذه الرذيلة تنزل إلى العالم السفلي.. عالمنا نحن.. ولمَّا نزلت إلى عالمنا وأصبحت ممنوعة تضاعف سعرها مائة مرة على الأقل.. مما جعل المدمن الغير قادر على كبح جماح نفسه والذي كان يشتري هذه الأشياء سابقًا بسهولة وبنقود قليلة.. مستعد الآن لأن يفعل أي شيء ليحصل على ذلك المبلغ الرهيب من المال ليسد تلك الرغبة العجيبة التي تولدت داخله.. بالتالي زاد معدل الجريمة.. فهذه القوانين الصارمة المانعة فشلت فشلًا ذريعًا في كل شيء.. لم تنقص معدل الجريمة، بل زادته.. لم تنجح في تحديد استخدام هذه الأشياء، بل زادته.. فشلت في تقليل عدد المتعاطين، بل زادتهم.. الحكومة فهمت هذه المعادلة فيما يخص الخمور.. ولذلك عرفت أن الحل هو في السماح بها.. وبعد حين من الدهر ستفهم الحكومة هذا أيضًا فيما يخص المخدرات.. وستسمح بها أيضًا.

قلت له:

المخدرات أكثر مدعاة للإدمان من الخمور.. كيف يكون الحل هو السماح بها هكذا.. سيتولد لديك أمم من المدمنين لا قبل لك بهم.. هل تعرف معنى الحديث الذي تتحدث به؟

تحدث المتعجرف الهودي الروسي الملك سليمان وقال:

أيها الغريب.. هل الخوف كله عندك من أنه لو تم تشريع المخدرات وأصبحت متاحة في كل مكان ستزيد نسبة استخدامها عند الناس؟ هذا خاطئ.. لا توجد علاقة بين شدة القوانين وبين زيادة الاستخدام.. قوانين تعاطي المخدرات والحشيش صارمة جدًا في السويد ومتساهلة جدًا في النرويج.. والبلدان فيهما نسبة متقاربة من المتعاطين.. هولندا التي سمحت ببيع الحشيش في المقاهي، معدلات استخدام الحشيش فيها من أقل المعدلات في العالم.. لو شرعتها يمكنك أن تتحكم بها.. لو جرمتها ستنزل إلى العالم السفلي وساعتها سيكون التحكم بها شبه مستحيل.

قلت له بغضب:

و الأمم من المدمنين الذين سيولدون نتيجة تشريعك هذا ماذا ستفعل فهم؟

قال لي:

المخدرات ليست مشكلة البوليس يا هذا ولم تكن أبدًا مشكلة البوليس.. المخدرات أولًا وأخيرًا مشكلة صحية ليس إلا.. ولو كان لها حل ما فلن يكون عبر رجل شرطة يقبض عليك ويرمي بك في السجن.. إنما سيكون عبر طبيب مدرب تدريبًا جيدًا.. طبيب ستكون مهمته الوحيدة هي تخفيف وإقصاء هذا الاحتياج من جسدك.. لن يحتاج المدمن أن يسرق أو يفعل أي جريمة للحصول على غرضه فهو متوفر في كل مكان.. ولو أدمن بشكل كبير عندها يذهب للمصحة لتتم معالجته ويشفى.. لا تصدق تلك الادعاءات بأن المخدرات تولد العنف.. ما يولد العنف هو منع المخدرات.. حتى الخمور التي هي أكثر مدعاة إلى العنف ليس من الصحيح تجريمها.. بل الصحيح هو السماح بها قانونيًا كما هي وتحذير الناس منها ومن أخطارها لأنها شيء شرير.. لكن أن تمنعها قانونيًا وتقبض على الناس الذين يتعاطونها.. أنت هكذا تخلق شبكة سفلية.. هذا خطأ.. السماح بالمخدرات والخمور سيحسن من موارد الدولة وسيجعل الشرطة تنشغل بالجرائم العادية بدلًا من ملاحقة البودرات ومتعاطيها وتجارها طوال الوقت.

قال ذلك الرجل الملقب بالدماغ:

ها أنت ذا ترى أمامك.. المخدرات يستخدمها الناس منذ قرون طويلة.. والخمور كذلك.. لم تحدث مشكلة إلا في قرننا هذا.. مع قوانين المنع والتحريم الحمقاء هذه.

تحدث تشارلز لوسيانو زعيم المافيا بتلك الندبة في وجهه وقال بحدة:

أرى أنك أشغلتنا وأبعدتنا عن الأمور التي أتينا للتحدث فيها.. ودعوني أختم هذا النقاش إلى الأبد.. الحل في المخدرات هو أن يتم السماح ببيعها قانونيًا بلا مشاكل.. سواء ستباع في المحال أو الصيدليات.. ولكن في المقابل يتم وضع قوانين أخرى تحد من استخدامها جدًا.. قوانين تمنع منعًا باتًا شربها أو تعاطيها في الأماكن العامة مثل المطاعم والبارات والمقاهي والفنادق والمولات.. وأي مكان يخالف هذا يتم غلقه وتشميعه.. قوانين تمنع على الناس شربها وتعاطيها في الشوارع.. وأي مخالف لها يعاقب عقوبات عادية متدرجة مثل الغرامة أو الحبس بضعة أيام.. عندها من أراد أن يشتريها سيجدها بثمن عادي ولكن إذا أراد أن يستخدمها لن يجد مكانًا متاحًا له سوى بيته.. وإذا أدمن عليها يمكن أن يذهب لأي مركز من مراكز الإدمان ليتعالج.

تذبذبت الأجواء وتشوشت وكأن هناك من حرك الهوائي الذي ينقل لعيوننا الصورة.. وبدأت تتقطع أصوات المجرمين وتخفت ثم بدأت تختفي صورتهم وتعود حتى انقطعت تمامًا وانتقلنا إلى مكان آخر.. إلى الكرولر.. التي أخذت تبتعد بنا عن هذا العالم ببطء.. ما زال الراديو مفتوحًا في الكرولر.. إنهم يذيعون خبر القبض على "بابلو إسكوبار".. خبر الموسم.. كنت أنا ساهمًا.. إن أحدًا لا يدري شيئًا عما وراء هذا الخبر.. لا أحد يدري إلا من رأى بنفسه.. إن هذا العالم من السافلين قد مضى.. ويبدو أنني أنا وأنت متجهين الآن إلى عالم آخر.. وسافلين آخرين.

▪ ▪ ▪

يا إلهي يا رجل لقد شعرت أنني مجرم من كثرة المجرمين الذين قابلناهم هاهنا! هل تعلم أمرًا؟ كل هذا الذي رأيناه ثم خلصوا في النهاية إلى أن الحل في المخدرات هو عدم تشديد عقوبتها إلى هذه الدرجة.. والحل في الخمر هو وضع عقوبة على من يشربها في الطرقات والأماكن العامة.. هل تعلم أن هذا النظام هو نفسه الذي جاء به دين الإسلام قبل أكثر من ألف سنة؟ هو نفسه بالضبط.. الإسلام حرم الخمر تمامًا وسماها أم الخبائث.. وجعل شاربها ملعونًا.. والإسلام حرم كل مسكر ومخدر ومفتر بحديث صريح.. فالإسلام حرم المخدرات أيضًا.. لكن الإسلام لم يصرح بحد شرعي معين في شارب الخمر.. بل جعل العقوبة هي التعزير.. أي ما يراه الحاكم مناسبًا حسب الزمان والمكان.. هل تعلم ماذا كانت أحكام التعزير في عهد النبي وصاحبيه بالنسبة لشارب الخمر؟

النبي محمد أمر بضرب شارب الخمر بالجريد.. أبو بكر من بعده جلد شارب الخمر أربعين جلدة.. وجلد عمر شارب الخمر ثمانين جلدة.. هذا كل شيء ببساطة.. أما اليوم فالحكومات أصبحت تقبض على من وجدت بحوزته المخدرات وتسجنه أعوامًا.. وتقبض على من يبيع المخدرات وتسجنه عقودًا أو تقتله.. التعزير الذي اختاروه كان شديدًا جدًا زاد المشكلة ولم يحلها.. فأصبحنا نرى كل سنة أن نسبة تعاطي المخدرات تزيد مهما شددوا العقوبات.

ها قد وصلنا إلى قاعتنا الجميلة.. بدون مزيد من الثرثرة.. اذهب إلى سكوربيون فهو سيتولى أمرك.



الآن يا عزيزي ها أنت مرة أخرى.. وهو دورك مرة أخرى.. اختر عالمًا من العوالم المتبقية وانطلق بنا إليه.. راجع الصفحة الأخيرة حتى تعرف وصف العوالم الباقية.



العالم الخامس

نزلت بنا الكرولر أمام الصرح العلمي الذي يتناقش فيه العلماء.. بالمناسبة هذا الصرح رائع جدًا.. المرء يحب أن يطيل النظر إليه.. خرج لنا آدم بنفسه هذه المرة.. وقال لنا:

هل تمتعتما أم مللتما من زيارتكما الأخيرة؟

قلت له أنني من النوع الذي يحب العلم والتفاصيل العلمية والمناقشات الفلسفية.. فبالتأكيد أحببت المكان.. لكن لا أدري عن صاحبي.. قال آدم:

ماذا رأيت في حديثنا السابق يا سيدي؟ هل أعجبك؟

سمع "آدم" إجابتك ثم أومأ برأسه متفهمًا.. ثم أدخلنا إلى القاعة.. ما زال العلماء أنفسهم جالسين يتناقشون.. هذه المرة حيونا برؤوسهم.. فدخلنا ومشينا وسطهم وجلسنا على عروشنا ثم بدأت المناقشة بسرعة.. قال "آدم":

مرحبا بالضيفين العزيزين الكريمين.. اليوم لدينا سؤال هام سنحاول أن نجيب عنه.. عرفنا أن هذا الكون له بداية.. لكن من الذي أوجد هذه البداية؟ هل هو الله؟ أم أن الكون هو الذي ابتدأ نفسه وأوجد نفسه؟

أضاء ضوء أخضر عند كرسي رجل ممتلئ الجسم طويل الشعر يرتدي ملابس تبدو كملابس العصور الوسطى وله شعر أبيض مجعد بطريقة كبار الشخصيات.. كان هذا هو الفيلسوف "دافيد هيوم" والذي قام يقول:

طبيعي أن يكون لهذا الكون بداية.. طبيعي أن نؤمن بهذا.. لكن من قال أن إيماننا بهذا يعني أن نسلم أن الله هو الذي أوجد هذه البداية؟ بل الصحيح أن هذا الكون ببساطة قد نشأ بالصدفة.. لا حاجة لأن يكون له خالق.. إنما هو بدأ هكذا بالصدفة.

انتظرت ضوءًا يضيء عند أي مقعد تالٍ لكن لم يأتِ أي ضوء.. نظر "آدم" للجالسين وقال:

إن من سيجادل في هذه النقطة بالذات لن يكون عالمًا ولا فيلسوفًا.. من سيجادل في هذه النقطة هو الكون نفسه.

ذهب "آدم" ووقف أمام المنصة.. وفجأةً انطفأ الهولوجرام.. اختفى الرمز واختفى كل شيء.. وأشار "آدم" بإصبعه إلى نقطة ما بجانبه في الفراغ وقال:

لنتابع معًا ما حدث منذ بداية الكون.. ولننظر في أمر الصدفة أو عدمها.. انظروا.. هذه النقطة التي أشير عليها بإصبعي هي الكون قبل أن يحدث البيج بانج.. كما ترون.. لا شيء.

فجأةً برز شيء من الفراغ تحت إصبع "آدم".. لم يكن شيئًا بالمعنى الحرفي.. بل بدا وكأن هناك جزءًا من الفراغ تحت إصبعه يهتز.. كان هذا الجزء صغيرًا ثم بدأ يكبر شيئًا فشيئًا.. قال "آدم":

كما ترون يقول العلم الثابت أن الكون بدأ فجأةً.. بدأ كطاقة ساخنة متجمعة في جزء صغير جدًا.. ثم بدأ هذا الجزء الصغير يكبر ويكبر.. وكان كلما كبر برد قليلًا.. لا يعرف العلم ما الذي أوجد هذه الطاقة الساخنة ولا ما الذي يجعلها تكبر في الحجم؟ ما الذي وضع هذه الطاقة الساخنة الرهيبة التي لو تحولت إلى كتلة ستعادل كتلة الكون كله؟ ما الذي وضعها هنا بعد أن لم تكُ شيئًا؟ العلم لا يدري.. قالوا صدفة.. لكن الصدفة تخضع لقوانين الفيزياء.. أما هذه فمعجزة.. لأنها طاقة نشأت من العدم.. وقوانين الفيزياء تقول بصرامة أن الطاقة لا تستحدث من العدم.. وقالوا بل العلم لم يكتشف السبب بعد.

ظل الجزء المهتز يكبر ويكبر.. وفجأةً تحول هذا الجزء المهتز إلى آلاف من النقاط الملونة.. برزت فجأةً وكأن الاهتزاز قد بعثها.. قال "آدم":

تحولت هذه الطاقة الرهيبة فجأةً بعدما بردت قليلًا إلى كتلة بفعل نظرية "أينشتاين" النسبية الشهيرة.. هذه الكتلة ظهرت في شكل جسيمات ومضادات جسيمات.. جسيمات هي البروتونات والإلكترونات والنيوترونات وإلى مضاداتها.

ثم فجأةً لاحظنا أن النقاط الملونة الصغيرة يهجم بعضها على بعض ويصطدم بعضها ببعض.. فيفني بعضها بعضًا.. قال "آدم":

أي طاقة ساخنة في العالم عندما تبرد وتتحول إلى كتلة، يجب أن ينتج منها عدد متساوٍ من الجسيمات ومضادات الجسيمات.. لكن الغريب أن ما نتج عن هذه الطاقة الساخنة الكونية الأولى هو عدد من الجسيمات أكبر من عدد مضادات الجسيمات.. أكبر بقليل جدًا.. فكل مليون جسيم مضاد يقابله (مليون + واحد) جسيم عادي.. وكل مليون جسيم عادي يتصادم مع مليون جسيم مضاد.. فيفنى المليونان ويبقى جسيم واحد عادي.. هذه الجسيمات الناجية هي التي تطورت بعد هذا وشكلت مادة الكون الذي نراه الآن.. فالجسيمات كانت أكثر من مضاداتها منذ البداية.. ولو أنهما كانا متساويين في العدد كما كان مفروضًا فيزيائيًا لأفنى بعضهما بعضًا ولما وُجدت أية جسيمات يمكن أن يتكون منها هذا

الكون.. فكيف تم خرق قوانين فيزياء الجسيمات وأخرجت الطاقة الساخنة لنا كمية أكبر من الجسيمات عن مضاداتها؟ قالوا صدفة.. لكن الصدفة تتبع القوانين الفيزيائية.. أما ما يخرق القوانين هو المعجزة.. لكن العلم لا يؤمن بالمعجزات.. وقالوا ما زال العلم يبحث عن السبب.

هدأت الاصطدامات وظهرت جسيمات ذات عدد وفير لا بأس به.. هذه هي الجسيمات الناجية.. والتي بدأنا نرى بعضها يبتعد عن بعض بانتظام.. قال "آدم":

ما تشاهدونه الآن هو أغرب شيء واجه العلماء.. بعد أن اكتشف "هابل" أن المجرات يتباعد بعضها عن بعض.. اكتشف شيئًا آخر عجيبًا جدًا.. اكتشف أن المجرات ليست فقط تبتعد عنا.. بل هي تزيد في سرعتها وهي تبتعد.. وكأنها تضغط على دواسة الوقود فتزيد سرعتها باستمرار وهي تبتعد.. بل إنها تبتعد عنا بسرعة أكبر من سرعة الضوء.. اتضح أن هناك شيئًا أكبر من التوسع العادي يقاوم قوة الجاذبية.. شيء متسارع بسرعة تخرق قوانين الفيزياء.. ولولا وجود هذا الشيء لانجذب بعض الكون إلى بعض وانهار.. شيء ما لم يفهم العلماء ماهيته حتى اليوم فسموه "الطاقة المظلمة".. ليس هذا هو المثير في الموضوع.. المثير هو أن التسارع الرهيب الذي تمارسه الطاقة المظلمة لو كان أسرع قليلًا فقط لما سمحت سرعته للمجرات أن تتكون.. ولو كان أبطأ قليلًا فقط لغلبته قوة الجاذبية ولانهار الكون على نفسه.. إذًا علينا أن نؤمن أن هناك صدفة سعيدة جدًا جعلت مقدار الطاقة المظلمة مضبوطًا تمامًا على القدر الذي يسمح للكون أن يتكون.

تابع "آدم":

لكن ما الذي يجعل الكون يجذب نفسه إلى نفسه أصلًا؟ هو شيء سماه العلماء قوة الجاذبية.. كلما كان الشيء أكثر كتلة وأكثر كثافة أصبح يجذب الأشياء إليه بشكل أقوى.. ولذلك تمسك الكواكب أقمارًا حولها وتمسك الشموس كواكبًا حولها وتمسك النواة إلكترونات حولها.. إن مقدار المادة الموجودة في الكون حاليًا ينتج منه جاذبية كلية أضعف من قوة تسارع الطاقة المظلمة.. لو كان مقدار المادة أكثر قليلًا لزادت الجاذبية الكلية ولتغلبت على الطاقة المظلمة ولانهار الكون على نفسه.. فما هي الصدفة السعيدة التي جعلت مقدار المادة التي نشأت في بداية الكون هو هذا المقدار بالضبط الذي تنتج عنه

جاذبية مقدرة بالضبط لتسمح للطاقة المظلمة أن تكون أقوى منها فلا ينهار الكون على نفسه؟

أصدر "آدم" صوتًا بإصبعه فاختفى المشهد الهولوجرامي.. ثم رفع سبابته بطريقة مسرحية أيضًا لنشاهد على رأس سبابته كرة صغيرة جدًا.. ضربها بإصبعه فارتفعت إلى الأعلى ثم سقطت مرة أخرى ببطء.. فمد يده إليها فتوقفت في الهواء فمد يده الثانية وفعل حركة ما تعبر عن التوسع فتضخمت الكرة الصغيرة مائة مرة حتى أصبحت أكبر من حجمه.. قال "آدم":

هذه هي ذرة الهيدروجين.. أول عنصر يتكون في هذا الكون.. العنصر الذي يتكون منه ثلاثة أرباع الكون.. كما نرى.. ذرته فارغة.. ليس فيها سوى بروتون واحد في المنتصف يدور حوله إلكترون واحد.

كبرت الذرة أكثر ثم توجه إليها "آدم" ودخل فيها.. كانت شفافة.. فأمكننا أن نراه بالداخل.. كانت الذرة عبارة عن كرة فارغة فيها كرتان صغيرتان يدور بعضهما حول بعض.. توجه "آدم" ناحية الكرتين الصغيرتين وأمسك واحدة منهما بين يديه وقال:

هذا هو بروتون الهيدروجين.. والآن لنشاهد ما يحدث عندما يقترب نيوترون خارجي من هذه الذرة.

برزت كرة أخرى صغيرة من آخر القاعة وتوجهت ناحية الذرة التي يقف "آدم" بداخلها.. وفور أن اقتربت الكرة الصغيرة ظهر شيء ما من البروتون الذي يمسكه آدم.. شيء مثل الخط المتعرج الذي توجه ناحية الكرة المقتربة فجذبها إليه بقوة وألصقها بالبروتون.. قال "آدم":

هناك علاقة حب بين البروتون والنيوترون كما نرى.. أو كما يسمها الفيزيائيون قوة جذب.. وبالمناسبة.. أنا الآن بعد هذا النيوترون الدخيل لم أعد أقف داخل ذرة هيدروجين.. بل أصبحت داخل نظير يدعى الديوتيريوم.. فيها بروتون واحد ونيوترون واحد.

برزت ذرة ديوتيريوم أخرى من مكان ما واقتربت من ذرة الديوتيريوم التي يقف "آدم" بداخلها.. فخرج خط متعرج من بروتون ذرة آدم وتوجه إلى بروتون الذرة الأخرى فأمسك به وجذبه إليه بقوة.. فانجذبت الذرتان وأصبحتا ذرة واحدة.. فيها في المنتصف أربع كرات.. بروتونان ونيوترونان.. قال "آدم":

أيضًا هناك علاقة حب بين البروتون وأخيه البروتون.. وهذه الذرة الجديدة التي أصبحت أنا داخلها هي ذرة هيليوم.

توجه "آدم" ناحية الأربع كرات وحاول فصل بعضها عن بعض ببطء فلم يقدر.. ثم أمسك بإحدى الكرات وشدها بقوة.. وفجأةً قام أحد الجالسين وجرى ناحية آدم كالمجنون وهو يصيح بأعلى صوته:

أيها الأحمق ماذا تفعل؟ هل تريد أن تحدث انفجارًا نوويًا.. هل أنت عاقل أم مجنون؟ أتريد أن تفصل مكونات النواة.

كان هذا هو "نيلز بور".. مكتشف تكوين الذرة ببروتوناتها وإلكتروناتها ومداراتها.. توقف "آدم" بهدوء عما كان يفعله وقال:

معذرة يا سيد "بور".. لقد كنت أمثل فقط.

قال "بور" عدة كلمات غير مفهومة تعبر عن الامتعاض وعاد أدراجه إلى مجلسه.. نظر "آدم" بإحراج إلى الأرض ثم استدار إلى ما كان يفعله وقال:

إن علاقة الحب العتيد هذه بين البروتون والنيوترون.. وبين البروتون وأخيه البروتون.. هي علاقة حب قوية جدًا.. قوة جذب شديدة القوة.. سماها العلماء "القوة النووية القوية".. وهي أقوى من أي قوة أخرى.. قوة لو كسرناها ستؤدي لانفجار لا يبقي ولا يذر.

نظر "آدم" ناحية "بور" الذي كان قد جلس وتابع بتركيز بطريقة من يريد أن يتجاوز ما حدث.. قال "آدم":

لقد بدأنا بالهيدروجين.. الذي سحب لنفسه نيوترون فصار ديوتيريوم.. والذي سحب لنفسه بروتون من ذرة ديوتيريوم أخرى فأصبح هيليوم.. الآن لو أراد الهيليوم أن يكون ذرة جديدة.. سيسحب بهذه القوة نفسها أي بروتون من أي ذرة هيليوم أخرى فلن ينسحب البروتون وحده بل ستنسحب ذرة الهيليوم كلها.. فيجتمع الهيليوم إلى الهيليوم لتتكون ذرة جديدة فيها أربعة بروتونات وأربعة نيوترونات هي ذرة البريليوم.. والتي يمكنها بدورها هي أيضًا أن تسحب ذرة هيليوم جديدة بفعل تلك القوة النووية لتكون ذرة أخرى هي ذرة الكربون التي فيها ستة بروتونات وستة نيوترونات.. ثم لو أراد الكربون أن يتطور هو الآخر سيسحب له ذرة هيليوم.. فتتكون ذرة جديدة فيها ثمانية بروتونات وثمانية نيوترونات هي ذرة الأكسجين وهكذا.. فنرى أن الهيدروجين هو أساس تكون كل العناصر التي في الجدول الدوري كله.

ظهر ما يشبه اللهيب الساخن حول الذرات فابتعد "آدم" بطريقة الذي شعر بالحرارة وقال:

هذه التحولات من ذرة إلى ذرة لا تستطيع أن تتم إلا في درجة حرارة عالية جدًا جدًا ولهذا كل هذه التفاعلات لا تتم في الحقيقة إلا في النجوم.. مثل الشمس.. فكل عناصر العالم يتكون بعضها من بعض داخل النجوم ثم تلفظها النجوم إلى الفضاء.. وكأن النجوم هي مصانع تصنع فيها كل العناصر ثم ترمي بها إلى الفضاء.. هنا تسحب الكواكب هذه العناصر إليها.. هذا هو مصدر كل العناصر التي على أي كوكب.. فأنت لو نظرت إلى أي نجم من النجوم ستجده يلفظ خارجه كل حين عناصر صنعها داخله بينما تعمل الكواكب حوله كالمكانس وتجذب إليها تلك العناصر.. وبالمناسبة أيها المبارك لقد قال ربك هذا في كتابه لمَّا أقسم بالكواكب بقوله "فلا أقسم بالخُنس.. الجوار الكُنس".. قال أنها متجاورة.. وقال أنها تكنس.. ولم يكن أحد يدري ماذا تكنس بالضبط.. والآن عرفنا.

رفع "المبارك" يده موافقًا.. فأكمل آدم قائلًا:

قدر العلماء القوة النووية الخاصة بالهيدروجين بـ0.007.. هذه القوة لو كان مقدارها مثلًا ٠,٠٠٦ لما استطاع بروتون الهيدروجين الأول أن يسحب نيوترونًا ولما تكون الهيليوم أبدًا ولما تكون أي عنصر آخر في العالم ولأصبح الكون مكونًا من هيدروجين فقط.. ولو كان مقدار القوة ٠,٠٠٨ مثلًا لأصبح بروتون الهيدروجين شرهًا جدًا لسحب أي نيوترون حوله.. ولتحول كل الهيدروجين في العالم إلى هيليوم.. فلن يكون هناك أي هيدروجين في العالم وبالتالي لن يكون هناك أي ماء في العالم لأن الماء هو ذرتا هيدروجين وذرة أكسجين.. وبالتالي لن توجد أي حياة في العالم.. فما هي الصدفة السعيدة التي قدرت أن تكون القوة النووية للهيدروجين هي 0.007 بالضبط.. المقدار المناسب تمامًا لتكون حياة؟

بينما كان "آدم" يتحدث من داخل ذرة الهيليوم إذ دخلت من آخر الغرفة ذرة بريليوم وذرة كربون وذرة أكسجين.. وهن التطورات الثلاثة الأولى للهيليوم في باطن الشمس.. قال "آدم" دون أن يلتفت للذرات الداخلة:

هناك عالم تعجب من هذا السيناريو جدًا.. وهو العالم "فريد هويل".. وهو نفسه الذي كان يسخر من نظرية البيج بانج كما علمنا.. ويبدو أنه ليس موجودًا بيننا اليوم.. هو تعجب لأنه لو أزحنا الهيدروجين جانبًا من تفكيرنا قليلًا.. فالكربون والأكسجين موجودين في الكون بوفرة هائلة أكثر من كل العناصر الأخرى في العالم والتي تعتبر نسبتها ضئيلة مقارنة بهما.. مصدر تعجبه هو أن

سيناريو تطور الهيليوم إلى بريليوم ثم إلى كربون ثم إلى أكسجين هو سيناريو غير مفضل كيميائيًا بالنسبة للهيليوم ويحتاج لحرارة عالية وظروف معينة.. ورغم هذا فالكربون والأكسجين بالذات وفيرين جدًا جدًا في الكون وكأن هذا التفاعل هو المفضل وحده.. لذا تنبأ "هويل" أن هذه الأربعة عناصر تحديدًا دون بقية العناصر لديها مستويات طاقة متقاربة.. تجعل هذا التفاعل هو المفضل للهيليوم.. وبعد سنوات من وفاته تم إثبات كلامه هذا حرفيًا.. بالفعل هذه الأربعة عناصر فقط لا غير طاقتها متقاربة مما يجعل الهيليوم يفضل التطور لبريليوم.. والبريليوم يفضل التطور إلى كربون والكربون يفضل التطور إلى أكسجين.. هذا التقارب يجعل العناصر الأخرى كميتها ضئيلة بالنسبة للكربون والأكسجين.. ويعطي هذين العنصرين الأفضلية.. وهما العنصران المكونان للحياة مع الهيدروجين.. العنصران اللذان يتكون منهما الماء والهواء والخلايا.. إذًا ما هي الصدفة السعيدة التي فضلت أربعة عناصر فقط من بين ١١٨ عنصرًا في الجدول الدوري وجعلت لهم طاقة متقاربة لتجعلهم في النهاية ينشئوا حياة؟ حقًا هي صدفة سعيدة جدًا!!

أصدر "آدم" صوتًا بإصبعيه ثم قال:

وأخيرًا.. هل لمحتم هذه الكرات التي تدور حول رأسي وأنا داخل الذرة؟ هذه هي الإلكترونات.. جسيمات صغيرة سالبة الشحنة تدور حول النواة طيلة الوقت.. والشيء الذي يجعلها ممسوكة داخل مجال الذرة هو ما يسمى "القوة الكهرومغناطيسية".. هذه قوة ظهرت لأن هناك تجاذبًا طبيعيًا بين هذه الإلكترونات السالبة وبين البروتونات الموجبة.. هذه القوة الكهرومغناطيسية لها مقدار معين في كوننا هذا.. لو كانت أضعف قليلًا فقط لطارت كل الإلكترونات بعيدًا عن نَوَياتها ولما استقرت أية ذرة ولما تكون أي عنصر.. ولو كانت أقوى لأمسكت النواة بإلكتروناتها بقوة ولما اجتمعت الذرات يومًا لتكون جزيئات.. لأن الجزيئات ما هي إلا ذرات تتشارك إلكتروناتها.. فلو أمسكت كل ذرة بإلكتروناتها بقوة لما حدث أي تشارك ولما تكون أي جزيء كالماء أو الأكسجين أو الهيدروجين.. فهي صدفة سعيدة جديدة جعلت القوة الكهرومغناطيسية بين الإلكترون والبروتون مضبوطة تمامًا على القدر الذي يتيح لكل الذرات في هذا العالم أن تتفاعل وتتجمع.. ولم يكن مقدارها أكبر ولا أصغر.

قال "آدم":

وهناك الكثير من الأرقام التي لو كانت أصغر من هذا أو أكبر لما كان لهذا الكون أي وجود.. أرقام يسمها العلماء الثوابت.. وهم يشبهون الموضوع وكأن أمامك جهازًا كبيرًا وفيه بكرات كثيرة مثل بكرة الراديو.. ويجب أن تضبط كل بكرة على رقم معين.. وحين تضبط كل واحدة على رقم معين يخرج لك كوننا وتظهر لك حياة.. ولو ضبطتها على أي شيء آخر ستخرج لك فوضى.. ولقد حسب العلماء هذه الثوابت كلها فكان عددها ٢٠٠ ثابت.

ثم قال آدم بلهجة تشويقية:

الآن يمكننا أن نختبر الصدفة في هذا الكون.. انظروا معي..

أشار "آدم" بإصبعه فاختفى الهولوجرام وانفتحت فوق رأسه فتحة هولوجرامية وسقط عليه منها الكثير من المكعبات البيضاء الصغيرة جدًا.. وضع "آدم" يده على رأسه بحركة سينمائية إلى أن انتهى سقوط المكعبات البيضاء ثم قال:

هذه كلها نرد.. ٢٠٠ قطعة نرد.. كل قطعة منها تمثل ثابتًا كونيًا.. سآخذ هذه القطعة مثلًا.. إنها تمثل القوة النووية للهيدروجين.. مكتوب عليها ستة أرقام.. أحدها هو المطلوب لكوننا (٠,٠٠٧) والباقي أرقام أخرى قريبة.. وهذه قطعة أخرى تمثل مدى التسارع الذي يتم به توسع الكون.. وهكذا.. والآن علي أن أرمي هذا النرد كله مرة واحدة فقط.. ٢٠٠ قطعة.. لتنزل كل قطعة على الرقم الصحيح الذي يوجِد حياة.. على افتراض أن لكل ثابت ستة احتمالات فقط مع أن هذه الثوابت يكون لها ربما مائة احتمال أو أكثر.. لكن لا مشكلة دعونا نفترض أن هناك ستة احتمالات فقط لكل ثابت.

تحرك "آدم" ناحية حاوية برزت فجأةً بجواره من اللامكان وقال:

الآن دعوني آخذ هذه الحاوية وأضع فيها هذا النرد كله.. ٢٠٠ قطعة نرد.. برأيكم ما هي احتمالية أن أهز الحاوية ثم أرمي كل النرد الذي فيها على الأرض فأحصل على الأرقام الصحيحة كلها من أول مرة؟ الحسابات تقول لي أنه من بين (1x10155) محاولة.. سأنجح في محاولة واحدة.. رقم مهول.. حتى يمكن تخيل ضخامة هذا الرقم تخيل أننا لو أردنا أن نكتب هذا الرقم.. فإننا لو وضعنا صفرًا على كل جسيم من جسيمات الكون كله سنحصل على (1x 1080) فقط.. ونحن لن نفرغ من كتابة هذه الأصفار ولو عشنا بلايين بلايين بلايين بلايين السنين.. من المعروف في الرياضيات أن المستحيل الرياضي هو (1x10150).. أي احتمالية أكبر من هذه فهي ليست احتمالية بل هي مستحيلة رياضيًا أن تحدث في هذا

الكون.. إذًا فاحتمالية أن تنضبط كل هذه الثوابت هكذا من أول مرة هو مستحيل رياضيًا.

نظر آدم إلى الحاضرين وقال:

دعونا نكون أكثر تواضعًا.. نعم دعونا من هذه الأرقام الضخمة.. ما رأيكم أن نجرب أن نرمي فقط قطع النرد التي تمثل الثوابت التي شرحناها اليوم.. وهي فقط سبعة ثوابت.. سبع صدف سعيدة.. سأرمي هذه السبع قطع نرد.. ما هي احتمالية أن أحصل على الأرقام السعيدة الصحيحة من أول مرة؟ الحسابات تقول لي أنه من بين 280 ألف محاولة أحاولها، سأنجح مرة واحدة.. هذه هي الحقيقة كما ترويها لنا الرياضيات.. لكن كوننا هذا إنما نشأ مرة واحدة.. نجح من المرة الأولى.. لم تكن هناك ٢٨٠ ألف مرة يجرب فيها حظه.. لأنه لو فشل مرة سينهار بلا رجعة.. ما حصل هو انفجار واحد حدث مرة واحدة فأخرج كل الأرقام الصحيحة المضبوطة تمامًا والمطلوبة لإنشاء حياة.. هذا الكون يستحيل علميًا ورياضيًا ومنطقيًا أن يكون قد نشأ صدفة.

هنا أضاء كرسي بنور أحمر.. كان كرسيًا منفصلًا تمامًا عن بقية المقاعد.. كان أشبه بمقعد متحرك فاخر يجلس عليه رجل واضح من طريقة جلوسه وانحناء رقبته أنه مشلول.. وواضح من حركة فكه وعينيه أنه لا يقدر على الكلام.. لكن كرسيه المتحرك تخرج منه شاشة كمبيوتر تواجه وجه ذلك الرجل المشلول بالضبط.. تتحرك عينا الرجل يمينًا وشمالًا فيتفاعل معهما الكمبيوتر الذي أمامه ويكتب كلمات وينطقها بصوت كمبيوتري.. تحركت عينا الرجل من وراء نظارته.. ثم خرج لنا صوت كمبيوتري آلي يقول لنا:

نؤمن كعلماء فيزياء أن هذا الكون له بداية.. نرجح علميًا أنها مع البيج بانج.. ونؤمن كذلك أنه لم ينشأ من الصدفة.. هذا واضح.. لكن هناك نظرية جميلة يمكنها أن تفسر نشأته.. نسميها نظرية الأكوان المتعددة.. هناك أكوان كثيرة جدًا موجودة في هذا الوجود.. مليارات الأكوان.. لكل منها ثوابته.. واحد منها هو كوننا الذي كانت ثوابته صالحة لنشأة الحياة.. والبقية ما بين أكوان منهارة وأكوان ليس فيها حياة.. يعني نحن نعيش في الكون الوحيد القابل لتكوين الحياة كما نعرفها.. وحولنا مليارات الأكوان التي لا تشكل حياة.. أو تشكل حياة بمعايير مختلفة عما اعتدنا.

ثم سكت قليلًا وقال:

وهناك نظرية أخرى.. نظرية الكون الدوري.. تقول أن كوننا هذا كان قبله عدد لا نهائي من الأكوان كل واحد منها نشأ بانفجار عظيم وانتهى بانسحاق عظيم.. وكل واحد منها كانت له ثوابته.. وكوننا عليه الدور الآن وهو الكون الذي كانت ثوابته مناسبة لإنشاء حياة.. ثم سينسحق.. ثم سينشأ كون آخر بثوابت أخرى.. وهكذا إلى الأبد.

رد عليه "آدم" بهدوء:

الأكوان المتعددة ليست نظرية كما اشتهر تسميتها بذلك وكذلك الكون الدوري.. إنما هي فرضيات تخيلية خيالية.. ليس عليها أي دليل واحد يثبتها.. ولقد اتفقنا في هذه المناقشة ألا نقبل أي فرضيات مهما كانت.. فإذا أردنا أن نحتكم إلى العلم يجب أن نحتكم إلى نظريات وليس إلى فرضيات تخيلية.. فالملحد لا يقبل وجود الله لأنه لا يستطيع قياسه ورصده ثم نجده يقبل فرضيات خيالية لا يستطيع قياسها ورصدها ويبني عليها معتقده.. هذا غير مقبول في مناقشتنا.

قال له "هوكينج" بصوته المعدني:

فليكن.. دعنا نتحدث في نظرية معتمدة مثل البيج بانج.. إن الأرقام التي ذكرتها كلها والتي شبهتها ببكرات الراديو التي يجب أن تضبط على أرقام معينة هي كلها قوانين حتمية ليست احتمالات.. فمثلًا يجب أن تكون الجاذبية مقدارها كذا والقوة النووية مقدارها كذا.. هذه القوانين لا رب يوجدها.. هي موجودة هكذا في العالم منذ أن بدأ.. وبسبب وجود هذه القوانين فالكون يمكنه أن يخلق نفسه من لا شيء.

قام له عالم الرياضيات المعاصر "بول ديفيس" وقال له:

سيدي.. أنا أقدر أن كتبك هي الأكثر مبيعًا وأقدر الحملات الإعلانية الضخمة التي تقف وراءك.. ولكن يا سيدي لو وضعنا هذا الكلام على ميزان العلم فهو في الحقيقة لا يساوي شيئًا.. مجرد كلام فلسفي على طريقة هو هكذا لأنه هكذا.. العلم لا يقبل هذا.. بالنسبة للعلم.. الحقيقة العلمية أو القانون العلمي هو مجرد وصف لحادث يحدث في الوجود.. ليس هو مسبب هذا الحدث.. القوانين لا تخلق شيئًا.. قانون النسبية مثلًا يصف العلاقة بين الكتلة والطاقة.. لكنه لم يخلق الكتلة ولم يخلق الطاقة.. قانون نيوتن يقول أن الجاذبية بين جسمين تزيد كلما زادت كتلتهما وتقل كلما ابتعد بعضهما عن بعض.. هذا قانون يصف الجاذبية لكنه لم يخلق الجاذبية.. يمكنني أن أقول أن النقود التي لدي زائد النقود التي

لديك تساوي كذا.. هذا قانون يصف العلاقة بين النقود التي معنا.. لكنه لم يوجد النقود.. ولا يمكنني أن أشتري به شيئًا.. ثم من الذي كتب قوانين الطبيعة لتحكم كونًا لم يتشكل بعد؟ وما الذي يلزم موجودات الكون على الالتزام بهذه القوانين؟

سكت "هوكينج" وعيناه تتحركان بتفكير.. قال "ديفيس":

لماذا يتعب الجميع أنفسهم في حكاية الصدفة هذه؟ هناك قانون علمي معروف.. حقيقة علمية لا جدال فيها.. هو القانون الثاني للديناميكا الحرارية.. يقول أن الفوضى في منظومة ما تتجه إلى المزيد من التبعثر والفوضى ما لم ينظمها مؤثر خارجي.. وهذا الكون هو كون في غاية النظام.. كون يتوسع بحذر مضبوط.. نجومه تدور حول مجراتها.. كواكبه تدور حول نجومها.. أقماره تدور حول كواكبها.. كل نجم من نجومه هو مصنع للعناصر يغذي به كواكبه ويركز جهوده على صناعة عنصرين فقط ينشئان الحياة.. مقادير ثوابته المائتين كلها مجهزة تمامًا لإنشاء حياة.. كان المفترض أن يكون كل هذا فوضويًا تمامًا.. لكن ما نراه أن كل شيء منظم محكم.. فحسب قانون الديناميكا لا بد أن يكون هذا الكون المنظم قد نظمه منظم.

أضاء ضوء أحمر عند "أينشتاين" فقام وقال:

ملاحظة صغيرة أود إضافتها في هذا الشأن.. لو كان هذا الكون فوضويًا في جملته وتفصيله لما استطعنا فهمه ودراسته أصلًا.. ولما قامت للعلم قيامة.. ولما وصلنا إلى ما وصلنا إليه.. العلم لا يتعامل إلا مع أشياء منظمة ومقننة دائمًا وأبدًا.. أما المنظومات الفوضوية.. فلا يتعامل معها ولا يقدر على وصفها وفهمها ودراستها.. لو كان هناك صوت ديني بداخلي قد طرأ يومًا ما فسيكون هو الصوت الذي ينبهر كل يوم بدقة هذا النظام العظيم الذي فوقنا وحوالينا وداخلنا والذي يجعلنا نتسابق لمحاولة فهمه ودراسته وفك شفراته كل يوم.

أضاء نور أحمر عند أحد المقاعد.. فقام سكوربيون.. المقنع صاحب الاستراحات.. إنني أحب رؤية هذا الفتى.. سيريح عقولنا قليلًا.. استأذنًا من الجميع باستراحة قصيرة ثم نعود لهم بعد حين.



عادت دفة الحديث إلى "آدم" الذي قال:

فليكن.. لقد اقتربنا من نهاية هذا السؤال.. سنختتم بجزء مسلٍ للغاية.. سنلغي كل شيء قلناه قبل قليل وسنسلم جدلًا بالصدفة.. سنسلم أن طاقة مهولة عجيبة قد نشأت صدفة من العدم ثم تحولت صدفة إلى جسيمات يتناسب عدد بعضها مع بعض تمامًا بالصدفة.. ثم أفنى بعضها بعضًا وبقيت بعض الجسيمات بالصدفة.. فأخذت تتوسع بالصدفة بمقدار يحافظ على مكوناتها من الانهيار.. ثم عبر عمليات طويلة بالصدفة تحولت هذه الجسيمات لاحقًا إلى أجرام.. مجرات ونجوم وكواكب منظمة يدور بعضها حول بعض.. وفي النجوم تفاعلت مكونات دقيقة بعضها مع بعض بطريقة مضبوطة تمامًا بالصدفة فأخرجت مزيجًا من العناصر التي تصادف أنها هي المطلوبة تمامًا لإنشاء حياة.. ومن بين هذه الأجرام جميعًا كان هناك كوكب يدعى كوكب الأرض تصادف أنه صالح تمامًا لنشأة الحياة فيه.. نعم سنفترض أننا رمينا النرد رمية واحدة فقط فاستقرت كل واحدة من القطع الـ٢٠٠ على المقدار المناسب لها تمامًا من أول مرة.. وأصبحت لدينا الآن أرض خصبة جميلة جدًا جاهزة لإنشاء حياة فيها.. كل تلك البلايين من السنين قد مرت حتى نصل إلى هذه النتيجة.. أرض صالحة للحياة.. والآن ماذا؟ الآن.. والآن فقط.. ظهرت الجدة "لوكا".. ولنر كيف يمكن للصدفة أن تنشئ شيئًا مثل الجدة "لوكا".

انفتح باب القاعة.. نظرنا كلنا لنرى ما سنعرف بعد قليل أنه الجدة لوكا.. هبت بعض الرياح من الخارج وأنظارنا كلها متوجهة إلى الباب.. ثم دخلت.. أو دخل.. لا أدري بماذا يوصف هذا الشيء.. لكنه كائن غريب الشكل.. كائن حي على شكل كرة ضخمة.. لم يكن يتحرك بنفسه.. إنما كانت الرياح تحركه أو تحركها..

حتى أتت به الرياح إلى حيث يقف "آدم" الذي نظر إليه وقال:

رحبوا معي بالجدة لوكا.. وأظهروا كثيرًا من الاحترام والتوقير.. فلقد أجمع علماء الأحياء كلهم أن لوكا هي أول كائن حي.. أول شيء فيه روح ظهر على سطح الأرض.. كثير من العلماء يعتبرونها جدتنا وجدة كل الكائنات الحية.. وذلك حسب نظرية التطور التي تستنتج أن جميع المخلوقات الحية متحدرة من سلف واحد.. جدة واحدة.. وهذه الجدة هي لوكا أو LUCA.. وهي اختصار لـ Last Universal Common Ancestor أو السلف المشترك الأخير لكل الكائنات الحية.. وهي أبسط وأصغر كائن حي على ظهر الأرض.. نحن هنا قد كبرناه مليون مرة على الأقل حتى نراه بشكل واضح.. الآن نريد أن نقول أن هذه الجدة اللطيفة.. قد ظهرت في عالمنا هكذا بالصدفة.

نظرنا إلى لوكا المفترض أنها بسيطة.. في الحقيقة لا أدري كيف يوصف هذا الشيء بالبساطة.. جسمها عليه بروزات صغيرة مثل القباب كثيرة جدًا جدًا ومتساوية الحجم وبينها نفس المسافة تغطي كامل جسدها كأنها سجادة متقنة الصنع.. على هذا الجسد أشياء كثيرة جدًا تتحرك حركة سريعة.. أشياء تشبه فطر عيش الغراب تدور حول نفسها كالمغزل.. فتحات تنغلق وتنفتح من تلقاء نفسها كل حين.. حبات كالبازلاء تتحرك جيئةً وذهابًا.. شرائط مثل الثعابين تتحرك جيئةً وذهابًا.

قال "آدم":

إن كل شيء في لوكا يتحرك.. هي نابضة بالحياة كما ترون.. تتعجبون أن هذا أبسط كائن حي.. هذا الكائن عبارة عن خلية واحدة بسيطة جدًا.. نحن في جسدنا بلايين بلايين الخلايا.. والتي يكون شكلها الخارجي أكثر تعقيدًا من هذه بكثير.. إن لوكا هي أبسط كائن وحيد الخلية في الكون.. أبسط من البكتيريا والبروتوزوا.. ظهرت أول مرة في أعماق البحار حيث توجد شقوق في القشرة الأرضية تخرج ماءً ساخنًا.. من هناك بدأت رحلة الحياة.

أسند "آدم" يده على مكان من جسد لوكا ليس فيه شيء يتحرك وقال:

لا أحد يدري كيف ظهرت لوكا بالضبط.. قالوا أنها ظهرت بالصدفة.. وأن أشياء من هنا ومن هناك قد تجمعت في ملايين ملايين السنين لتخرج لنا في النهاية لوكا.. سنرى على أي حال.

اقترب "آدم" من جسد لوكا.. كانت أكبر منه بعشر مرات على الأقل.. أدى حركة بيديه فتحول جسد لوكا إلى جسد شفاف.. بحيث أمكننا أن نرى ما بداخله.. ولقد كان ما بداخلها عجيبًا.. زحام من الأشياء المتحركة المختلفة الشكل.. قال "آدم":

دعونا ننظر أولًا إلى هذا القرص الدوار الشبيه بفطر عيش الغراب والمنتشر هنا وهناك على جسد لوكا.. سأقول لك مبدأيًا.. هذا القرص الدوار.. وهذه الحبيبات الشبيهة بالبازلاء التي تتحرك جيئةً وذهابًا.. وهذه الثعابين التي تتحرك جيئةً وذهابًا.. وتلك الأشياء الصغيرة التي تتحرك داخل الخلية كالديدان.. هذه الأربعة أشياء كلها هي منظومة واحدة.. كلها يتعاون بعضها مع بعض لأجل صنع شيء واحد.. هذا الشيء هو دودة طويلة الذيل.. هذه هي لمن يريد أن يراها.. تسبح داخل الخلية.. هل ترونها؟ نعم هذه هي.. لكن ما فائدتها؟

قال "آدم":

هذه الدودة هي الطاقة التي يتحرك بها كل شيء متحرك في الخلية.. هي المفتاح الذي تدخله في كل ماكينة صماء فتتحرك على الفور.. تضعه في حبة البازلاء فتتحرك جيئةً وذهابًا.. تضعه في الشريط الثعباني فيتحرك جيئةً وذهابًا.. تضعه في أي شيء فيتحرك الحركة المقدرة له.. هذه الدودة طويلة الذيل هي مفتاح الحياة.. وبدونها يسكن كل شيء.. هذه الدودة اسمها ATP.

نحن حين نأكل تحول خلايانا ما أكلناه إلى دودة الطاقة ATP فنقدر على التحرك وتقدر قلوبنا على أن تنبض.. لكن لوكا لم تكن تأكل شيئًا.. لوكا كانت تصنع طاقتها بنفسها من داخل نفسها عبر عملية عجيبة جدًا تشارك فيها هذه التشكيلات العجيبة التي نراها تتحرك على سطحها.

عمل "آدم" حركة بيده فكبرت لوكا حتى أصبحت تحتل ثلاثة أرباع الساحة.. ثم قال:

بداية الحكاية كانت عند دودة صغيرة مسكينة تحمل فوق رأسها نقطتين مضيئتين وتتحرك داخل الخلية.. هذه الدودة اسمها NADH.. والنقطتان اللتان تحملهما على رأسها هما إلكترونان.. تابعوها بأنظاركم.. إنها تتجه بهما ناحية جدار الخلية من الداخل.. تحديدًا ناحية هذا الشيء البارز من جدار الخلية والذي يشبه شجرة برأسين.. هذه الشجرة اسمها NAD Dehydrogenase.. تأتي الدودة وتضع الإلكترونين في الشجرة.. فتأخذ الشجرة الإلكترونين وتخرج بدلًا منهما بروتونين موجبين خارج الخلية.

نظرنا إلى النقطتين المضيئتين اللتين استقرتا على الشجرة.. ولاحظنا أن هناك حبة من حبات البازلاء تتحرك على جدار الخلية وتتجه ناحية الشجرة.. فتحرك الإلكترونان من الشجرة ليقفا فوق حبة البازلاء.. التي أخذت الإلكترونين ثم تحركت مبتعدة عن الشجرة.. قال "آدم":

حبة البازلاء تتحرك جيئةً وذهابًا كما نرى.. تتحرك ناحية الشجرة لتأخذ الإلكترونات ثم تتوجه لتضعهما في هذا التشكيل الشبيه بالكوخ والبارز من جدار الخلية أيضًا.. حبة البازلاء المتحركة اسمها Ubiquinone.. والكوخ اسمه Cytochrome bc1.. يأخذ الكوخ الإلكترونين ويُخرج بدلًا منهما بروتونين موجبين خارج الخلية.

ثم نظرنا بعد الكوخ فإذا هناك شرائط تتحرك كالثعابين جيئةً وذهابًا.. اقتربت الثعابين من الكوخ فأخذت إلكترونًا واحدًا.. فنقلته بعيدًا عن الكوخ ووضعته في تشكيل يشبه الصندوق.. ثم عادت الثعابين للكوخ لتأخذ الإلكترون الآخر واتجهت لتضعه بجانب أخيه في الصندوق.. قال "آدم":

هذه الثعابين اسمها Cytochrome C.. وهذا الصندوق اسمه Cytochrome Oxidase.. تظل الثعابين تنقل الإلكترونات إلى الصندوق واحدًا واحدًا.. وعندما تجتمع داخل الصندوق أربعة إلكترونات.. يُخرج الصندوق خارج الخلية أربعة بروتونات موجبة.

ثم قال "آدم":

الشجرة ذات الرأسين أخرجت بروتونين.. الكوخ أخرج بروتونين. الصندوق أخرج أربعة بروتونات.. هذه البروتونات الموجبة عندما تخرج خارج الخلية هكذا.. يكون عدد البروتونات بالخارج كبيرًا وعدد البروتونات بالداخل قليلًا.. ولأن أي شيء ذائب في سائل يتجه تلقائيًا من منطقة التركيز المرتفع إلى منطقة التركيز المنخفض.. تهرع البروتونات كما نرى لتدخل مرة أخرى إلى داخل الخلية.. لكن البروتونات لا تدخل من أي مكان بعشوائية.. بل تدخل تحديدًا عبر هذا القرص الدوار الشبيه بعيش الغراب.. ودخولها هو الذي يحرك القرص فيدور حول نفسه.. لأن البروتونات الموجبة حين تتحرك نزولًا من المكان الموجب إلى المكان الأقل موجبية تصنع فرق جهد كهربائي هو الذي يجعل هذا القرص يدور حول نفسه بهذا الشكل كالموتور.

تابعنا ببصرنا دخول البروتونات داخل الخلية و"آدم" يقول:

فلينظر كل واحد منكم إلى أقرب موتور دوار إليه.. هذا الموتور اسمه ATP Synthase.. يعني مصنع الـATP.. لو لاحظت ستجد أن له رأسًا دوارًا بارزًا خارج الخلية مكونًا من اثني عشر فصًا.. وله قاعدة داخل الخلية سداسية الشكل.. والرأس تنزل منه ماسورة توصل إلى القاعدة.. الآن انظروا إلى رأسه الدوار.. ستجدون أن كل جزء من أجزائها الاثني عشر يحمل بروتونًا.. سيبدو الأمر وكأن هناك اثني عشر بروتونًا يركبون لعبة الملاهي الدوارة وتدور بهم.. نلاحظ أن القرص الدوار يتحرك درجة ثم يقف فيسقط بروتون من بروتوناته في الماسورة.. ثم يتحرك درجة ثم يقف فيسقط بروتون آخر وهكذا.

أصدر "آدم" حركة بيده فكبر حجم جميع الأقراص الدوارة هذه بشكل مؤقت حتى نراها جيدًا ثم قال:

انظروا إلى الماسورة التي تنحدر من الرأس وتدخل في وسط القاعدة السداسية.. الجزء الذي يغوص من الماسورة داخل القاعدة يبدو شكله مثل شكل القدم.. عندما تدور الماسورة مع دوران الرأس تدور القدم في قلب القاعدة السداسية فترفس مع دورانها الستة أجزاء واحدًا وراء الآخر.

نظرنا جميعًا إلى القرص السداسي السفلي و"آدم" يقول:

الآن لننظر في القاعدة السداسية.. انظروا جيدًا في كل جزء من أجزائها الستة.. كل جزء منهم فيه حجرة.. انظروا إلى حجرة واحدة منهن.. ستجدون أن هناك دودة ذات ذيل قصير أتت من داخل الخلية ودخلت داخل الحجرة.. هذه اسمها ADP.. ذيلها قصير مكون من ذرتي فوسفات.. حين تدخل إلى الحجرة ستجد ذرة فوسفات بانتظارها.. تفاجأ الدودة القصيرة أن هناك قدمًا قد رفست الحجرة فزلزلتها.. فترتمي الدودة قصيرة الذيل على ذرة الفوسفات فترتبطان وتكونان دودة ذات ذيل طويل اسمها ATP.. ذيلها مكون من ثلاث ذرات فوسفات.. تبقى دودة الـATP ساكنة داخل الحجرة حتى تدور القدم دورتها فترفس الحجرة مرة أخرى فتنقذف الدودة طويلة الذيل من الحجرة إلى داخل الخلية.. وتنطلق لتهب الطاقة إلى كل شيء في الخلية.

قال "آدم":

الدودة التي تحمل إلكترونين على رأسها والشجرة ذات الرأسين والكوخ والصندوق والبازلاء والثعابين.. كل هؤلاء كانت مهمتهم أن يخرجوا بروتونات خارج الخلية، فتجد البروتونات نفسها كثيرة فتدخل.. فلا تجد مكانًا تدخل منه

سوى القرص الدوار.. وحين تدخل من خلاله يدور.. وحين يدور يصنع دودة الطاقة ويقذفها داخل الخلية لتعطي طاقتها لكل شيء.

كان الكل ينظر في انبهار حقيقي.. هذا التركيب المعقد.. الذي تتكامل أجزاؤه بهذه الطريقة.. كيف نتج بالصدفة؟ هذا يبدو مستحيلًا.. قال "آدم":

هذا الجدار الخلوي.. انظروا إليه.. هو عبارة عن سجادتين ملتصقتين ظهرًا لظهر.. سجادة تطل على خارج الخلية.. وسجادة تطل على داخل الخلية.. كل سجادة مصنوعة من كرات متجاورة ملتصقة.. هذه الكرات كلها متماثلة الشكل والحجم والهيئة.. الناظر للجدار من بعيد يرى أنه مليء بالقباب.. بينما هذه القباب في الحقيقة هي رؤوس الكرات.. هذا الجدار الخلوي لا يمرر أي شيء منه.. إنما هو يختار من يمر ومن لا يمر.. لكن كيف يختار؟

أدخل آدم يده وحشرها داخل الكرات وهو يقول:

هذه الكرات كلها دهنية.. أي شيء يذوب في الدهن يستطيع المرور من هذا الجدار الدهني.. وأي شيء لا يذوب في الدهن.. مثل الأشياء التي تذوب في الماء.. لا تمر من هذا الجدار الدهني.. لكنها تمر من مكان آخر.

مشى "آدم" حتى واجه واحدًا من الثقوب.. وقال:

من هنا.. أي شيء لا يذوب في الدهون يمر من هنا عبر هذه الثقوب.. لكن أي شيء سواء يذوب في الماء أو يذوب في الدهن.. مروره يتم فقط إذا كانت كميته خارج الخلية كثيرة.. وكميته داخل الخلية قليلة.. لكن ماذا لو احتاجت الخلية شيئًا ما وكمية هذا الشيء قليلة خارج الخلية وكثيرة داخل الخلية.. لكن الخلية تريد منه أكثر.. هل يمكن أن يمر؟ نعم يمكن أن يمر.. من هنا.

مشى "آدم" إلى ثقب آخر في الخلية.. ثقب ينغلق وينفتح كل حين.. قال "آدم":

انظروا إلى هذا الثقب الذي يفتح ويغلق.. انظروا تحديدًا إلى داخل الثقب.. ستجدون دودة الـATP طويلة الذيل تتجه لتلصق نفسها على الثقب من الداخل.. وفور أن تفعل هذا ينفتح الثقب.. فيدخل الشيء الذي تريده الخلية أن يدخل.. ثم ترون الدودة قد انفصلت عن الثقب من الداخل فينغلق الثقب.. وتعود الدودة لتسعى داخل الخلية.. وكأن دودة الـATP هذه مثل المفتاح الذي يتحرك من تلقاء نفسه فيفتح الثقب.. ثم يخرج نفسه من تلقاء نفسه فينغلق الثقب.

توجه آدم إلى أحد الثقوب التي تفتح وتغلق.. كان يبدو أنه يريد أن يدخل نفسه منها إلى داخل الخلية.. لكنه لا يستطيع.. لأن الثقب ينفتح وينغلق بسرعة..

أخرج "آدم" من جيبه مفتاحًا.. عبارة عن دودة ATP طويلة الذيل.. فألصقه بالثقب.. فانفتح الثقب.. ومر آدم منه إلى داخل الخلية.. ثم قال:

كل هذا بالنسبة لما سترونه بعد قليل هو شيء متواضع جدًا.. انظروا معي هناك.. إلى تلك الوردة التي تسعى داخل الخلية.. هذه الأعجوبة.. هذا هو ما يسمونه الـDNA.. كل كائن حي في الدنيا لديه في داخل خلاياه DNA.. هذا الـDNA عبارة عن خيط متشكل على شكل علامة X ملتصقة بعلامة X أخرى.. كل X اسمها كروموسوم.. والخيط نفسه اسمه DNA.. نحن البشر عندنا ٦٤ كروموسوم في كل خلية.. لكن الجدة لوكا لديها كروموسوم واحد فقط.. وهي مثل كل الكائنات وحيدة الخلية، كروموسومها هذا ليس على شكل X وإنما على شكل وردة.. دعونا نكبر هذه الوردة لننظر إليها عن قرب.. ها هي ذي.

تبين أن الـDNA الذي يشكل هذه الوردة ليس خيطًا واحدًا.. بل خيطان.. ملفوف بعضهما على بعض بطريقة حلزونية.. فيظهران من بعيد كأنهما خيط واحد.

أمسك "آدم" بالوردة وأصدر بيده حركة فكبرت الوردة أكبر وأكبر وأصبح يمكننا أن نرى الخيطين الملفوف بعضهما حول بعض بوضوح.. قطع "آدم" جزءًا من الوردة ومسكه في يده.. كان كأنه حبل يتكون من خيطين ملفوف بعضهما على بعض.. رفع "آدم" الحبل في وجوهنا بيديه فكبر حجمه كثيرًا حتى أصبحنا نرى فيه كثيرًا من التفاصيل.. الحكاية ليست مجرد خيطين بعضهما حول بعض.. الحكاية أعقد من ذلك.. رأينا أن الخيطين ممسوك بعضهما إلى بعض بأعواد صغيرة كثيرة.

فك "آدم" التفاف الخيطين بيديه دون أن ينزع بعضهما عن بعض.. فشاهدنا خيطين متوازيين.. موصل بعضهما إلى بعض بأعواد صغيرة كثيرة موضوعة على مسافات متساوية بعضها من بعض.. دققنا النظر أكثر فوجدنا أن كل عود هو في الحقيقة ليس عودًا واحدًا.. إنما عودين ملتصقين رأسًا برأس.. وحتى نتخيل أكثر مزع "آدم" الخيطين بعضهما عن بعض بيده وأمسك خيطًا في كل يد.. كل خيط كانت تبرز منه أعواد صغيرة على مسافات متساوية.. ثم وضع الخيطين بعضهما قريبًا من بعض.. فتركبت أعواد هذا الخيط على أعواد ذلك الخيط فتلاصق الخيطان ثم التف بعضهما حول بعض فكونا الحبل.. قال "آدم":

هذه القطعة التي اقتطعتها من الوردة.. هذه القطعة من الحبل.. اسمها جين.. لوكا فيها ٣٥٥ جين.. كل جين يعبر عن صفة من صفات لوكا.. هذه الأعواد

الصغيرة عبارة عن أحماض أمينية.. ورغم أن لدينا ٢٠ حمض أميني في هذا العالم.. فإن ٤ فقط منها هي التي تشكل أعواد الـDNA.. سايتوسين (C) وجوانين (G) وأدينين (A) وثايمين (T).

الـA تحب الـT.. والـC تحب الـG.. فإما أن يكون عندنا عود اسمه AT.. أو عود اسمه GC.. أو عود اسمه TA.. أو عود اسمه CG.. أربعة احتمالات.. تسهيلًا حتى نقرأ أي جين.. نحن نقرأ الحروف الموجودة على خيط واحد.. لأن الحروف الموجودة على الخيط الثاني ستكون هي المناظرة لها.. فلا حاجة بنا لذكر الحروف على الخيط الثاني.. فعندما نقرأ جينًا معينًا نقول أن هذا الجين مثلًا هو ATT GCC TAA TAA ACC.

قطع "آدم" قطعة أخرى من الوردة ثم قطعة أخرى.. قال "آدم":

هذه عدة جينات كما ترون.. كل جين من هذه الجينات عبارة عن ترتيب معين من الحروف.. هذا الترتيب عبارة عن كود Code.. نلاحظ أننا نكتب حروف الجين ثلاثة ثلاثة.. كل ثلاثة حروف اسمها "كودون".. وكل كودون هو أمر لصناعة حمض أميني واحد.. وعندما تجتمع عدة كودونات مرتبة ترتيبًا معينًا بعضها بجانب بعض فهي تعني وصفة لعمل عدة أحماض أمينية مرتبة ترتيبًا معينًا.. والأحماض الأمينية حين تترتب ترتيبًا معينًا تصنع شيئًا يدعى البروتين.. يعني هذه الجينات هي أكواد لصناعة بروتينات.

لكن ما هو البروتين أصلًا؟ حتى توجد لتكوينه جينات وكودونات وأكواد.. هل تذكر التركيب الذي يشبه عيش الغراب ذا القرص الدوار؟ هل تذكر الشجرة ذات الرأسين؟ أو الكوخ.. أو الصندوق.. أو حبات البازلاء المتحركة؟ هل تذكر الثقوب التي تفتح وتغلق؟ والدودة التي تحمل نقطتين مضيئتين على رأسها.. هل تذكر الثعابين التي تتحرك جيئةً وذهابًا؟ هذه التراكيب العجيبة كلها هي بروتينات.. كل بروتين منها مكتوبة طريقة تصنيعه في جينات تحملها تلك الوردة.. كأن كل جين هو مذكرة.. كل مذكرة مكتوب فيها طريقة تصنيع تركيب أحد البروتينات.. هذه المذكرات كلها - الجينات - يجتمع بعضها مع بعض في كروموسوم واحد متصل.. كتاب واحد.. يشرح طريقة صنع كل بروتين موجود في لوكا.. إذًا لو أن هذا الكتاب مكتوب فيه طريقة الصنع.. أين الصنع نفسه؟

رمى "آدم" كل الجينات التي معه وأبقى واحدًا فقط في يده وقال:

هذا الجين فيه وصفة عمل بروتين الشجرة ذات الرأسين.. والآن انظروا جيدًا.

كبر آدم الجين عشرات المرات حتى أصبحنا نرى الخيطين الملتفين وتفاصيلهما.. وفجأةً جاءت بيضة تسبح ناحية "آدم".. ثم تحركت البيضة إلى طرف الجين فأمسكت به وأدخلته في جسمها.. لم نكن نرى ما بداخل البيضة.. لكن آدم عمل حركة بيده فانكشف لنا ما يحدث داخل البيضة.. قال "آدم":

هذه البيضة عبارة عن بروتين هي الأخرى.. واسمها RNA Polymerase.. تابعوا ما يحدث.

رأينا البيضة بعدما أمسكت بطرف الجين وأدخلته في قلبها.. بدأت تتحرك ببطء على الجين باتجاه طرفه الآخر.. وبينما تتحرك كان هناك شيء عجيب يحدث في داخلها.. في البداية لاحظنا أن الخيطين في داخلها منفك بعضهما عن بعض.. فقط في داخلها.. كان هذا عجيبًا لأنها لو كانت تفك الخيطين وتتجه ناحية الطرف الآخر.. سيتوجب أن نراها تخلف وراءها خيطين مفكوكين بينما تمشي.. لكن لم يكن هذا هو الحاصل.. كان ما نراه هو أنها تفك الخيطين بداخلها هي فقط.. ثم يبدو أنها تعيد لحمهما بينما تمشي.. لم نفكر كثيرًا في أمر الفك والإلحام هذا لأنه كان هناك شيء أكثر غرابة يحدث.

أوقف "آدم" البيضة.. فنظرنا إلى الخيطين المفكوكين داخلها.. خيط سفلي وخيط علوي وكل خيط عليه أعواد.. حجم البيضة لا يسع إلا لأنْ ترى داخلها عودًا واحدًا يخرج من الخيط العلوي وعودًا يخرج من الخيط السفلي.. وفجأةً ظهرت شريطة قصيرة من مكان ما وهي تحمل عودًا هي الأخرى.. دخلت الشريطة داخل البيضة ووضعت العود الذي معها على العود الذي في الخيط السفلي.. وأصبحت البيضة تتحرك على شريط الـDNA عودًا عودًا.. وكل عود تمر عليه البيضة نجد أن هناك شريطة جاءت من مكان ما ووضعت عليه عودًا.. فتمشي البيضة وتلتصق الأعواد على الأعواد.. فيتكون شريط كامل يخرج من طرف البيضة الخلفي بينما تمشي.. كان يبدو وكأنها نسخت شريطًا مناظرًا لأحد الخيطين.

قال "آدم":

هذه البيضة تنسخ نسخة من أحد الخيطين.. كما نرى هي فكت الخيطين ومشت من طرف الجين إلى طرفه الآخر لتنسخ نسخة من أحد الخيطين.. وها هي النسخة تخرج منها.. هذه النسخة اسمها Messenger RNA.. وهي عبارة عن خيط واحد يخرج منه أعواد.. نسخة من أحد الخيطين.. والآن انظروا ماذا يحدث في هذه النسخة المصنوعة.

تحركت النسخة المصنوعة ناحية شيء ما يبدو مثل الطبق فوضعت نفسها عليه وكأنها خيط معكرونة يضع نفسه على طبق من أطباق الطعام.. ثم جاء شيء آخر يبدو مثل الغطاء وغطى الطبق.. مثلما تضع غطاء آنية الطهو على طبق.. كشف لنا "آدم" ما يحدث داخل الغطاء.. وقال لنا:

هذا الخيط المنسوخ.. هو مثل الخيط العادي تمامًا.. كل ثلاثة أعواد فيه اسمها كودون.. وكل كودون يعبر عن حمض أميني.. انظروا هناك.

نظرنا فإذا هناك شيء قادم يشبه مقبض الباب.. قال "آدم":

دعونا من الغطاء والطبق والمعكرونة وركزوا قليلًا في هذا المقبض.. اسمه Transfer RNA.. يحمل على رأسه سلسلة متشعبة الشكل.. ويحمل على قاعدته ثلاثة أعواد.. السلسلة المتشعبة التي يحملها فوق رأسه هي حمض أميني واحد من الـ٢٠ حمض أميني الموجودين في العالم.. والثلاثة أعواد التي تحته هي الثلاثة أعواد التي تعبر عن هذا الحمض الأميني.

انطلق المقبض بسلسلته وأعواده ناحية ذلك الغطاء والطبق والمعكرونة.. انظروا.. إنه يضع أعواده الثلاثة على أول ثلاثة أعواد في الشريط المنسوخ.. والآن انظروا إلى يمين الطبق.

نظرنا فإذا هناك كثير من المقابض آتية.. وكل مقبض يحمل على رأسه سلسلة متشعبة ويحمل أسفله ثلاثة أعواد.. وكلهم توجهوا ناحية الغطاء والطبق.. ثم نظموا أنفسهم طابورًا.. حتى يدخلوا إلى الطبق واحدًا واحدًا.. دخل المقبض الثاني إلى الطبق ووضع أعواده الثلاثة على الثلاثة أعواد التالية من الشريط المنسوخ... فصار الطبق عليه مقبضان متجاوران كل واحد منهما يحمل سلسلة متشعبة على رأسه.. فالتصقت السلسلتان المتشعبتان وانفصلا عن مقابضهما.. ثم خرجت المقابض من الطبق.. ثم دخل بعدهما مقبضان آخران.. يحملان حمضين أمينيين آخرين.. التصقا بالحمضين الأولين فصار لدينا أربعة.. ظلت المقابض المنتظمة كالطابور تدخل واحدًا واحدًا إلى داخل الطبق وكل واحد منها يحضر حمضه الأميني ويلصقه في الأحماض الأمينية المتكونة.. ولمّا انتهى الشريط المنسوخ ولم تعد فيه أعواد.. خرجت الأحماض الأمينية الملتصقة من الطبق.. كانت عبارة عن سلاسل متشعبة بلا أي شكل ولا مظهر.

ثم شاهدنا شيئًا عجيبًا.. هذا الشكل الغير منتظم.. هرعت إليه عدة أجسام ذات أشكال غريبة نحن في حل من وصفها.. أحاطت به هذه الأجسام.. بعض هذه الأجسام صار يلوي السلاسل بطريقة معينة.. وبعض الأجسام صار يشكل

السلسلة مثل الصلصال.. بعض الأجسام كان يحمل على رأسه ذرة فوسفور أو ذرة كبريت فيضعها داخل السلسلة.. شيئًا فشيئًا كنا نشاهد تخليق الشجرة ذات الرأسين.. وظللنا نشاهد العملية حتى تمت.. الكل كان يشاهد بانبهار حقيقي.. كثير من العلماء الذين لم يعرفوا هذه الأمور أراهم يدونون كثيرًا من الملاحظات على أوراق أمامهم.. قال آدم:

هذه الأشياء التي هرعت لتشكيل السلسلة هي بروتينات خاصة موجودة داخل الخلية مهمتها تخليق الشكل الغير منتظم لتصنع منه بروتينًا معروف الشكل.

هرع أحد الحراس إلى "آدم" وأعطاه ورقة.. نظر "آدم" في الورقة وقال:

هناك سائل كتب سؤاله على ورقة بينما نشاهد العرض.. يقول من أين أتت المقابض بالأحماض الأمينية التي كانت تحملها على رأسها.. هل هذه الأحماض الأمينية موجودة أصلًا داخل الخلية أم أن الخلية تحصل عليها من الخارج؟ حسنًا.. إن هناك ٥٠٠ حمض أميني في هذا العالم.. فقط ٢٠ منهم هم الذين تستخدمهم الخلية لصناعة البروتينات الخاصة بها.. هؤلاء الـ٢٠ تتم صناعتهم في الخلية نفسها.. لكل واحد طريقة تصنيع معقدة جدًا.. لن نتحدث عنها طبعًا لأنه لا وقت لهذا.

ثم قال "آدم":

هناك عمليات أخرى تحدث في لوكا لم نتحدث عنها.. عمليات معقدة جدًا.. مثل عملية الانقسام.. إن لوكا تقسم نفسها إلى نسختين.. حتى تستمر في الحياة.. تتكاثر بالانقسام.. وهي عملية معقدة نحن في حل من وصفها أيضًا.

صغر "آدم" لوكا حتى استطاع أن يمسكها بين يديه كالكرة.. وقال:

هذا المخلوق الشديد التعقيد من داخله.. هو أبسط كائن حي على هذه الأرض.. يمكنني أن أتخيل مثلًا أن هناك بضعة عناصر وأجسام لا فائدة منها وُضعت في بركة مليئة بالتيارات المائية التي تلعب بهذه الأجسام والعناصر يمينًا وشمالًا.. وأن هذه البركة ظلت تلعب بالأجسام والعناصر هكذا مليون سنة.. يمكنني أن أتخيل أنه بعد هذه الفترة الطويلة مثلًا يمكن أن يتصادف أن يظهر شكل اعتباطي عبارة عن شجرة ذات رأسين.. ويمكنني أن أتخيل أن مليون سنة أخرى مرت من تحريك العناصر والأجسام واحتكاكها.. فظهر شكل آخر اعتباطي عبارة عن صندوق.. وبعد مليون سنة أخرى ظهر شكل كالكوخ.. وبعد مليون سنة أخرى ظهر شكل مثل الدودة.. كل هذا يمكنني تخيله.. لكن أن تتفق الدودة

والصندوق والكوخ والشجرة ذات الرأسين على أن يتموضعوا كلهم على سجادة معقدة الصنع تكونت هي الأخرى في مليون سنة بالصدفة.. ثم أن يتفقوا على أنهم سينتظمون بهذه الطريقة ليقوموا بمهمة واحدة.. وهي تأمين فرق بروتوني يسمح لهذا الشيء الشبيه بعش الغراب أن يدور حول نفسه وينتج مركبات طاقة.. لأن مركبات الطاقة هذه ستجعل هذه الأشياء تتحرك كلها.. ثم يتصادف أن هناك شريطًا غريب الشكل لديه خيطان وأعواد بينهما.. وأن هذا الشريط يحمل طريقة عمل كل هذه التكوينات التي تكونت بالصدفة أصلًا في مليون سنة.. هذا طبعًا هراء.. لذلك ظهر عدد من الفرضيات التي تحاول أن تفهم كيف خرج لوكا بالصدفة.

قال "آدم":

طبعًا بما أن كل التركيبات التي في الخلية موصوفة بالتفصيل على شريط الـDNA.. فالمنطق يقول أن هذا الشريط هو الذي ظهر أولًا.. وكان يحمل على ظهره طريقة صنع البروتينات.. عش الغراب الدوار والكوخ والجرة ذات الرأسين والدودة والبازلاء والبيضة السحرية والطبق والغطاء.. فرضية جميلة.. لكن من أين ظهر الجدار الخلوي.. السجادة.. هي ليست موصوفة في الـDNA لأنها ليست بروتينًا بل هي كرات دهنية منتظمة.. من أين أتت؟ المفترض إذًا أنهما ظهرا معًا.. شريط الـDNA والسجادة.. وقد أحاطت السجادة بالشريط بالصدفة.. جميل.. بدأنا نفكر في الاتجاه الصحيح.

قال "آدم":

الـDNA مكون من خيطين وأعواد.. الأعواد هي أحماض أمينية.. الأحماض الأمينية هذه لا تأتي من الفضاء وإنما تتصنع داخل الخلية.. وحتى تصنعها الخلية تحتاج إلى إنزيمات.. والإنزيمات هي بروتينات.. والبروتينات مكونة من أحماض أمينية.. يعني أنت حتى تصنع أحماض أمينية تحتاج إلى بروتينات مكونة من أحماض أمينية.. دوامة جميلة ستأخذك داخلها ولن تخرج منها أبدًا.. لو لم تفهمها اقرأها مرة ثانية.

أشار "آدم" بيده وقال:

لا عليك.. افترض أن الأحماض الأمينية هبطت عليك من الفضاء كلها حتى تحل لك هذه المشكلة.. الآن لديك أحماض أمينية كثيرة مجانية.. وتريد أن تصنع منها إنزيمات (بروتينات).. وحين تصنع إنزيمات ستستخدمها لتصنع الأعواد..

وحين تصنع الأعواد ستصنع منها الـDNA.. جميل.. لكن وصفة تصنيع الإنزيمات مكتوبة في أحد الجينات على خيط الـDNA.. وحتى تقرأ هذه الوصفة وتصنع الإنزيم ستحتاج إلى البيضة السحرية والطبق والغطاء والمقابض.. وهؤلاء طريقة تصنيعهم مكتوبة في جينات أخرى على خيط الـDNA.. يعني أنت تحتاج إلى الـDNA حتى تتمكن من صنع الـDNA.. دوامة أخرى.. دعك من أنه لا توجد أحماض أمينية تهبط من الفضاء أصلًا.. ولو لم تستوعب كلامي اقرأه مرة ثانية.

أكمل "آدم":

دعك من الأعواد.. افترض أنها هبطت علينا من الفضاء.. الآن لديك أعواد مجانية.. تريد أن تضعها على شريط الـDNA.. الشريط نفسه مصنوع من سكر الرايبوز والفوسفات.. سكر الرايبوز حتى تصنعه تحتاج إلى إنزيمات.. والإنزيمات بروتينات.. والبروتينات طريقة تصنيعها مكتوبة في الـDNA.. عدنا إلى الدوامة.. حتى تصنع شريط الـDNA أنت تحتاج إلى DNA.. مشكلة!

قال "آدم":

دعك من شريط الـDNA كله.. إنه صعب.. لننظر إلى الجدار الخلوي.. هل يبدو أسهل في تصنيعه؟ لاحظ أن الجدار الخلوي عليه بروتينات كثيرة هو الآخر.. الكوخ والشجرة والصندوق وغيره.. دعك منها كلها.. لا نريدها.. نريد أن نصنع جدارًا خلويًا بدون هذه الأشياء.. ماذا عن الثقوب التي تفتح وتغلق من تلقاء نفسها في الجدار.. ألا تريدها؟ هي أيضًا بروتينات.. فليكن.. لا تريدها.. تريد أن تصنع جدارًا خلويًا بدون ثقوب تغلق وتنفتح أوتوماتيكيًا.. تريد جدارًا فيه ثقوب عادية.. هذا يبدو سهلًا.

أكمل "آدم":

افترض أن هناك جدارًا خلويًا قد كُونت بكراته الدهنية وذيوله بالصدفة في مليون سنة وفيه ثقوب عادية هنا وهناك.. وأنه تشكل على شكل كرة.. جميل.. ها هو قد أصبح خلية فارغة بلا ثقوب.. الآن لو تركت هذه الكرة في الماء وحدها ستنفجر.. لماذا؟ بسبب خاصية الانتشار.. الأشياء تتحرك من المنطقة ذات التركيز المرتفع إلى المنطقة ذات التركيز المنخفض.. الماء خارج الخلية الفارغة كثير.. وداخلها قليل.. ستجد الماء قد انتقل عبر ثقوب الجدار العادية إلى داخل الخلية.. وستجده ظل ينتقل وينتقل حتى يملأ الخلية كلها ثم تنفجر.

ما الحل لهذا في الخلية العادية؟ الخلية العادية فيها ثقوب تنفتح وتنغلق.. بمفتاح هو الـATP لتدخل إليها بعض الأشياء التي تحتاجها الخلية.. هل تذكر هذا؟ برأيك ما الذي تفعله الخلية بهذه الثقوب التي تنفتح وتنغلق؟ هي تستخدمها في أن تطرد الصوديوم منها وتدخل البوتاسيوم.. هذه الحركة تصنع توازنًا يمنع مزيدًا من الماء أن يدخل لداخل الخلية ويفجرها.. كل الخلايا تفعل هذا.

إذًا حتى تحمي خليتك الفارغة تحتاج إلى ثقوب تنفتح وتنغلق بمفتاح هو الـATP.. هذه الثقوب عبارة عن بروتينات والـATP لا يصنعه سوى ذلك القرص الدوار الشبيه بعيش الغراب.. والقرص الدوار حتى يصنع لك الـATP يحتاج للكوخ والصندوق والشجرة.. كل هذه البروتينات والقرص والثقوب التي تنغلق وتنفتح طريقة تصنيعهم مكتوبة في الـDNA.. يعني حتى تنشئ جدارًا خلويًا أنت تحتاج إلى DNA.. نفس الدوامة.. عدنا مرة أخرى إلى الـDNA.

ختم "آدم" بقوله:

الأمر مثل أن يكون لديك برنامج كمبيوتر مهمته أن يصنع لك كمبيوتر.. هذا البرنامج مكتوب بلغة برمجة معينة.. لكنك حتى تكتب البرنامج بلغة البرمجة المعينة تحتاج إلى كمبيوتر لتكتب عليه.. باختصار أنت تحتاج إلى كمبيوتر لتكتب برنامجًا يصنع لك كمبيوتر.. كيف تؤمن أن الكمبيوتر قد نشأ بالصدفة من تلقاء نفسه وكتب برنامجًا دقيقًا جدًا لصناعة نفسه ولصناعة كمبيوتر أكبر؟ لو كان للمستحيل تعريف.. فهذا هو.

الخلاصة أن لوكا يستحيل أن تكون قد تكونت بالصدفة.. بأي طريقة وأي منطق في الأرض.. وكوننا الكبير المنظم هذا يستحيل رياضيًا أن يكون قد تكون بالصدفة.. لأن ٢٠٠ قطعة نرد يستحيل رياضيًا أن يعطوك أرقامًا صحيحة من رمية واحدة.

نظر "آدم" إلى المبارك وقال:

سيدي.. يمكنك أن تذكر رأي الدين في حكاية الصدفة هذه.. ولك أن تختصر في ذلك.

قال "المبارك":

إن ربي هو الذي يدبر الأمر في السماء والأرض.. سبحانه لا يخلق شيئًا عبثًا يقول: "أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك

الحق لا إله إلا هو رب العرش العظيم".. ويقول: "أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون".. يعني أظننتم أنكم خلقتم من لا شيء.. أظننتم أنكم خلقتم هكذا عبثًا؟! بل الله الذي خلق سبحانه وإليه ترجعون.

ثم سكت "المبارك" قليلًا وقال:

بالطبع لم تأتِ السماوات والأرض والدواب ولم يأتِ الإنسان صدفة.. بل إن ربي هو الخالق والمدبر والعليم بكل شيء كما قال: "ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين".

دعك من كل هذا الذي سمعته اليوم وألقه خلف ظهرك.. أنا سأعطيك لوكا مجانية.. سأعطيها لك ميتة لا حياة فيها.. فيها DNA وفيها جدار خلوي وفيها بروتينات وإنزيمات وشجرة وكوخ وثقوب تنفتح وتنغلق.. خذها مجانية مني لك.. أريد منك أن تحييها.. دع الصدفة والعبثية جانبًا.. اشتغل عليها في معاملك.. حرك ما تريد أن تحركه فيها وضع هذا بجوار هذا.. وجرب أن تحييها بعد أن ماتت.. دعك من لوكا.. سأعطيك إنسانًا كاملًا.. كل أجهزته موجودة.. لكنه ميت.. هل تقدر على أن تعيد له الحياة؟ بل إنك لو وضعته في معمل واشتغلت عليه بلايين السنين تجرب كيف تحييه.. لن يحيا.. هل تعرف لماذا؟ لأنه بغض النظر عن كل التركيبات المعقدة في خلاياه وفي أعضائه وفي قلبه.. كل هذا هو مجرد وعاء.. هناك شيء آخر يدعى الروح.. هذه الروح توضع في هذا الوعاء فيحيا.. وتنتزع من هذا الوعاء فيموت.. هل تعلم ما هي الروح أصلًا؟ علم الإنسان لم يعرف.. لأن فوق كل ذي علم عليم.. وربي سبحانه هو الذي خلق الروح.. وهي تحدي أمام البشر.. يقول الله: "يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي.. وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا".

قال له "آدم":

أوجزت فأجدت يا سيدي شكرًا لك جزيلًا.. يمكننا أن نقول أننا أجبنا عن هذا السؤال من الناحيتين العلمية والدينية.. أرجو ألا تكونوا قد مللتم.

ثم انحنى لنا وانحنى للجميع.. وقمنا أنا وأنت وقام العلماء يستعدون للمغادرة.. توجهنا إلى الكرولر التي كانت تنتظرنا بمنظرها الدودي المميز.. دخلنا فيها وانطلقنا من فورنا خارجين.

■ ■ ■

إنها المرة الأولى التي أرى فيها هذه العمة لوكا.. حقًا شيء عجيب جدًا الذي رأيته اليوم.. لا أتخيل حقًا كيف أن هذا الشيء الشديد التعقيد قد جاء بالصدفة.. مهما ألفوا في ذلك من نظريات.. هذا الشيء مخلوق مخلوق مخلوق.. ولا احتمال فيه للصدفة أبدًا.

كنا قد وصلنا إلى القاعة.. نظر لي "سكوربيون" وأنا أتحدث فقال لي:

يبدو لي أنك أنت الثرثار يا هذا.. دعه لي قليلًا فلا بد أنكم قد ورَّمتم عقله بأحاديثكم العلمية المفصلة.



هل انتهيت منه يا سكورب.. كنت قد بدأت أنام هنا.. هيا إلى الصفحة الأخيرة يا عزيزي.. أقترح عليك أن تلعب لعبة العد وتختار العالم القادم اعتباطيًا.. هذا أكثر إثارة صدقني.

■ ■ ■



العالم السادس

بدأت أفرد يدي وأتمطى بينما تمشي الكرولر بسرعة متجهة ناحية العالم التالي.. ماذا سنرى هذه المرة؟ لقد ثقل رأسي جدًا من ما مضى عليه في العوالم السابقة.. أخرجني من سريان أفكاري صوت صفير إلكتروني من لوحة القيادة.. نظرت بتثاقل.. رأيت شاشة صغيرة قد أضاءت وعلها ذلك التشويش الذي كانت تصدره التلفزيونات القديمة عندما لا يوجد إرسال.. بدأت أضرب الشاشة بيدي ضربات خفيفة وكأني أشجع الإرسال على أن يأتي.. ثم سمعت صوت شخص يقول:

كفي أيها المزعج وإلا سأطلق عليك كل هذا النمل الذي في الشاشة لينهش روحك أنت وصاحبك.

نظر بعضنا إلى بعض باستغراب.. ثم سمعنا صوت بخّاخ.. هناك من يرش من عبوة بخّاخ.. ثم رأيناها.. بخات آتية من يمين الشاشة إلى شمالها.. ثم عرضت لنا الشاشة مشهد يد شخص ما.. ظهرت من يمين الشاشة وبدأت ترش من عبوة بخّاخ وكأنها ترش على التشويش الذي يشبه النمل.. المشكلة أن التشويش قد تجاوب وتصرف كأنه نمل فعلًا وبدأ يهرب.. ثم ظهر صاحب اليد بكامل جسده وهو يمشي بعصبية وبوجه البخّاخ ناحيتهم وهم ينصرفون من أمامه ومن الشاشة كلها.. ثم نظر إلينا.. كان شخصية كارتونية ذا ملامح عجيبة مثلث الوجه.. قال لنا:

مرحبا بمن أتانا.. معذرة منكم.. أنا سخيف جدًا أعلم هذا.. لكني أحب المزاح.. لا حيلة لي في هذا.. اسمي "جاندال".. رئيس الأراضي الخطرة ومحرر العقول من سباتها وكاشف السر والألغاز.. و.. أشياء كثيرة أخرى لا داعي لذكرها حتى لا تظنوا أني مغرور.

اقترب وجه جاندال من الشاشة وقال مضيقًا عينيه بطريقة توحي بالخطورة:

هذا العالم هو أخطر ما ستشاهده في أرض السافلين.. إن هناك أناسًا انصرفوا من عالمي هذا متفجري الأدمغة مما شاهدوه عندي.. كانوا حين يأتون إلى عالمي يشاهدون بعض الحقائق التي لا يتحملونها.. فتنفجر أدمغتهم.. كُثُر هذا

وشاع في عالمي.. ثم سئمت من هذا لأنني شخص مرح بطبعي.. ففعلت الشيء الذي يتوافق مع سمتي.. حولت عالمي الخطر السافل هذا إلي..

سكت فجأةً ثم تغير وجهه بشكل مريب وقال:

لا داعي للعجلة.. ستريان بنفسيكما بعد قليل.

سكت "جاندال" قليلًا ثم مد يده في جيبه وأخرجها مليئة بحبوب دواء زرقاء وحمراء.. وقال:

ألا تريدان حبوب ضغط ومهدئات؟ بعض من أتى لعالمي الكارتوني أصابهم اكتئاب.. عقولهم لم تتحمل.. صاروا مجانين.. هيا خذا.. لا تستهينا بالأمر.

خرجت لنا يده من الشاشة وفيها الحبوب.. فأخذناها وابتلعناها.

مهلًا أشعر بنوع من الدوار.. وكأن الأجواء تتموه.. هل تشعر بنفس الشيء؟ الموجودات حولي أصبحت تتحول تباعًا لهيئة عجيبة.. هيئة من الصور.. كل شيء حولنا أصبح مرسومًا.. ملونًا.. طريفًا.. كارتونيًا.. نظرت بسرعة إلى يدي.. حتى أنا أصبحت كارتونيًا مثل الأجواء ومثل هذا الرجل ذي الوجه المثلث.. ثم نظرت إليك.. وهنا انفجرت في الضحك.. انظر إلى نفسك.. أنت كارتوني أيضًا لكنك تبدو مضحكًا جدًا.. كبروا لك رأسك قليلًا وأضافوا لمسة سخافة إلى ملامحك.. نظرنا إلى الشاشة.. كان "جاندال" لا يزال هناك ينظر إلينا بوجهه الكارتوني وقال:

ما رأيكما في شكلكما الكرتوني الجديد؟ أليس من الرائع أن يكون الإنسان كرتونيًا؟ أنت تصير أكثر حرية وتكون الأشياء أكثر بساطة.. وتوضع الدنيا في حجمها الحقيقي.. الذي هو لا شيء.. هل تعلمان؟ لو سقطت من علٍ مثلًا في عالمي ستتحول إلى عجينة على الأرض ثم ترفع نفسك وتمضي في طريقك.. أليس هذا رائعًا؟ هيا هيا لقد اقتربنا من عالمي.. هاك يدي.. اسحبني إلى عندك.

خرجت يده من الشاشة، فسحبته فخرج بجسمه كله من الشاشة وصار معنا.. كان يبدو عجيبًا جدًا حقًا.. قال لنا "جاندال":

بالطبع تتساءلون عن ماهية عالمي الخطير الذي أحكي عنه وأثرثر.. حسنًا.. إن عالمي هو عالم النقود.. المال.. الأوراق التي يدور الناس في سبيلها كأنهم في خلية نحل.. يصحون ويعملون ويتعارفون ويبتسمون ويتقاتلون ويموتون من أجلها.. أنا سأحدثك بأمور عن النقود لا يعلمها معظم الجالسين حولك.. ليس لأنها أسرار.. بالعكس تمامًا.. بل هي معلنة أمام عينيك طيلة الوقت.. لكنك لا

تفهمها جيدًا ولا تحاول فهمها لأنها معقدة.. هنا في عالمي هذا ستفهمها.. وبأبسط طريقة ممكنة.. وبالمناسبة لن تكون سعيدًا جدًا عندما تفهم.

توقفت الكرولر التي أصبحت كارتونية هي الأخرى.. نزل منها ثلاثتنا.. نظرت إلى مناظرنا.. إننا نمشي مع رجل كارتوني مثلث الوجه متجهين إلى مكان ما ليخبرنا بسر النقود.. هل تعلم؟ لو انصرفت من أرض السافلين هذه يومًا فسيكون إلى مستشفى الأمراض العقلية.

نظرت إليك.. ثم أصدرنا نحن الاثنان تعبيرًا لا مباليًا.. ومشينا وراء الرجل ذي الوجه المثلث.. لا يبدو أن هناك بوابة لهذا العالم.. كنا نمشي ثلاثتنا في أرض الكارتون هذه باتجاه قرية صغيرة.. قال لنا "جاندال":

قرية موني فيل.. الناس لطفاء هنا.. ككل الشخصيات الكارتونية.. والناس هنا مجانين.. ككل الشخصيات الكرتونية.. إن بيتنا هناك.. في آخر القرية.. تقدموا يا زوار أرض السافلين.. إن موني فيل تفتح لكم أبوابها.

دخلنا إليها.. قرية كارتونية.. وشخصيات كارتونية تروح وتأتي.. هنا تُعبر كل ملامح عن صاحبها بوضوح.. الشرير يبدو ذا ملامح شريرة والطيب يبدو وسيمًا غالبًا.. هذا يبدو أيسر من العالم العادي الذي لن تعرف فيه الشرير حتى يلدغك.. وصلنا إلى بيتنا الذي كان عبارة عن كوخ صغير بجواره مزرعة صغيرة مثل جميع البيوت في عالم الكارتون.. قال لنا "جاندال" بعد أن جلس باسترخاء في غرفة المعيشة رافعًا قدمه الكارتونية في وجوهنا:

حسنًا حسنًا.. هل تناهى إلى خيالكم يومًا.. في لحظة من التفكر.. كيف سيصبح هذا العالم لو نزعنا منه النقود؟ عندما لا يوجد مال مع أي أحد على وجه الأرض.. ليس الأمر غريبًا بالمناسبة فقد ظل كوكب الأرض اللطيف هذا يعيش بلا نقود آلاف السنين.. لكن كيف كان يعيش الناس وهم مفلسين هكذا كلهم؟ هذا ما أتينا إلى موني فيل لأجل أن نكتشفه.. لا توجد نقود هنا.. لا عملات.. ولا ذهب.. ولا كريديت كارد.. الناس هنا تتعامل بنظام مالي عقيم بدأ مع بداية نزول البشر إلى الأرض.. نظام يدعى المقايضة.

أخرج "جاندال" جهاز لوحي "تابلت".. وأشار لنا لنجلس بجانبه.. كانت شاشة الجهاز اللوحي تظهر قرية ومجموعة بيوت خشبية.. لمس "جاندال" بيتًا منها فبرزت بجانبه ثلاثة وجوه.. وجهي ووجهك ووجه "جاندال" المثلث الذي قال:

ها نحن الثلاثة نعيش في هذا البيت سعداء حتى الآن.. وهذه مزرعتنا الخاصة.. حين ألمسها على الشاشة نجد أنها تنتج ثلاثة أشياء.. البطيخ والبرتقال

وجوز الهند.. هذا هو الطعام الذي لدينا كل يوم.. ذلك البيت هناك في القرية يعيش فيه رجل يدعى "بوتشار" ولديه مواشي كثيرة وينتج اللحم.. وهو رجل غني وشرير ووغد مثل كل الأغنياء.. وذلك البيت هناك تعيش فيه السيدة الجميلة "بيرد" وهي تربي دجاجًا وبطًا.. اليوم لا نريد أن نأكل البطيخ.. نريد أن نأكل اللحم.. لذلك عليكما أن تدخلا مزرعتنا وتملآ سلالًا من البطيخ والبرتقال والجوز.. وتذهبا إلى بيت "بوتشار" الوغد صاحب المواشي وتنظرا أي سلة منها يمكن أن تثير اهتمامه ليبادلها معكما بقطع طازجة من اللحم الذي عنده.

وهكذا وجدنا أنفسنا أنا وأنت في مزرعة كارتونية نملأ سلالًا من البطيخ والبرتقال وجوز الهند ثم نمشي بها إلى بيت "بوتشار" الشرير.. كان رجلًا عصبيًا مشعرًا ضخمًا مرسومًا بعناية.. أمام بيته كان يقف عديد من الأشخاص في طابور.. كل واحد أتى له بسلة فيها شيء.. هناك سلال فيها ملح.. وسلال فيها شعير.. حتى إنني رأيت أحدهم يحمل سلة فيها حدوات أحصنة.. انتظرنا دورنا حتى وصلنا إلى " بوتشار" الذي نظر إلى سلالنا بعدم اهتمام وقال:

لا أريد شيئًا من هذا.. كنت أريد الأرز.. هل لديكم أرز؟

حاولنا إقناعه أن فاكهتنا طازجة ولذيذة لكنه لم يكن مهتمًا أبدًا.. وأشار إلى من يقف خلفنا ليتقدم..

لا عليك.. لدي فكرة.. دعنا نمر بسلالنا هذه على بقية البيوت.. ربما كان واحدًا منها لديه أرز.. فنبادله بفاكهتنا.. ثم نعود بالأرز إلى "بوتشار" فيعطينا اللحم.. أليست فكرة جيدة؟ هلم بنا إذًا..

طرقنا أبوابًا كثيرة.. وكل باب يفتح لنا يرى وجوهنا مبتسمة تحمل سلالًا من الفاكهة وتسأله عن الأرز.. وأخيرًا وجدنا ضالتنا في أحد البيوت.. بادلنا سلة البطيخ التي لدينا بسلة من الأرز.. وانطلقنا بها فرحين إلى "بوتشار".. الذي نظر لنا وقال:

لم أعد أريد الأرز.. استكفيت منه ممن أتوني به قبلكم.

هذا الوغد! نظرنا بإحباط إلى الأرض ثم استدرنا.. ليس مكتوب لنا أن نأكل اللحم الليلة.. أخرجت جهازًا لوحيًا أعطاني إياه "جاندال" ولمست فيه بعض اللمسات حتى برز لي وجه "جاندال" المثلث على الشاشة.. قلت له:

لم نستطع أن نحضر لحمًا من "بوتشار".. وقد أصابنا التعب.

رفع "جاندال" أحد حاجبيه المضحكين وكأنه يفكر ثم قال:

فليكن.. اذهبا إلى السيدة "بيرد" وأحضرا منها بعض الدجاج.. هي تحب الفواكه.. غالبًا ستأخذ منكما أشياءكما.

ذهبنا إلى "بيرد".. سيدة نحيفة جميلة يجري حولها البط والدجاج هنا وهناك.. خفت أن تطلب منا أشياء ليست عندنا.. لكن البرتقال والجوز أعجباها فأخذتهما وأعطتنا دجاجتين.. عدنا بهما إلى "جاندال" الذي فرح بهما جدًا وقال ولعابه يسيل:

كم أنا جائع! أعلم أنها طريقة متعبة عقيمة.. لكن العالم ظل يتعامل بها فترة من الزمن.. مشكلتها أنه يجب أن يتصادف أن أحتاج أنا وأنت شيئًا في نفس الوقت ويتصادف أن كلًا منا لديه الشيء الذي يريده الآخر حاضرًا في يده.. هذا كان متعبًا.. لكن الأمر تطور لاحقًا فأصبح في كل قرية سوق.. يتجمع فيه الناس كل صباح وكلٌ لديه سلال مما عنده.. يتبادلونها معًا.. هذا كان أسهل من الطرق على البيوت.. فالسوق يجمع الناس كلهم في مكان واحد ووقت واحد مما يُسهل حدوث الصدفة.

بدأ "جاندال" يمسك الدجاج المرتعب ويذبحه ويسلخه ويشويه ثم جلسنا جميعًا نأكله باستمتاع.. إن الشيء الذي تعبت في إحضاره تجد له طعمًا مختلفًا دائمًا.. قال "جاندال":

غدًا يوم جديد.. ستجدون القرية قد تطورت وصار فيها سوق يتجمع فيه الناس.. لكن شيئًا آخر سيحدث غدًا.. شيء سيجعل الأمور أكثر إثارة.

أيقظنا "جاندال" مبكرًا وهو يعمل تمارين الصباح بطريقة مضحكة ويقول:

هيا.. اليوم لا بد أن نحصل على اللحم.. سأنزل معكم اليوم.

نزلنا واتجهنا ناحية السوق الذي قال عنه "جاندال".. هذه المرة كان معنا خمس سلال.. ثلاث فيها فاكهة واثنتين فيهما سجائر.. نعم سجائر.. ظل "جاندال" يلفها ويجهزها طوال الليل وهو يدندن بأغنية عجيبة لصقت في رأسي.. وقفنا في السوق بسلالنا.. اقتربت منا سيدة سمينة تسأل عن السجائر.. كان معها سمك.. أخذنا منها سمكتين مقابل سلة من السجائر.. صفقة جيدة.. ثم اقترب منا رجل سأل عن السجائر أيضًا.. أعطيناه سلة سجائر مقابل ما معه من تفاح.. ثم رأينا رجلًا يمشي ويضع بعض الدجاجات في قفص.. أيها الرجل نريد منك دجاجتين.. نظر إلى ما معنا.. هل لديكما سجائر؟ لا لم يعد لدينا.. فانصرف عنا.. وجاء أكثر من شخص بعده يسألون عن السجائر.. حتى إن "جاندال" بدل أربعًا من سلالنا بسلال من السجائر من السوق حتى تكون لدينا سجائر تكفي السؤالات.. وبهذه

الأربع سلال من السجائر حصلنا على لبن ولحم وخبز وشعير.. وعدنا إلى المنزل نطهو اللحم.. ثم وضعناه على الطاولة نأكله.

قال "جاندال" وفمه مليء بالطعام وهو يضحك:

السجائر.. يا لها من مفارقة! بعد حين من الزمن عندما يكثر تعامل الناس بالمقايضة في قرية ما.. يجدون أن هناك شيئًا ما مطلوبًا دائمًا في قريتهم.. كل الناس تريده.. شيء طويل الأجل.. ليس تفاحًا مثلًا فيفسد بعد ثلاثة أيام.. بل هو شيء يحافظ على جودته مدة طويلة.. فيمكنك أن تستبدله غدًا أو بعد غد أو بعد أسبوع.. مع الوقت سيصبح هذا الشيء نقودًا في القرية.. وفي قريتنا هذه صارت السجائر نقودًا.. في بعض القرى الأخرى يصبح التمر نقودًا مثلًا أو الصدف.

فتح "جاندال" جهازه اللوحي أمامنا وقال:

انظرا هاهنا.. هذه قائمة الأسعار في هذه القرية الآن.. اللحم يعادل ٢٠ سيجارة.. الدجاج يعادل ١٤ سيجارة.. اللبن بـ٥ سجائر.. والملح بسيجارتين.. هذا طبعًا حسب عرف الناس في القرية.. هكذا يكون تقديرهم دائمًا أثناء التبادل في السوق.. ولكن هناك مشكلة.. تعالوا معي نقف في الخارج قليلًا أمام المنزل.

وقفنا قليلًا أمام المنزل.. كانت الشمس قد بدأت تغرب.. أشار "جاندال" إلى جارنا الذي كان منهمكًا في زراعة شيء ما في حقله.. ثم أشار إلى جارنا الآخر الذي على الناحية الأخرى والذي كان منهمكًا مع أطفاله أيضًا في زراعة شيء ما في حقله.. تلقائيًا نظرت إلى بقية البيوت.. الكل كان يزرع شيئًا ما في حقله.

قال "جاندال":

إنهم يزرعون السجائر.. يزرعون النقود بأيديهم.. هل رأيتم أعجب من هذا؟

سمعنا صوت رعد شديد يضرب في الخارج.. قال "جاندال" بجزع.. يا إلهي! إنها الأمطار. كان كل أهل القرية ينظرون إلى السماء بذعر.. ما بال هؤلاء القوم؟ قال "جاندال":

هذه الأمطار.. لو ظلت على كثافتها لفترة طويلة.. ستدمر محصول التبغ تمامًا.. المطر الكثير يفسده.

ظل كل واحد جالسًا أمام باب منزله ينتظر بيأس أن يتوقف المطر.. لكنه لم يتوقف.. بل زاد.. وظل يسقي الأرض ساعات وساعات.. ولمَّا توقف أصبحت ترى

كثيرًا من الشخصيات الكارتونية غاضبة ومنهارة على محاصيلها من التبغ.. الأمر أشبه بأن يكون لديك مخزن من النقود وفجأةً يحترق.

قال "جاندال":

الاعتماد على الشيء الذي يُزرع كنقود كان حلًا خطيرًا بالنسبة للبشر.. لأنه يخضع كما ترون لتقلبات الطقس.. يمكن أن تمر أوقات عجاف تفسد ما تزرعه من النقود.

بقيت صامتًا قليلًا أفكر فقال "جاندال":

كانت فكرة فاشلة فكرة السجائر كنقود.. أو أي شيء من المزروعات.. لذلك وجد البشر فكرة أفضل.. لكن دعنا نخرج من هذه القرية المملة التي لن تتغير أبدًا.. وتعالوا بنا إلى حيث التغيير الحقيقي.. تعالوا بنا إلى مصر.

■ ■ ■

دار "جاندال" حول نفسه مثل تازمانيا وأخذ يلف حولنا في دورانه هذا.. وفجأةً هبط الليل.. وفجأةً أخرى انقشع الليل ليظهر منه نور الصباح.. أصبحنا في مكان آخر.. حي غريب.. ومبانٍ حجرية.. وأناس ذوو بشرة سمراء يرتدون على رؤوسهم مناشف.. وضع أحدهم يده على كتفي فالتفتُّ إليه.. إنه "جاندال".. كان يرتدي منشفة على رأسه مثلهم ويؤدي بيده حركة فرعونية وهو يقول:

مرحبًا بكما في مصر.. أرض الحضارة كلها.. نحن في بداية عصر الفراعنة.. ما رأيكما؟ هل أبدو وسيمًا في الزي الفرعوني؟

قلت له:

سخيف جدًا.

قال لي:

أنت أيضًا ترتديه بالمناسبة.

نظرت إلى نفسي.. رأيتني وقد أصبحت فرعونيًا أضع على رأسي منشفة.. على غرابة هذا الزي إلا أنه أنيق ونظيف ويشعرك أنك تنتمي إلى كيان ما.. قال "جاندال":

تعالوا نحاول بيع هذا الجهاز اللوحي.. لقد أصبح عديم الفائدة.. فلا يوجد إنترنت هنا.

وقفنا أمام رجل فرعوني يجلس على منصة يبيع علها بعض السمك الطازج.. ومكتوب على منصته لوحة باللغة الهيروغليفية.. كيف يقرأون هذا الشيء؟! صورة طير ثم مسمار ثم ثعبان.. لا فائدة من محاولة فهمها على أي حال.. نظرت إلى "جاندال..

كان يريد أن يبيع جهازه اللوحي للرجل الفرعوني.. كان يحدثه بحماس.. والفرعوني ينزل حاجبًا ويرفع الآخر في شك.. ولم يقتنع الفرعوني إلا عندما وضع "جاندال" يده على كتف الرجل ورفع الجهاز بيده الأخرى وابتسم ليأخذ صورة "Selfie" مع الفرعوني.. ثم ابتسم الفرعوني لأول مرة لما رأى الصور.. وظنه طبعًا من قبيل السحر.. لكنه فرح به جدًا وأخرج كيسًا يبدو مليئًا عن آخره بشيء ما وأعطاه لجاندال وهو راضٍ.

أخذ "جاندال" الكيس وفتحه وأدخل يده فيه وقبض قبضةً مما في داخله وأخرجها أمامنا.. نظرنا إلى ما في يده.. قطع من الذهب الخالص.. صغيرة متكسرة غير متماثلة الحجم أو الشكل.. هذا ذهب خام فيما يبدو.. قال "جاندال":

في هذه الحضارة ابتكر الفراعنة نظامًا ماليًا جديدًا.. الذهب.. هذا لا يمكن أن تنام وتزرعه في مزرعتك.. إنما هو شيء ثمين نادر بريقه يخطف الأبصار.. إن هذه القطع غير متماثلة الحجم كما ترى.. ولا توجد أسعار معينة.. كل شيء يخضع للتقدير.. الرجل أعطانا كل ما معه من مال لأن الجهاز اللوحي خلب لبه.. انظر إليه.

كان الفرعوني يرفع الجهاز ويصور الناس الذين تجمعوا حوله ليروا هذا الشيء الغريب.. قال "جاندال":

لو كنا بعناه أرزًا أو خبزًا مثلًا.. كان سيعطينا قطعة صغيرة من الذهب أو قطعتين.. ولو بعناه دجاجة كان سيعطينا قطعة كبيرة من الذهب.. الأمر تقديري.. ولكن يـ..

صدرت في الأجواء صيحة عالية كأنها صيحة ديناصور أنثى.. التفت ثلاثتنا إلى مصدرها.. كانت هناك امرأة عملاقة تمشي وتصيح في القرية.. كانت تبدو مهيبة... بردائها الطويل الذي يشبه رداء الأميرات.. وملامحها الرومانية المميزة ونظراتها الحادة.. كانت ترتدي تاجًا من القماش على رأسها.. تراجع "جاندال" بحذر.. وتفرق الناس هاربين.. وترك الرجل الفرعوني منصته ورمى الجهاز اللوحي وهرب وهو يلعن شراءه للسحر الذي لا بد أنه السبب في غضب الآلهة ونزولها إلى الأسواق.. داست المرأة العملاقة على الجهاز اللوحي فكسرته في الحال.. قال "جاندال":

هناك خطأ ما.. هذه جونو مونيتا.. ما الذي أتى بها إلى هنا؟!

صرخت المرأة مرة ثانية بغضب.. فقلت له مرتعبًا:

من هذه يا جاندال السوء؟

أخرج من جيبه ورقة طويلة وبرزت نظارات على عينيه فجأةً وهو يقول:

جونو مونيتا إلهة المال عند الرومان.. زوجة ملك الآلهة "جوبيتر" وأخته في نفس الوقت.. أقوى إلهة رومانية.. أميرة الإلهات.. أم "مارس" إله الحرب.. وأم "فولكان" إله النار.. ومنها جاءت كلمة Money الإنجليزية التي تعني النقود.. لكنها..

لم أسمع بقية كلامه.. كنت أنظر إلى المرأة العملاقة ساهمًا.. لم تكن هذه هي أغرب شيء رأيته في أرض السافلين.. لكن المرء يصل لحد من التحمل.. بعده يفقد التركيز.. امرأة عملاقة.. إلهة رومانية.. تمشي في مدينة فرعونية.. وتصرخ مثل الديناصور.. أيقظتني ضربة على رأسي من يد "جاندال" النحيفة وهو يقول:

هيا تحرك يا هذا.. لنخرج من هنا.. هذه المرأة صراخها نذير شؤم.. هي تصرخ هكذا لتنذر الجميع بأن كارثة ستحل بهم قريبًا.. لذلك اسمها مونيتا يعني المنذرة.. هيا لا تضع الوقت.

■ ■ ■

أفقت من شرودي.. وانطلق بنا "جاندال" بعيدًا قليلًا عن هذه المباني الحجرية كلها.. خرجنا من القرية الفرعونية واقتربنا من نهر جميل المنظر.. كان بداخل النهر رجل إغريقي يستحم.. ويبكي.. ويصب على نفسه الماء بحزن.. ما بالك يا إغريقي؟ نظر إلينا والهم فوق رأسه.. قال أن اسمه "ميداس".. وأنه كان ملكًا إغريقيًا يعيش بين قصور وجوارٍ.. وأنه كان يعشق الذهب.. حتى جعل لنفسه مرة في قصره الكبير بركة غنية بقطع الذهب يقفز فيها كل حين ويغمر بها جسده.. وفي صبيحة يوم من الأيام، أدى ميداس هذا خدمة لإله الخمر الوسيم "ديونيسوس".. فأعجب به "ديونيسوس" جدًا ورجاه أن يطلب منه أي أمنية يريدها ليحققها له على الفور.

فطلب منه "ميداس" أمنية... أن يتحول أي شيء يلمسه إلى ذهب.. وعلى الفور حقق له "ديونيسوس" الوسيم أمنيته.. فقفز قلب "ميداس" فرحًا مستبشرًا.. وبدأ يجرب.. لمس الطاولة فتحولت إلى ذهب.. ثم لمس السرير فتحول إلى ذهب.. لم يكن في العالم ساعتها أحد أسعد من ميداس، فسمعت ابنته صوت سعادته فدخلت عليه فرحة مستبشرة فاحتضنها.. ولما احتضنها تحولت

إلى ذهب هي الأخرى وماتت متحجرة بذهبها.. ومنذ ذلك اليوم وهو يلعن هذه القدرة ويريد التخلص منها.. نصحه "ديونيسوس".. أن يستحم في نهر الباكتولوس حتى يشفى.. وها هو ذا يستحم فيه ويبكي ويلعن طمعه أمامنا.

كان "جاندال" يلوك شيئًا ما بين أسنانه فنظر إلى ميداس بعدم اهتمام وقال له:

"ميداس" هلا أسديت لنا خدمة.. حول لنا شيئًا من هذه الأحجار التي تحت أقدامنا إلى ذهب.. نحن مسافرون وسنحتاج مالًا.

قال "ميداس" بغضب:

اغربوا عن وجهي.. ذلك الذهب الملعون.. لقد شفيت منه الآن.. لكن قوة الذهب التي كانت عندي انتقلت إلى هذا النهر.. فصار مليئًا بالذهب.. احفروا تحته أو حوله واغرفوا ما طاب لكم من الذهب.

فجأةً هجم على النهر مئات الأشخاص وكأنهم سمعوا ثرثرة "ميداس" وبدأوا يستخرجون الذهب من النهر.. قال "جاندال":

هؤلاء سكان ليديا في هضبة الأناضول.. لقد أتوا بقبعاتهم الشبيهة بأذناب النحل.. وسيكتشفون بعد قليل أن نهر الباكتولوس مليء بالذهب.. وسيصير الباكتولوس هو أساس اقتصادهم كله.. لكن الليديين اخترعوا شيئًا جديدًا.. صـ

قاطعه صوت "ميداس" يصرخ:

أيها الحمقى.. إن الذهب هذا لعنة.. لعنة.. لا تجعلوه في قلوبكم.. اسألوني أنا.

جاءه رجل يرتدي تاجًا من الذهب المرصع بالماس ونادى عليه وقال:

أنت أيها الرجل الفقير الحكيم.. تعال هنا.. سأعطيك نظير حكمتك.. خذ هذه.

نظر إليه "ميداس" في بلاهة ونظر إلى الشيء الذي يريد أن يعطيه إياه.. كوين ذهبي عليه صورة أسد.. قال له صاحب التاج:

هيا خذها مني أيها الفقير.. ما رأيك فيها؟ لقد صككنا الذهب إلى كوينات.. ونحتنا عليها رموز مملكتنا.. وجعلناها نقودًا بدل أن نتعامل بقطع ذهب خام غير متماثلة.. هل رأيت شيئًا أجمل من هذا أيها الفقير الحكيم؟

تحولت ملامح "ميداس" من البلاهة إلى الغضب وهجم على الملك في ثورة.. قال "جاندال":

ياللسخرية! "ميداس" يقال له الفقير الحكيم.. إنه لا يدري أن "ميداس" هذا كان يملك الأناضول كاملًا يومًا ما.

حول "جاندال" نظره عن المشهد الكارتوني لميداس وهو يتشاجر وقال:

هم أول من حول الذهب إلى عملات منحوتة.. ليديا.. ثم تبعتهم باقي الحضارات.. و..

رأيت يدًا تمسك بكتف "جاندال" من ورائه في غضب.. نظرت محاولًا معرفة صاحب اليد.. التفت "جاندال" وراءه في رعب ليجد رجلًا صينيًا قصيرًا يمسك بكتفه بيد ويرفع باليد الأخرى سيفًا يوجهه إلى أنف "جاندال".. ابتلع "جاندال" ريقه حتى ظهرت حنجرته وقال:

ما الـ.. ما الذي تريده أيها السيد؟

أشار الصيني إلى يمينه... نظرنا فوجدنا مجموعة من الصينيين يقفون وكل واحد منهم يمسك بكلتا يديه شيئًا ذهبيًا يشبه القارب الصغير وينزلون رؤوسهم في خشوع.. ابتلع "جاندال" ريقه وقال:

حسنًا.. معذرةً معذرةً.. الصينيون هم أول من فعلها.. هم أول من صكوا الذهب لكن ليس إلى كوينات.. بل إلى قوارب ذهبية صغيرة تدعى "سايسي".. فعلوا هذا قبل ٧٠٠ سنة من ظهور مملكة ليديا أصلًا.. معذرةً أيها الصيني الجميل.. جل من لا يسهو.. هؤلاء الصينيون لا يتسامحون في تاريخهم.

فجأةً أضاءت السماء بألعاب نارية حمراء جميلة وتعلق الكثير من المصابيح الحمراء المميزة فوق رؤوسنا.. وبرزت مناطيد حمراء تحمل شعلات في بطنها وتنطلق ببطء إلى السماء.. وارتدى بعض هؤلاء الصينيين زيًا تنكريًا لأسد ملون وصاروا يرقصون به رقصات عجيبة.. وبرز تنين أحمر مصنوع بعناية من اللامكان وأخذ يطير في السماء أمامنا.. وأنزل الصيني سيفه وأمسك "جاندال" وقال له:

شكرًا أيها الرفيق.. نحن نحتفل بعيد رأس السنة الصينية الآن.. تعال أنت ورفاقك.. لا بد أن نعطيكم حق الضيافة.

طالعت حولي.. لم يعد هناك أثر لنهر.. ولا لأبناء ليديا.. ولا ميداس.. فقط صينيين يجلسوننا على مائدة طعام ويحتفون بنا.. والسماء من حولنا تضيء بشكل رائع.. ونزلت على مائدتنا أطباق من أصناف غريبة الشكل.. قال لنا المضيف الصيني:

تفضلوا.. هذا الطعام المقدس.. "الجياوزي".. زلابيا صينية موضوعة في إندومي.. تفضلوا.. إنها شهية جدًا.. نسمها هنا الخيوط الذهبية مع السبائك الفضية.. الخيوط الذهبية هي الإندومي والسبائك الفضية هي الجياوزي.. لا

تظنوا أن الجياوزي مجرد زلابيا.. الجياوزي هي أول نقود مطبوعة في التاريخ.. أنتم تأكلون الآن أول نقود ورقية في العالم.

وقف الرجل الصيني وفرد يديه إلى السماء.. فانطفأت كل المصابيح الحمراء المعلقة وتوقفت الألعاب النارية وتغيرت الأجواء إلى أجواء صينية قديمة.. وكنا نحن ما زلنا جالسين على نفس طاولتنا لكن في شارع صيني قديم.. كان "جاندال" منهمكًا في الأكل من الزلابيا غير عابئ بكل هذا.

قال الصيني:

إنه عهد الإمبراطور السمين "تايزو".. هذا الرجل فعل شيئًا غريبًا جدًا في تاريخنا.. صادر كل النقود الذهبية التي مع الشعب ومنع استخدامها كلها.. وأعلن أن هناك نقودًا جديدة ستستخدم في الدولة الآن.. النقود الحديدية.. أصبح على كل واحد من الشعب أن يسلم نقوده الذهبية للدولة فتعطيه الدولة بدلًا عنها نقودًا حديدية.. كل كوين من الذهب يسلمه المواطن تعطيه الدولة مقابله عشرة كوينات من الحديد.. انظروا هناك.

نظرنا فإذا رجل صيني يعلق حبلًا على كتفه.. وهذا الحبل معلق عليه عدد ضخم جدًا من الكوينات الحديدية.. قال الصيني:

هذا الرجل البائس يحمل ألف كوين من الحديد على كتفه.. وكل ألف كوين من الحديد يسمى جوان.. هذا الرجل حياته بائسة جدًا.. فلو أراد أن يشتري مترًا واحدًا من القماش سيحتاج إلى ٢٠ جوان.. أي ما يعادل ٨٠ كيلوجرام من النقود الحديدية.

كان الناس يمشون في الشارع ومعهم جوانات.. وبعض الجوانات يحملها اثنان.. وبعضهم يجر الجوانات جرًا على الأرض.. حقًا كانت حياتهم عصيبة.. قال الصيني:

ثم جاء أحدهم بفكرة جميلة.. شهادة حديد.. يذهب المواطن ويودع جواناته الحديدية هذه في محل يدعى الجياوزي.. ويأخذ مقابلها شهادة اسمها الجياوزي.. كل جوان يعادل ورقة جياوزي واحدة.. كان حلًا عبقريًا.. وصار الناس يمشون في الأسواق فرحين يحملون أوراق الجياوزي ويتعاملون بها.. كانت هذه هي أول ورقة نقدية في العالم.. الجياوزي.. وهي التي ظللنا نتعامل بها ما يقرب من ٣٠٠ سنة من تاريخنا.. ثم بعد ذلك انتهى التعامل بها وأصبحت ذكرى.. أصبحت زلابيا.

سعل جاندال سعالًا شديدًا وقال:

ما هذا أيها الصيني.. كوين بداخل طعامي؟ هل تريد أن تقتلني؟

ابتسم الصيني ابتسامة واسعة وقال:

من يأكل الجياوزي ويجد فيها كوينًا ذهبيًا فهو صاحب حظ سعيد جدًا جدًا.. هذه هي التقاليد الصينية.. قل لي هل أعجبتك القصة؟

قال "جاندال" وهو يأكل:

أية قصة؟

قلت مغيرًا الموضوع لتجنب غضب الصيني:

إذًا فأنتم أول من صك الذهب عملات.. وأول من أصدر أوراقًا نقدية.

قال الصيني بخشوع:

شي دا.. تياااووو.

قلت له:

ماذا؟

قال "جاندال":

إنه يقول لك نعم وأفتخر.. والآن هيا من هنا.. فأمامنا رحلة طويلة.. لن نقضها في أكل الزلابيا.

* * *

قمنا من مقاعدنا وشكرنا مضيفينا الصينيين الذين أخذوا ينحنون كثيرًا.. وبدأنا نمشي وراء "جاندال" الذي قال لنا:

هل صرة الذهب التي أخذناها من الفرعوني مع أحد منكم؟

قلنا لا.. ليست مع أحد منا.. أدخل "جاندال" يده في جيبه وأخذ يفرغه من الأشياء الكارتونية الغريبة فيه.. حتى أخرج الصرة أخيرًا... قال لنا:

حتى نكمل رحلتنا لا بد أن نسافر إلى إيطاليا.. لكني أخاف على هذه الصرة.. الطريق طويلة ويمكن أن ينهبها منا قطاع الطريق.

قلت له ساخرًا:

هل تسخر منا يا هذا.. أنت نقلتنا من الأناضول إلى الصين في لحظات والآن تحدثني عن طريق وقطاع طرق وسفر من الصين إلى إيطاليا؟!

قال "جاندال" بلا مبالاة:

الصينيون هم الذين أتوا إلينا هناك ثم أخذونا إلى ديارهم بطريقتهم.. ثم إن أرض السافلين لا قواعد فيها.. لكنها قد تضع قواعد كنوع من الثورة على اللاقواعد.. دعك من هذا الآن.. نحتاج الآن إلى طريقة نحمي بها النقود أثناء السفر.

أخذ يفكر قليلًا ثم قال:

مهلًا تذكرت.. نعم.. الفرسان.. الفرسان هم الحل.. لكن كيف نستدعي الفرسان في أرض السافلين؟ لدي فكرة.

اعتدل "جاندال" وأغمض عينيه وأخذ وضعية شخص سيترنم بشيء ما.. وبالفعل غنى قائلًا بلحن قوطي:

يا إله النور.. أيها المخلد.. جيشنا صار بعدد شعيرات يدي.. قتالنا لأجل قضيتك يحمينا من كل شيء.. يا إله النور.. أيها المخلد.

فجأةً سمعنا ضرب خيل في الأرض.. وجاء فارس يرتدي زيًا أبيضَ عليه صليب أحمر كبير وخوذة حديدية مربعة مخيفة.. قال له "جاندال":

نود السفر إلى إيطاليا وليست لدينا أغراض مهمة إلا هذه الصرة.

تحركت خوذة الرجل بما يعني التفهم.. فمد يده إلى "جاندال" فأخذ الصرة ووضعها في حقيبة وراءه.. ثم أخرج ورقة مميزة الشكل وقال:

من منكم سيستلمها؟

أشار "جاندال" إلى نفسه.. قال له الرجل بصوت أعطته الخوذة رنينًا خاصًا:

اسمك وسنك ووطنك.

رفع "جاندال" قامته وقال:

الجنرال جاندال شيراي.. ٤٥ سنة.. الوطن الحالي عالم النقود أرض السافلين.

قال الرجل:

كلمة السر.

قال "جاندال":

جمجمة القمر.

نظر له الفارس نظرة مستغربة لم تخفها الخوذة وقال:

فليكن يا جنرال.. نقودك تنتظرك في إيطاليا

و أخذ يكتب شيئًا على الورقة التي أخرجها.. ثم أعطاها لجاندال وانصرف بحصانه.. نظر لنا "جاندال" وقال:

هيا نبدأ رحلتنا.. طبعًا تنتظرون تفسيرًا لما فعلت.. سأخبركم إياه بينما نمضي.

تغير منظر الأرض التي نمشي عليها واختفت الموجودات من حولنا ولم نعد نرى سوى أرض وسماء.. وبدأ "جاندال" يمشي ونحن وراءه.. بدأت ألاحظ أن تكوينات الأرض والمنظر من حولي يبدو كشيء مألوف نوعًا ما.. ثم فطنت إلى الأمر في النهاية.. نحن نمشي على خريطة الكرة الأرضية.. وها نحن الآن على قارة آسيا متجهين غربًا ناحية أوروبا.. كنا نمشي وتقابلنا مرتفعات بسيطة نصعدها ثم نتزلها ونمضي.. ولو قابلنا نهر فهو يبدو أمامنا كأنه حفرة فيها ماء لا نحتاج إلا أن نوسع أقدامنا لنمر عبره.. وصلنا إلى تركمانستان ثم قابلنا بحر قزوين.. فقفزنا فيه وكأنه حمام سباحة وظللنا نسبح قليلًا حتى وصلنا لجهته الأخرى.. ثم خرجنا منه فأصبحنا في جورجيا.. ثم قابلنا البحر الأسود.. فقفزنا فيه هو الآخر وكأننا في نزهة.. قال "جاندال":

من أعطيناه نقودنا هو فارس من فرسان الهيكل.. وهؤلاء فرقة عسكرية أنشأها الصليبيون بعد احتلالهم القدس.. فرقة مسيحية الديانة يهودية العرق.. كانت مهمتهم حماية الحجاج المسيحيين القادمين إلى بيت المقدس.. لكنهم بدلًا من أن يشتغلوا بحماية الحجيج أنفسهم.. صاروا يشتغلون في حماية أموال الحجيج.. ثم تطوروا للشغل في حماية أموال المسافرين عامة في كافة أنحاء المملكة الصليبية.

قابلنا دولفين لطيف صعدنا عليه وأكملنا رحلتنا في البحر الأسود.. قال "جاندال" وقد استلقى فوق الدولفين:

كانت قلاع هذه الفرقة العسكرية هي الأكثر تحصينًا في المملكة كلها.. لذلك كانت أكثر مكان آمن يمكن أن تحفظ فيه أموالك الذهبية.. وهم كما رأيتم يأخذون من المسافر أمواله الذهبية ويعطونه بها شهادة.. وعندما يصل إلى وجهته.. يذهب مباشرة لمقر الفرسان هناك ويعطيهم الشهادة.. فيعطونه أمواله الذهبية.. ونحن عندما نصل إلى إيطاليا.. سنذهب لمقر الفرسان ونعطيهم هذه الشهادة ونأخذ أموالنا.. أو يمكن أن نفعل شيئًا آخر..

خرجنا من البحر الأسود ومشينا على تركيا ومنها إلى بلغاريا و"جاندال" يكمل:

أن نستخدم هذه الشهادة التي أعطونا إياها كنقود.. فمن كثرة ما أودع الناس أموالهم عند الفرسان.. نالوا ثقة المجتمع الأوروبي كله فحتى الملوك والأمراء كانوا يودعون عندهم أموالهم.. وصارت هذه الشهادات التي يعطوها تكافئ الذهب.. واستخدمها الناس كنقود.. يعني هذه الشهادة التي معنا تكافئ صرة من الذهب.. ويمكننا شراء أي شيء نريده بها.. كانت هذه هي ثاني ورقة نقدية في التاريخ بعد الجياوزي.

وقفزنا من بلغاريا إلى إيطاليا و"جاندال" يقول:

اغتنوا جدًا جدًا وصاروا أكبر مؤسسة مالية في العالم.. هل تدري أن مؤسستهم هذه كانت هي البذرة الأولى للبنوك؟ كانوا يقرضون الناس بالربا تمامًا مثل البنوك الحديثة.. ورغم أن الربا محرم في المسيحية فإنهم كانوا يتحايلون عليه بأن يسموا الفائدة التي يأخذونها أجرة.. ونقل الأموال الذي فعلوه معنا الآن أيضًا يأخذون عليه أجرة.

وفي إيطاليا جلسنا قليلًا على الأرض و"جاندال" يختم:

في النهاية افتضح أمرهم بأنهم كانوا منحرفين يعبدون كيانًا شيطانيًا اسمه "بافوميت" وقبض عليهم الملك وأحرقهم في ميدان عام.

قلت لجاندال بهدوء:

هذا يعني أن نقودنا قد ذهبت مع الذاهبين؟

أخرج "جاندال" شهادة الفرسان المالية وقال:

نتمنى أن نصل لمقرهم قبل أن.

ولكن فجأةً احترقت الورقة التي في يده ببطء.. مط شفتيه ورفع حاجبيه قائلًا:

لقد أحرقهم الملك.. هذا واضح.. لقد فقدنا مالنا.. لا مشكلة.. لقد وصلنا إلى إيطاليا.. وكل ما مضى من رحلتنا شيء.. وما سيأتي هو شيء آخر تمامًا.. من هنا بدأ كل شيء.. من إيطاليا.

...

في إيطاليا جلسنا على مقهى من الطراز الذي تكون مقاعده على رصيف الشارع.. المباني هنا تخلب البصر.. نظر "جاندال" إلى القائمة وطلب أشياء كثيرة

لست أدري كيف سيدفع ثمنها وقد احترقت نقودنا قبل قليل.. لكنه كان يأكل ويشرب بكل ثقة.. جاء أحدهم وجلس على مقعد فارغ في طاولتنا.. نظرنا إليه.. إنه سكوربيون.. انظر إليه.. لقد أصبح كارتونيًا.. لكن كارتونيته أعطته مظهرًا أفضل.. ليس مظهرًا سخيفًا مثلك ومثلي.. كان سكوربيون معه جهاز كمبيوتر محمول.. وضعه على الطاولة وأدنى مقعده منك.



انطلق بنا "جاندال" إلى لومباردي في شمال إيطاليا.. كانت بلدة جميلة فيها الكثير من البيوت الملونة ذات السقف الأحمر.. والكثير من الأرصفة والناس.. والكثير من الصخب والضجيج.. والكثير من رنين النقود التي تتبادلها الأيدي بيعًا وشراءً.. إنها لومباردي في القرن الحادي عشر الميلادي.. مركز التجارة في العالم كله وقتها.. ظللنا نمشي بين الناس الذين كانت رسماتهم الكرتونية متقنة على الرغم من اختلافهم واختلاف أزيائهم.. حقًا إن راسم هذا المشهد يستحق جائزة.

دخلنا لما يشبه الساحة الواسعة جدًا والتي نصب الناس فيها كثيرًا من المنصات.. يبيعون ويشترون.. توقف بنا "جاندال" أمام إحدى المنصات.. كان يقف وراءها رجل يرتدي ملابس فاتحة الألوان ويرتدي قبعة مميزة الشكل على رأسه.. همس لي "جاندال":

اسمع.. نحن نحتاج مالًا.. هذا الرجل على المنصة يهودي.. تاجر حبوب.. سنمثل أمامه أننا مزارعون يحتاجون قرضًا.. اليهود في هذا العصر أغنياء للغاية.. وهم قد اشتهروا بهذه المنصات في لومباردي إيطاليا.. يقرضون المزارعين بفائدة.

اقترب "جاندال" من اليهودي محييًا:

مرحبًا يا رفيق.. نحن ثلاثة من المزارعين ونحتاج قرضًا.. تعلم أننا في بداية موسم الزراعة.

قال الهودي بصوت رفيع وابتسامة صفراء:

مرحبًا بكم.. مع شيلوك أنتم دائمًا تغتنون.. وشيلوك يغتني.

همست لجاندال:

شيلوك! الاسم مألوف يا جاندال.. أليس هو الهودي اللعين شيلوك من مسرحية تاجر البندقية؟ الذي أقرض أنتونيو على شرط أنه إذا لم يدفع سيأخذ باوندًا من لحمه.. إنه هو.. أنا أذكر وصفه. هل جننت يا "جاندال" لتقترض من هذا؟

أشار لي "جاندال" أن أخرس واستمر يحادث "شيلوك":

نريد مائة أوقية من الذهب.. وسنردها في موسم الحصاد.

ضيق "شيلوك" عينيه وقال:

لا مشكلة.. ستردها لي آنذاك مائة وعشرين أوقية.

قال "جاندال" محتجًا:

هذا ليس عدلًا.. هذا اسمه ربا يا شيلوك.

سكت "شيلوك" كمن تفاجأ بما سمع لوهلة ثم انفجر ضاحكًا:

أيها السيد.. كلمة ربا هذه كلمة قديمة.. ما آخذه منك هذا ليس فائدة.. إنما هو غرامة.. لأنك تعطل لي أموالي.. ما رأيك هل تريدني أن أقرضك هكذا محبة في وجهك المثلث؟ ثم إنني يهودي يا عزيزي.. ونحن الهود في شريعتنا مسموح لنا أن نتعامل بالربا مع غير الهود.

قال "جاندال":

هذا ظلم وافتراء.. يستحيل أن يأمر ربنا بالظلم.. شكرًا على لا شيء يا شيلوك.

قال "شيلوك" بابتسامة:

العفو.

وقفنا مع "جاندال" في الساحة قريبًا من منصة "شيلوك".. كان "جاندال" يراقبه وهو يعمل.. ثم قال "جاندال":

هناك الكثيرون مثل "شيلوك".. كلهم يهود.. وكلهم تجار حبوب.. انظر حولك.. إنهم يقفون على المنصات ويرتدون قبعات.

نظرت حولي.. حقًا هناك الكثير من أصحاب الملابس ذات الألوان الزاهية يرتدون قبعات متنوعة الأشكال.. وكلهم يقفون على منصات مشابهة لمنصة شيلوك.. قال "جاندال":

إنهم يفعلون أكثر من مجرد الإقراض بالربا.. إنهم يتاجرون بالعملات أيضًا.. لأن لومباردي هي مركز للتجارة ففيها عملات ذهبية من مختلف أنحاء العالم.. وهم هنا يحولون العملات لمن يريد.. ليس هذا فقط.. بل هم يحفظون أموال الناس في خزائن لديهم.. ورغم أنهم يأخذون أجرة ليست هينة على حفظ المال فإن الناس تثق فيهم لأنهم أغنياء جدًا ويعرفون كيف يحافظون على المال.. إقراض.. تحويل عملات.. إيداع أموال.. هل تعرف ما اسم هذه المنصات التي يقفون عليها؟

نظرت له متسائلًا فقال:

"بانكو".. هذه المنصات اسمها بانكو.. ومنها جاءت كلمة بنك التي تعرفها.. من هنا كانت ولادة البنوك.. من لومباردي إيطاليا.. من عند الهود.

نظر "جاندال" إلى الهودي "شيلوك" ونظرت معه.. لم يكن أمام "شيلوك" عملاء.. فكان ساهمًا في أمر ما.. نظرت للهودي التاجر.. ترى فيمَ يشرد؟

فجأةً ظهرت فوقه سحابة كمثل التي تظهر فوق شخصيات الكوميكس لتحكي ما يقولون.. ونظرنا إليها.. كانت ستعرض ما يفكر فيه الهودي على شكل مشاهد.. أخذني "جاندال" من يدي واتجهنا ناحية الهودي..

أتيناه من ظهره.. ففعل "جاندال" شيئًا عجيبًا.. قفز داخل السحابة التي فوق "شيلوك".. ومد يده النحيفة لي وشدني ثم مددت يدي إليك وشددتك.. ودخلنا كلنا إلى أفكار "شيلوك" الهودي لنشاهدها..

نعم لقد جمعنا ثروة.. ثروة لم يعملها أحد قبلنا.. امتلكنا الذهب.. فلا أحد في العالم يجرؤ أن يقول أنه يمتلك ذهبًا أكثر منا.. ليس لأننا أصحاب حظ عظيم.. بل لأننا لا نعمل منفردين أبدًا.. بل نعمل مجتمعين.. أذكر تلك الأيام القديمة.. التي ربما تكون بعد خمسمائة سنة من مولد المسيح.. عندما بدأنا رحلة الذهب.. بدأنا تجارًا عاديين.. نتاجر في أي شيء وكل شيء.. لكن الفرق أننا كنا نساعد بعضنا بعضًا دائمًا.. فكرنا في فكرة ربما هي أعظم فكرة أتت على أدمغتنا.. هذا العالم بدأ ينفتح بعضه على بعض.. لماذا نتاجر في مكان واحد إذًا؟ لم لا نرتحل بين الدول ونتاجر؟ لِمَ لا نبيع أشياء الغرب لأهل الشرق.. ونبيع أشياء الشرق لأهل الغرب؟ وضعنا الفكرة موضع التنفيذ على الفور.. أسسنا

ثلاث طرق نمشي فيها لنتاجر في كل الدول التي نمر عليها.. نشتري من هنا لنبيع هناك.. ونشتري من هناك لنبيع هنا.. ثلاث طرق أنشأناها كلها تبدأ بإسبانيا وتنتهي في الصين.

تاجرنا وتاجرنا.. خمسمائة عام ونحن نتاجر بين بلدان العالم.. في البداية كنا نتاجر في الأشياء التي عليها طلب عالٍ وخفيفة أثناء السفر مثل العطور والمجوهرات والحرير والبهارات والبخور.. ثم تطورنا حسب أحوال البلاد لنتاجر في الأسلحة والفراء والعبيد.. تاجرنا حتى عُرفت أسماؤنا وصرنا أساطير.. لا يمنعنا بحر ولا فلاة.. جمعنا من الذهب أشكالًا وألوانًا.. عملات ذهب أوروبية وعملات ذهب آسيوية وأفريقية.. تاجرنا حتى صارت كلمة يهودي تعني تاجر.. كنا نتحدث كل لغات البلدان التي نمر عليها.. نبيع للعجوز الصينية وللقوافل العربية.. كلٍ بلغته.. كان اسمنا "الرذنية" Radhanite.. وكنا معروفين في السوق بأسمائنا وهيئاتنا وقبعاتنا مختلفة الألوان والأشكال.

ولأننا كنا نعمل مجتمعين ونرفع بعضنا بعضًا درجات في سلم الثروة فقد ابتكرنا نظامًا جديدًا لم يسبقنا إليه أحد.. نظام الأوراق النقدية.. ابتكرناه حتى نؤمن رحلاتنا الطويلة من اللصوص.. كان اليهودي الرحالة منا عندما يبيع أشياءه ويحقق مكسبًا كبيرًا.. فبدل أن يسافر بهذه الثروة عائدًا إلى بلده الأم مخاطرًا بثروته.. يمكنه أن يعطي هذه النقود لأحد التجار اليهود الرذنية في الدولة التي هو فيها.. فيعطيه اليهودي الرذنية ورقة مكتوب فيها المقدار الذي أودعه عنده من الذهب.. ورقة تساوي الذهب.. ورقة نقدية.. ويسافر بها اليهودي الرحالة إلى بلده الأم ولا يتعرض له أحد لأنه ليس معه أي نقود.. ثم عندما يصل اليهودي إلى بلده يذهب إلى أحد التجار اليهود الرذنية هناك.. فيعطيه الورقة.. فيعطيه الرذنية ذهبًا يكافئ المقدار المكتوب في الورقة.

ليس الصينيون من ابتكر نظام الأوراق النقدية أول مرة بل نحن من فعل.. لكنّا عندما ابتكرناها كان استخدامها بيننا نحن الرذنية فقط.. وظلت بيننا خمسمائة عام.. نؤمن بها تجارتنا ورحلاتنا.. لذلك لم يكن يسرقنا أحد من قطاع الطرق أو القراصنة.. نحن فقط كنا آمنين دون جميع التجار الرحالة.. ثم عممنا طريقة الأوراق النقدية هذه على كل من يريد أن يؤمن ماله عندنا أثناء سفره.. وكنا نأخذ منه أجرة مرتفعة.. وانتشر أمر الأوراق النقدية في طرق الرحلات التجارية.. ثم عندما أُلغي نظام النقود الذهبية في الصين وبدأ عهد الجوانات الحديدية الثقيلة الغبية هذه.. كانوا طبعًا يتعاملون بها حتى في التجارة معنا..

لكنّا لم نتحمل هذا الغباء الحديدي طويلًا لأنه أتعبنا.. فأوحينا إليهم بفكرة الأوراق النقدية.. فابتكروا الجياوزي.. وصارت عملتهم ورقية.. وصاروا يملأون الدنيا ضجيجًا أنهم أول من ابتكر الأوراق النقدية.

ثم كان هناك وجه مثلث.. يبدو منظره عجيبًا جدًا.. يمشي وراءه شخصان.. يتبعانه حيثما ذهب.. "جاندال" أيها الأحمق يبدو أننا تداخلنا في أفكار الرجل.. فلتختبئ في أي زاوية هنا أو هناك.. نظر لي بوجهه المثلث ثم اختبأ كالسنجاب.. ثم أكمل "شيلوك" أفكاره بغض النظر عن هذا الانقطاع الذي لم يفهمه.

بعد خمسمائة عام من التجارة وجمع الذهب.. كان الوقت قد حان لنتوقف عن الترحال ونستقر في كافة بلاد العالم.. خصوصًا أن العالم قد تغير وصارت فيه الكثير من الحروب التي جعلت طرق السفر التجارية غير آمنة أبدًا.. أيضًا ظهر العديد من التجار الكبار في إيطاليا لم يعجبهم منافستنا لهم.. وانتشرت الإمبراطورية الإسلامية وسيطرت على ثلث العالم تقريبًا وظهر في الساحة تجار مسلمون سموا أنفسهم "الكريمي" Karimi.. أخذوا الأضواء منا في كافة قطاعات العالم الإسلامي.. كانوا مفضلين في ثلث العالم أكثر منا.. لكن هذه لم تكن النهاية.. بل كانت منتصف الحكاية.

كان لنا وجود في معظم بلدان العالم من الصين إلى أوروبا.. أغنياء كنا.. لكن لا نحب المظاهر.. الصمت شيمتنا.. تعرف أن عائلة غنية جدًا يهودية تسكن بجانبك لكن لا تسمع لهم حسًا.. أطلقوا علينا لقب الريكس دوز Rex Dues.. لا أدري من أين أتوا بهذا اللقب لكنه كان يمثل العائلات اليهودية الغنية التي تنتشر في بلدان العالم.. بعد هذا الاستقرار اتضح أن كبراءنا يفكرون في شيء آخر تمامًا.. شيء عالٍ.

لا أدري من أين عرف كبراؤنا مكان الذهب الذي خبأه أجدادنا اليهود الأوائل بعد النبي موسى عندما غزاهم البابليون.. عندما دفنوا ذهبهم تحت جبل المعبد في فلسطين ليخفوه من البابليين.. عرف كبراؤنا مكانه تحديدًا بطريقة ما وخططوا للوصول إليه.. خلعنا قبعاتنا ولبسنا خوذات حديدية.. تكلم كبراؤنا مع الصليبيين وأقنعوهم بإنشاء تنظيم من الفرسان في فلسطين يحمي الحجيج.. وأقنعوهم أن يعطوا هذا التنظيم مكانًا فوق جبل المعبد مباشرة.. وهذا ما حدث.. لبسنا خوذاتنا وتظاهرنا بالمسيحية وحب المسيح.. واختارونا نحن لنكون فرسان المعبد الأوائل.

ولمّا أعطونا مكانًا في جبل المعبد.. حفرنا وحفرنا حسب وصف كبرائنا حتى وصلنا إلى الذهب المخبأ فعلًا.. كان مدفونا بعناية شديدة في بطن الجبل.. كنوز من الذهب تكافئ قيمتها كل ما جمعناه أو أكثر.. لكننا وجدنا شيئًا آخر بالأسفل.. شيئًا لا يمكنني البوح بماهيته.. لكنه شيء مهم جدًا وشديد القداسة.. ولما سلمنا هذا الشيء للفاتيكان صار وضعنا مختلفًا جدًا في العالم.. صار تنظيمنا له جميع الصلاحيات الممكنة وجميع الإعفاءات الممكنة وجميع القداسات الممكنة.. وبعد أن حصلنا على كل هذا.. فعلنا شيئًا آخر.

أكملنا طريقنا في جمع الذهب والثروة.. لكن هذه المرة عن طريق التنظيم المقدس الذي نجحنا في إنشائه.. فرسان المعبد.. والذي وجهنا جميع طاقاته ناحية تكوين الثروة وجمع مزيد من الذهب.. لكن هذه المرة ليس بالتجارة.. وإنما بالإقراض بالربا.. وبحفظ أموال المسافرين بطريقة الأوراق النقدية التي كنا نتعامل بها سابقًا.. لكن هذه المرة جعلناها لكل من يريد.. سواء من التجار أو المسافرين العاديين أو من الملوك والأمراء.. وارتفعنا في سلم الثروة والذهب حتى أصبحنا في قمة العالم أجمع.. فنحن أيضًا الذين ابتكرنا نظام فرسان المعبد المالي الذي يجعجعون بأنه أول نظام بنكي.. لقد كنا نحن فرسان المعبد.

حدث ما حدث وكُشفت بعض الطقوس التي كان يؤديها بعضنا خلف الأبواب المغلقة.. فقبض الملك الصليبي علينا وأنهى تنظيمنا تمامًا وعذبنا وأحرقنا في مكان عام.. وقد جاء الأمر على هوى الملوك لأننا كنا مقرضهم أموالًا كثيرة.. فتحللوا جميعًا من قروضهم.. ولكن من قبض عليهم كانوا صغارنا.. أما كبراءنا فقد هربوا بكل الذهب إلى سكوتلاندا.. ومنها انتشروا في أنحاء العالم.. لنبدأ المرحلة الأخيرة من رحلة جمع الذهب.

"جاندال" هذا الرجل يثرثر كثيرًا.. وثرثرته مسمومة.. هلا خرجنا من هنا؟ فليكن يا عزيزي.. أخرج "جاندال" رأسه من السحابة التي فوق "شيلوك" ونظر يمينًا وشمالًا ثم قفز منها إلى الأرض.. ثم قفزنا وراءه.. قال "جاندال":

معذرةً فلا يمكن أن يصلك حب اليهود للذهب والمال إلا عبر كلام شخص يهودي.. هل تدري ما هي المرحلة الأخيرة التي كان يتحدث عنها؟ إنها هذه المرحلة التي هم فيها الآن.. لقد عادوا بقبعاتهم وأصبحوا منتشرين في البلدان الهامة تجاريًا في العالم.. يقرضون الناس ويحفظون ودائعهم ويتاجرون بالعملات وينقلون أموال الناس بين دول العالم بطريقة الأوراق النقدية.. هذه هي المرحلة الأخيرة.. لم يكفهم كل الذهب الذي جمعوه.. بل لقد استكثروا منه.. والآن لم

يكن اسمهم الرذنية ولا فرسان المعبد.. بل صار اسمهم Merchant Bankers.. أي البنكيين التجار.. وسموا بهذا لأنهم كانوا يقومون بكل أعمال البنوك.. وهم الذين أنشأوها أول مرة.

وهنا دخل الساحةَ رجلٌ عجيب الهيئة.. لاحظت دخوله فقط من نظر الناس له وإشاراتهم عليه.. رداء طويل أسود.. نظارة سوداء وقبعة سوداء ولحية سوداء طويلة وسوالف سوداء طويلة.. من هذا يا "جاندال"؟ ابتسم "جاندال" ابتسامة صفراء وقال:

البنكيون التجار اليهود درجات يا عزيزي.. هناك منهم من يقرض المزارعين البسطاء كأصحاب القبعات الملونة الذين رأيناهم.. وهناك من يقرضون الملوك والأمراء.. هؤلاء هم صفوة التجار البنكيين وأغناهم.. هذا الأنيق هو واحد منهم.. هل ترى هيئته؟ هؤلاء لهم وضع خاص في الدولة مختلف عن بقية اليهود.. حتى إن بعضهم أُعطي درجة النبلاء.. تعامل الدول معهم مختلف.. هم يُسمح لهم بكل شيء.. حتى إنهم يسمح لهم أن يذبحوا على شريعتهم اليهودية.. ولو كان كل اليهود في الدولة ممنوعين من هذا.. هؤلاء لهم اسم خاص.. Court Jews.. يهود البلاط.

التجار الرحالة الرذنية Radhanite.. العائلات اليهودية المستقرة Rex Dues.. فرسان المعبد Knights Templars.. البنكيون التجار Merchant Bankers.. يهود البلاط Court Jews.. هذه هي قصتهم إذًا.. وقصة ثروتهم وذهبهم.

■ ■ ■

بدأ المنظر يختفي من أمامنا وتتحول الأرض غير الأرض.. وعدنا إلى بيئة الخريطة.. لكن هذه المرة كان بإمكاننا أن نرى كل الخريطة.. كنا نقف على إيطاليا في قارة أوروبا.. ويمكننا أن نرى باقي القارات من مكاننا.

فجأةً ظهر أناس بقبعات يقفون على مختلف القارات.. قال "جاندال":

هؤلاء هم اليهود.. انظر ما سيحدث لهم الآن.

بدا وكأن شيئًا ما يخيفهم ويهجم عليهم ويطردهم ويضربهم على مؤخراتهم ليرمي بهم خارج البلاد.. طُردوا من إنجلترا وفرنسا وألمانيا وسويسرا والمجر والنمسا وإسبانيا والبرتغال وبلغاريا وهولندا وأوكرانيا وبولندا.. لم يطردوا في وقت واحد ولكن تباعًا.. يطرد بعضهم من بلد فهربون إلى البلد الآخر فيطردون هم ويهود ذلك البلد إلى بلد آخر وهكذا.. ظلوا يطردون من هنا إلى هناك.. رأينا من يطردهم.. كيان أسود ذو نظرات كارهة.. كأنه كان يعبر عن كراهية الشعوب لهم.

قال "جاندال":

كرههم الشعوب لأنهم استعبدوهم بالديون والربا والمعاملة السيئة التي لا ترحم.. وكرههم الحكام لأنهم استعبدوا الدول بسيطرتهم على تجارة البلد واقتصادها.. لكن طبعًا ليس كلهم كذلك.. فمنهم ناس عاديون لا يشتغلون بالتجارة ولا يعرفونها.. ولكنهم طُردوا مع المطرودين من ديارهم.. والسبب هو كبراؤهم البنكيون التجار يهود البلاط الأوغاد.

انتبهت إلى شيء ما.. ذلك الكيان الأسود الكاره يتوجه نحونا تحديدًا.. نظرت خلفنا بفزع.. هناك يهود ذوو قبعات خلفنا وهذا الشيء آتٍ ناحيتهم ليطردهم وليطردنا معهم.. لقد أتى الدور على إيطاليا.. إلى أين نذهب؟ لنهرب معهم حيثما يهربون.. عادت بنا الأجواء إلى حيثما كنا.. لم نعد في طور الخريطة.. أصبحنا في تلك الساحة في لومباردي في إيطاليا.. وحولنا يهود يمسكون قبعاتهم ويلملمون أغراضهم ويجرون إلى خارج الساحة.. جرينا معهم.. وهناك ظل كيان أسود يغطّي الأرض لاحقًا بنا جميعًا.. وفجأةً ظهرت الأميرة.

كانت ترتدي ملابس سأحتاج إلى كثير من الوقت لأصف لك فخامتها وجمالها.. تضع على شعرها ما هو مزيج من القبعة والقلنسوة.. وكان معها العديد من الرجال الأشداء.. وبإشارة واحدة منها انطلق رجالها وتحلقوا حولنا ليصنعوا درعًا بشريًا.. وأصبحت الأميرة تمشي.. واليهود يمشون وراءها.. ونحن وراءهم.. نظرت إلى "جاندال" بتساؤل.. قال لي:

إنها "دونا جراسيا" كما يلقبونها هنا في إيطاليا.. اسمها "جراسيا مينديز".. يهودية.. زوجها كان واحدًا من يهود البلاط الأغنياء جدًا.. ثم مات وترك لها كل ثروته.. فأصبحت أغنى سيدة في أوروبا كلها.. استخدمت جزءًا كبيرًا من ثروتها في مساعدة اليهود في الهرب من أوروبا إلى الدولة العثمانية.. وذلك عبر تمويل رحلات برية في جبال الألب إلى فينيس الإيطالية ثم إلى اليونان ثم إلى الدولة العثمانية.. كان طريقًا صعبًا جدًا حتى إن كثيرًا من المهاجرين يموتون فيه لكنها كانت تدفع كثيرًا من ثروتها حتى لا يحدث هذا.

نظرت لها.. لو لم تكن أغنى سيدة في أوروبا شكلها هكذا.. فكيف ستكون؟ إن عطرها يصل إلي هنا وأنا في آخر الركب.. مشينا مع دونا جراسيا في مشهد أسطوري.. ولكن ذلك الظل الذي كان يلحق بنا، أصبحنا نرى ظلًا مثله قادمًا من أمامنا.. فتوقفت دونا جراسيا وتوقف الجميع محاصرين بين الظلين اللذين

أطبقا علينا أخيرًا.. وأتانا الجنود من كل مكان حولنا بأسلحتهم.. واستسلم الجميع.. اقترب أكبر الجنود من دونا جراسيا وقال لها:

تعرفين أن لدينا أوامر بطردكم يا دونا.. وتعرفين أنه ليست لنا الصلاحية لتجاوز الأوامر.

لم ترد دونا جراسيا ترفعًا أو غرورًا لست أدري لكنها أشارت لأحد رجالها فأتاها هرولةً فأعطته ورقة كبيرة أخذها وأعطاها للجندي.. فتح الجندي الورقة.. وجد فيها بسم الله الرحمن الرحيم.. رسالة من السلطان سليمان القانوني.. خليفة المسلمين.. أن دونا جراسيا وكل ما معها ومن معها.. تخص الدولة العثمانية.. ومن يتعرض لها فهو يتعرض للدولة العثمانية.. والسلام خير ختام.. نظر لها الجندي.. وبشكل عسكري أمر جنوده بالابتعاد.. فتقدمت الدونا جراسيا وتقدمنا وراءها جميعًا متجهين إلى الدولة العثمانية.

قال "جاندال" وهو يمشي بجانبي:

لقد استقبلت الدولة العثمانية اليهود وسمحت لهم بأن يقيموا شرائعهم كما يحلو لهم وسمحت لهم بالتعايش الكامل في الدولة كما يحلو لهم.. وحتى دونا جراسيا سمح لها أن تنشئ بنكًا في الدولة العثمانية اسمه بنك بيت مينديز.. كان هذا هو أول بنك في العالم.. ويبدو أنه هو الذي أتى بالأفكار الرأسمالية إلى الدولة العثمانية.

مرة أخرى تبدلت الأرض إلى وضع الخريطة ورأيت كل اليهود يتحركون من مواقعهم في أوروبا ويتجهون ناحية الدولة العثمانية حتى دخلوا فيها وتحركنا نحن أيضًا معهم إلى هناك.. الدولة العثمانية واسعة وكبيرة جدًا.. حتى ونحن في وضع الخريطة هذا أجدها واسعة الأرجاء.. رأيت شخصًا ما في موضع قريب منا في الدولة العثمانية يجلس متربعًا.. ويرتدي الملابس العثمانية والطاقية العثمانية.. وأمامه شيء ما مثل السلة المغطاة.. ثم أخرج الرجل من ملابسه شيئًا مثل المزمار.. ووضعه في فمه وبدأ يعزف.. رأيت غطاء السلة يتحرك ببطء.. وبدا وكأن شيئًا يريد أن يخرج من داخلها.. حتى خرج بالفعل.. بل خرجت.. خرجت حية مخيفة الشكل من السلة وارتفعت بجسدها إلى مستوى عالٍ.. ثم تحركت على أرض الخريطة.. وتوجهت ناحية أوروبا.

قال "جاندال":

لقد أكرمت الدولة العثمانية اليهود كرمًا عظيمًا.. لكن يقولون أنك إذا أكرمت اللئيم تمرد.. إن هذا الكرم والرعاية العثمانية جعل اليهود يستقرون أخيرًا وبدأت أحلامهم القديمة تستيقظ.. وكانت الأحلام ممزوجة بحقد على أوروبا.. وملوك أوروبا الذين طردوهم.. هذه الحية التي أخرجتها الرعاية العثمانية هي حية يهودية شديدة السمية.. انظر إليها هناك.

رفعت الحية رأسها عند إنجلترا وكأنها حنش ثم لسعت لسعة سريعة برأسها في أرض إنجلترا.. قال "جاندال":

بدأ اليهود العمل.. أعطوا أموالًا طائلة لمعارض سياسي إنجليزي يدعى كرومويل.. والمقابل أن ينجح في إسقاط ملك إنجلترا.. وبالفعل نجح كرومويل في إشعال الثورة الإنجليزية وقطع رأس الملك وأصبح هو رئيس إنجلترا.. وسمح لليهود بدخول البلاد.

ثم رفعت الحية رأسها ولسعت لسعة أخرى.. فبرز للسعتها مبنى أبيض كبير فاخر الشكل جدًا وبرزت من هذا المبنى سلاسل بدا وكأنها تطوق إنجلترا تطويقًا شديدًا.. قال "جاندال":

بعد مائة عام من دخولهم.. كان ملك إنجلترا هو الملك ويليام.. وكان في حرب مع فرنسا اسمها حرب التسع سنوات.. وكان في حاجة ماسة للمال لأجل الحرب.. فاتفق معه اليهود أن يقرضوه الأموال التي يريدها كلها بشرط أن يسمح لهم بإنشاء بنك لهم في إنجلترا.. وأن يكون اسمه ذا صبغة رسمية.. بنك إنجلترا.. ووافق ويليام.. وأقرضوه مليون وربع باوند ذهبي بفائدة ٨ %.. وأنشئ هذا الصرح الأبيض الجميل في وسط لندن.. ولا تجعل اسمه يخدعك فتظنه بنكًا حكوميًا.. بنك إنجلترا إنما هو بنك خاص يملكه اليهود منذ البداية.. وهذه السلاسل هي سلاسل الدين على الدولة لهذا البنك.. كان يقرض الحكومة متى شاءت أن تقترض.. ويقرض الناس متى شاءوا أن يقترضوا.. وبرغم حمى الاقتراض هذه من الدولة والشعب.. فإن بنك إنجلترا هذا جعل ثروة اليهود تتضاعف أضعافًا مضاعفة.. بسبب خدعة سحرية جميلة سميتها أنا الهابرا كادابرا.

■ ■ ■

انطفأ النور من حولنا وصرنا في ظلام دامس وكأن الكهرباء قد انقطعت لثوانٍ ثم انقشع الظلام لنجد أنفسنا أمام صرح أبيض جميل يدعى بنك إنجلترا.. وشخص يهودي يقف أمامنا ذي عباءة زرقاء طويلة وقبعة زرقاء طويلة أيضًا ويمسك عصا.. قال لنا بابتسامة لزجة جدًا:

مرحبًا.. أراكم تشاهدون بنكنا الجميل الرائع.. هل تريدون قرضًا؟ بنكنا يقدم قروضًا مم...

قاطعه "جاندال":

لا نريد قرضًا.. نريد أن نسمع عن حكاية العملة الورقية الجديدة التي تصدرونها.

انفرجت أسارير الرجل الذي كان شكله غريبًا بالمناسبة وقال:

رائع.. كثير من الناس يسألون عنها بعد أن أعلنت الدولة عن أمرها.. نحن نريد أن نسهل الأمور على الناس.. تعرف أن حمل الكوينات الذهبية يكون غير عمليًا في بعض الأحيان.. نحن نأخذ منك الكوين الذهبي ونعطيك ورقة تكافئ هذا الكوين.. ورقة رسمية من الدولة.. يمكنك أن تشتري بها ما تريد.. ولو أعطيتنا خمسة كوينات سنعطيك ورقة مكتوب عليها أنها تكافئ خمسة كوينات.. وهكذا.. وإذا أردت في أي وقت استعادة كويناتك الذهبية كل ما عليك فعله هو أن تدخل البنك وتبرز الورقة التي معك.. فنأخذها منك ونعطيك كويناتك.

قال "جاندال":

شكرًا.. أحب أن أبقي كويناتي معي.

قال الرجل بعد أن ضيق عينيه:

عزيزي.. بنكنا الجميل الرائع أكثر أمانًا لكويناتك.. انظر..

فجأةً برز فوق البنك أضواء ليزرية وطائرات هيليكوبتر وكاميرات مراقبة وجنود يدورون حوله.. قال الرجل:

حتى الذبابة لا تجرؤ على أن تقترب من هنا.. ذهبك هنا بأمان.. كل الناس الآن فطنوا لهذا وأتوا إلينا.. انظر هناك..

نظرنا حيثما أشار فوجدنا طابورًا كبيرًا من الناس.. كلهم معهم ذهب يريدون استبداله بعملة ورقية من البنك.. يبدو أن هذا اليهودي يقوم بدعاية رائعة.. قال له "جاندال" بلهجة من ينهي الحوار:

حسنًا أيها الرجل البنكي.. سنحضر ذهبنا ونأتيك في وقت لاحق.

ابتعدنا عنه قليلًا.. قال لنا "جاندال":

هذا واحد من العاملين في البنك.. وهو يخدم قضية الهابرا كادابرا كما أسميها.. حتى هيئته في أرض السافلين هي كساحر يحمل عصا.. وبعصاه هذه

يمكنه أن يحول ورقة عديمة القيمة إلى سبيكة ذهبية.. تمامًا كما ينظر السحرة في أفلام الكارتون إلى الضفدعة ويقولون هابرا كادابرا فتتحول إلى أميرة.

نظر "جاندال" إلى البنك وقال:

كان هذا من شروط إنشاء البنك التي اشترطوها على إنجلترا.. أن يكون البنك له حق إصدار عملة ورقية تكافئ الذهب.. ولقد كان كثير من الناس يضعون ذهبهم في هذا البنك ويعطيهم البنك عملات ورقية مكافئة لها.. ثم اكتشف اليهود أنه لديهم خزائن مملوءة بذهب الناس في داخل البنك.. ولاحظوا أن الناس لا تسحب ذهبها.. الناس مطمئنة على ذهبها في الداخل ومن النادر أن يأتي شخص ويسحب ذهبه.. الكل اطمأن للعملات الورقية وصار يتعامل بها.. هنا جاءت فكرة الهابرا كادابرا.

نظرت ناحية الناس المصطفين و"جاندال" يقول:

الناس لا يسحبون ذهبهم كلهم في نفس الوقت.. لماذا لا نطبع أوراقًا مالية أكثر مما عندنا من الذهب.. ثم نقرض هذه الأوراق المالية الزائدة للناس ونأخذ عليها فائدة؟ هذه هي الهابرا كادابرا.. طبعوا أوراقًا.. وأقرضوها للناس على أن هناك ما يكافئها من الذهب في الخزينة.. وجبوا عليها فائدة.. يعني حولوا أوراقًا لا قيمة لها إلى ذهب.. ثم أقرضوها للناس بفائدة.. هكذا ببساطة لو كان لديهم مليون باوند من الذهب في الخزينة.. يمكنهم أن يطبعوا مليوني ورقة نقدية مثلًا.. مليوني ورقة تعادل الذهب.. ثم يقرضونها للناس.. ويقرضونها للحكومة.. يطبعونها من لا شيء ثم يقرضونها.. هكذا.. هابرا كادابرا.

أصبحت أفكر.. يعني هؤلاء يمكنهم أن يطبعوا ما يحلوا لهم من النقود ويشترون به ما يحلو لهم ويقرضونه للناس.. وذهبهم الذي جمعوه في حياتهم لم يمس.. لكن ألن يؤدي هذا إلى..

قاطع "جاندال" أفكاري قائلًا:

بعد بنك إنجلترا.. كثرت النقود مع الناس.. وزادت الأسعار بالتالي أضعافًا.. هل تذكر "بوتشار" والقرية.. والنقود التي تنمو على الأشجار؟ إن أصحابنا في هذا البنك يصنعون النقود أسرع من الأشجار.. ويقرضونها للناس.. زادت النقود بين الناس وزادت تبعًا لها الأسعار.. لكن لم تكن هذه هي المشكلة الكبرى.. المشكلة الأكبر هي أن الحكومة بعد بنك إنجلترا دخلت في أربع حروب كبيرة.. وفي كل حرب منها كانت تقترض من بنك إنجلترا.. وكلما اقترضوا شيئًا كان البنك يطبعه بالهابرا

كادابرا ويقرضه لهم.. حتى وصل ما اقترضوه من البنك إلى ١٤٠ مليون باوند في خمسين عام فقط.. تخيل أن تطوق دولة كاملة بدين مثل هذا وأنت فقط طبعته بآلة عندك لطبع النقود.. مهزلة.. المشكلة أن ديون إنجلترا عندما زادت هكذا بدأت إنجلترا تحاول أن تجني أرباحًا أكثر من مستعمراتها في أمريكا.

ثم ضيق "جاندال" عينه وقال:

أمريكا.. التي كانت مستعمرات وقتها.. مستعمرات بعضها لإنجلترا وبعضها لفرنسا.. أمريكا التي كانت في ذلك الوقت في شغل آخر.. شغل آخر تمامًا.

فجأةً اشتغلت أغنية راقصة.. وسطعت الشمس الدافئة وألبسني "جاندال" نظارة شمسية ودارت الدنيا من حولنا دورتين ثم وجدنا أنفسنا في بلد آخر.. و"جاندال" ينظر لي بابتسامة واسعة ويرتدي نظارة شمس ويمشي مشية مميزة ويقول:

مرحبًا بك في "أميريكا" يا رجل.. أرض الحرية.. ولأنها أرض الحرية فالمستعمرات هنا كانت تفعل شيئًا آخر تمامًا يختلف عن العالم كله.. إنهم هنا يطبعون الأوراق النقدية من لا شيء.. هكذا.. بلا ذهب يكافئها ولا فضة ولا حديد ولا أي شيء.. كل مستعمرة تطبع أوراقًا وتسميها نقودًا.. ولكنهم لم يكونوا يطبعون بغباء.. إنما كانوا يطبعون فقط ما يكفي للتجارة.. وكانوا يطلقون على عملاتهم هذه "كولونيال سكريبت" Colonial Scripts.. كان هناك نقص عندهم في الذهب والفضة لكن هذا لم يؤثر في شيء.. فالحكومة عندما تحتاج مالًا تطبعه.. ولكن بمقدار معلوم.. لم تكن هناك بطالة.. ولا فقر.. ولا اقتراض من بنك يهودي ودفع فائدة.. كل هذا لم يكن موجودًا.. كانوا رائقي البال.. لكن هذا لم يعجب أعزاءنا في إنجلترا.. لأن إنجلترا تحتاج ذهبًا لسد ديون بنك إنجلترا.. فوضعوا قانونًا على المستعمرات الإنجليزية كلها بمنعها منعًا باتًا من إصدار نقودها الخاصة.. وأمروها أن تدفع ضرائبها الدورية لإنجلترا كلها بالذهب.

صفّق "جاندال" بيده تصفيقةً وقال:

وهنا حصل الصدام.. تحول الازدهار في أمريكا إلى كساد.. ووصلت المستعمرات إلى منحنى خطر جدًا من نقص الذهب بسبب الضرائب التي تدفعها لإنجلترا.. وضاق الحال بالناس.. ولم يكن هناك بد من الثورة.. لم يكن هناك بد من الحرب.

تحولت الأغنية التي اشتغلت سابقًا إلى أغنية ثورية حربية وتحول الناس رائقو البال إلى ثوريين.. إنها الثورة الأمريكية.. وتحول المنظر أمامنا إلى ساحة حرب.. أمريكا تحارب إنجلترا.. أمريكا ليس لديها ذهب وفضة لتمويل الحرب.. أمريكا لا تريد أن تقترض من أحد.. أمريكا تفعل الآن شيئًا غريبًا أمام عيني.. بدا وكأن هناك آلة طباعة كبيرة لطباعة النقود.. وهناك رجال يديرونها ويطبعون نقودًا كثيرةً جدًا.. إنهم يطبعون النقود لتمويل الحرب.. طبعوا عملة خاصة موحدة اسمها الكونتينينتال دولار Continental Dollar.. طبعوا منها كما هو ظاهر على شاشة الطابعة مايعادل ١٢ مليون كونتينينتال دولار في بداية الثورة.. وفي نهايتها وصل ما تم طبعه إلى ٥٠٠ مليون كونتينينتال دولار.. قال "جاندال":

انظر إلى محل الأحذية في الزاوية هناك.. هل ترى سعر زوج الأحذية.. ٥ آلاف دولار.. هكذا أصبحت الأسعار يا عزيزي بعد الطباعة الرهيبة للعملة.. حصل تضخم رهيب بسبب هذه الحرب.. وصارت أمريكا في ورطة حقيقية في وسط الحرب مع الإنجليز.

كانت الحرب دائرة حولنا... وكان الأمريكان يخسرون ويُضربون بشدة كما أرى هناك.. ذلك الجندي الأمريكي لديه سلاح خفيف بينما غريمه الإنجليزي أراه أدخل كلتا يديه في جيبه فأخرج ترسانة أسلحة كاملة.. ثم بدأت الأجواء تخف إضاءتها.. وتركزت بقعة ضوء على شخص واحد آتٍ من بعيد.. لم يكن وجهه ظاهرًا.. قال "جاندال":

لقد بدأت الإثارة.. وصل حاييم سولومون.. الممول اليهودي الغني إلى أمريكا.. كان طيبًا جدًا لدرجة أنه كان يقرض قروضًا شخصية من الذهب لمؤسسي أمريكا بلا فوائد.. كان يقرض أشخاصًا مثل توماس جيفيرسون وجيمس ماديسون وجورج واشنطون.. وغيرهم كثير.. ثم إنه مال على ألكسندر هاميلتون سكرتير الخزنة وأقنعه أن تفتتح أمريكا بنكًا مركزيًا مثل بنك إنجلترا.. وسيشتري سولومون معظم الأسهم فيه.. ودخلت الفكرة في رأس هاميلتون.. وبدأ يقنع بها باقي المؤسسين كطريقة للخروج من الأزمة ولتمويل الحرب وحتى نحصل على استقلالنا.

وفجأةً برز أمامنا صرح أبيض جميل فاخر الشكل.. بنك أمريكا الشمالية Bank of North America.. أول بنك خاص في أمريكا.. على طراز بنك إنجلترا تمامًا بلا أي اختلاف كما ترى.

■ ■ ■

التفتُّ إلى "جاندال" وسألته:

لماذا يفعلون هذا؟

قال لي:

من هم؟

قلت له:

اليهود.. لماذا يقرضون الأمم هكذا وينشئون بنوكًا؟

قال لي بابتسامة:

لا تظن أنهم يفعلون هذا ليصبحوا أكثر غنى.. فما لديهم من الثروة لم يعد يحتاج للزيادة.. بل لم تعد الزيادة تظهر فيه.. إنهم يفعلون هذا للسيطرة.. إن اليد التي تأخذ أسفل من اليد التي تعطي دائمًا.. تلك الدول طردتهم وشردتهم يومًا ما.. وهم لا يملكون شيئًا إلا المال.. فهم يستغلون المال للعودة إلى تلك الدول بعد أن يمرّغون أنوف تلك الدول في التراب ويحرصون على أن تظل في التراب ولا تخرج أبدًا.. فيحتنكون الأمم إلى أن يشاء الله.. ولكن كل من رأيتهم من اليهود تلاميذ بالنسبة للأخ الوسيم الذي ستراه بعد قليل هناك.

نظرت إلى الاتجاه الذي يشير إليه.. رأيت منزلًا كبيرًا من خمسة أدوار يبدو فاخرًا وعريقًا.. قال "جاندال":

أقدم لك.. الجرين شيلد.. أو الدرع الأخضر.. اسم البيت الذي يسكن فيه السيد المبجل ماير أمشيل روتشيلد وأولاده.

انفتحت إحدى النوافذ وكانت في منتصف البيت وبرز منها شخص ما.. كانت له هيئة عجيبة.. كان وجهه عبارة عن درع أحمر وله شعر ناعم ويرتدي بذلة فاخرة... نظرت إلى "جاندال" باستغراب فقال:

هذا هو.. روتشيلد الأب.. أغنى أغنياء اليهود وقتها.. بغض للنظر عن هيئته.. فروتشيلد هذا لم يكن مجرد يهودي غني يحب جمع الذهب.. لقد كان أكبر من هذا.. لقد أحب روتشيلد أن توضع له بصمة في مسلسل اليهود الجاري في السيطرة على الأمم.. لكن يبدو أن بصمة روتشيلد لما بصمها كانت يده ملطخة بالحبر، فلطخ الحبر كل الورقة.. فتكونت لطخة كبيرة على الورقة عليها اسم روتشيلد.. ليست مجرد بصمة.

كانت الحرب الأمريكية الإنجليزية لا تزال دائرة حولنا.. ويبدو أن المشاهد قد تداخل بعضها في بعض.. كنا نريد التركيز على روتشيلد فلم نقدر.. انطلق "جاندال" وسط ضجيج الحرب متجهًا إلى بيت "روتشيلد" الذي لا أدري كيف ظهر وسط المتقاتلين في الثورة الأمريكية وهو أصلًا في ألمانيا.. لكني تعلمت أن أغض الطرف عن هذه الأمور.. كان "جاندال" ما زال منطلقًا بسرعة ناحية البيت حتى دخلنا جميعًا من بابه الرئيسي.

في الداخل وجدنا روتشيلد الأب جالسًا على كرسي برأسه الدرعي وأمامه رقعة شطرنج يلعب بها وحده.. لم ينتبه لنا.. كان مستغرقًا في تحريك القطع.. همس لي "جاندال":

لا تصدر صوتًا.. إن "الماستر" يلعب الآن.

نظرت إلى الرقعة.. أرى رجالًا مهينين على هيئة قطع شطرنج والرجل ذو الوجه درعي الشكل يلعب بهم.. أرى الكونت "ميرابو" ضمن القطع والدوق "دورليان" والملكة "ماري أنطوانيت" وآخرين.. هؤلاء أسماء من وحي الثورة الفرنسية.. كان يلعب بميرابو ودورليان في البداية حتى أسقط الملكة أنطوانيت ثم لعب بقطع أخرى ضد ميرابو ودورليان حتى أسقطهما.. وهكذا.. مع كل لعبة يلعبها يسقط واحدة من القطع.. حتى سقطت كل القطع.. نظر لي "جاندال" وهمس:

كالعادة الخطة المعهودة.. تمويل رموز للثورة.. ومساعدة المتعسرين ماديًا ذوي الطموح القريبين من العرش.. ثم قلب الشارع على الحاكم.. ثم الثورة وإسقاط الحاكم.. ثم إدخال اليهود الذين كانوا ممنوعين من الدخول إلى البلاد.. ثم إنشاء بنك يتولى إصدار عملة البلد مثل بنك إنجلترا وأمريكا.. وتستدين منه الدولة ملايين.. وتتضاعف الملايين خلال السنين.. وتظل تتضاعف ولا تسددها الدولة أبدًا.. هذا ببساطة ما حصل في الثورة الفرنسية.. وقبلها الثورة الإنجليزية ويحدث حولنا الآن في الثورة الأمريكية التي ستنتهي غالبًا بهذه الطريقة قريبًا.

انسحب "جاندال" وانسحبت معه إلى خارج المنزل لنتابع الثورة الأمريكية الدائرة في الخارج.. وبينما نحن نمشي مبتعدين عن البيت نظرنا خلفنا إلى البيت لنجد روتشيلد الأب فاتحًا نفس النافذة جالسًا فيها ينظر إلينا.. وفجأةً انفتحت خمس نوافذ حول النافذة الأولى.. وظهر منها خمسة رجال.. كلهم وجوههم على شكل درع أحمر.. لكن وجوههم كانت تبدو أكثر شبابًا نوعًا ما.. قال "جاندال":

لا تجزع.. إنهم أبناء الماستر روتشيلد.. خمسة أبناء وسيمون كما ترى.. تعود على أشكالهم.. فكل آل روتشيلد في هذا العالم سيكون شكلهم هكذا.. لقد علم الأب أبناءه مبادئ الاقتصاد والتجارة كما يجب أن تكون.. وأرسل كل واحد منهم إلى عاصمة مهمة في أوروبا.. فرانكفورت ولندن وباريس وفيينا ونابلس.. فافتتحوا في كل بلد من هذه البلاد الخمسة فرعًا لبنك روتشيلد.. وبدأوا في العمل على مضاعفة ثروات العائلة.. لكن أذكى وأبرع من فهم كان ذلك الذي أرسله أبوه إلى لندن.. كان اسمه ناثان.. ناثان روتشيلد.

اختفى أحد الأبناء من النافذة وفتح الباب الرئيسي للبيت وخرج.. قال "جاندال":

ناثان روتشيلد هذا الذي تراه هو الذي ورث عن أبيه تحقيق الحلم اليهودي.. حلم السيطرة.

نقلنا "جاندال" إلى وضع الخريطة.. الكثير من الصروح البيضاء الجميلة انتشرت في أنحاء أوروبا.. بنوك روتشيلد وبنك إنجلترا وبنك فرنسا وغيرهم كثير.. وهناك صرح أبيض واحد في أمريكا.

فجأةً انهدم الصرح الأبيض الجميل الذي في أمريكا.. فانتهت أبصارنا إلى هناك.. قال "جاندال":

أوه! يبدو أن بعض الأغنام تحاول أن تتحرر.. بعد خمس سنوات من إنشاء بنك أمريكا الشمالية.. أثبت أنه فاشل.. الأسعار زادت.. أصحاب البنك أصبحوا أكثر غنى.. الشعب أصبح أكثر فقرًا.. فقرر الكونجرس عدم تجديد رخصة البنك.. وبدأ الاقتصاد ينتعش قليلًا بعد هذا.. لكن جهود أعزائنا البنكيين أثمرت في إقناع السياسيين بالمال وغيره بضرورة إنشاء بنك يصحح أخطاء البنك الأول.. وهذا ما حدث.

فجأةً برز صرح أبيض جديد أكبر من الأول في أمريكا.. كان اسمه البنك الأول للولايات المتحدة.. وظل واقفًا هكذا بشموخ قليلًا من الوقت.. ثم بدأت بعض زواياه تتهدم.. قال "جاندال":

إن مؤسسي أمريكا لم يتحملوا.. البنك الجديد كان يُخرب الاقتصاد أيضًا مثل سابقه.. فأعلنوا أنهم لن يجددوا رخصة هذا البنك أيضًا.. ويبدو أن الكلام الحسن والإقناع لم يعد يجدي.. فهدد روتشيلد أنه إذا لم يتم تجديد رخصة هذا البنك فإن أمريكا ستعيش أيامًا ستكون هي أسود أيام مرت عليها في حياتها..

ولم يعره مؤسسو أمريكا اهتمامًا.. ولم يجددوا رخصة البنك.. وها هو ينهدم على عروشه.

فجأةً انطلقت قوات من بريطانيا في الخريطة ناحية أمريكا.. قوات غاضبة مدعومة من البنكيين.. وكانت حرب بين الدولتين استمرت شهورًا.. في وسط ضجيج الحرب.. كان هناك مبنى يتم بناؤه في أمريكا كما أرى.. وانتهى البناء سريعًا حتى اكتمل صرحًا أبيضَ جميلًا كبيرًا.. كان اسمه البنك الثاني للولايات المتحدة. مططت شفتي في إحباط.. ألم يهدموه مرتين.. ألا يتعلمون أبدًا؟!

قال "جاندال":

إنها تكاليف الحرب يا عزيزي.. تكاليف حربهم مع بريطانيا جعلتهم يمرون بأزمة مالية ألغت أي محاولة لتوليد أي ازدهار اقتصادي.. أنت طالما عارضت البنكيين.. توقع حربًا أو ثورة أو أي شيء يستنزف طاقاتك الاقتصادية.. لا تظن أنك ستتخلى عن البنكيين وتنفذ بجلدك.. لا بد أن تعاني وتحتاج لمن يقرضك الذهب.. وحتى يقرضك الذهب لا بد أن تفتح له بنكًا.

انفتحت نافذة في أحد المباني أمامنا وخرج منها رجل مقنع يشير إلينا وينادي.. إنه سكوربيون.. إن لديه بيتًا في أمريكا.. هلم بنا إليه.



نزلنا من عند سكوربيون واتجه بنا "جاندال" إلى بعض الضجيج في الشارع.. قال "جاندال":

إنها الحملة الانتخابية لرئيس أمريكا الخامس.. "أندرو جاكسون".

صعد رجل أشيب الشعر طويل القامة موفور الصحة عجوز الملامح إلى منصة عالية وسط حشد كبير من الناس الذين يهتفون باسمه في حماس وسعادة.. بدأت ألاحظ لافتات الحملة الانتخابية التي يحملها الناس.. مكتوب فيها "نعم لجاكسون ولا للبنك".. و"جاكسون سيقتل البنك".. ورسومات لجاكسون هذا وهو يقف شامخًا والبنكيون يهربون منه مذعورين.. بدأ "جاكسون" يتحدث.. قال:

مهما يكن السبب أو التأثير العام أو الخاص الذي تسبب في ولادة هذا الشيء القبيح المسمى بالبنك.. فهو في النهاية شيء غير ضروري، بل هو خطر عظيم على الحكومة وعلى الدولة.. إنه لشيء مخزٍ أن الحكومة كانت تنحني لأطماع أصحاب القوة الأغنياء وتنشئ لهم بنكًا وراء الآخر.. لكن كل هذا يجب أن ينتهي.. لا بد أن نقف معًا كلنا ضد المحتكرين وضد أي عهر يتم من الحكومة لأجل مصالح هؤلاء الثعابين.

هتاف وتصفيق حاد أخذ وقتًا ثم هدأ.. فقال "جاكسون":

أكثر من ٨ ملايين سهم في هذا البنك الثاني للولايات المتحدة يملكها أجانب.. هل هناك خطر أكبر على الأمة من هذا الشيء؟ لا ينتمي منه إلى بلدنا سوى القليل.. ويتحكم بأموالنا.. هذا الشيء أخطر علينا من أي قوة عسكرية لأي عدو.. ويبدو أن من أتوا قبلي لم يكونوا يكترثون بالعدالة الاجتماعية وعدالة توزيع الثروة.. هذا الشيء القبيح يعبث في اقتصاد الدولة تمامًا مثل سابقيه.

نظرت إلى الرجل المهيب وهو يتكلم بكل قوة وثقة ونظرت إلى "جاندال" الذي قال لي:

أندرو جاكسون.. فور أن تولى منصب رئيس الولايات المتحدة وضع لنفسه هدفًا محددًا.. أن يقتل البنك.. كان باقيًا على انتهاء رخصة البنك ثماني سنوات.. مضى منها أربع في الفترة الرئاسية الأولى لجاكسون.. كانت هذه الفترة مليئة بمضايقات منه للبنك وتصريحات تعاديه طيلة الوقت.. ولما انتهت الفترة الرئاسية الأولى لجاكسون وأراد الترشح لفترة ثانية.. لم يجد واحدًا من الأغنياء البنكيين يموله.. بل كانوا يمولون المرشح الاخر بكل ما أوتوا من قوة.. وكان يتوقع هذا

طبعًا.. فنزل ليعمل حملته الانتخابية في الشارع وسط الشعب كما ترى أمامك.. ليس معهودًا أن رئيس أمريكا ينزل للشارع هكذا.. العادة أن تتم الحملات الانتخابية في أجواء رئاسية.. لكن جاكسون خالف القاعدة.. كان يتحدث للشعب مباشرة.. ويحذر من البنك.

وفجأةً هلل الناس المحتشدون وأخذوا يتقافزون فرحًا.. لقد فاز "جاكسون" بفترة رئاسية جديدة.. وخسر المرشح الآخر.. ووقف جاكسون في شموخ على المنصة يقول:

إن البنك يحاول أن يقتلني.. ولكنني أنا الذي سأقتله.. لو أن الناس فقط تفهم حقيقة النظام المخادع الخاص بالبنوك في بلادهم، ستكون هناك ثورة قبل طلوع الصبح.

هلل الجميع فرحين مستبشرين.. ثم انصرف جاكسون وانصرف الناس.. وانصرفنا نحن متخفين وراء جاكسون.. كان هناك أحد الدهانين يدهنون جدران أحد المنازل على جانب الطريق.. وعندما لاحظ اقتراب جاكسون نزل من سلمه واقترب منه بشكل مريب.. وثم سحب مسدسه ووجهه ناحية جاكسون وأطلق بسرعة.. لكن طلقته لم تصب جاكسون الذي لم يهرب بل رفع عصاه التي يتكئ عليها وأخذ يضرب المعتدي على ظهره.. لكن المعتدي وقتها أخرج من جرابه مسدسًا آخر وصوبه وأطلق على جاكسون.. لكن الضجيج والتدافع جعل الطلقة الثانية تذهب في الهواء أيضًا.. ثم نجح حراس جاكسون في القبض على الرجل.

قال "جاندال":

لو لم ينجح البنكيون في استمالتك.. أو رشوتك.. أو تشويه سمعتك.. فهم يلجأون إلى الحل اليدوي السريع.. اغتيالك.. كان جاكسون هو أول رئيس أمريكي يتعرض لمحاولة اغتيال.. والمعتدي "ريتشارد لورنس" اعترف أثناء التحقيق معه أن هناك أناسًا أقوياء في أوروبا قد كلفوه بالمهمة ووعدوه بالحماية لو تم الإمساك به.

صرنا نمشي متخفين وراء جاكسون حتى دخل قصره.. ألبسنا "جاندال" زي شجيرات صغيرة أخذنا نمشي بها متخفين وراء الحراس شيئًا فشيئًا حتى دخلنا إلى القصر.. كان جاكسون يقول لسكرتير الخزينة:

اذهب واسحب أموال الحكومة كلها من ذلك البنك اللعين.. وضع أموالنا في بنك آمن.

ذهب سكرتير الخزينة.. ثم عاد بعد دقائق.. سيدي لا يمكنني أن أفعل هذا.. وأمسك رقبته وهو يقول.. هذا خطر كما تعلم.. طرده جاكسون.. وعين واحدًا آخر.. رأيناه يدخل من الباب.. قال له جاكسون:

اذهب واسحب رصيد الحكومة من ذلك البنك الشرير وضع أموالنا في بنك آمن.

ذهب السكرتير الجديد.. ثم عاد بعد دقائق.. سيدي ولكن ماذا لو.. طرده جاكسون.. وعين واحدًا آخر.. رأيناه يدخل من الباب.. قال له جاكسون:

اذهب واسحب مساهمات الحكومة كلها من ذلك البنك وانقلها إلى بنك آمن.

ذهب السكرتير الجديد.. ولم يعد.. ظننا أن شيئًا سيئًا قد حصل له.. فالأمر يحتاج شجاعة حقيقية حتى تتحدى البنكيين.. لكن السكرتير الأخير هذا فعلها.. وسحب أموال الحكومة كلها من البنك الثاني للولايات المتحدة.. قال لي "جاندال":

جن جنون البنكيين.. وخرج رئيس البنك في تصريح علني وهو شيء جريء جدًا أن يفعله لكنه حصل بالفعل.. قال: هذا الرئيس يظن أنه سيقتل البنك.. لكنه مخطئ.. نحن سنحدث انكماشًا ماليًا حادًا في الدولة. هذه هي الطريقة الوحيدة للتأثير على الكونجرس.. وتجديد رخصة البنك.

قلت لجاندال:

ماذا يعني أنه سيحدث انكماشًا ماليًا حادًا؟

قال "جاندال":

الانكماش المالي هو ببساطة أن أقلل الأوراق المالية التي في الدولة.. لا أطبع أوراقًا جديدة.. وأمنع إعطاء أي قروض جديدة لأي أحد.. وأطالب بكل القروض القديمة المتأخرة.. هكذا تقل كمية الأوراق المالية في السوق ويحدث ما يسمى الانكماش.. وهو يفقر الناس ويعطل التجارة ويسبب الكساد.. وهذا ما فعلوه بالضبط.. فهم المتحكمون بطباعة أموال الدولة.. إذًا يمكنهم أن يفعلوا في الدولة ما يحلوا لهم.. أحدثوا انكماشًا رهيبًا وكسادًا كبيرًا ثم لاموا جاكسون عليه في الصحف لأنه سحب رصيد الحكومة من البنك.

دخل مصورون بكاميرات على جاكسون فجأةً وكأنهم يُجرون معه لقاءً صحفيًا.. فقال بغضب شديد:

أيتها الأفاعي.. سأقتلعكن جميعًا بحق الله.. سأقتلعكن جميعًا.

قال "جاندال":

لم ييأس جاكسون.. وعمل بجد حقيقي.. وخلال أقل من سنة سدد كل الديون التي على الحكومة للبنك.. وكان الرئيس الأمريكي الوحيد الذي سدد ديون الدولة كاملة.. لم يفعلها بعده أحد سواء في أمريكا أو في غيرها.. وجاء موعد انتهاء رخصة البنك.. فانتهت ولم يوافق الكونجرس على تجديدها.. وتم القبض على رئيس البنك بتهمة الاحتيال.. وانتصر جاكسون في هذه الحرب انتصارًا ساحقًا.. انتصارًا أوجع البنكيين كثيرًا.. ولقد احتاجوا إلى ٧٧ سنة حتى يقفوا على أقدامهم ثانية بعد الذي فعله بهم جاكسون.. لكن مشكلة جاكسون أنه قتل البنك ولم ينفذ سياسة نقدية جديدة.. بل إنه قتل البنك الكبير ونقل حق إصدار النقود الورقية إلى البنوك العادية.. فصارت بنوك كل ولاية تصدر عملة تلك الولاية.. وطريقة البنوك الصغيرة لا تختلف عن البنك الكبير.. أيضًا كانوا يقرضون الدولة المال.. يعني هو قتل الأفعى الكبيرة وترك الأفاعي الصغيرة تلهو بالنقود.

* * *

سمعنا ضجة بالخارج.. انسحبنا بهدوء لنرى ما الأمر.. الناس تضرب بعضها بعضًا في الشوارع.. ثم قرر الناس أن المضاربة بالأيدي لا تصلح.. وقرروا الحرب بالأسلحة الثقيلة.. فكون كل فريق منهم جيشًا وبدأوا يتحاربون حربًا حقيقية.. هل جن هؤلاء؟ قال "جاندال":

ألم أقل لك؟ لا يجب أن تتحدى البنكيين أبدًا.. قتلت لهم بنكهم.. هذه هي النتيجة.. لقد ظلوا يخططون سنوات طويلة لما يحدث الآن.. لكن هذه المرة كانوا يخططون بغضب وبروح انتقامية.. والنتيجة كانت حربًا أهلية دموية.. انقسمت أمريكا وصارت الولايات تحارب بعضها بعضًا.. حربًا شعواء.. قتل فيها مليون شخص.. واستمرت أربع سنوات كاملة.

انتقلنا لوضع الخريطة فجأةً.. نظرت إلى أمريكا فوجدتها قد كُسرت من منتصفها فأصبحت قطعتين.. شمالها يحارب جنوبها.. ومدافع تطلق من هناك ومدافع تطلق من هنا.. ثم فجأةً رأيت جيشًا يتحرك من فرنسا متجهًا إلى أمريكا يأتيها من جنوبها.. قال "جاندال":

هذا نابليون الثالث.. موله البنكيون ليرسل جنوده إلى المكسيك ليستعيد المكسيك من أمريكا.. إن لديهم حسًا عاليًا من الفن في خططهم ألا ترى ذلك؟ لكن هذا ليس كل شيء.

انطلق فجأةً جيش من بريطانيا ووقف عند الحدود الكندية.. واستعد للدخول في الحرب لدعم أحد الفريقين المتحاربين.. وصارت أمريكا بين المطرقة والسندان حرفيًا.. قال "جاندال":

فلنقل السلام على أمريكا.. لكن من حظ أمريكا في تلك السنين أن "أبراهام لنكولن" تولى رئاستها.. هذا الرجل هو أحد الأبطال في محاربة البنكيين.. ورغم مأزقه هذا والحرب الأهلية والتهديدات الخارجية فإنه نجح في الخروج من الأزمة ببراعة شديدة.. ليس هذا فقط بل إنه نجح في إكمال مهمة أندرو جاكسون في قتل البنوك.

رأينا الآن أبراهام لنكولن بملامحه المميزة جدًا يدخل ويجلس على كرسيه.. ثم يستدعي سكرتير الخزنة.. فأتاه فقال له السكرتير:

سيدي.. هناك قرض معروض علينا بفائدة ٣٤ % من بنك الـ...

قاطعه "لنكولن":

لا نريد أي قروض.

قال الرجل:

وكيف سنمول الحرب يا سيدي؟ إن موقفنا حساس جدًا.

قال لنكولن:

الأمر بسيط.. اجعل الكونجرس يمرر لنا قانونًا يسمح لخزينة الدولة أن تصدر عملاتها بنفسها دون الاعتماد على البنكيين.. وادفع لجنودك من هذه الأموال المطبوعة.. واذهب وفز بالحرب.

قال السكرتير:

وهل سيقبل الناس هذه الأموال يا سيدي؟

قال لنكولن:

طالما هي مصرحة من الحكومة فسيقبلها الناس.

قال لي "جاندال":

كانت طريقة ثورية أعادت إلى الأذهان عملات الكولونيال سكريبت التي كانت تطبعها أمريكا أيام الثورة.. هذه أوراق تطبعها الحكومة بنفسها.. لا تقترضها من البنك.. وتطبع منها على حسب حاجة الدولة التجارية.. كانت الأوراق التي طبعها لنكولن اسمها الجرين باكس.. دفع للجنود منها واشترى أغراضهم منها وذهبوا وحاربوا... وبتأثير البنكيين على كثير من أعضاء الكونجرس.. مرر الكونجرس قرارًا بالسماح للبنوك بإصدار عملة الدولة بنفس الطريقة القديمة بالاقتراض.. على أن تكون جنبًا إلى جنب مع الجرين باكس.

أتى وفد من الحراس إلى لنكولن الذي قام بقامته الطويلة وتحرك معهم متجهًا إلى مكان ما.. واتجهنا وراءه.. كان ذاهبًا لحضور مسرحية.. سمعته يقول لسكرتير الخزينة:

هؤلاء الأفاعي نحن فقط نحتاجهم في وقت الحرب.. لكني أعد بأنه حين تنتهي الحرب سأهدم بنوكهم على رؤوسهم وسأجعل الدولة هي التي تصدر كل عملتها بنفسها.

دخل لينكولن إلى المسرحية وجلس في منصة خاصة.. وجلست أنا وجاندال بالقرب منها.. كنت أتابع العرض الدرامي الكوميدي.. لفت نظري الممثل الأساسي ذو الوجه المميز.. في وقت الاستراحة لمحت هذا الممثل يترك المسرح ويصعد من طريق جانبي إلى منصة لنكولن.. دقائق وسمعنا صراخ زوجة لنكولن من المنصة فنظرنا ونظر الجميع.. كان ذلك الممثل قد تسلل إلى المنصة وأطلق طلقتين في مؤخرة رأس لينكولن ثم هرب.

قال "جاندال":

يحارب البنكيين ثم يذهب بهناء لمشاهدة المسارح.. لو أنه عاش كان حقًا سينجح في اقتلاعهم.. لكنهم لا يتركون فرصة لكلمة لو.

■ ■ ■

أُغلقت الستائر وفُتحت أنوار الصالة.. وقمنا نمدد عضلاتنا بعد هذه العروض المتلاحقة.. ثم اتجهنا إلى الخارج.. ضوء الشمس الجميل أخيرًا.. سمعت أصواتًا مثل أصوات الديناصورات التي خرجت من محابسها.. نظرنا حولنا.. فرأيناهم.. ومن شدة خوفنا ودهشتنا اختبأنا خلف إحدى العمارات ننظر إليهم في عدم فهم.. كانوا ثلاثة رجال عمالقة.. يعلو طول الواحد منهم على طول أعلى مبنى حولنا.. قال "جاندال" بصوت خافت يوحي بالخطورة:

إنهم الأربعة الكبار.. إنهم هنا كبار فعلًا.. أكبر رجال بنكيين في أمريكا كلها.. ولقد زاد حجمهم هكذا لأنهم أصبحوا يتحكمون بـ٨٠ % من اقتصاد أمريكا.. كل واحد منهم يحتكر الجزء الخاص به من الأعمال.. لم يكن هذا معتادًا في ذلك الزمن.. رغم أنه معتاد في زمننا هذا.. ذلك الأصلع السمين ذو الشارب الكثيف جدًا مثل الأتراك هو "جي بي مورجان".. الرجل الذي أنشأ شبكة سكة حديد نيويورك التي تصل بين كل ولايات شمال أمريكا.. وهو الذي يحتكرها.. وهو الرجل الذي يملك شركة الحديد والصلب في أمريكا.. أول شركة بليونية في العالم..

ويحتكر تجارة الحديد.. وهو الرجل الذي يملك شركات عظمى مثل AT&T وGeneral Motors وGeneral Electric.

كان الرجل يكبر كلما تحدث "جاندال" عنه حتى صار كبيرًا جدًا.. قال "جاندال":

وهذا ذو الشارب المهذب والشعر المصفف إلى الجانب هو "جون روكيفيلر".. الرجل الذي يحتكر تجارة البترول في أمريكا.. والد جون دي روكيفيلر لو تذكره من رحلتنا في أرض الإعلام.. إن أباه هذا هو أغنى رجل في التاريخ الحديث كله حسب كل الإحصائيات للثروات المعلنة.

كبر ذلك الرجل حتى صار أكبر منهم جميعًا.. أكمل "جاندال":

الأخير هو "بول ووربورج" بطاقيته الشهيرة وشاربه الكبير.. رئيس شركة Wells Fargo & البنكية القابضة.. أكبر بنك في العالم في ذلك الوقت.

كانوا يهدمون مباني الشركات الصغيرة بأيديهم ويمسكون المباني الكبيرة الخاصة بهم ويضعونها مكانها وينفضون عنها الغبار.. ثم رأينا الأرض تهتز بخطوات شيء ما أو وحش ما.. حاولنا الحفاظ على توازننا بينما ننظر إلى مصدر هذه الخطوات.. كان رجلًا عملاقًا ذا وجه ممتلئ ونظارات صغيرة وشارب كثيف.. أنا أعرفه.. إنه تيدي روزفلت.. أحد رؤساء أمريكا.. هجم على الثلاثة عمالقة وحده محاولًا إسقاطهم.. وإسقاط شركاتهم.. قال "جاندال":

روزفيلت كان يحاربهم صراحة.. يرفع قضايا لمنعهم من الاحتكار وقد كسب بعضها وخسر الأخرى.

في تلك الأثناء كانت المصارعة على أشدها بين العمالقة وأتوا ناحيتنا فهربنا ودخلنا لأحد الفنادق القريبة.. ظللنا بالداخل حتى انتهى صوت الصراع واهتزاز الأرض.. قال "جاندال":

انتهت فترة روزفلت الرئاسية ولم يقدر بالطبع على حل المشكلة لكنه حاول محاولات مستميتة.. مهلًا ها هو ذا..

نظرت فرأيت روزفلت في الفندق ووراءه حراسه الشخصيون.. كان هذا بعد انتهاء فترته الرئاسية حسبما فهمت.. قال "جاندال":

إنه ذاهب لإلقاء خطاب من خطاباته.. و..

بانج بانج.. طلقتان.. أصابا صدر تيدي روزفلت.. وصارت ضجة عظيمة.. لكني أرى تيدي يقوم من الأرض ويتحسس صدره.. ثم يدخل يده في جيبه ويخرج

جراب نظارة.. ويتحسس وراءهما.. لقد أنقذ هذا الجراب حياته.. ذكر أحدهم الذهاب إلى المستشفى لكن روزفلت رفض رفضًا قاطعًا وأصر على الذهاب ليلقي الخطاب.. وذهب فعلًا ووقف أمام الناس بهذه الحالة وقال:

أعزائي.. أرجو منكم أن تبقوا هادئين.. لقد تعرضت لإطلاق ناري منذ قليل.. لكن يبدو أن الطلقات لم تكن كافية لقتل ثور مثلي.

هلل الناس متأثرين.. فأكمل "روزفلت":

هؤلاء البنكيون الدوليون.. الروكيفيلر أصحاب شركات البترول وغيرهم يتحكمون بأغلب الصحف ليحطوا من شأن أي شخص يعارض فسادهم.. هؤلاء هم الحكومة الخفية.. لا بد من اقتلاعهم حتى تعيش أمتنا في سلام.

وهلل الناس مرة أخرى.. إنها حرب دائرة كما أرى.. بعض الرؤساء يحاولون إخماد البنكيين لكن لا يمكنهم هذا ويخسرون كل مرة.. أي قوة هذه التي جعلت هؤلاء العماليق فوق الدول؟! رأيت "جاندال" يشير إلي أن أتبعه.. قال لي:

اسمع.. من الآن فصاعدا، يجب أن نظل مع مورجان مثل ظله.. الكثير من الأسرار ستكشف الفترة القادمة.. إنه يتباهى الآن بأن شركته هي التي صنعت أعظم سفينة في التاريخ.. السفينة التي لا تغرق أبدًا.. تايتانيك.. إن رحلتها الأولى ستنطلق غدًا.. ومورجان سيكون على متنها.. ولا بد أن نكون على متنها أيضًا بانتظاره.

■ ■ ■

تايتانيك بناها مورجان.. ونحن ذاهبون إليها.. هذا يبدو مثيرًا جدًا يا صديقي.. خرجنا من ذلك الفندق سريعًا ومشينا في الشارع.. كان الشارع يؤدي إلى الميناء.. يمكنني أن أرى البحر.. ويمكنني أن أرى جزءًا أسودَ عظيمًا يطالعني من بعيد وراء هذه المباني.. أعتقد أن تايتانيك واقفة هناك.. ظللنا نقترب وذلك الجزء الأسود يظهر أكثر وأكثر.. ثم وصلنا إلى الميناء ورأيناها.. إنها كبيرة لدرجة أنك لا يمكنك أن تشاهدها كاملة إلا إذا رفعت رأسك عن آخره إلى أعلى.. يستحيل عندما تنظر إليها أن تظن أن هذا الشيء يمكن أن يغرق أبدًا.. كان هناك الكثير من الزحام.. فقراء.. أغنياء.. عشرة باوندات هي ثمن الرحلة فقط.. تنكرنا في هيئة صناديق ومشينا شيئًا فشيئًا حتى دخلنا للسفينة.

ديكورات السفينة تماثل تمامًا تلك التي رأيتها في الفيلم السينمائي الشهير تايتانيك.. يبدو أن فريق العمل على الفيلم قد بذل جهدًا خارقًا حقًا.. إن الديكورات متماثلة لدرجة أنه يمكن أن أرى جاك وروز يتحدثان في مكان ما.. و..

"جاندال" أيها الصديق القديم.. أين كنت طوال هذه المدة.. منذ متى وأنت تخرج من جمجمة القمر؟

نظرت ورائي لأجد "جاندال" يعانق.. مهلًا.. مهلًا.. إن "جاندال" يعانق.. ذلك الشخص.. أليس هو..

قال لي "جاندال":

اقترب يا هذا.. ألا تعرف "سكروج ماكدك"؟

ظللت محملقًا.. قال "جاندال":

عم دهب.. ألا تعرف عم دهب يا هذا؟ أفق من شرودك وسلم عليه.

أفقت من شرودي ومددت يدي.. إنه عم دهب فعلًا.. مد لي يده وسلم علي وهو يبتسم ابتسامة البطة السعيدة برؤيتي وقال:

مرحبًا.. أنا دهب.. أغنى بطة في العالم.

إنها المرة الأولى التي أعرف أن عم دهب كان على متن سفينة تايتانيك أيضًا.. أذكر أنني قرأت إحدى قصصه بهذا الخصوص.. قال له "جاندال":

نحن هنا لمتابعة جي بي مورجان.. ثم يجـ..

لن يأتي.

قالها عم دهب بحزم.. التفتنا له بدهشة.. قال لنا:

إن تايتانيك هي مجرد فخ.

قال له "جاندال":

ماذا تعني.. فخ لمن بالضبط؟

قال دهب بغموض:

لبعض الناس الغير مرغوب فيهم.

وضع "جاندال" يده على كتف عم دهب وقال:

عزيزي دهب.. دائمًا أنت مليء بالأسرار.. قل لنا ما تعرفه.

اتكأنا على حاجز السفينة ونظرنا إلى المحيط الواسع الذي لا ترى آخره من أي جهة من الجهات.. قال عم دهب في شرود:

كل شيء بدأ في جزيرة جيكل آيلاند.. حيث اجتمع الثلاثة الكبار.. جي بي مورجان.. جون روكيفيلر.. باول ووربورج.. ومعهم السيناتور نيلسون أولديرتش.. العضو الكبير في مجلس الشيوخ الأمريكي والذي يلقبونه المدير العام للأمة.. كان معهم أيضًا مساعد سكرتير خزينة الدولة.. وفرانك فاندرلوب رئيس سيتي بانك.. وآخرون من الكبار.. اجتمعوا كلهم بشكل سري للغاية للتباحث في أمر مهم يجب ان يتعاونوا على فعله.. طبعًا هذه المقابلة كانت سرية للغاية حتى كشفها "تشارلز فوربز" الكاتب الاقتصادي الذي سيؤسس لاحقًا مجلة فوربز الشهيرة.

تنهد دهب ثم أكمل:

اتفق الثلاثة الكبار في ذلك الاجتماع السري على أن يحدثوا أزمة مالية كبيرة جدًا تؤدي إلى إفلاس بنوك كثيرة وإغلاق شركات كبيرة.. وذلك عبر تقليل الأموال التي مع الناس بسياساتهم البنكية القذرة المعهودة.. وقد فعلوا هذا وحدثت أزمة كبيرة جدًا في تلك السنة.. ولقد ذهبوا إلى جيكل ذلك اليوم للتباحث في شأن الخطوة التالية.

هنا لاحظت أن هناك فتاة جميلة تقترب من حاجز السفينة وتنظر إلى البحر في حزن وخوف... دققت النظر فيها.. رائع.. إنها روز.. هكذا اكتمل فريق تايتانيك.. نظر عم دهب إليها قليلًا ثم أكمل:

كان الهدف من هذا الاجتماع هو التخطيط لإنشاء بنك مركزي جديد لأمريكا على شاكلة البنك الذي هدمه أندرو جاكسون على رؤوسهم.

كانت روز الآن تفكر في الانتحار.. وبدأت تصعد بقدمها حتى يتسنى لها القفز.. نظرت حولي أبحث عن جاك.. المفترض أن يأتي الآن لينقذها.. ها هو ذا.. بدأت روز تميل مستعدة للقفز.. ثم فجأةً مد عم دهب عصاه المثنية من نهايتها لتمسك برقبة روز ثم جذبها جذبة قوية لتطير روز إلى داخل السفينة وتقع على جاك الذي كان متوجهًا ليحدثها.. إن عم دهب أفسد تلك اللقطة الرومانسية بعصاه الحمقاء.. نظرت إلي عم دهب بغضب وهو يقول:

كتب الثلاثة الكبار معروضًا كبيرًا لافتتاح بنك يكون هو أبا البنوك في أمريكا.. ويكون اسمه بنك الاحتياط الفيدرالي.. وسنختصر اسمه إلى الفيد.. وأعطوا هذا المعروض للسيناتور أولدريتش المدير العام للأمة ليقدمه للكونجرس.. المفترض أن السيناتور أولدريتش عينه الكونجرس للتحقيق في الأزمة الاقتصادية التي حدثت وكلفه بإيجاد حل.. لكنه كان متحالفًا مع البنكيين.. فالحل الذي رجع به للكونجرس هو إنشاء بنك الفيد.. الحل الذي يريده البنكيون.

كنت مشغولًا قليلًا بمتابعة جاك وروز بينما عم دهب يكمل:

رفض الكونجرس اقتراح أولدريتش.. وقال أننا قد عيّناه ليجد لنا حلًا في مصلحة الناس فأوجد لنا حلًا في مصلحة البنكيين.. وأغلق الكونجرس هذا الباب.. لكن البنكيين كانوا قد أقنعوا المرشح الرئاسي "وودرو ويلسون" بموضوع بنك الفيد هذا.. ومولوه بكل أموالهم وعتادهم ليصل إلى الرئاسة.. شرط أن يوافق على افتتاح الفيد.. وبالفعل تم انتخاب الرئيس وودرو ويلسون.. وأول شيء فعله بعد انتخابه هو أن افتتح بنك الفيد.. وفي نفس السنة تم سن قانون الضرائب على الدخل.. الآن ستأخذ منك الحكومة ضريبة على دخلك.. لماذا ستأخذ منك ضرائب؟ حتى تسدد الحكومة القروض التي ستأخذها من الفيد.

تهد عم دهب والهواء يطير ريشه وهو يقول:

لو نظرت إلى صورة وودرو ويلسون وهو يوقع وثيقة افتتاح الفيد ووراءه رجال يبتسمون بخبث.. كأنهم رجال الظلام.. لقد ندم ويلسون ندمًا شديدًا قبل موته فقال: "لقد خنت بلادي.. أمة عظيمة متحكم بها بواسطة نظام من الأرصدة.. نظام بأكمله بين يدي عدة أشخاص.. لقد أصبحنا من أسوأ الحكومات المسيطر عليها في العالم.. لم نعد حكومة ذات رأي حر.. لم نعد حكومة نعتمد على تصويت الأغلبية.. بل حكومة نعتمد على رأي قلة من الرجال".

بدأت أستغرق في متابعة الناس وهم يظنون أن جاك وروز بينهما شيء بينما هي تقول لهم أنه أنقذ حياتها.. لكني شعرت بعصا دهب تلف حول رقبتي ثم تجذبني جذبة قوية أصبحت فيها أمامه.. قال دهب:

أيها الأحمق.. أنا أخبركم الآن بشيء هام.. ألا يمكنك أن تركز دقيقتين.. أنت لا تعرف أن جي بي مورجان هو الذي بنى هذه السفينة.. وهو الذي سيغرق هذه السفينة.. لأن هناك بعض الأغنياء المهمين جدًا عليها.. أغنياء لهم مركزهم في السوق المالي ولا يوافقون على افتتاح الفيد.. أشخاص مثل جاكوب آستور من أكبر أثرياء العالم وقد كان ناشطًا كبيرًا ضد فكرة الفيد منذ أن طرحت.. وفشلت كل محاولات إقناعه.. وتأثيره على الكونجرس كان جبارًا.. والآن كان مسافرًا على هذه السفينة.. وليس هو فقط بل هناك كثير مثله على السفينة.. فوجب أن يغرقها مورجان.. لأنه لا يوجد حل آخر.

قال "جاندال":

يعني يبني السفينة العظيمة ثم يغرقها بيده؟

قال دهب:

لو لم يفعل هذا لن يتمكن من افتتاح الفيد أبدًا.. أنت لا تدري أهمية وثقل من كانوا مسافرين على السفينة من الأثرياء.. فقد كانوا كلهم معارضين لفكرة الفيد.. ثم إن مورجان الذي كان مفترضًا أن يكون على السفينة اليوم.. سحب نفسه في الثانية الأخيرة ولم يحضر.. حتى إنكما أتيتما إلى هنا لانتظاره واثقين أنه سيأتي.. لكنه لم يأتِ قط.

فجأةً سمعنا صوت جلبة ما أسفل السفينة.. فتوجه نفر كثير للنظر من الحاجز فأحدثت الجلبة هزة فتمسكوا بالحاجز حتى لا يسقطوا.. لقد اصطدمت التايتانيك.. لعن الله مورجان وآستور وكل هذه الأسماء القميئة.. نظرت إلى دهب.. كان غير مهتم بهذه الأشياء.. قال لي:

يا عزيزي تذكر أنني بطة.. لا يمكن أن أغرق.. و..

فجأةً رأيت يدًا قاسية تمسك بتلابيب دهب وترفعه في الهواء عاليًا.. فنظرت إلى صاحب اليد.. رجل أفريقي عملاق بشع المنظر كث الشعر في وجهه اخضرار غريب.. صرخ دهب:

خلصوني منه بسرعة.. إنه بومبي الزومبي.

ظللت محملقًا كالأحمق قليلًا.. ثم صرخ دهب مرة أخرى بصوت البطة.. لكن "جاندال" تحرك وعض الرجل الأفريقي في فخذه فتألم فترك عم دهب.. وجرى دهب وجرينا معه.. كان كل أهل السفينة يجرون الآن.. إنه مشهد الغرق.. وكنا نحن نجري من بومبي الزومبي.. قال دهب:

لقد أخطأت ذات يوم وآذيت بعض سحرة فودوو في أفريقيا ونصبت عليهم.. فعاقبوني بعمل تعويذة تجعل هذا الشيء يلاحقني أينما ذهبت.. لكني لم أتوقع أن يأتي هنا في تيتانيك.

قفزنا كلنا في قارب من قوارب النجاة وخفضنا رؤوسنا.. وكان بومبي الزومبي يبحث عنا هنا وهناك ببطء.. ورأينا السفينة وهي تنشق من منتصفها.. ثم يقرر أحد النصفين الغرق.. ويقرر النصف الآخر الارتفاع.. وظل بومبي الزومبي واقفًا أعلى القسم المرتفع حتى بدأ يغرق شيئًا فشيئًا.. وغرق بومبي معه.. فتنفس دهب الصعداء وقال:

هذا المسكين أصلًا رجلٌ فقير عادي.. لكن سحرة الفودو جعلوه ممسوخًا بتعويذة لا مفر له منها.

كنت أنظر إلى دهب وأضم علي ملابسي من البرد.. لا يجب أن أندهش.. نحن نرافق عم دهب.. لا بد من هذه الأشياء الجنونية.. بومبي الزومبي.. وهذه الأمور.. ثم إن النعاس غلبني.. ودخلت في غياهب النوم.. ولم أفق إلا على صوت صفارة روز.. كانت تصفر أملًا أن يجدها أي أحد.. كنت أسمع صفارتها من عندي.. لا بد أن يسمع صفارتها أحد مراكب الإنقاذ الآن.. ثم توقفت روز عن التصفير.. وبدأت أنا أنعس مرة أخرى.. ثم غفوت.

▪ ▪ ▪

لقد أصبح العالم الآن مرتعًا للبنوك المركزية.. لدينا بنك إنجلترا.. وبنك فرنسا.. وبنك الفيد الأمريكي.. وبنك الرايخ الألماني.. والبنك المركزي الروسي.. وكل بنك يسلسل الدولة التي هو فيها.

والدولة العثمانية ألم يبنوا لهم فيها بنكًا أيضًا؟

آه كدت أنساها.. نعم.. لقد أنشأوا بنكًا مركزيًا فيها طبعًا.. كان اسمه البنك العثماني.. وكان مثله مثل الفيد وبنك إنجلترا.. لا فرق.

كنت أسمع هذه المحادثة وأفتح عيني ببطء.. وأرى من زاوية النائم "جاندال" يتحدث مع أحدهم.. كان السرير وثيرًا فأحببت أن أبقى فيه دقائق إضافية.. أغلقت عيني نصف إغلاق وتابعت محادثتهما.

بعد أن سيطرت هذه البنوك كلها على دولها.. اندلعت الحرب العالمية الأولى.. حرب كبيرة ستعني المزيد من الاقتراض لكل دولة من بنكها المركزي.

كان هذا عم دهب.. عرفته من صوته.. قمت من نومي.. كان دهب يقول:

"جاندال".. افتح التلفاز.. أريد أن أريك شيئًا.

فتح "جاندال" التلفاز.. فظهرت صورة رجل ذي ملامح كبيرة حادة وشعر أبيض ويرتدي طاقية طويلة وعلم أمريكا مطبوع على ملابسه وقبعته.. كان يضحك.. وفيما يشبه الكارتون الوثائقي كان المعلق في التلفزيون يقول:

العم سام.. الرمز الشهير الذي يمثل أمريكا في أي كاريكاتير.. لقد اندلعت الحرب في أوروبا.. الحرب العالمية الأولى.. وها هو العم سام يشمر ساعده ويفرك يديه ويفكر.. إن أوروبا في حرب.. قطعًا سيحتاجون أسلحة.. بترولًا.. وغيره.. وأمريكا تأخذ موقفًا محايدًا في الحرب.. ولا تريد أن تتدخل.. إنها أجمل فرصة للتجارة.. أجمل فرصة لأن تبيع لهم أمريكا ما يحتاجونه من أشياء في هذه الحرب.. وبالفعل صار العم سام يتاجر ويتاجر.. ويبعث بالصادرات والدول تدفع

له بالذهب.. لكن هذا لم يعجب الفيد.. إن أمريكا تكسب نقودًا.. وكل الأمم الأخرى تستدين من بنوكها.. إلا أمريكا كانت تكسب ولا تقترض من الفيد شيئًا.. كان لا بد لأمريكا أن تدخل الحرب.

كان العم سام يبتسم وآثار النعمة ظاهرة على وجهه.. ثم فجأةً امتقع وجهه.. هناك أنشوطة من حبل توجهت إليه فربطته وسطها وشدت عليه الرباط.. نظرت إلى من رمى عليه الحبل.. إنهم الثلاثة الكبار الرائعون.. قال المعلق الكارتوني:

لقد دخلت أمريكا في الحرب وهي لا دخل لها بها.. كيف دخلت؟ دخلت بسبب سفينة.. لوسيتانيا كان اسم السفينة.. كانت مجرد سفينة بضائع وركاب.. خرجت من أمريكا إلى السواحل الألمانية في خضم الحرب الدائرة هناك.. ولقد حذرت ألمانيا كثيرًا أنها ستنسف أي سفينة تقترب من مياهها.. ورغم التحذير.. أطلق أحدهم سفينة لوسيتانيا غير عابئ بأي شيء.. وبالطبع نسفت المدمرات الألمانية السفينة.. وكان هذا سببًا كافيًا لاستفزاز أمريكا للدخول في الحرب.. كانت مؤامرة مدبرة بإحكام من الكبار.

والآن أصبح العم سام داخل الأنشوطة.. أصبح داخل الحرب.. لا بد أن يستدين من الفيد ومن البنكيين حتى تخنقه الحبال وتسلخ جلده.. ثم فجأةً تغير الوثائقي الكارتوني.. أحدهم يغير القناة.. تبًا.. لماذا يغيرون القناة دائمًا في أهم وقت؟ كان هذا "جاندال" يمسك بجهاز التحكم ويغير القناة.. نظرت إلى التلفزيون مرة أخرى.. ما هذا بالضبط؟

كان فيلمًا لشارلي شابلن.. أنا أحب هذا الرجل.. لكن ما هذا؟ إنه العم سام.. شارلي شابلن يمثل الناس.. والعم سام يمثل أمريكا.. شارلي شابلن يعطي العم سام صرة من النقود.. العم سام يشكر شارلي ويعطيه لفافة ورق مقابل نقوده.. ثم يعطي العم سام النقود التي أخذها من شارلي لرجل يمثل العاملين في الصناعة.. فيدخل العامل إلى مصنعه ويصنع سلاحًا.. ويعطي السلاح لأحد الجنود.. فيذهب الجندي للحرب.

ثم مشي شارلي شابلن ومعه مطرقة.. عليها كلمة Liberty Bonds.. سندات الحرية.. فيرى ضابطًا معاديًا من الغزاة الأعداء.. كان الضابط يقف ويخطب خطبة أنه سيفعل في أمريكا ويفعل.. فيأتي شابلن ويضربه بالمطرقة على رأسه.. مرة ومرتين وثلاث.. حتى يقع الضابط الغازي على الأرض.. ويمسك شابلن

بالمطرقة ويظهرها أمام الكاميرا.. ويشير إلى كلمة سندات الحرية المكتوبة عليها في فخر.

قال عم دهب:

لم ترد أمريكا أن تقترض من البنكيين ولا من الفيد.. بل لقد ابتكرت فكرة جديدة.. أن تقترض من الشعب.. هذا ما يدعى سندات الحرب.. أنت تقرض نقودك لدولتك لأجل الحرب.. ونقودك مع الدولة لا تضيع.. إنما ستعيدها لك الدولة وعليها فائدة ٥ %.. لكن ينبغي أن تقف مع الدولة في الضراء.. كانت حملات إعلانية في كل مكان في أمريكا.. في المجلات والجرائد والشوارع.. أقرض نقودك لدولتك.. النصر لا يأتي بالرجال وحدهم.. وإنما يأتي بالنقود أيضًا.. شارك في الحملة العديد من المشاهير.. ومنهم شارلي شابلن الذي أنتج هذا الفيلم القصير على حسابه.

قال "جاندال":

أريد أن أرى وجه الفيد في تلك اللحظات.. لقد وجدت الحكومة بديلًا جيدًا كما أرى.

قال عم دهب:

نعم.. هذه المرة لم ينجح الفيد.. رغم أن أمريكا دخلت الحرب فعلًا.. بل إن الدول الأخرى المشاركة في الحرب تعلمت من أمريكا وصارت تقترض من شعوبها بنفس الطريقة.. لكن البنكيين حققوا نصرًا هامًا جدًا بعد الحرب العالمية الأولى.. هذا النصر يتمثل في كلمتين.. عصبة الأمم.

قال له "جاندال":

و كيف تفيد عصبة الأمم البنكيين.. أليست عصبة الأمم هذه منشأة أساسًا للتوافق بين الأمم ومنع الحروب؟

قال دهب:

لا يا عزيزي.. عصبة الأمم هذه حققت هدفًا آخر غير استعباد الأمم.. عصبة الأمم هذه هي التي صرّحت لبريطانيا أن تدخل فلسطين فيما يعرف بالانتداب البريطاني.. بدعوى إنقاذهم من الأتراك.. وحين تدخل بريطانيا إلى فلسطين.. تسهل دخول اليهود لفلسطين.. وتجعل لهم فيها أرضًا وسكنًا.

■ ■ ■

الآن قمت من سريري ونظر إليّ جاندال ودهب بنظرة معناها.. أخيرًا أفقت من غيبوبتك.. ثم قال دهب:

تعالوا.. يجب أن...

سمعنا ضجة مخيفة في الخارج.. نظر جاندال ودهب من النافذة ففزعا وأمسك "جاندال" بيدي وشدني وأمسك دهب بيدك وشدك وانطلقا بنا خارجًا هاربين..

في الأسفل كان مشهدًا جنونيًا.. الحيتان الثلاثة.. لقد ازداد حجمهم كلهم.. فصارت رؤوسهم تعلو على تمثال الحرية.. وصار الناس يجرون من أمامهم.. وجرينا مع الناس.. الحيتان يأخذون كل الضمانات التي كان المقترضون يضعونها كتأمين للقروض.. العمارات والبيوت.. ها هم يمسكون العمارات بأيديهم ويمسكون البيوت بقبضاتهم.. ويخرجون الناس من ديارهم.. أمسكوا أحد الهاربين فخلعوا عنه ما يرتديه وتركوه يجري بملابسه الداخلية.. هكذا هو الأمر.. إن أصحاب المال اليوم قد علت صرخاتهم على صرخات أي كائن يعيش في هذه الغابة.. إنهم ملوك هذه الغابة.. وعندما يريدون شيئًا فهو يحدث رغم أنف كل الكائنات.. اجر أيها الكائن هناك ولا تلُم إلا نفسك.. أنت الذي جعلت منهم عماليق.. أنت الذي مكنتهم من هذا كله.

تعبنا من الجري فاختبأنا وراء أحد الجدران اختباءً حريصًا حتى توقفت أصوات الحيتان.. نظرنا بحرص من وراء الجدار إلى الأجواء حولنا.. هل انصرفوا الآن؟ نعم يبدو أنهم انصرفوا.. أين عم دهب؟ فاجأتني عصا التفت حول عنقي وسحبتني للخلف بهدوء.. التفت فرأيت عم دهب واقفًا يقول:

مرحبًا يا رفاق.. قلقت عليكم.

قال "جاندال":

دهب أيها العجوز.. ما بال هؤلاء قد توحشوا؟

قال دهب:

لقد أكملوا مسلسل السيطرة على كل شيء.. استعبدوا الناس ببنوكهم كما استعبدوا الدولة.

قال له "جاندال":

وأنت.. ألم تفعل مثلهم؟

قال "دهب":

هؤلاء يفعلون هذا من أجل السيطرة السياسية.. وأنا لا أهتم بالسيطرة السياسية.. كل ما يهمني هو جمع المزيد من الذهب.. تعالوا سنتجه إلى خزنتي الحبيبة في مدينة البط.. هذا أفضل وأكثر أمانًا.

قال "جاندال":

هذا البطة يمتلك أكوامًا من الذهب.. حتى إن مجلة فوربز دائمًا تجعله في مقدمة القائمة السنوية التي تصدرها: "أغنى ١٥ شخصية خيالية".. وقدرت ثروته من الذهب بـ٤٤ بليون دولار.. الوحيد الذي ينافسه هو سانتا كلوز.. لأنهم لم يستطيعوا تقدير ثروة سانتا فقالوا أنها ثروة لا نهائية.

قال له دهب:

أكثر شيء آمن في الدنيا هو أن تحول نقودك إلى ذهب.. أنت لا تدري ما الذي سيحدث في العالم.. ربما تتغير القوانين.. لكن الذهب حافظ على قيمته منذ أيام الفراعنة وحتى الآن.

دخلنا إلى مدينة البط.. كل الناس هنا إما بط أو فئران.. قابلنا سكوربيون.. وقد صارت أنفه مثل أنوف الفئران.. انفجرت ضاحكًا لما رأيته.. مرحى.. الآن صار شكله الكارتوني أسخف منا.. نظر إليّ في غل ثم دعانا إلى منزل أمامه لافتة مكتوب عليها "سكوربيون".. مثل كثير من منازل مدينة البط.. يُكتب عليها اسم أصحابها.



خرجنا من عند سكوربيون لنتمشى في مدينة البط قليلًا.. لكن كان هناك شيء غير طبيعي.. الناس تنظر إلى عم دهب بنظرات غير اعتيادية.. ثم رأينا ثلاثة

أطفال يجرون ناحيتنا بلهفة من لديه خبر عاجل يود التحدث به.. كان هؤلاء هم "توتو" و"لولو" و"سوسو".. أبناء أخت بطوط.. الأشبال الصغار.. قالوا لعم دهب:

مصيبة يا عم دهب.. مصيبة.. مصيبة ستحل بك.. لقد أمر الرئيس فرانكلين روزفيلت بمصادرة كل الذهب الذي عند كل الناس.. كل شخص في أمريكا يجب أن يسلم كل الذهب الذي عنده للحكومة.. وتعطيه الحكومة بدلًا منه عملات.. ومن لا يفعل يسجن عشر سنوات وتكون عليه غرامة ١٠ آلاف دولار.

جن جنون عم دهب وانطلق إلى خزنته بسرعة الصاروخ وتركنا واقفين في مدينة البط.. قال "جاندال":

إنهم الآن بعد أن أفقروا الناس وأفسدوا الاقتصاد يريدون أن يسحبوا ما تبقى عند الناس.. وقد فعلها الرئيس حقًا وصادر كل الذهب الذي عند الأمريكان.

قلت له:

وماذا فعلوا في خزنة عم دهب؟

قال "جاندال":

لا أدري.. ولا أحد يدري.. فلم تكتب قصة في هذا الشأن.

رأينا الآن كل الشخصيات في مدينة البط يخرجون من بيوتهم.. وكلٌ منهم معه صرة كبيرة فيها ذهبه.. ويتجهون بها إلى بنك مدينة البط المركزي.. وهو أحد فروع الفيد.. أشار لي "جاندال" أن نتسلل إلى زاوية وراء البنك.. لاحظت أن هناك شاحنة قد أتت وأفرغ فيها البنك كل ما لديه من الذهب الذي جمعه من الناس.. قفزنا لنتعلق بالشاحنة دون أن ينتبه إلينا أحد.. ثم انطلقت الشاحنة من البنك متجهة بسرعة إلى مكان ما.

قال "جاندال" وهو متعلق في الشاحنة والهواء يحرك ملابسه:

هذا الفرانكلين روزفيلت صادر ذهب الشعب.. ثم بنى بنيانًا عاليًا شديد التأمين سماه فورت نوكس.. ووضع في هذا البنيان حوالي ٣ آلاف طن من الذهب الخام.. وهو مجموع الذهب الذي جمعه العم سام أثناء الحرب العالمية الأولى.. ومجموع الذهب الذي جمعه من الناس بعد الحرب.

وقفت الشاحنة أمام مبنى فورت نوكس.. لاحظت وجود الكثير من الشاحنات الأخرى خلفنا.. كلها محملة بالذهب.. حول المبنى كان هناك أناس كثيرون واقفون ينظرون إلى كل هذا بملامح قليلة الحيلة.. إنهم يشاهدون ذهبهم وهو يدخل إلى

فورت نوكس.. استغرقني المنظر وكنا ما زلنا متعلقين في تلك الشاحنة التي انطلقت مرة أخرى بسرعة عائدة إلى مدينة البط وسحبتنا معها.. ظننت أن جاندال سينزل من الشاحنة في فورت نوكس لكنه لم يفعل.. بقينا في الشاحنة حتى توقفت فجأةً مثلما تفعل كل الشاحنات الكارتونية أمام بنك مدينة البط المركزي.. فقذفَنا القصور الذاتي على الأرض.

فجأةً سمعنا صوتًا أخنفَ يصيح من ورائنا:

هايل هتلر.

استدرنا لننظر.. فإذا هو بطوط.. كان يرتدي ملابس الجندية الألمانية بالعلامة النازية الشهيرة ويؤدي تحية هتلر الشهيرة.. ثم أتت وراءه فرقة عسكرية تؤدي مشية عسكرية موسيقية ودخل فيها بطوط وأخذ يمشي معهم وهو يحمل طبلة كبيرة على رأسه.. ويتحمل ضربات الجندي الخلفي عليها.

قلت لجاندال:

ما هذا يا جاندال.. هل بطوط كان نازيًا؟

ابتسم "جاندال" ووقف وقفة عسكرية وصاح بأعلى صوته في وجوهنا:

هايل هتلر.

■ ■ ■

دارت الأجواء عشرة دورانات سريعة.. وما إن توقفت إذ وجدنا أنفسنا قد تركنا مدينة البط وأصبحنا في ألمانيا... يا إلهي ما هذا بالضبط؟

كنا في وسط ما يبدو كمليون رجل وامرأة على أقل تقدير ترصده عينك حولنا.. الكل يرفعون أيديهم ويبتسمون في سعادة وقوة وحماس.. ولو كنت وسطهم لن تملك إلا أن ترفع يدك أنت أيضًا.. اشتغلت أغنية عسكرية غاية في الحماس تجعل دماءك تفور معها غليانًا.. هناك مشية عسكرية قادمة.. المباني كلها مزينة بأشرطة حمراء كبيرة وطويلة عليها علامة الصليب المعقوف النازية الشهيرة.. الناس كلها تصيح وتصرخ باسمه.. إنه يقترب.. الفوهرر.. إن "هتلر" يقترب.

ظهر هتلر في مجال أعيننا.. كان يمشي بثقة وكبرياء لا حد لهما.. ويرفع يده في تحية عسكرية أنيقة ليحيي الكل وهو يمشي.. نظرت إلى الناس من حولي.. هذا عشق خالص وليس خوفًا.. عشق خالص أراه في عيونهم وقلوبهم.. لكن لماذا؟ أليس هتلر هذا شيطان؟

قال لي "جاندال":

هذا القصير صاحب الشارب المقصوص هو أقوى شخص في التاريخ وقف أمام البنكيين تقريبًا.. بل إنه أزالهم شر إزالة هم وأنظمتهم كلها.

نظرت إلى هتلر ثم قلت:

ماذا فعل بالضبط؟

قال "جاندال":

بعد الحرب العالمية الأولى كانت ألمانيا قد استدانت من البنكيين أموالًا طائلة وتم غرز بنك الرايخ المركزي في ظهرها.. فصار اقتصادها ينزف من ديونها الخارجية والداخلية.. ولم يكن لديهم ذهب يكفي أي شيء.. فقررت ألمانيا أن تلغي اعتماد عملتها على الذهب.. وتجعل عملتها غير معتمدة على أي شيء.. لكن الديون الخارجية كانت مطلوبة بالدولار.. فأصبحوا يطبعون من عملتهم أعدادًا مهولة ويشترون بها دولارات.. ويسددون الدين.. هذه الحركة جعلت قيمة عملتهم تنخفض انخفاضًا هو الأعلى في التاريخ.. وصار الدولار الواحد يعادل ٤ بليون مارك ألماني.. لم تعد لأوراقهم هذه قيمة.. فصار البنكيون يطلبون ديونهم على شكل بضائع وذهب.. فذهب الذهب تمامًا من خزائن ألمانيا.. وصارت ألمانيا مثارًا للسخرية.. كانوا يقولون: "اذهب إلى ألمانيا واشترِ بيتًا ومزرعة ببضعة دولارات".. ثم أتى هتلر..

كان هتلر متجهًا إلى المنصة الآن ليلقي خطابًا.. و"جاندال" يكمل:

ألغى هتلر النظام الأحمق الذي يقضي بأن يطبع البنك المركزي أموالًا من الهواء ويقرضها للدولة.. وأصدر عملة جديدة تطبعها الدولة فقط.. لا تقترضها من أحد.. كما فعل أبراهام لنكولن.. أصدر هتلر عملة جديدة.. وبدأ يدفع الرواتب منها.. الرواتب التي زادها كلها بنسبة ١٠ %.. وصار يدفع للعمال في المصانع من العملة الجديدة.. وصار يبني بالعملة الجديدة منشآتٍ وطرقًا ومدارس.. بنى أروع شبكة طرق في العالم أجمع في ألمانيا وسماها الأوتوبان.. جعل ألمانيا تصنع سيارة يكون سعرها في متناول الشعب بدلًا من سيارات البي إم دبليو والمرسيدس التي لا يقدر أغلب الشعب على شرائها.. الفولكس واجن.. خلال سنتين فقط قضى على البطالة التي كانت قد وصلت إلى معدل ٩٠ % في ألمانيا قبل أن يأتي.. وبعد أن أتى صارت البطالة ٠ %.. أصبح يعطي القروض للناس ليشتروا بيوتًا.. قروض يسددونها بالتيسير على عشر سنوات.. ولو أنجب الرجل

ابنًا.. يسقط عنه ربع قيمة هذا الدين.. ولو أنجب اثنين.. يسقط عنه نصف قيمة الدين.. ولو أنجب أربعة.. يسقط عنه الدين كاملًا.. جعل التعليم مجانيًا تمامًا في المدارس والجامعات.. أحيا ألمانيا بعد مواتها.. وكل هذا فقط لأنه جعل الحكومة تطبع عملتها بنفسها.. بقدر يتناسب مع الاقتصاد.. وقتل البنك المركزي.

صعد "هتلر" إلى المنبر وقال بصوته القوي:

البنكيون الدوليون هم أشخاص في غاية البشاعة والقذارة.. ولقد خنقوا اقتصادنا شر خنقة.. وإن الحكام في دول العالم قد أغلقوا قلوبهم وعقولهم تمامًا عن هذا الأمر.. لكنني أفهمه تمامًا.. والآن هم يعلنون علينا الحرب.. هم يريدون الحرب..

ثم صرخ:

فعلمهم الحرب إذًا.. علمهم الحرب..

■ ■ ■

و بدأت الحرب العالمية الثانية.. الكثير من النيران والصواريخ هنا وهناك.. الكثير من الجنود يركضون برشاشاتهم.. السماء أصبحت حمراء من كثرة الانفجارات.. لكني رأيت شخصًا يرتدي قبعة وملابس عليها علم أمريكا.. إنه العم سام.. ماذا يفعل هنا؟ كان يبتسم ابتسامة خبيثة وهناك جندي يوقع له بالاستلام على شيء ويخرج كيسًا كبيرًا من الذهب ليعطيه للعم سام.. فتوقفتْ أمام الجندي شاحنة مليئة بالأسلحة عليها علم أمريكا.

قال "جاندال":

ما زال العم سام يتاجر أثناء الحرب.. أمريكا في الحرب العالمية الثانية مثل الحرب العالمية الأولى، لم تدخل إلا في آخر سنة.. لذلك ظهرت مقولة في أمريكا.. الحرب مفيدة للاقتصاد.. نعم الحرب مفيدة للاقتصاد لو أنك لست مشاركًا فيها.. لو أنك مجرد تاجر تبيع لهم ويعطونك ذهبًا خالصًا.. تعال نتبع هذا الرجل.

تبعنا العم سام حتى وصل إلى فورت نوكس فجأة ومعه أكياس كبيرة محملة بالذهب.. خرج من فورت نوكس جنود كثيرون أخذوا كل الأكياس وأدخلوها إلى الداخل.. قال "جاندال":

زاد الذهب في فورت نوكس من ٣ آلاف طن إلى أكثر من ٤ آلاف طن بعد الحرب العالمية الثانية.. صارت أمريكا تمتلك وحدها ٧٠ % من الذهب الذي في العالم.

فجأةً ظهرت طائرات بيضاء صغيرة رفيعة تتحرك في سرب وتطلق غازًا.. قال "جاندال":

يا إلهي إنها "بوسي جالور"!

فجأةً طاح كل الجنود على الأرض.. أكاد أرى ما يقرب من ٣٠ ألف جندي في مواقع مختلفة حول فورت نوكس كلهم طاحوا على الأرض.. منهم من كان على دبابات ومنهم من كان يمشي ومنهم من كان على أبراج المراقبة.. الكل طاح.. ثم ظهر جنود آخرون يرتدون زيًا ليس عسكريًا.. زي غريب.. اقتربوا من البوابات الحديدية الكبيرة ووضعوا أمامها قنابل ذهبية طويلة.. وابتعدوا.. فانفجرت البوابات الحديدية.. ودلفوا إلى داخل فورت نوكس.. ليواجهوا بوابة فولاذية أخرى.. لكنهم قطعوها قطعًا بجهاز ليزر ضخم أخرجوه من إحدى سياراتهم.. من هؤلاء؟ لا أفهم شيئًا.. ثم فجأةً رأيته.. خرج من إحدى سيارات الجنود المقتحمين.. وكان مقيدًا بالأصفاد.. مهلًا.. أليس هذا..

بوند.. جيمس بوند..

قالها "جاندال" بهدوء.. خرج من السيارة الآن من يبدو من منظره أنه زعيم خطر.. يرتدي معطفًا طويلًا ويشير إلى طائرة هليكوبتر.. نزلت الطائرة إلى الأرض وأنزل الجنود منها صندوقًا كبيرًا جدًا.. أدخلوه إلى داخل فورت نوكس.. قال "جاندال":

إنهم يريدون تفجير فورت نوكس.. هذه عملية الإصبع الذهبي.. إحدى عمليات جيمس بوند الشهيرة.. المفترض أن جيمس سيوقفهم بعد قليل.

فجأةً استيقظ الجنود الأولون الـ٣٠ ألف.. قاموا وكأن شيئًا لم يصبهم.. وهجموا على الجنود ذوي الزي الغريب.. بحثت عن بوند فلم أجده.. لكن حربًا بالأسلحة كانت تقوم أمامنا الآن.. وكنا مختبئين في إحدى الزوايا.. قال "جاندال":

إن "إيان فليمنج" مؤلف قصص جيمس بوند كان في المخابرات الإنجليزية.. وأحيانًا كثيرة كانت قصصه تحوي رسائل تحذيرية.. إنه يشير إلى سرقة كانت تتم في فورت نوكس.. ثم اتضح بعد ذلك أنها لم تكن قصة.. كانت حقيقة واقعة.. كان هناك من يسرق الفورت نوكس.. وظل يسرقها حتى أفرغها من كل الذهب الموجود فيها.

قلت بدهشة:

من هذا الذي كان يسرقها؟

قال "جاندال":

البنكيون الكبار.. كانوا يشترون من الحكومة الأمريكية الذهب الموجود في الفورت نوكس.. ويتم إخراج الذهب المباع لهم بطريقة سرية حتى لا ينتبه أحد.. إن عملية الإصبع الذهبي لم تكن مجرد رواية وفيلم.. هؤلاء البنكيون الكبار فعلوها.. اشتروا بشكل سري وغير شرعي وغير معلن أغلب الذهب في فورت نوكس.

بدأت الحرب تتطور الآن بين الجنود إلى إلقاء القنابل بعضهم على بعض.. ثم إني سمعت خلفي على الأرض شيئًا قد ألقي.. شيء معدني.. نظرت بذعر خلفي.. إنها قنبلة.. "جاندال".. اهر...

انفجرت فينا القنبلة.. وطرنا في السماء.. طرنا طيرانًا سريعًا إلى الأعلى.. وكأننا ريشات.. أصبحت كل الأجواء حولنا سماء.. عندما أنظر إلى الأسفل أرى الأرض بعيدة جدًا.. ما زلت أرى فورت نوكس من مكاني.. مبنى أبيض محاط بانفجارات.. ظللنا نرتفع إلى الأعلى في السماء.. ثم فجأةً برزت حولنا مناطيد كثيرة.. كل منطاد مرسوم عليه عملة من عملات العالم.. وكل منطاد مربوط بحبل إلى سبائك ذهبية أسفله.. وكل المناطيد تطير حولنا وترتفع معنا في السماء.

قال "جاندال" وهو يتقلب باستمتاع مع الهواء:

هذه هي عملات العالم كله بعد الحرب العالمية الثانية.. وقد كانت كلها مرتبطة بالذهب كما ترى.. كل بنك مركزي يجب أن يطبع عملات تكافئ ما لديه من الذهب.. طبعًا هذا لم يكن يحدث وكل البنوك المركزية كانت تطبع عملات أكثر مما عندها من الذهب.

قلت له:

لكن هتلر تخلى عن هذا النظام وصار يطبع العملات بنفسه أليس كذلك؟

قال لي:

عزيزي هتلر كان ظاهرة متفردة.. وقد خسر الحرب.. وبعد أن خسر.. عاد كل شيء إلى سابق عهده.

ثم انفكت السبائك الذهبية من كل المناطيد التي حولنا.. انفكت وسقطت السبائك ناحية الأرض.. ما عدا منطاد واحد فقط هو الذي كان لا يزال مربوطًا بسبائكه الذهبية.. المنطاد الذي عليه علامة الدولار.. ثم طارت المناطيد الأخرى

التي لا تحمل شيئًا وارتبطت خيوطها كلها بمنطاد الدولار.. فصار منطاد الدولار يمسك كل المناطيد أعلاه.. ويمسك سبائك ذهبية معلقة أسفله.

قال "جاندال":

بعد الحرب العالمية الثانية عُقد اجتماع يسمى Bretton Woods.. جميع دول العالم اجتمعت فيه واتفقت كلها على أن تفك ارتباطها بالذهب.. وتربط نفسها كلها بالدولار.. ويكون الدولار هو الوحيد المربوط بالذهب.. وذلك لأن أمريكا صار عندها حوالي ٧٠ % من ذهب العالم.. بعد هذه المعاهدة أصبح ممنوعًا عالميًا لأي مواطن أن يبدل العملات التي لديه بذهب في أي بنك من بنوك العالم.. فقط البنوك المركزية العالمية هي المسموح لها أن تعطي عملاتها للفيد الأمريكي.. فيعطيها الفيد الأمريكي مقابلها ذهبًا.. باختصار.. صار الفيد وكأنه البنك المركزي الخاص بالعالم كله.. يوضع فيه كل ذهب العالم.. ويبدل عملات العالم بالذهب الذي عنده.. على شرط أن يكون ما يطبعه الفيد من دولارات يساوي مخزون الذهب الذي عنده.. هذا ما يفترض دائمًا.. لكنه لم يحصل أبدًا.

بدا المنطاد الدولاري وكأنه يفرز دولارات في الهواء.. ينثر دولارات في الهواء.. تنبعث منه وتذهب لتلتصق بالمناطيد الأخرى.. والسبيكة الكبيرة التي كان المنطاد الدولاري يمسك بها.. صارت تصغر مع الوقت.. قال "جاندال":

طبعت أمريكا دولارات أكثر مما لديها من الذهب.. وصارت تشتري بهذه الدولارات بضائع كثيرة جدًا من العالم كله.. فأصبحت أمريكا متخمة ببضائع العالم.. والعالم متخم بدولارات أمريكا.. وبالنسبة لفورت نوكس مستودع أمريكا من الذهب.. فقد كان الذهب الذي فيها يباع للبنكيين شيئًا فشيئًا فتصغر كميته.

والآن ظهر على منطاد فرنسا وجه رئيس فرنسا "تشارلز دي جول".. وكان ينظر إلى المنطاد الدولاري ويقول:

يا نيكسون.. أريد أن أبدل الدولارات التي أنا متخم بها هذه إلى ذهب.. أخاف أنك أحمق وتطبع دولارات أكثر مما لديك.

ظهر وجه الرئيس الأمريكي نيكسون على المنطاد الدولاري ونظر إليه وقال:

هل تشك في نزاهة أمريكا يا هذا؟

ثم ظهرت وجوه الرؤساء الآخرين على مناطيد الدول.. ونظروا كلهم إلى نيكسون بعصبية وبدأوا يطالبون بأن يبدلوا الدولارات التي لديهم إلى ذهب.. قال "جاندال":

طبعًا لم يكن عند نيكسون الكثير من الذهب.. بسبب ما باع منه للبنكيين.. وبسبب حرب كوريا والحرب الباردة وحرب فيتنام.. وبدأت الدول تطالب بذهبها.. ونيكسون أصبح متورطًا وممتقع الوجه.. وصار يعطي هذا جزءًا وهذا جزءًا من الذهب.

صارت السبيكة المعلقة بالمنطاد الدولاري تصغر وتصغر.. حتى اختفت تمامًا.. وزادت سرعة طيران المنطاد الدولاري إلى الأعلى بعد أن ذهب الذهب.. وكانت المناطيد الأخرى ما زالت معلقة به كلها.. ثم ظهر وجه الرئيس نيكسون في المنطاد الدولاري وهو يقول فيما يبدو وكأنه خطاب تلفزيوني:

منذ هذه اللحظة.. نعلن أن أمريكا قد أوقفت أي نوع من التبديل من الدولارات إلى ذهب.. نظرًا لأن هذا يضر بمصلحة البلاد الاقتصادية.

وهنا انفك الارتباط بين كل المناطيد وبين الدولار تمامًا.. وصارت كل العملات حرة تسبح في السماء.. قال "جاندال":

هذه الحركة التي فعلها نيكسون تم تسميتها أزمة نيكسون Nixon Shock.. كان كأنه يقول للعالم.. اذهبوا واضربوا رؤوسكم في حوائط بلدانكم.. ليس لكم شيء عندي.. لقد جفت الفورت نوكس تمامًا ولم يعد فيها ذهب.. كل الذهب الذي جمعه العم سام ذهب.. معظمه ذهب للبنكيين وبقيته أخذته الدول في خضم مطالباتها بالذهب.. بعد هذه الحركة صارت العملات حرة تمامًا.. لا ارتباط لها بأي شيء.. وما زالت حرة حتى يومنا هذا.

ثم ظهرت على منطاد أمريكا علامة البترول بجانب علامة الدولار.. قال "جاندال":

بعد أن انفك الاتحاد مع الذهب.. وحتى تحافظ أمريكا على عملتها قوية.. لجأت إلى الذهب الأسود.. البترول.. عقدت صفقات مع كل الدول المصدرة للبترول.. ومعظمها دول عربية.. ألزمتهم ألا يبيعوا البترول لأي أحد إلا بالدولار.. والمقابل هو أن تحميهم أمريكا حماية عسكرية كاملة.. لكن ماذا إذا لم يبيعوا البترول بالدولار.. ماذا سيحدث لهم؟

هنا توقف طيراننا إلى الأعلى.. وبدأنا نسقط إلى الأسفل.. أصبت بالذعر.. الأرض تبدو بعيدة جدًا.. حتى إنني أرى القارات.. ثم فجأة سمعت صوت طيور.. وفجأة وجد كل واحد منا أنه حط على طير كبير فاردًا جناحيه ويطير به في السماء.. طارت بنا الثلاثة طيور ونحن نركب على أعناقها.. ونشاهد الأرض من تحتنا.

"جاندال" أيها الأحمق متى سننتهي من كل هذا؟

قال "جاندال":

انظر تحتك.

نظرت تحتي.. كنا نطير فوق العراق.. نيران في كل مكان وانفجارات.. كثيرون يطيرون في السماء من الانفجارات تحتنا.. كثير منهم عرب.. قليل منهم أمريكان.. كان "جاندال" يتابع الانفجارات ويقول:

صدام حسين برز في العراق.. كان من الطراز الذي يكرهه البنكيون.. ألغى صدام نظام اقتراض الدولة لعملتها من البنك المركزي العراقي.. وجعل الخزينة تصدر عملاتها بنفسها.. يعني نفس الشيء الذي قُتل بسببه من فعلوا هذا قبله من الأبطال الخارقين في محاربة البنكيين.. لكن صدامًا لم يكتفِ بهذا.. بل إنه أعلن أن بترول العراق لن يباع بالدولار بعد اليوم.. إنما سيباع باليورو.. لم يمض وقت طويل منذ إعلاناته هذه إلا والقوات الأمريكية كلها عنده.. اخترعوا لهم سببًا أظن أنه مر عليكم في أرض الإعلام.

في وسط هذه الهجمات الأمريكية الساحقة على العراق رأيت طائرات أمريكية تنزل منها خراطيم بشكل كارتوني وتسحب سائلًا أسودَ من العراق يبدو أنه البترول.. ثم تغادر إلى أمريكا.. قال "جاندال":

كانت النتيجة طبعًا إسقاط صدام.. وسرقة بترول العراق.. الذي رفض أن يبيعه بالدولار.. وبعد الغزو الأمريكي للعراق.. صار البترول العراقي يباع بالدولار مرة أخرى.. وعاد البنك المركزي العراقي يقرض الدولة كما كان.

تحولت الطيور التي نركبها ناحية الغرب.. بدأت أرى انفجارات في مكان آخر.. نظرت فإذا نحن فوق ليبيا.. الكثير من الانفجارات والصراخ.. قال لي "جاندال":

القذافي.. تخلى عن البنكيين هو الآخر.. وأوقف الاقتراض من البنك المركزي هو الآخر.. وصار يصدر عملته بنفسه.. فصارت عملة ليبيا عملة خالية من الدين.. ثم قال القذافي أن بترول ليبيا لن يباع بالدولار.. بل سيباع بعملة جديدة ذهبية سيكون اسمها الدينار الذهبي.. و..

غشى عيوننا انفجار آخر.. فارتفعت الطيور إلى أعلى.. قال "جاندال" وهو ينظر إلى ليبيا وهي تنفجر:

من أوائل الأشياء التي نفذت في ليبيا بعد هذه الثورة والتفجيرات هي إعادة سلطة البنك المركزي الليبي ونظام إقراض الدولة.. وعاد بترول ليبيا يباع بالدولار.. أو ما تبقى من بترول ليبيا.

جاءت الطائرات الأمريكية ذات الخراطيم وأنزلت خراطيمها في ليبيا.. ونهلت من ينابيعها كل السائل الأسود فيها.. ثم استدارت عائدة إلى أمريكا.. قلت لجاندال بعصبية:

هتلر.. صدام.. القذافي.. دائمًا أسمع عنهم الكثير من الأمور الشنيعة.. وهنا في أرض السافلين تظهرونهم أبطالًا.

قال "جاندال" بابتسامة غريبة ونظارة برزت على وجهه فجأةً:

طبقًا لآخر الأبحاث النفسية.. روح الدكتاتور تجعله يرفض أي قيود توضع عليه من أي أحد.. ربما لا يكون قتالهم ضد البنكيين نابعًا من بطولة بقدر ما يكون نابعًا من رفضهم أن يكون فوقهم أحد.. من أنت حتى تتحكم بي وتعلوني وأنا الكبيرالأكبر الأعظم رئيس الدولة.. وروح الدكتاتور نفسها تجعلهم يتعاملون بوحشية ودماء مع من يعارضهم.. من أنت حتى تعارضني وأنا الكبير الأكبر الأعظم رئيس الدولة.. وروح الديكتاتور هذه لا تتعارض أبدًا مع كونهم يريدون الخير لشعوبهم.. فأغلبهم كذلك.. إنما هذه الروح تظهر ضد من يعارضهم أو من يحاول فرض قيود عليهم.

مررنا فوق إيران.. قال "جاندال":

إنهم يطبعون عملتهم بأنفسهم في إيران.. بل إنهم أيضًا لا يبيعون النفط بالدولار

نظرت إلى إيران باحثًا عن أي انفجارات.. لم أجد شيئًا.. عجبًا.. تعلمت أن البنك هو الديكتاتور.. والدول هي العبيد.. وأي دولة تحاول الهروب من سلطة الديكتاتور.. فهو يطلق عليها زبانيته ليدمروها.. لكن لماذا لا يدمر إيران؟!

■ ■ ■

فجأةً ظهر سرب من الأطباق الطائرة يشكل رقم سبعة وكانوا يتجهون نحونا.. أصابتني قشعريرة لمّا رأيت السرب.. نظرت إلى "جاندال" فوجدته يشير إليهم إشارات آمرة.. اقترب أحد الأطباق الطائرة منا وانفتح بابه.. فقفزنا من على الطيور إلى داخل الطبق.. كان بداخله جنود غرباء الشكل جدًا يرتدون قناعًا أخضر اللون.. استقبلونا بطريقة عسكرية.

كانت هناك نافذة بانورامية تطل على المنظر الخارجي.. نظرت إليها.. كنا نبتعد بالطبق الطائر عن الأرض.. كنت أرى انفجارات هنا وهناك.. وأسمع صرخات وأرى رذاذ دماء يتطاير.. وأنهار من الدم تسيل على الأرض الخضراء.. كانت الأرض كأنها

تنزف.. وتنفجر دماؤها بعد نزيفها.. كان ابتعادنا يجعلني أرى الأرض من زاوية أكبر.. حتى أصبحت أرى القارات والبحار التي تحولت سواحلها إلى لون الدم الأحمر.. لقد خربوا الأرض.. دمروا لونها الأخضر الجميل.. استبدلوه بلون أحمر لزج.. أسكتوا صوت عصافيرها.. واستبدلوه بصرخات مرتعبة مفزوعة.. لكن هوني عليك أيتها الأرض الجميلة.. فإذا شعبك يومًا أراد الحياة.. فلا بد أن يستجيب القدر.. ولا بد لليل أن ينجلي.. ولا بد للقيد أن ينكسر.

كنا قد بدأنا نخرج من الكرة الأرضية.. نظرت إلى "جاندال" فوجدته ينظر إلى الأرض التي تدمر بنظرة متشفية.. سرعان ما ذهبت وحلت محلها نظرته العادية عندما انتبه لي.. قلت له:

إلى أين نذهب الآن يا جاندال؟

قال لي:

إلى جمجمة القمر.

لم أعلق.. ظللت أنظر من النافذة ساهمًا.. حتى لاحظت أننا اقتربنا من القمر.. كان عليه شيء كأنه قاعدة عسكرية ذات شكل عنقودي غريب.. اتجهنا ناحية أحد العناقيد الذي كان يحمل مركبة فضائية وردية اللون.. انفتح بابها فور اقترابنا منها.. فدخلنا إليها بطبقنا الطائر.. ثم انفتح باب الطبق الطائر وخرجنا جميعًا.

الآن بدأت أفهم أين نحن بالضبط.. نظرت إلى ديكورات المركبة وإلى أزياء الرجال ثم نظرت إلى "جاندال" الذي رفع قامته بطريقة عسكرية.. لقد عرفته الآن.. إنه من أجواء مسلسل السبعينات الياباني "جريندايزر".. وهذه هي جمجمة القمر.. القاعدة العسكرية التي كان يجهز منها هجماته على الأرض.. لقد ظننته شخصًا خفيف الدم طيب القلب.. لكني أذكر أنه شيطان في ذلك المسلسل.. قال لي "جاندال":

أرى لمعة عينك قد فهمت وعرفت أين نحن ومن نحن.. لقد ظللنا نهاجم الأرض أعوامًا كثيرة بلا جدوى.. دائمًا نهزم.. السيطرة على الأرض لم تنجح بالسوبر روبوتس.. السيطرة على الأرض لم تنجح أبدًا بالقوة العسكرية.. إنما هي قد نجحت بشيء آخر تمامًا.. السيطرة المالية.. تعالوا من هنا أيها البشر الحمقى.

مشينا معه ووقفنا أمام باب مصمم بطريقة أفلام الفضاء.. انفتح الباب ودخلنا إلى الداخل.. ثم تراجعنا قليلًا من المفاجأة.. ما هذا بالضبط؟!

قال "جاندال":

لقد أخذتكم معي في رحلة في تاريخ كوكبكم لأريكم كيف تطور النظام المالي فيه.. والآن.. لننظر إلى الحاضر.. هذا هو حاضر كوكبكم المالي يا سادة.

كنا بداخل تصميم مصغر لشوارع ومبان وأناس يمشون وسلاسل.. لم أفهم شيئًا.. قال "جاندال":

إن هذا النظام المالي الحالي الذي وصل إليه كوكبكم هو نظام مالي شديد التعقيد.. ولقد تعمد واضعوه أن يجعلوه شديد التعقيد حتى لا يفهم العامة منه شيئًا.. بل يغضوا الطرف عن محاولة فهمه.. لأنهم لو فهموه ستكون مشكلة.. سيقرأ الإنسان هذا النظام مرة ومرتين وثلاث.. وربما لن يفهم شيئًا بعد هذا وينصرف.. سأحاول ان أشرحه لكم.. لعلكم تفقهونه.. هذا النظام تعمل به كل دول العالم الآن.. باستثناء دول تعد على أصابع اليد الواحدة... نحن الآن داخل دولة افتراضية.. كما ترى المباني والشوارع المصغرة حولنا.

مشينا وسط المدينة الافتراضية حتى وصلنا إلى مبنى تعلوه قبة ذهبية اللون.. قال "جاندال":

هذه خزينة الدولة.. بالإنجليزية Treasury.. هنا تحفظ أموال الحكومة.. تغرف الحكومة من هذه الخزينة وتوزع على كافة القطاعات الحكومية.. التعليمية والصحية وغيرها.

خرج من الخزينة رجل يضع تاجًا ويرتدي عباءة طويلة.. إنه حاكم هذه المدينة.. أخرج الحاكم بوقًا كبيرًا وقال:

أيها الشعب.. الحكومة تحتاج مالًا.. من يقرض الحكومة مالًا؟ وسترد له الحكومة ماله بعد حين وتعطيه عليه زيادة مغرية جدًا.. أقرض حكومتك الآن.

توجه "جاندال" إليه ووقفنا أمامه كلنا.. فقال له "جاندال":

كم تريد الحكومة أيها الحاكم؟

فرد الحاكم طاولة أمامه ثم أخرج ثلاث أوراق من جيبه.. ووضعها متجاورة على الطاولة وقال:

نريد ٣ قروض.. الأول.. بليون جنيه.. والثاني ٣٠٠ مليون جنيه.. والثالث ١٠٠ مليون جنيه.

ثم رفع الورقة الأولى وقال:

لو أعطيتنا قرض البليون جنيه.. سترد لك الحكومة مالك في ١٠ سنوات.. وتعطيك زيادة عليه فائدة سنوية مقدارها ٢ %.. يعني نعطيك ٢٠ مليون في جيبك كل سنة لمدة ١٠ سنوات.. وبعد ١٠ سنوات سنرد لك البليون التي أقرضتها لنا.. لو أعطيتنا هذا القرض سنعطيك هذه الورقة التي تثبت حقك واسمها Government Bond.. ونعطها لكل من يقرضنا قرضًا مدته أكثر من ١٠ سنوات.

ثم رفع الورقة الثانية وقال:

أما لو أعطيتنا قرض الـ٣٠٠ مليون جنيه.. سنرد لك مالك في ٣ سنوات فقط.. وسنعطيك زيادة عليه فائدة سنوية مقدارها ٥ %.. يعني نعطيك ١٥ مليون في جيبك كل سنة لمدة ٣ سنوات.. وبعد ٣ سنوات سنرد لك الـ٣٠٠ مليون التي اقترضناها منك.. لو أعطيتنا هذا القرض سنعطيك هذه الورقة التي تثبت حقك واسمها Government Note.. ونعطها لكل من يقرضنا قرضًا تتراوح مدته من سنة إلى ١٠ سنوات.

ثم رفع الورقة الأخيرة وقال:

أما لو أعطيتنا قرض الـ١٠٠ مليون جنيه.. سنرد لك مالك في سنة واحدة فقط.. لن نعطيك فائدة.. بل سيكون عليه خصم مقداره ٩٨ %.. يعني أنت لن تعطينا ١٠٠ مليون الآن.. ستعطينا ٩٨ مليون فقط.. ونحن بعد سنة سنردها لك ١٠٠ مليون.. لو أعطيتنا هذا القرض سنعطيك هذه الورقة التي تثبت حقك واسمها Government Bill.. ونعطها لكل من يقرضنا قروضًا مدتها سنة.

قال له "جاندال":

وكيف أضمن أن الحكومة سترد لي هذا المال؟

قال الحاكم:

الضرائب يا عزيزي.. نحن نأخذ ضرائب من الناس حتى نسدد هذه الديون.. هل كنت تظن أن الحكومة تستخدم الضرائب في مشاريع إصلاحية؟ الضرائب إنما وضعت على المواطنين حتى تسدد الحكومة منها هذه الديون.

قال له "جاندال":

حسنًا أيها الحاكم.. كنت أتمنى أن أقرضكم.. لكنك تتحدث بالملايين.. وكل ما في جيبي لا يتجاوز ١٥ جنيهًا.

قفز الحاكم من مكانه غاضبًا فهرب "جاندال" وهربنا معه.. وعاد الحاكم يمسك البوق وينادي على من يقرض الحكومة مالًا.. ثم فجأةً توافد على الحاكم رجال كلهم يرتدون بذلات أنيقة ويدخنون سيجارًا فاخرًا ويمشون في هيبة.. قال "جاندال":

نعم.. طبعًا.. لن يقرض الحكومة هذه الملايين المهولة إلا أصحاب البنوك الكبار.. هؤلاء هم أصحاب البنوك.

تحدثوا إلى الحاكم قليلًا ثم أخرجوا أموالهم وأعطوها للحاكم.. وأعطى أوراقًا لكل منهم.. بعضهم أخذ من الورقة الأولى.. وبعضهم من الورقة الثانية.. وبعضهم من الثالثة.. ثم ألقوا على الحاكم سلاسل كثيرة قيدته وخنقته.. سلاسل الديون.. ثم انصرفوا.. كلهم في فوج واحد إلى مكان ما.. وانفصل عن فوجهم هذا واحد كان يبدو أبله.. كان يمسك بالورقة التي أعطاها له الحاكم وأخذ يصيح:

أيها الناس.. من يشتري مني هذه الورقة؟ هذه ورقة تجعل الحكومة تعطيك ٣٠٠ مليون بعد ٣ سنين.. وتعطيك كل سنة فائدة مقدارها ١٥ مليون.. يعني يكون معك إجمالي ٣٤٥ مليون.. لقد اشتريت هذه الورقة بـ٣٠٠ مليون من الحكومة.. والآن أريد أن أبيعها.. سأبيعها بـ٣٢٠ مليون.

أتى إليه أحد المارة من خلفه وأشار إليه لينظر إلى الجهة الأخرى من المدينة.. فنظر الرجل الأبله ليجد كل زملائه من أصحاب البنوك متجمعين عند أحد المباني ويرفعون أوراقهم.. فهرع الرجل الأبله ليقف معهم.. قال "جاندال":

هذه الأوراق الحكومية كلها اسمها السندات أو الSecurities.. ولا يشتريها أحد من حاملها إلا البنك المركزي فقط.. انظر إليهم الآن كلهم يتجمعون أمام البنك المركزي ليبيعوا أوراقهم له.. واحد كهذا دفع ٣٠٠ مليون.. لو انتظر لتسدد له الحكومة سيأخذ ما مقداره ٣٤٥ مليون بعد ٣ سنوات.. لكن يمكنه أن يبيع الورقة الآن ويأخذ الآن ٣٢٠ مليون.. فهو سيقارن.. ربح ٤٥ مليون في ٣ سنوات.. أم ربح ٢٠ مليون الآن.. ويبدو أن كثيرًا منهم يريدون الربح العاجل.. فكلهم يهرعون لبيع سنداتهم للبنك المركزي.

خرج لهم رجل من البنك المركزي.. وتحدث لهم قليلًا.. ثم دخل إلى البنك المركزي.. كانت هناك آلة ضخمة داخل البنك المركزي.. ضغط الرجل على زر تشغيلها.. فاشتغلت وأخذت تطبع النقود وتطبع بينما أخرج هو سيجارة ودخنها وهو ينتظر.. ولما انتهى من سيجارته انتهت الآلة من الطبع.. فوضع النقود في عربة صغيرة ومشى بها إلى خارج البنك.. بدأ يشتري من أصحاب البنوك السندات التي

معهم.. رأيناه يغرف من العربة نقودًا في أكياس ويعطها لأصحاب البنوك ويأخذ منهم سنداتهم.. حتى انتهى وانصرفوا.. وصارت معه رزمة من الأوراق.

قال "جاندال":

من الرائع أن تطبع النقود لتشتري الشيء الذي تريده.. عندما تفعل أنت هذا في منزلك فأنت تعتبر نصابًا ومجرمًا.. وعندما يفعل البنك المركزي هذا فهو يعتبر شيئًا عاديًا من حقه.. ورغم أن البنك المركزي يعلن هذه الحقائق كلها على موقعه الرسمي.. فعندما تقول هذا لشخص ما من العامة.. أن هذه الأموال قد طبعت هكذا من لا شيء.. سينظر لك وكأنك أحمق.

الآن صار على خزينة الدولة أن تسدد الدين والفائدة التي وعدت بها لكن ليس لأصحاب البنوك.. وإنما للبنك المركزي.. لأنه اشترى معظم السندات.. قال "جاندال":

الخلاصة أنه في النهاية.. زادت النقود عند الحكومة بقدر النقود التي اقترضتها من البنكيين.. وزاد الربح الذي ربحه البنكيون لما باعوا السندات للبنك المركزي بثمن أعلى.. وزاد عدد السندات عند البنك المركزي.. كان من الممكن أن يطبع البنك المركزي نقودًا ويقرضها للحاكم مباشرة.. ولكنهم فعلوا هذا النظام بحيث تكون البنوك هي الوسيط.. حتى تربح البنوك.. ولماذا يريد البنك المركزي أن تربح البنوك؟ لأن أصحاب البنك المركزي في أي دولة هم أصحاب البنوك الكبيرة نفسهم.

البنك المركزي يطبع أوراقًا من لا شيء.. ويقرضها للحكومة عن طريق البنوك الكبيرة.. لم أر شخصًا يقبل بهذا النظام إلا أحمق.. أوه تذكرت.. من يخالف هذا النظام ويجعل حكومته تطبع عملتها بنفسها ينتهي به الحال مقتولًا.. قلت لجاندال:

جاندال.. من هم الذين رفضوا هذا النظام من الحكام؟

قال "جاندال":

توماس جيفرسون.. أندرو جاكسون.. أبراهام لنكولن.. هتلر.. صدام.. القذافي.. وهناك واحد آخر لم نذكره في الحكاية.. أيضًا مشى عكس التيار.. لم يمش مع القطيع.. أراد أن تطبع الدولة عملاتها بنفسها.. رونالد ريجان.. وطبعًا أنت تعرف قصة اغتياله الشهيرة.. لكن دعك من هذا.. تعال نتابع.. فالضربة الثانية ستدهشك.

مشينا وراء أحد أصحاب البنوك.. مشى الرجل حتى دخل إلى مبنى كبير هو البنك الذي يملكه.. الآن لاحظ معي ما سيحدث.. سأذهب وأودع هذه النقود التي عندي في البنك.. انتظرني هنا وراقب.. ذهب "جاندال" إلى البنك ووقف أمامه.. خرج له صاحب البنك.. أعطاه "جاندال" عشرة آلاف جنيه.. ثم انصرف جاندال.. دخل الرجل إلى البنك.. وضع العشرة آلاف جنيه على الأرض فصارت كومة من النقود على الأرض.. نظر يمنة ويسرة.. ثم أدى بيده حركة سحرية... هوكس بوكس.. خرج من كومة العشرة آلاف جنيه كومة أخرى بجانبها مقدارها تسعة آلاف جنيه.. اتجه إلى التسعة آلاف جنيه المخلوقة من العدم ووضعها في خزينة خاصة زجاجية كبيرة في البنك.

أتاني "جاندال" قائلًا:

هل رأيت؟ لقد أخذ العشرة.. وأخرج منها تسعة.. ووضع التسعة في خزنة زجاجية.. خزنة خاصة بنقود الهوكس بوكس هذه.. ووضع العشرة في خزنة البنك العادية.

قلت له:

وماذا يفعل بهذه التسعة التي خلقها ووضعها في خزنة زجاجية؟

قال "جاندال":

سأريك.

تحول وجه "جاندال" إلى وجه السيدة "جاندال".. اندهشت لوهلة ثم تذكرت أن هذا كان يحصل في المسلسل الياباني.. كان الرجل والسيدة يعيشان في نفس الجسد.. دخلت السيدة "جاندال" إلى البنك.. قالت لصاحب البنك.. أريد أن أقترض تسعة آلاف جنيه.. دخل الرجل إلى الخزنة الزجاجية وأخرج منها التسعة.. وأعطاها للسيدة "جاندال"... وقال لها.. ستردينها لنا اثنا عشر ألفًا بعد سنة.. وافقت على هذا السيدة "جاندال" ثم انصرفت.. فناداها الرجل.. التفتت إليه فرمى عليها سلسلة.. سلسلت يدها إلى جسدها.. فخرجت من البنك مسلسلة.

ثم تحول وجه السيدة "جاندال" إلى وجه "جاندال وقال لي:

هذه النقود التي في الخزنة الزجاجية.. هي التي يقرضها البنك لمن يريد أن يقترض.. نقود أنشأها من لا شيء.. أنشأها بالهوكس بوكس.

قلت له بدهشة:

كيف أنشأها بالهوكس بوكس؟ ما هذا الكلام يا جاندال؟ ما أعرفه هو أن الناس تودع نقودها في البنك.. ثم يستخدم البنك نقودهم هذه في عمل مشاريع أو يقرضها للناس.. يعني البنك يقرض الناس من أموال أناس آخرين.

قال "جاندال":

هذه أكاذيب يا عزيزي.. نقودك التي تودعها في البنك لا تمس.. تبقى كما هي لا يعطها البنك لأي أحد سواء لمشروع أو لإقراض.. ما يحدث ببساطة.. هو أنك عندما تودع مبلغًا من المال.. ولنقل عشرة آلاف جنيه.. يكون من حق البنك قانونيًا أن ينشئ نقودًا من لا شيء تكافئ ٩٠ % من هذا المبلغ.. لكن هذه النقود المنشأة ليس من حقه قانونيًا أن يفعل أي شيء بها إلا أن يقرضها للناس.. سواء يقرضها للمواطنين العاديين.. أو يقرضها للمستثمرين لعمل مشاريع.. هذا النظام هو النظام الذي تعمل به كل البنوك في العالم الآن.. نظام الهوكس بوكس.. أقصد نظام الـFractional Reserve Banking.

هذا النظام سحري حقًا.. ذهب "جاندال" واشترى روبوت صغير من أحد المحلات.. اشتراه بالتسعة آلاف جنيه التي اقترضها.. ذهب صاحب محل الروبوتات إلى البنك الذي يتعامل معه.. وهو بنك آخر غير بنك "جاندال".. وأودع فيه تسعة آلاف جنيه.. فأخذ صاحب البنك الثاني التسعة ووضعها على الأرض.. وهوكس بوكس.. خرجت منها كومة فيها ٨١٠٠ جنيه.. أقرضها البنك لشخص آخر.

قال "جاندال":

أنا أودعت ١٠ آلاف جنيه في البداية.. هل تدري كم أصبحت الآن هذه العشرة في الدورة المالية بالهوكس بوكس؟ أصبحت ١٠ آلاف + ٩ آلاف + ٨١٠٠.. يعني أصبحت ٢٧١٠٠ جنيه.. تحولت العشرة إلى سبعة وعشرين.. ما رأيك.. هل عرفت من الذي يحدث التضخم في عالمنا؟

قلت له بعدم فهم:

البنك المركزي يصنع النقود بطباعتها.. لكن البنوك كيف تصنع النقود بنظام الهوكس بوكس هذا.. هل عندهم مطبعة نقود؟

قال لي:

لا يا عزيزي.. هم فقط يضيفون إلى رصيدك في البنك نقودًا إلكترونية.. يعني يكتب الرجل على الشاشة أمامه إضافة قرض ٩ آلاف جنيه للرصيد الفلاني.. فتضاف للرصيد ببساطة.

قلت له:

يعني هم يصنعون المال الذي يريدونه فقط بضغطة زر؟

قال لي:

لهم حق صناعة ٩٠ % زيادة عما لديهم من أموال مودعة.. ولا يصنعون مالًا إلا عندما يطلبه أحدهم للقرض.

قلت له:

وماذا ستفعل في هذه السلسلة التي تقيدك؟

قال لي:

لا يمكنني التخلص منها.. انظر حولك.

نظرت فإذا أناس كثيرون يمشون في الشارع مسلسلين.. بسلاسل على رقابهم.. هم يمشون ويعيشون حياتهم ووجوههم ما بين الفرحة والقلق والهم.. وبعضهم هناك سلسلة ضخمة تربطه من عنقه إلى البنك.. يبدو أن هذا متعسر.

قال "جاندال":

هم سيفعلون أي شيء ليجعلوك تقترض منهم.. أي شيء يسمح لهم أن يرموا سلسلة على رقبتك.. تعال واقترض لأجل منزل أحلامك.. تعال واقترض لأجل سيارة أحلامك.. تعال واقترض لأجل فتاة أحلامك.. سنعطي لك تسهيلات.. لا تسدد القسط الأول.. لا تريد أن تقترض لكل هذا؟ ما رأيك أن تأخذ هذا الكارت.. لو ليس معك نقود.. يمكنك أن تشتري أي شيء بهذا الكارت.. ثم تسدد لاحقًا.. كريديت كارد.. وهو درجات.. فضي وذهبي وبلاتينيوم.. البلاتينيوم هذا يجعلك فخورًا بنفسك وأنت تخرجه أمام الناس لتدفع به.. يعطيك "برستيج".. هذا صحيح يا صديقي.. ارفع رأسك أكثر وافخر بأغلالك البلاتينيومية الجميلة.. اشتريت بيتًا بالدين.. افخر.. أنت لا تملك هذا البيت.. هذا البيت هو الذي يملكك.. أنت لا تملك هذه السيارة.. هذه السيارة هي التي تملكك.

قال "جاندال":

ماذا يحدث لو لم تقدر على أن تدفع الدين للبنك؟ ببساطة هو يأخذ منك ممتلكاتك.. مبانيك أو شركاتك أو سياراتك.. ولو لم تكفِ ستذهب إلى السجن.

قال لي "جاندال":

هل تريد أن ترى أعجب شيء في العالم؟ انظر إلى ذلك الرجل المتحمس هناك.

رأيت رجلًا يتوجه ناحية البنك في حماس ومعه كيس من النقود وهناك سلسلة على رقبته.. دخل البنك وهو مبتسم.. يريد أن يسدد الدين.. أخذ منه مسؤول البنك الكيس.. فانكسرت السلسلة التي على رقبة الرجل.. دخل مسؤول البنك إلى مكان خاص في البنك.. ثم أخرج قداحة.. وأشعل النار في الأموال التي سددها الرجل منذ قليل.. حتى أصبحت رمادًا.. نفض يده ثم عاد إلى عمله.

قال "جاندال":

أنت عندما تسدد الدين إلى البنك.. فإن البنك يدمر الأموال التي سددتها.. هل تتعجب.. ولمَ العجب؟ هم يصنعون نقود الهوكس بوكس من لا شيء.. ثم يقرضونها لك.. ثم عندما تسددها يدمرونها.. تعود إلى اللاشيء.. ويحتفظون لأنفسهم بالفائدة في جيوبهم.. يعني كل اللحاق وراءك والتضييق عليك وإرسال الإنذارات ثم يحرقون المال في النهاية.. تسألهم لماذا تدمرون المال؟ يقولون حتى نسيطر على التضخم.. لا نريد أموالًا كثيرة في السوق. غالبًا لا أحد يدري عن هذه الأمور لأنها تكون مخفية تحت مصطلحات معقدة ونظم معقدة.

أخرج لي "جاندال" ورقة مالية من التي اقترضتها السيدة "جاندال" وقال لي:

هكذا ترى أن أي أموال مطبوعة قد صنعت بالدين.. الأموال التي أعطيت إلى خزينة الدولة.. هي أموال مقترضة.. اقترضتها الدولة من البنوك.. الأموال التي أعطيت إلى الناس.. هي أموال مقترضة.. يقترضها الناس من البنوك.. تقول لي أن الأموال التي في جيبك هي ملك لك ولم تقترضها من أحد.. من أين أخذتها؟ من راتبك.. ومن أعطاك راتبك؟ صاحب العمل.. وكيف افتتح صاحب العمل عمله؟ بقرض من البنك.. وهكذا امش وراء أي ورقة نقدية ستجدها قد جاءت من الدين.. لا توجد أي أموال أنشئت بدون دين.. المال هو الدين.. والدين هو المال.. احفظ هذه المعادلة جيدًا.. كل جنيه في جيبك هو دين من أحدهم لأحدهم.

قلت له:

وماذا لو سدد كل الناس كل ديونهم وسددت الحكومة كل ديونها للبنك المركزي؟

قال لي:

لو سدد كل الناس كل الأموال المقترضة هذه.. لن تبقى أي أموال في الدولة.. ولو أن الناس سددوا كل الأموال المقترضة، سيتبقى لهم أن يسددوا الفائدة.. لأن الدين لا يعطى إلا بفائدة.. ومن أين يسددون الفائدة إذا كانت الأموال أصلًا اختفت؟!.. يجب أن تفهم جيدًا أن الدين دائمًا أكبر من الأموال الموجودة في السوق.. لأن الأموال لا تعطى إلا بدين.. والدين لا يعطى إلا بفائدة.. احفظ هذا جيدًا.

مشى بنا "جاندال" إلى ما يبدو أنه مخرج من هذه المدينة وقال:

الآن عرفت كيف يصنعون النقود.. سواء التي يطبعها البنك المركزي بالهابرا كادابرا.. أو التي تنشئها البنوك العادية بنظام الهوكس بوكس.. هذه البنوك كلها تخلق المال من العدم.. لكن هل يوجهون هذا المال ناحية بناء المدارس والمستشفيات ووسائل النقل العام مثلًا؟ لا يفعلون هذا.. بدلًا من ذلك هم يقرضون الجميع ليضعوا مزيدًا من السلاسل على الناس.. وعلى الدولة.. فيصبح الجميع مسلسلًا.. المشاريع التي تنعي البلد لا تفيد البنوك.. القروض هي التي تفيدهم.. لو أن هناك شخصًا يريد عمل مشروع مفيد ويريد أن يقترض من البنك فأهلًا وسهلًا به.. طالما سيقترض لأجل المشروع.

وصلنا إلى الباب الذي انفتح بشكل كهربائي.. فوجدنا وراءه حارسين من ذوي الأقنعة الخضراء.. خرج "جاندال" ومشينا وراءه نريد الخروج لكن الحارسين منعانا من التحرك ودفعانا إلى الداخل ثم انغلق الباب علينا.. "جاندال" أيها اللعين ماذا تفعل؟ أخرجنا من هنا.. لم نجد ردًا.. حاولت فتح الباب بالقوة لكن كل شيء كان إلكترونيًا تمامًا.. لم تفلح محاولاتي.. أخذت أنادي على "جاندال" بلا فائدة... هذا اللعين حبسنا هنا.. دخلنا للمدينة الافتراضية نمشي في شوارعها الصغيرة باحثين عن مخرج آخر.. لم يكن هناك أي مخرج.. كانت الحوائط كلها مصمتة.. نظرنا إلى السماء.. كانت مظلمة لا نرى منها شيئًا.. ثم فجأةً انقشع الظلام عن السماء ورأيناه.

رأينا "جاندال" ينظر إلينا من السماء.. لم أفهم شيئًا في البداية ثم استوعبت.. الأمر يبدو وكأن هذه المدينة الافتراضية هي نموذج مدينة مصنوع على طاولة.. والنموذج محاط بزجاج.. وخارج الزجاج جاندال يقرب وجهه من المدينة ينظر إليها.. كان ينظر في تشفٍ.. ويقول:

انحبس أيها الإنسان الأخرق داخل هذا النظام إلى الأبد.. ليس لك مفر.. البلايين التي تقترضها دولتك من بنكها المركزي تسمى الدين المحلي.. يعني الدين الذي بالعملة المحلية.. لكن هذا ليس كل شيء.. بل إن دولتك أيضًا تأخذ دينًا خارجيًا من عدة أطراف.. دين بالدولار.. يسلسلها من أسفل منها إلى أعلاها.. ومن يمينها إلى شمالها.. ويسوقها معه إلى الاتجاه الذي يريد.. صندوق النقد الدولي عندما يعطيها دينًا خارجيًا.. فمن حقه أن يتدخل في شؤونها.. ويكلفها بتقليل مصاريفها التي تدفعها على الصحة والتعليم وكل شيء من شأنه تطورها ونموها.. أنت محبوس أيها الإنسان في هذا النظام إلى الأبد.

ثم انصرف "جاندال".. هذا الرجل مخبول.. فكر معي.. كيف هو الخروج من هذا النظام المغلق؟ كيف السبيل إلى فك هذه القيود التي تسلسل رقاب الناس وتذلهم وتفقرهم؟ نظرت حولي.. ثم تذكرت أمرًا.. تعال معي بسرعة الآن.. لقد عرفت الحل.. المخرج من كل هذا.

انطلقت معك حتى وصلنا إلى مبنى البنك المركزي في المدينة الافتراضية.. رأيتني وأنا أقتحمه من الخلف.. ثم أخرج منه راكضًا ومعي طابعة النقود أحملها فوق رأسي.. وجرينا أنا وأنت بالطابعة حتى وصلنا إلى مبنى الخزينة.. دخلناه من الخلف أيضًا ووضعنا طابعة النقود بداخله.. كان الحاكم لا يزال واقفًا أمام الخزينة وأمامه الطاولة يحاول بيع السندات.. وينادي من يقرض الحكومة.. وكانت هناك سلاسل على جسده كله.. صفرت له تصفيرة عالية.. فنظر خلفه فرآني.. ثم أتى بسلاسله إلي ليرى ما الأمر.. أريته طابعة النقود.. بدا لديه شك في البداية.. ثم ضغطت زرًا فيها فبدأت العمل وبدأت تطبع النقود.. فقفز الحاكم فرحًا... وانكسرت السلاسل التي كانت تقيده.. وبدأ يطبع النقود بنفسه ويستخدمها في تطوير دولته وتحسين معيشة مواطنيه.. الآن لديه مصدر لا نهائي للأموال.. كل ما عليه أن يفعله هو أن يطبع الأموال بحذر حسب احتياجات السوق وحسب عدد السكان.. يبني مدارس وطرقًا ومستشفيات.. يوجه النقود ناحية الإنتاج.. لأن البنك لم يكن يوجهها ناحية أي شيء إلا مصلحة البنوك الكبيرة وجيوب أصحاب البنوك الكبيرة.

ثم تركنا الحاكم في فرحته وذهبنا نركض إلى المبنى الذي تسن فيه القوانين في هذه المدينة الافتراضية.. دخلت المبنى وأخرجت كتاب القوانين.. وفتحت صفحة البنوك.. وقطعت صفحة الـFractional Reserve Banking تمامًا.. صفحة ذلك القانون الذي يسمح للبنك أن ينشئ نقود هوكس بوكس من الهواء

ويقرضها للناس ثم يدمرها عندما يستردها.. وفتحت صفحة أخرى في قسم البنوك وقطعتها.. الصفحة التي تسمح للبنوك بإقراض الناس بفائدة.. صفحة الربا.. قطعتها من صفحة البنوك.. وقطعتها من صفحة الحكومة.. ذلك النظام كان كله قائمًا على الربا.. الحكومة تقترض من البنوك بالربا.. والناس تقترض من البنوك بالربا.. منظومة كاملة فاسدة تمامًا لا تفيد سوى أصحاب الأموال البنكيين.. أما الشعب فهي تزيده فقرًا وقهرًا وسلاسل.. ثم خرجنا من المبنى.. كل السلاسل التي كانت على رقاب الناس انفكت.. ورموا الهم الذي كان يثقل صدورهم كلهم.

وألغى الحاكم الضرائب على الشعب لأنه لم يعد يحتاج إليها في سداد أي قروض.. لقد صار يطبع أمواله بنفسه.. وزاد الحاكم من رواتب شعبه تدريجيًا بحذر.. وكان لا يهتم سوى بالشعب.. الشعب وحده.. وأسقط سلطة البنكيين تمامًا ورغبة البنكيين في مزيد من الربح.

بدأ شيء ما في السماء يتصدع.. كانت هذه هي الزجاجة التي تحكم إغلاق هذه المدينة.. إن النظام ينكسر الآن.. يتشقق.. ثم ينهار تمامًا.. توجهنا بسرعة إلى خارج المدينة.. قفزنا من فوق الطاولة إلى الهواء.. لا أدري على أي شيء سنتزل.. لكنني رأيت "جاندال" يصرخ غاضبًا.. ورأيت الكرولر تقترب.. كان أحب منظر أراه منذ مدة طويلة حقًا.. وعلى الفور التقطتنا الكرولر وانطلقنا بها بسرعة خارج هذا كله.

...

عاد جسدي وجسدك بسرعة إلى طبيعتهما.. كنت قد بدأت أعتاد على هذه الكارتونية.. تشعر فيها أنك خفيف لا وزن لك أبدًا.. لكن حقًا كما قال جاندال.. المرء هنا قد يصير مكتئبًا.. إن دولنا كلها تمارس هذا النظام الربوي القذر.. دولنا كلها بلا استثناء.. حقًا لا أجد وصفًا.. الحل الذي قدمناه في النهاية.. كلما نفذه رئيس يقتلونه من فورهم.. هذا يضعف الأمل في الإصلاح.. نحتاج حاكمًا شجاعًا.

مشت الكرولر وفجأةً اشتغلت فيها الأغنية التالية:

المال

المال

اكذب لأجله

تجسس لأجله

اقتل لأجله

مت لأجله

إنها لعبة

لعبة شيطان طماع

هم لا يهتمون

إنهم يفعلونها لأجل المال

يخدعونك لأجل المال

يستعبدونك لأجل المال

أي شيء.. أي شيء

أي شيء من أجل المال

سأكذب من أجلك

سأموت من أجلك

حتى لو أبيع روحي للشيطان

إنه نفس المغني.. مايكل جاكسون.. على غرابة ما يقال حول هذا الرجل إلا أن أرض السافلين قد اختارته مغنيًا.. إنها من المرات النادرة التي أرى مغنيًا يقول كلامًا له معنى وهدف.. عجبًا.

توقفت الكرولر في هارموني القاعة العتيدة.. وكان فيها سكوربيون ينتظرنا.. هذا الرجل شاركنا عالمًا واحدًا من العوالم ولم نره في باقي العوالم.. كيف هي ثرثرته.. هل هو مفيد؟

سأدعه يثرثر لك قليلًا.



انظر إلى الصفحة الأخيرة.. واختر عالمًا جديدًا.. عسى أن يكون أفضل من سابقيه.

...

العالم السابع

نظرت من بعيد.. إنه الصرح العلمي نفسه.. أنا أحب هذا المكان بسبب الهولوجرام.. هو أكثر شيء يعجبني هنا.. أتمنى أن يكون عرض اليوم فيه هولوجرام.

دخلنا فإذا الجميع منتظرون.. يبدو أننا تأخرنا يا فتى.. أستطيع أن أرى هذا في وجه آدم.. نظرت إلى الجميع نظرة معتذرة وتقدمنا إلى عروشنا.

قال "آدم":

سامحوا صاحبينا فيبدو أن لهما رحلات أخرى كثيرة إلى غير أرضنا.. اليوم هو أصعب سؤال في العالم.. وأتمنى أن تكونوا قد تجهزتم نفسيًا من أجله.. سؤالنا يقول ببساطة.. هل هذه الكائنات والحيوانات محتاجة لأن يخلقها أحد.. أم أنها تطورت بعضها من بعض عبر الزمن؟ سؤال سبب إزعاجًا كبيرًا جدًا في الوسطين العلمي والديني.. معارك وانخفاضات وارتفاعات.. كلها لأجل إيجاد القول الفصل فيه.. اليوم.. نحن هنا كلنا معًا.. فقط من أجل الإجابة عن هذا السؤال وحده.

أضاء ضوء أحمر وقام رجل ذو شعر أبيض طويل مع صلع في مقدمة الرأس.. كان هذا هو عالم الأحياء الجين باتيست "لامارك" الذي وقف بقامته الطويلة وملابسه الأنيقة وهو يقول:

قضيت عمري ألاحظ الكائنات الحية وأكتب عنها.. وعلى أنهم قد يبدون مختلفين ظاهريًا للناظرين.. إلا أنهم جميعًا متشابهين.. تجمعهم كلهم صفات أساسية كثيرة.. وتفرق بينهم صفات ثانوية طفيفة.. لاحظت أيضًا أن الكائنات كلما زادت تعقيدًا صارت أكثر كمالًا.. والإنسان هو أكمل الكمال.. استنبطت أنه ربما تكون هناك آلية طبيعية تتحول بها الكائنات البسيطة إلى كائنات أكثر تعقيدًا مع الوقت.. نعم لا بد أن هناك تفسيرًا طبيعيًا لتحول كل هذه الكائنات المتشابه بعضها إلى بعض بيولوجيًا.. لا يحتاج الأمر إلى تدخل إعجازي لعمله.

قال له "آدم":

وما هي هذه الآلية الطبيعية؟ هل عرفتها؟

نظر له "لامارك" وقال بهدوء:

نعم.. وهي ليست آلية واحدة.. بل ثلاث آليات.. سأسردها لك بأكثر عبارات تبسيطية ممكنة.. الآلية الأولى هي أن الكائنات يتحول بعضها إلى بعض بالتهجين.. عندما يحدث تكاثر بين نوعين مختلفين من الحيوانات، ينتجان نوعًا ثالثًا جديدًا مختلفًا.. هكذا تنتج حيوانات جديدة دائمًا من تزاوج حيوانات قديمة معروفة.

سكت "لامارك" قليلًا وكأنه يرى استجابة السامعين لحديثه ثم قال:

الآلية الثانية هي التوافق مع البيئة.. هذه البيئة الجميلة البريئة التي نعيش فيها تبين أن لها قوة تأثير رهيبة على الكائنات.. فعندما تتغير هذه البيئة أي تغيير.. تجبر الكائنات على أن تتغير هي أيضًا لتتوافق معها.. بعبارة أبسط.. عندما تتغير البيئة، يتأثر الكائن فيغير شيئًا من صفاته حتى يتوافق معها.. ثم عندما ينجب هذا الكائن الذي تغيرت صفاته.. تنتقل صفاته الجديدة التي اكتسبها إلى أبنائه.. تغييرًا وراء تغيير.. صفات جديدة تتراكم على صفات.. فتُنتج مع الوقت كائنات جديدة بصفات جديدة متطورة.

ثم سكت مرة أخرى وأكمل:

الآلية الأخيرة هي الاستخدام وعدم الاستخدام.. هناك أعضاء يستخدمها الكائن باستمرار فتقوى وتتطور لتتلاءم أكثر مع هذا الاستخدام.. وعندما ينجب هذا الكائن الذي تطورت أعضاؤه بكثرة الاستخدام تنتقل هذه الأعضاء المتطورة إلى أبنائه.. هكذا تنتج كائنات لديها أعضاء متطورة لم تكن عند أسلافها.

قال "آدم":

هل يمكن أن تشرح لنا بأمثلة؟

اعتدل "لامارك" وقال:

بالنسبة للتهجين.. لدينا البغل.. يأتي بتزاوج الحصان مع الحمار.. ولدينا الوولفين.. يأتي بتزاوج الحوت مع الدولفين.. وهناك أمثلة أخرى كثيرة جدًا لحيوانات متنوعة وجديدة جاءت من حيوانات قديمة.. بالنسبة لآلية تأثير البيئة، لدينا الطيور التي لا تطير كالبط والإوز.. هذه كانت أسلافها تطير في السابق.. لكن أحفادهم كما يبدو عاشوا في بيئة وفيرة الغذاء فلم يعودوا بحاجة للطيران.. ومع الوقت جاءت الذرية غير قادرة على الطيران.. مثال آخر هو السحالي.. بعضها عاشت على أرضية صعبة فأصبحت تزحف طيلة الوقت.. ومع الوقت اختفت أطرافها وصارت ثعابين.

تنهد "لامارك" ثم قال:

بالنسبة للآلية الأخيرة، الاستخدام المتكرر للأعضاء.. لدينا الزرافات.. كانت أسلافها قصيرة العنق.. تأكل فقط من الأشجار القصيرة التي يصل لها عنقها.. وفجأةً حدث تغير في البيئة جعل هناك ندرة في الأشجار القصيرة حولها فبدأت تطاول أعناقها محاولة الوصول للأشجار الطويلة.. مع الوقت والاستخدام المتكرر ومحاولة رفع أعناقها المستمرة مع الزمن، استطالت أعناقها إلى الطول الذي نراه اليوم في الزرافات.

هنا أضاء ضوءان أحمران في مكانين مختلفين.. ضوء عند عالم الأحياء والجيولوجي الشهير ذي اللحية الكثيفة البيضاء "تشارلز داروين" وضوء آخر عند عالم الأحياء وعلم الإنسان "ألفريد راسل والاس" ذي اللحية الكثيفة البيضاء هو الآخر.. احتار كلاهما من الذي يقف.. فضحك "آدم" وقال:

يمكنكما أن تقفا معًا.. فيبدو أن الرأي الذي تقدمانه قد توصل إليه كلاكما في نفس الوقت.. يمكن للسيد "داروين" أن يتحدث أولًا وليكمل السيد "والاس" ما نقص عنده.

نظرنا إلى "داروين".. هذا هو الرجل الذي أثار جدلًا واسعًا في العالم بعد وفاته.. لماذا أثار كل هذا الجدل؟ دعنا نرى ما لديه.. قال "داروين" بهدوء:

السيد "لامارك" تحدث عن الآليات التي يتم بها التطور.. وأنا أتفق معه فيها كلها.. لكنه كان يظن أن الكائن هو الذي يتطور من داخله ليتوافق مع بيئته.. كأن الكائن هو الذي يسعى ليتغير ويتوافق.. هو الذي يسعى من داخله ليكون أكثر كمالًا وتعقيدًا وتوافقًا مع بيئته.. لكن ما اكتشفته أنا هو أن الكائن لم يُخلق بداخله أي شيء مطلقًا يجعله يتحرك من تلقاء نفسه هكذا ليتوافق مع بيئته.. إنما يحدث هذا التوافق عشوائيًا بلا أي محرك داخلي.. عبر آلية عشوائية عمياء سميتها الانتخاب الطبيعي.

سكت الجميع منتظرين ما سيقوله "داروين".. الذي داعب لحيته قليلًا وهو يقول:

الانتخاب الطبيعي يعني البقاء للأصلح في هذه الحياة.. والموت أو الانقراض للأدنى.. هذه هي سنة الحياة.. فمثلًا لو ظهرت لدى بعض أسلاف الزرافات أعناقًا طويلة بفعل الاستخدام المتكرر كما قال لامارك.. فإن هذه الأسلاف ذات الأعناق الطويلة عندما تعيش مع بقية الأسلاف ذات الأعناق القصيرة ستكون لها ميزة

تطورية تجعلها أصلح للحياة.. مع الوقت تنقرض الأسلاف ذات الأعناق القصيرة وتبقى الأسلاف الطويلة العنق.. هذا هو المحرك الذي يحرك التطور.. انتخاب الطبيعة لمن يصلح ليعيش فيها.. ليس ما يحركه هو سعي الكائن نفسه ليتغير ويتوافق مع الطبيعة.. بعبارة أخرى.. أسلاف الزرافات ليست هي التي تحركت من داخلها لتصبح زرافات طويلة العنق.. بل إنه عندما طال عنقها بفعل الاستخدام المتكرر.. انتخبتها الطبيعة واستبقتها.. وأماتت رفاقها قصيرة الأعناق.

ثم قال "داروين" وكأنه تذكر شيئًا:

هناك أمثلة أخرى كثيرة وبديهية.. البق الأحمر تفضل الطيور طعمه عن البق الأخضر.. مع الوقت ينقرض البق الأحمر اللذيذ ويعيش البق الأخضر.. الأفيال ذات الناب العاجي التي يصطادها الإنسان لأجل أنيابها تنقرض مع الوقت وتبقى الأفيال الأخرى.... وهكذا كل سرب من الكائنات تنتخب منه الطبيعة من هو أصلح للبقاء.. ويموت الباقين.. لايوجد سعي من الكائن نفسه لفعل أي شيء.

ختم "داروين":

الحقيقة الصادمة التي استنبطتها في النهاية هي أن كل هذه الكائنات التي نراها حولنا.. كلها بلا استثناء قد تطورت عبر الزمن بفعل آليات لامارك والانتخاب الطبيعي من كائنات بسيطة وحيدة الخلية إلى كائنات بحرية بسيطة ثم إلى أسماك ثم إلى برمائيات ثم إلى زواحف.. ثم إلى طيور وثدييات.. فقط بآليات لامارك والانتخاب الطبيعي.. أحد هذه الثدييات تطور إلى فرعين.. واحد تطور إلى قرود.. والآخر تطور إلى إنسان.

قال "آدم":

هل أوصلك هذا إلى الكفر بالله؟

قال "داروين":

لم يعد الله يتدخل في الخلق بالنسبة لي.. لم أعد أدري أين هو الله بالضبط.. ربما هو الذي خلق الكون.. وربما لا.

هنا تحدث "والاس" ولقد كان يبدو أكثر هدوءًا وقال:

كانت لدي رحلاتي الخاصة أيضًا إلى الأمازون وجزر إندونيسيا.. ولقد قابلت داروين وجمعنا بحث مشترك كل منا كان يبحث فيه وحده.. كنت أنا في إحدى الجزر أبحث وفجأةً أصبت بنوبة حمى شديدة.. أثناء تلك الحمى سقطت الفكرة

في عقلي.. البقاء للأصلح.. عرفت أن هذه الفكرة ستفسر تنوع الكائنات كلها.. فكتبت بحثي وأكملته وأرسلته إلى "داروين".

قال "داروين":

لما رأيت البحث تعجبت جدًا.. إن "والاس" اكتشف نفس الشيء الذي اكتشفته أنا.. وإن وقفتي أنا وهو الآن تذكرني بوقفتنا في المؤتمر المشترك الذي عُقد لنا لنطرح أفكارنا لأول مرة.. ولقد اقترح علي "والاس" أن نغير كلمة الانتخاب الطبيعي إلى كلمة البقاء للأصلح لأنها أكثر دقة فوافقته على هذا.

نظر له "والاس" وقال:

لكني أختلف مع "داروين" اختلافًا جذريًا في مسألة الإنسان.. إن الذكاء والقدرات العالية التي يتمتع بها الإنسان تنفي تمامًا أن يكون قد تطور من سلف أدنى ذي عقل أدنى.. البقاء لا يحتاج إلى كل هذا الذكاء والقدرات العقلية العالية.. عُشر هذا الدماغ كان يكفيه للبقاء وبشكل أفضل من كل الحيوانات.. رأيي أن هناك قوة فائقة هي التي صممت الإنسان وهي التي وجهت التطور في الكائنات ليجري على ما جرى عليه بحكمة وخطة مسبقة.. لقد ذهب "داروين" بالأمر بعيدًا جدًا حتى وصل إلى أن يساوي بين القرود العليا وبعض الأفارقة الذين هم في رأيه ما زالوا يحملون بعض ملامح القردة.. وتوقع بنفس منطق البقاء للأصلح أن الأجناس البيضاء الإنسانية الراقية مع الوقت ستبيد هذه الأجناس الإفريقية الهمجية تمامًا.

أضاء ضوء أحمر قريب منهما.. كان هذا هو عالم الأحياء والوراثة الألماني "أوجست وايزمان" وكان يبدو حكيمًا بذقنه البيضاء المتوسطة والنظارات الصغيرة التي يضعها.. قال "وايزمان":

عذرًا أيها الأفاضل.. ربما كان هذا الكلام ذا قيمة في الماضي لكن معظم هذا الكلام بعد أعمال جريجور مندل وأعمالي في علم الوراثة اتضح أنه هباء منثور لا قيمة له علميًا على الإطلاق.

انتبه "داروين" و"والاس" إلى ما يقوله الألماني وانتبهنا معهما له حيث أكمل:

هناك نوعان من الخلايا في هذا العالم.. الخلايا الجنسية Germ Cells والخلايا الجسدية Somatic Cells.. الخلايا الجنسية هي وحدها التي تحتوي على المعلومات الوراثية للكائن.. وهذه المعلومات فقط وحدها هي التي تنتقل من الأبوين إلى أبنائهما.. أما الخلايا الجسدية فكل ما يحدث فيها خلال حياة الكائن لا قيمة له ولا ينتقل أبدًا إلى الذرية.. هذا قانون وراثي.. يعني مهما استطال عنق

الزرافة خلال حياتها فإنها لا تنقل هذه الاستطالة أبدًا إلى أبنائها.. الحداد الذي يعمل في الحدادة وتنمو عضلاته من العمل في الحدادة لا يورث قوة عضلاته هذه إلى أبنائه... ما ينتقل إلى الأبناء هو فقط ما تحمله الخلايا الجنسية من معلومات.. ولإثبات هذا قمت بتجربة قطعت فيها ذيول فئران التجارب لعشرات الأجيال فإذا بها كل مرة تولد بذيول طبيعية ولم ينقص طول ذيولها سنتيمترًا واحدًا.. فحكاية توريث الصفات المكتسبة هذه خرافة عظيمة.. وهذا ينقض آليتين من الآليات التي ذكرتموها للتطور.. آلية تأثير البيئة على الكائن.. وآلية الاستخدام وعدم الاستخدام.. فمهما استخدم الكائن العضو أو لم يستخدمه ومهما تغير العضو أو استطال أو اختفى فإن هذا لا ينتقل أبدًا إلى الأبناء.

ساد الوجوم قليلًا حتى قال "وايزمان":

ذكرتم أيضًا آلية التهجين.. الذي يُنتج كائنات جديدة.. وافترضتم أنه مسؤول عن كثير من التنويع الذي نشاهده في الكائنات الحية حولنا.. لكن للأسف تبين أن هذا أيضًا هباء منثور عندما تم عرضه على علم الوراثة.. نعم قد يتكاثر النوعان من الكائنات الحية لينتجا نوعًا مهجنًا تختلف صفاته عن الأبوين.. لكن هذا النوع المهجن يكون دائمًا عقيمًا لا يلد ولا يُنتج ذرية.. وتنتهي حياته بموته.. ينتهي نوعه بموته.. لا يُنشئ نوعًا ولا جنسًا من الكائنات.. ويأتي الحيوان المهجن دائمًا أضعف من والديه.. فالبغل دائمًا أبطأ من أبيه الحصان.. يعني لن يستفيد الانتخاب الطبيعي منه شيئًا ولن ينظر إليه ناهيك عن أنه عقيم أصلًا.

قال "آدم" وهو ينظر ناحية "لامارك":

إذًا الثلاث آليات التي اقترحها "لامارك" للتطور سقطت.. يعني لم تعد هناك آليات تتنوع بها الكائنات.. فلا يوجد شيء سيتنوع أصلًا ليصطفي منه الانتخاب الطبيعي أفراده.. هل تعنون إذًا أن نظرية التطور ساقطة علميًا؟

أضاء ضوء أحمر في أحد أركان القاعة فالتفت إليه الجميع.. وقام رجل ذو لحية قصيرة وشعر ناعم وعينين غائرتين.. كان هذا واحدًا من أوائل علماء الوراثة "هوجو دي فريس".. وقد تحدث وقال:

ظننا أن نظرية داروين حقًا سقطت جينيًا تمامًا ولكن جاء اكتشافي فأحياها مرة أخرى.. لقد اكتشفت أن هناك تغيرًا يحدث في الخلايا الجنسية.. تغير يُعطي صفات جديدة للكائن.. تغير يورثه الكائن إلى ذريته.. تغير أطلقت عليه اسم "طفرات".

تقدمت بجسدي للأمام بتركيز.. قال "دي فريز":

من تجاربي على زهرة الربيع المسائية.. وجدت أن هناك أجيالًا تظهر يكون فيها أفراد مختلفون تمامًا عن بقية الزهور.. شكلهم مختلف ولونهم.. عزلتهم وجعلتهم يتزاوجون فيما بينهم.. وإذ بذرياتهم يأتون أيضًا مختلفين مثلهم.. إذًا فهؤلاء الأفراد الذين اختلفوا عن بقية الجيل ورّثوا صفاتهم إلى ذرياتهم.. جعلني هذا أكثف التجارب حتى اكتشفت الطفرات.. نعم يا سادة.. الطفرات.. إنها تغيرات تحدث في الخلايا الجنسية للكائن ليس في الخلايا الجسدية.. تغيرات تورث.. هذه هي الإجابة... الإجابة الجينية عن آلية التطور.

أضاء ضوء أحمر في ركن القاعة وقام عالم الأحياء والجينات "توماس مورجان" وهو رجل ذو ذقن صغير وعينين حادتين.. قال "مورجان":

من تجربتي أيضًا على ملايين الأفراد من ذبابة الفاكهة ذات العيون الحمراء اكتشفت فجأةً ظهور ذبابة واحدة مختلفة عن الباقين.. ذبابة ذات عيون بيضاء.. عزلتها وجعلتها تتزاوج مع ذبابة فاكهة عادية ذات عين حمراء.. كانت النتيجة ظهور جيل فيه أكثر من ألف ذبابة حمراء العيون وثلاث ذبابات بيضاء العيون.. ظللت أجريَ تجاربي في هذا الشأن حتى نجحت في اكتشاف أكثر من عشرين طفرة تغيرت بها صفات الكائن في كل مرة وورثها إلى أبنائه.

أشار "مورجان" إلى الهولوجرام الذي ظهر عليه شكل ما يشبه المسبحة وقال:

أيضًا اكتشفت أن هناك ما يمكن أن نتصوره وكأنه حبات عقد على خيط الـDNA الطويل.. كل حبة تعبر عن صفة في الكائن.. هذه الحبات سميتها "جينات".. وعرفت أن الطفرة يمكن أن تحدث في جين من جينات الكائن فتتغير تبعًا لها هذه الصفة وحدها في الكائن.. أو ربما تحدث أكثر من طفرة في أكثر من جين فتتغير عدة صفات فينتج كائن مختلف الصفات تمامًا عن الكائن الأول.. ومع مرور الأجيال تحدث الطفرات عشوائيًا وتتغير صفات الكائنات تدريجيًا.

أكمل "مورجان" بحماس:

الطفرة التي تُنتج كائنات مشوهة وغير صالحة للحياة يلغيها الانتخاب الطبيعي مثل أن يولد ذئب بعين عمياء.. والطفرة الصغيرة التي تغير بعض الصفات لكنها لا تؤثر على بقاء الكائن لا يراها الانتخاب الطبيعي كأن يولد ذئب بلون مختلف.. بينما الطفرة المفيدة التي تنتج كائنًا أكثر صلاحية لبيئته يبقيها الانتخاب الطبيعي ويحافظ عليها وتورث للأجيال كأن يولد ذئب بفراء أسمك في منطقة باردة.. فالانتخاب الطبيعي ليس عملية ذكية أو محددة.. لا أبدًا.. بل هي

عمياء.. تعمل بقاعدة البقاء للأصلح.. والموت لمن دون ذلك.. من تعطيه الطبيعة مزايا يبقى ويُكون جنسًا جديدًا.. ومن تعطيه الطبيعة نقائص يموت.. ومن لا تعطيه الطبيعة شيئًا يبقى كما هو.. وهكذا يمكن لكل الكائنات أن يتكون بعضها من بعض بالتطور.. عبر آلية الطفرات والانتخاب الطبيعي.

والآن سمعنا تصفيقًا من بعض الجالسين.. كادت النظرية أن تسقط لكنها صعدت مرة أخرى بقوة.. جميل جدًا.. شعر "مورجان" بالفخر قليلًا ثم أكمل بحماس علمي:

الطفرات ربما تكون بسيطة.. استبدال حرف مكان حرف.. C مثلا بدلًا من T.. أو ربما تكون حذفًا لجين كامل.. أو نسخًا لجين مرتين.. وغيرها الكثير.. كلما عبثت أكثر في جينات الكائن كان الكائن الناتج أكثر اختلافًا.

بدأ الجمع يتجه نفسيًا ناحية تصديق نظرية التطور.. لكن يبدو أن لدينا المزيد من الآراء.. إذ أضاء ضوء أحمر بين الجالسين فقام عالم جينات روسي من أيام الاتحاد السوفيتي هو "ألكساندر سيرجيفيتش سيريبروفسكي".. عدل نظارته التي تعطي لملامحه الروسية مظهرًا مميزًا وقال:

للأسف هناك قانون وراثي اكتشفناه لاحقًا في روسيا يُسقط هذه الآلية الجديدة للتطور بالطفرات التي اقترحها السيد "دي فريس" والسيد "مورجان".. معذرة.. لا يسقطها.. وإنما يحددها.

استرخيت على مقعدي ووضعت يدي على ذقني.. ترى ماذا لدينا هذه المرة؟ لقد بدأت أستمتع بهذا الصعود والهبوط للنظرية.. قال الروسي بصوته الروسي:

الصندوق الجيني Gene Fund كما سميته أنا.. والذي عندما نقلوه لاحقًا عني إلى أوروبا أطلقوا عليه اسم الحوض الجيني Gene Pool أو الوعاء الجيني.. ودعوني أشرح لكم معناه.. تعرفون كلكم أن للكائنات الحية تصنيفًا متعارفًا عليه.. (المملكة – الطائفة – الرتبة – العائلة – الجنس – النوع).. كل (جنس) من أجناس الكائنات الحية له (حوض جيني) خاص به أو (صندوق جيني) تخيلي خاص به.. هذا الصندوق التخيلي نضع بداخله كل الجينات التي تحدد صفات هذا الجنس من الكائنات بكل الأنواع التي فيه.. الطفرات يمكن أن تحدث كما يحلو لها داخل هذا الصندوق الجيني فقط ولا تستطيع أن تتعداه.. وكما قال "مورجان"، لو كانت طفرات مؤذية سيلفظها الانتخاب الطبيعي.. ولو كانت طفرات مفيدة فارقة.. سيختارها الانتخاب الطبيعي ويورثها إلى الذرية.. الذرية التي ستحمل صفات مختلفة تمامًا عن الآباء.. مختلفة إلى درجة أنهم لا يعود بإمكانهم

التزاوج مع بقية أفراد الجنس.. فلا يتزاوجون إلا مع أمثالهم.. عندها ينفصل هؤلاء المتزاوج بعضهم مع بعض عن عباءة الجنس ونطلق عليهم (نوع).. فيصبحون نوعًا جديدًا داخل الجنس.. وكل جنس في الطبيعة يحوي تحته عشرات أو مئات الأنواع الناتجة بالطفرات.. لكن القانون الوراثي الذي كشفناه يقول أن الطفرات لها حدود لا يمكن أن تتعداها أبدًا.. هذه الحدود هي حدود الحوض الجيني الخاص بالجنس.. ولا تقدر على أن تتعداه أبدًا لتطال العائلة أو الرتبة أو الطائفة.

قال آدم:

معذرة لم أفهم هذه النقطة.. هل يمكنك أن توضحها بأمثلة؟

اعتدل الروسي "ألكساندر" وقال:

جنس الحصان مثلًا يحتوي على عدة (أنواع) تضم كل الأحصنة والحمير في هذا العالم.. فيه الحصان الأليف والحصان البري والحمار الأليف والحمار الوحشي.. جنس الحصان هذا قديمًا منذ ملايين السنين لم يكن فيه أي تنوع وكان يُعبَر عنه بحيوان واحد هو سلف جميع الأحصنة والحمير الحاليين.. كان يدعى إيكوس Equus.. هذا السلف القديم كان له حوض جيني يضم كل صفاته الحصانية.. وذات مرة حدثت في هذا السلف بعض الطفرات المفيدة التي أنتجت ذرية مختلفة قليلًا عن الحصان السلف الإيكوس.. ذرية أصغر وأقل قوة.. ذرية تدعى الحمير.. لم تعد تقدر على التزاوج مع أفراد السلف القديم من الإيكوس.. لم يعد بمقدورهم التزاوج إلا مع أمثالهم من الحمير.. وبالتالي أصبحوا نوعًا منفردًا اسمه الحمار.. لكنه داخل تحت جنس الحصان.

ثم قال "ألكساندر":

ثم حدثت طفرات أخرى للسلف القديم الإيكوس نفسه فأنتجت ذرية مختلفة الصفات لا تتزاوج إلا مع نفسها اسمها الأحصنة البرية.. وأصبح هؤلاء نوعًا منفصلًا اسمه "الحصان البري".. داخل أيضًا تحت جنس الحصان.. الحمير نفسها حدثت فيها طفرات مفيدة فأنتجت ذرية مختلفة الصفات عنها تدعى الحمير الوحشية الذين أصبحوا نوعًا ثالثًا اسمه الحمار الوحشي.. داخل أيضًا تحت جنس الحصان.. وهكذا ظلت الطفرات تحدث في سلف الحصان القديم (الجنس) فتكون أنواعًا جديدة.. وتحدث في الأنواع الجديدة فتكون (تحت أنواع) جديدة... لكن كل ما ينتج من هذه الطفرات سيظل في النهاية حيوانًا ذا صفات

حصانية.. حصانًا أليفًا كان أو حمارًا أو حمارًا وحشيًا أو حصانًا بريًا أو أوراسيًا أو حمارًا أفريقيًا أوهنديًا أو فارسيًا.. وغير مسموح وراثيًا للطفرات التي حدثت في سلف الحصان قديمًا مهما كانت طفرات كبيرة أن ينتج عنها أي شيء آخر ليس حصانيًا.. كلب مثلًا أو فيل.. يعني لن يتعدى الحصان جنسه إلى جنس آخر.. الحصان يبقى حصانًا مهما طال الزمن عليه أو قصر.. مهما حدثت فيه من طفرات.. هذا قانون وراثي.. سلف الكلب.. ستحدث فيه طفرات عديدة وسيتحول إلى كلب استرالي.. ذئب قطبي.. ذئب أفريقي.. ثعلب.. ابن آوى.. لكنه لن يتحول إلى أي شيء آخر ليس كلبيًا.. لن يتعدى جنسه إلى جنس آخر.. هذا جل ما يمكن للطفرات أن تفعله.. لكنها لن تحول سحلية إلى ذئب مثلًا.. القطط لا تنتج كلابًا.. ولن تفعل ولو بعد مليون سنة.

قال له "مورجان" باحتجاج:

سيدي لكن نظرية التطور لم تقل أن الحصان تحول إلى فيل.. ولا أن السحلية تحولت إلى ذئب.. إنما قالت أن سلف الحصان وسلف الكلب وسلف القط وسلف الدب.. كلهم جاءوا من سلف الثدييات.. وقالت أن الطيور جاءت من الزواحف.. بينما سلف الثدييات وسلف الزواحف كلهم جاءوا من سلف البرمائيات.. الذي أتى من سلف الأسماك الذي جاء هو وسلف الشوكيات وسلف الشعب المرجانية من سلف واحد وهكذا حتى نصل إلى الجدة لوكا التي خرجت منها جميع الكائنات.

قال "ألكساندر":

سيدي لقد ضربت مثالًا بالحصان لأوضح معنى كلمة الحوض الجيني ولم تتركني أكمل كلامي لأوضح كيف أن هذا القانون يحدد سلطة نظرية التطور تمامًا.. نظرية التطور تقول أنه في يوم ما، كان هناك فرد من الأسماك تطور إلى حيوان برمائي أصبح هو سلف البرمائيات كلها.. يعني كانت هناك سمكة عادية فقس بيضها ذات يوم فخرج منه كائن ذو صفات برمائية.. كائن هو أبو البرمائيات كلها.. ناتج عن طفرة ما حدثت داخل بيض تلك السمكة.. نظرية التطور تقول أيضًا أن واحدًا من الزواحف تطور إلى طير أصبح هو سلف الطيور كلها.. يعني يومًا ما كان هناك حيوان زاحف باض بيضة خرج منها كائن ذو صفات طيرية كان هو أبا الطيور كلها.. إن هذا ضد قانون الحوض الجيني.. السمكة مهما حدث فها من طفرات ستظل سمكة.. لن تتجاوز الحوض الجيني الخاص بها إلى الحوض الجيني الخاص بالبرمائيات... يعني لن تنمو لها أو لذريتها يومًا قدمان أو شبه

قدمان تجري بهما على الشاطئ فتصير حيوانًا برمائيًا.. والزاحف مهما حدث فيه من طفرات سيظل زاحفًا.. لن يتجاوز الحوض الجيني الخاص به إلى الحوض الجيني الخاص بالطيور.. لن تخرج له يومًا أجنحة وتتحول حراشفه إلى ريش فيصير طيرًا ذات يوم.. لكل جنس من أجناس الكائنات حوض جيني خاص به في هذه الدنيا.. ونحن لدينا مئات الآلاف من الأجناس.. يعني مئات الآلاف من الأحواض الجينية في عالمنا.. كل حوض جيني منها حدثت فيه طفرات كثيرة بالتأكيد فأخرجت داخله مئات الأنواع.. لكن لا تخرج الطفرات من خارج الحوض أبدًا لتدخل في حوض آخر خاص بجنس آخر.. يعني لا يتعدى بعضها على بعض.

وختم الروسي قائلًا:

الخلاصة أن نظرية التطور بالطفرات والانتخاب الطبيعي يمكن أن تفسر كيف خرجت مئات الأنواع من عباءة الجنس الواحد.. لكنها لا تستطيع أن تفسر كيف أتت الكائنات أسلاف الأجناس نفسها إلى الدنيا.. هذه الأسلاف لم تتطور عن أي شيء قبلها بالطفرات.. لأن الطفرات لا يمكن أن تحول جنسًا إلى جنس آخر.

سار نوع من الهمهمة بين الحضور.. همهمة أناس يتناقشون.. ولكن ضوءًا أحمر قد أضاء في مكان ما وقام له عالم الأحياء البريطاني الشهير "ريتشارد دوكينز" صاحب الشعر الأبيض والوجه الذي يشي بوسامة في شبابه حيث قال:

هذا المأزق الذي وضعت فيه نظرية التطور ليس مأزقًا في الواقع.. فالطفرات أنواع.. منها ما لا يخرج من الحوض الجيني فعلًا.. ولكن منها ما يمكن أن يخرج.

قال الروسي:

يستحيل أن يخرج.. هذا قانون وراثي.

قال "آدم":

هذا الجدال ممنوع.. تحدثوا بأمثلة وتجارب مثبتة.

سكت "دوكنز" والروسي.. ثم قال الروسي بهدوء:

سأحكي الموضوع بطريقة أخرى ليسهل فهمه أكثر.. كل كائن حي في هذه الدنيا فيه جينات محددة معروفة.. كل جين منها يعبر عن صفة من صفات هذا الكائن.. جميل.. الآن التطور يقول أن كائنات أبسط قد تطورت إلى كائنات أكثر

تعقيدًا.. كائنات مائية بسيطة الخلايا فيها جينات بسيطة تصف تركيبها البسيط.. يقولون أنه قد برزت لها ذات يوم خلايا ضوئية بدائية كانت بذرة تطورت بعد ذلك إلى عيون تبصر بها.. هذه الخلايا المائية البسيطة.. كيف أضيفت لها فجأة جينات الخلايا الضوئية؟ الحوض الجيني الخاص بها كان فيه جيناتها هي فقط.. معلوماتها هي فقط.. كيف أضيفت لها جينات جديدة كليًا فيها معلومات تصف تركيبًا معقدًا كالخلايا الضوئية أو العيون؟ من أين أتت هذه الجينات الجديدة ذات المعلومات الجديدة؟ من الطفرات؟ الطفرات لا تخلق أشياء لم تكن موجودة.. هي فقط تعبث فيما هو موجود مسبقًا.. تعبث بالمعلومات الموجودة مسبقًا فتُخرج معلومات مشوهة قد تكون مفيدة أو لا تكون.. لكنها لا تقدر على ابتداع معلومات جديدة.. الطفرات لن تعطي كائنًا ما عينًا بينما هو في الأصل لا يقدر على الإبصار.. الطفرات لن تخرج يومًا أجنحة وريشًا لزاحف ذو حراشف يمشي على الأرض ولا يستطيع الطيران.. الطفرات ليست عصا سحرية.

هم "دوكنز" بالكلام لكن الروسي تابع:

الريش يحتاج لجينات جديدة بمعلومات جديدة.. الأجنحة تحتاج إلى جينات جديدة بمعلومات جديدة.. أبسط كائن حي في العالم هو لوكا.. كان يحتوي على ٣٥٥ جين.. الإنسان يحتوي على ٢٠ ألف جين.. إذًا حتى يتطور لوكا عبر الزمن إلى إنسان يجب أن تضاف إليه عبر الزمن جينات جديدة كليًا.. فمن أين له بها؟ من أين له بالمعلومات الجديدة؟ يجب على أهل التطور أن يبحثوا عن شيء آخر غير الطفرات لتفسير تحول بعض الأجناس إلى بعض.. شيء يصلح أن يُنتج جينات جديدة من العدم.. جينات تحوي معلومات مفصلة عن التكوين الجديد الذي سيظهر للكائن.. وسأقولها مرة أخرى.. الطفرات أقصى ما تستطيعه هو أن تعبث بالجينات الموجودة.. لا تضيف أي جينات جديدة بمعلومات جديدة.. الطفرات تعمل داخل الحوض الجيني نفسه.. لا تعمل خارجه.

قال "آدم":

هناك حل لهذه المعضلة.. أن يكون السلف الأول.. الجدة "لوكا".. فيها كل الجينات الخاصة بكل الكائنات الحية.. حوضها الجيني كان يتسع لكل الكائنات الحية بجميع أطيافها.. وظلت الطفرات تحدث فيها كما يحلو لها.. وفي كل مرة تنتج كائنًا جديدًا.. نابعًا من الحوض الجيني الكبير للجدة "لوكا".

قال له الروسي:

هذه فرضية ساقطة طبعًا.. كل كائن في هذه الدنيا فيه الجينات التي تحمل صفاته هو فقط.. الكائن الوحيد الخلية لن تكون فيه جينات تصف زعانف السمكة وعيون الدب وأجنحة الطير ومخ الإنسان.. الكائن الوحيد الخلية لن توجد فيه إلا الجينات التي تصفه خليته الواحدة هذه فقط.. السمكة ليس فيها جينات مخزنة تصف أجنحة الخفاش وصدفة السلحفاة.. السمكة فيها جينات السمكة فقط.. هذه قاعدة جينية.. لذلك لن تجد عالمًا واحدًا يقول بهذه الفرضية.. لأن هذا سيجعل تفسير نشأة الحياة أكثر صعوبة بالنسبة لهم.. هم يقاتلون في محاولة إثبات أن الجدة "لوكا" بكل تعقيداتها التركيبية قد أتت هكذا من اللاشيء.. أتريد أن تجعل فيها كل جينات الكائنات الحية أيضًا؟ لن تجد عالمًا تجريبيًا واحدًا يقول بهذا.. ثم إن هذا افتراض لا دليل عليه.. ونحن هنا لا نقبل الافتراضات في مناقشتنا هذه كما فهمنا منك في البداية.

ضوء جديد أحمر برز هناك وقام له رجل زحف الصلع على مقدمة جبهته.. "هيرمان مولر".. عالم الوراثة والحاصل على نوبل.. قال لهم:

بغض النظر عن الفرضية الجميلة التي قدمتموها.. وبغض النظر عن قانون الحوض الجيني الذي يضع حدًا صارمًا للتطور.. فلا يجب أن يتعب العلماء أنفسهم في محاولة إثبات أن الطفرات يمكن أن تكون هي سبب التنوع والإبداع والجمال الذي نراه في المخلوقات.. هذا هراء.. الطفرات ما هي إلا أخطاء.. فقط أخطاء عشوائية.. تحدث أثناء عملية نسخ الـDNA الطبيعية التي تحدث في الخلايا.. لكن الأخطاء هنا نسبتها قليلة جدًا.. ١ في كل ١٠ آلاف نسخة مثلًا.. لأن هناك آلية في الجينات نفسها لتصحيح الأخطاء تلقائيًا أثناء النسخ.. آلية غاية في التعقيد والإتقان.. هناك حوالي مليون خطأ ومليون إصلاح في اليوم الواحد.. ورغم هذه الآلية فإن هناك أخطاء قليلة تفلت.. هذه هي الطفرات.. ضارة.. غير محددة.. إفسادية في الأصل.. هادمة.. مزيلة.. تعبث في المادة الوراثية فتغير فيها ما تغير.. ولأنها تحدث في المادة الوراثية فهي تورث إلى الذرية.

سكت "مولر" قليلًا ثم قال:

لقد أجريت تجاربي على ذبابة الفاكهة أيضًا.. ولاحظت أنه عندما نُعرض الذباب لمستويات عالية من أشعة X فإن معدل الطفرات التي تحدث يكون أعلى بـ١٥٠ مرة من المعدل العادي.. هذا سمح لي أن أدرس الطفرات بشكل واسع جدًا.. ربيت ٩٠٠ جيل من أجيال الذباب.. ملايين الطفرات حدثت.. وبعد كل هذا فكل الأجيال التي حصلت عليها كانت أجيالًا من الذباب مشوهة.. وحوشًا.. غير

قادرة على الخروج حتى من وعاء الاختبار.. وإن خرجت فإن مصيرها يكون الموت.. بعد كل هذا لم أحصل على طفرة واحدة مفيدة.. وأنا قد أجريت التجربة مرارًا وتكرارًا لسنوات وسنوات.. ودائمًا أحصل على نفس النتيجة.. أن الطفرات هي شيء ضار بالأصل.. ولا يستقيم أن يجعلها العلماء آلية للتطور فقط لأنهم لا يجدون أي آلية أخرى.

قال له "دوكينز":

بل الطفرات يمكن أن تكون مفيدة.. وعندما تكون مفيدة يبقها الانتخاب الطبيعي ويورثها إلى الذرية.. هناك أمثلة على طفرات مفيدة شهيرة.. ليست فقط مفيدة وإنما أضافت صفات جديدة للكائن لم تكن موجودة فيه.. وهذا يدل على أن الطفرات يمكنها أن تنشئ معلومات جديدة.

قال "آدم":

يجب أن تتحدث بمثال يا سيدي.

قال "دوكينز":

حسنًا لدينا العديد من الأمثلة على الطفرات المفيدة.. سمكة الكهوف العمياء مثلًا.. عيونها في السابق بسبب ظلام الكهوف كانت معرضة للاصطدام والتأذي بشكل كبير.. لذلك كان مفيدًا لها أن تستبدل هذه العين بنسيج عادي.. حدثت طفرة وأدت إلى تحويل عينها إلى نسيج... فأصبحت سمكة بنسيج معتم بدلًا من العيون.. هذه طفرة مفيدة.. أيضًا المثال الذي لاحظه داروين.. خنافس جزيرة ماديرا.. لأنها تعيش في جزيرة عاصفة.. فالهواء دائمًا ما يصطدم بأجنحتها ويرمها إلى البحر.. فعندما تحدث لها طفرة تجعلها بلا أجنحة.. تكون فرصتها في البقاء أكبر.. لدينا أيضًا البكتيريا التي حدثت فها طفرة فجعلتها مقاومة للمضاد الحيوي.. هنا نرى بزوغ جيل جديد من البكتيريا أشد قوةً وبطشًا ولا يؤثر فيه المضاد الحيوي.. وغيرهم كثير.

رد عليه "مولر" قائلًا:

هذا يثبت أن الطفرات هادمة كما قلت.. حتى عندما أرادوا أن يأتوا بأمثلة على طفرات مفيدة.. لم يستطيعوا إلا أن يأتوا بأمثلة على طفرات هادمة نتج عن هدمها هذا أشياء مفيدة.. ماحدث في سمكة الكهوف هو تدمير للعين.. وفي حالتها تبين أن هذا التدمير مفيد لها.. الخنافس دمرت الطفرة أجنحتها.. وتبين أن هذا التدمير مفيد لها.. البكتيريا المقاومة للمضاد الحيوي تبين أنها ضحت بالرايبوسوم

الخاص بها لأن المضاد الحيوي كان يدمرها عن طريق التعلق به.. ضحت به فصارت تعيش بدون رايبوسوم.. فأفلتت من سلطة المضاد الحيوي.. هذه الأمثلة التي ذكرها هي أفضل أمثلة موجودة لدينا على الطفرات المفيدة.. وهي لا تكفي إلا لتفسير التنوع داخل الجنس الواحد.. ليس أكثر من ذلك.. فالسمكة ما زالت سمكة وستظل سمكة.. الخنفسة ما زالت خنفسة والبكتيريا ما زالت بكتيريا من نفس جنسها.. نحن عندما نريد أمثلة على طفرات تضيف معلومات جديدة.. لا نبحث عن تغييرات طفيفة.. بل نبحث عن تغيرات جذرية.. تغيرات يمكنها أن تحول كائنًا إلى كائن آخر.. الطفرات لا ينتج عنها مثلًا أعضاء معقدة عجيبة محكمة مثل الخلايا المضيئة في الأسماك المضيئة.. أو خلايا الرصد بالصدى كالسونار في الدولفين.. أو نظام الرادار عند الوطاويط.. أو الخلايا الكهربائية في الأسماك الكهربائية.. أو الخلايا الصبغية المتغيرة التي تجعل الكائن يغير لونه كما في الحرباء.. باختصار.. لو تحدثنا جينيًا فالطفرات لا يمكنها أن تزيد عضوًا مبتدعًا للكائن الحي.. هذا موجود فقط في قصص الكوميكس والخيال العلمي.

قال "دوكينز":

عندما تنظر إلى البعوضة.. وتجد أنها تمكنت من أن تطور مناعة ضد المبيدات في ٤٠ عامًا فقط.. أليس هذا تطورًا يحدث امام أعيننا؟

رد "مولر":

لا.. أليست البعوضة ما زالت بعوضة؟ لم تتحول إلى أي شيء آخر؟

قال "دوكنز" بتحدي:

التطور يحتاج إلى ملايين السنين.. وهي في ٤٠ عامًا فقط حدث فها هذا التغيير.

قال "مولر":

ليس معنى أن هذه البعوضة تغيرت قليلًا الآن.. أنها بعد مليون سنة ستتحول إلى فيل.. الطفرات لها حد لا تتعداه.. المشكلة ليست في مقدار التغيير الذي يحدث.. بل المشكلة في نوع التغيير.. ونوع التغيير الذي يقدمه التطوريون كله هو النوع المعاكس للنوع الذي يحتاجونه لإثبات نظريتهم.. فهم يستخدمون أمثلة مثل مناعة البكتيريا ومناعة البعوض.. يستخدمونها ليقنعوا العامة بأن الكائنات البسيطة الوحيدة الخلية قد تطورت عبر ملايين السنين لينتج عنها في النهاية

أمهارًا وأسودًا وأفيالًا وديناصورات.. وأن الميكروب يمكن أن يتحول بطريقة من الطرق إلى إنسان.

ثم قال "مولر":

على العكس من الأمثلة التي ذكرتها أنت.. ٩٩ % من الطفرات هي طفرات ممرضة.. ٩٩ % بلا مبالغة.. االسرطان.. الأنيميا.. الزهايمر.. مرض السكر.. أصحاب الابتلاءات مثل الأطفال المصابين بالبروجيريا الذين يشيخ وجههم ويتجعد.. والمصابين بمرض فرط الشعر الذين يكون الشعر على وجههم كالشعر على رأسهم.. والمصابين بمتلازمة داون.. أوالمرض الذي أصيب به الرجل الشهير المسمى بالرجل الفيل.. حمى البحر الأبيض المتوسط.. الصداع النصفي.. القزامة.. المهق.. وغيرها كثير جدًا.. لا يصح علميًا أن نأخذ آلية ٩٩ % من نتائجها هادمة و١ % هادم مفيد ونعتمدها كآلية لكل التنوعات الرهيبة الدقيقة للكائنات الحية حولنا.. لو كان التفكير بالمنطق حقًا.. يفترض لهذه الطفرات أن توجه الركب التطوري ناحية الانتكاس وإلى الانقراض وليس إلى الصعود الشاق والتطور.

ثم قال "مولر" بلهجة من يختم كلامه:

إن هذه المعلومات الجينية التي تُنسخ بالملايين دوريًا في الـDNA هي مثل السطور التي تطبعها الآلة الكاتبة مرارًا وتكرارًا.. الطفرة هي خطأ مطبعي يحدث أثناء النسخ ليُنتج سطورًا مشوهة.. يقولون أن هذه السطور المشوهة هي التي نتج منها كل التنوعات الجميلة في الكائنات الحية التي نراها اليوم.. لكن التشوه لا يصلح لتفسير شيء إلا الموت.. لا يصلح لتفسير الجمال والحياة.

قال "دوكنز" وكأن كل ما قيل لا يعنيه:

هناك نوع من أنواع الطفرات يدعى مضاعفة الجينات Gene Duplication.. يتضاعف فيه حجم الـDNA.. ها هو مثال حي بسيط على طفرات تنشئ جينات جديدة.

قال له "مولر":

هذا ليس إضافة جين جديد.. هذا نسخ جين موجود مسبقًا.. الجين كان اسمه X مثلا فصار XX.. مثلما تلصق نسختين متماثلتين من كتاب بعضهما بجانب بعض... أنت لم تنشئ كتابًا جديدًا فيه معلومات جديدة.. بل هو نفس الكتاب والمعلومات لكنها مكررة.. وكذا بقية آليات الطفرات المعروفة كلها لا

تنشئ أي معلومات جديدة.. كلها تعديل في المعلومات الحالية.. أيًا كان نوع هذا التعديل.. بعض الطفرات استبدالية.. تستبدل أماكن الحروف المكتوبة.. وبعضها تقص جزءًا من جين وجزءًا من جين آخر وتضيف الجزءين بعضهما إلى بعض فيصير جينًا جديدًا.. لكن المعلومات التي فيه هي نفس المعلومات الموجودة مسبقًا في الجينين القديمين. لم تضف معلومات جديدة.. بعضها يدمج جينًا موجودًا بجين موجود آخر.. أيضًا لم تأت بجديد.. هذا هو أقصى ما تستطيعه.. العبث.

قال "دوكينز":

أنت تقول أن الطفرات بسبب طبيعتها الهادمة وبسبب قانون الوعاء الجيني لا يمكنها أن تفسر تطور الجنس إلى جنس آخر.. وأقصى ما تستطيع تفسيره هو تطور الكائن الذي يمثل سلف الجنس إلى كل التنوعات التي حدثت بعده داخل الجنس.. وأنا عندي سؤال لك.. هذه الكائنات التي تمثل سلف كل جنس.. من أين أتت بالضبط؟ لو لم تكن تطورت بعضها من بعض؟

قال "مولر":

أنت تسأل عن أصل الأسلاف.. وكيف نزل هؤلاء الأسلاف إلى الدنيا.. لو علمنا أن لدينا تقريبًا ١٠٠٠ جنس من الأسماك.. و٥٠٠ جنس من البرمائيات.. و١١٠٠ جنس من الزواحف.. و١٨٠٠ جنس من الطيور.. و١٢٠٠ جنس من الثدييات.. هذه ٥٦٠٠ جنس من الفقاريات وحدها.. ٥٦٠٠ سلف استعمروا البر والبحر يومًا ما.. حدث فيهم طفرات وانتخاب طبيعي للأصلح حتى أصبح في الفقاريات الآن حوالي ٧٠ ألف نوع.. نعم يمكن للتطور أن يفسر تنوع الـ٥٦٠٠ هؤلاء إلى أحفادهم الـ٧٠ ألف.. بالطفرات والانتخاب الطبيعي.. لكن كيف جاء الـ٥٦٠٠ هؤلاء إلى الأرض واستعمروها؟ لم يتوصل العلم إلى هذا بعد.. واحد من هؤلاء الـ٥٦٠٠ هو الإنسان الذي عندما نزل أصبح سيد الكائنات جميعًا واستعمر الأرض والبحر والجو.. كيف أتى؟ لم يعرف العلم حقيقة هذا بعد.. لاحظ أنني تحدثت فقط عن الفقاريات الآن.. لم أتحدث عن الـ١٥٠ ألف جنس من أجناس الحشرات التي أصبحت حاليًا حوالي مليون نوع حشرات.. ولم أتحدث عن مملكة النبات ولا مملكة البكتيريا أو مملكة الطحالب أو مملكة الفطريات.. مئات الآلاف من الأجناس لا ندري من أين جاءت إلى الدنيا.. هل خلقها الله؟ بعض العلماء يؤمنون بهذا.. اسمهم الخلقيون وهم ضد التطوريين دائمًا.

قال "آدم":

بعض العلماء الخلقيين أجدهم يحاولون التوفيق بين التطور والخلق.. فيقولون أن الطفرات رغم أن طبيعتها هادمة في الأصل وعشوائية.. فإن عناية الله هي من تتحكم بها وتوجهها لتُخرج لنا كل التنوع والجمال في الكائنات الحية.. يسمونها الطفرات الموجهة.. موجهة من قبل الله.. ويقولون أنها طريقة الله في الخلق.. فهو خلق الجدة "لوكا" ووضع فيها كل جينات الكائنات الحية.. وتكفلت العناية الإلهية بتوجيه تلك الطفرات ناحية إنتاج مخلوقات جديدة متنوعة.. وبهذا جاءت كل هذه الأجناس.. ونتج عنها بعد ذلك بالطفرات الموجهة أيضًا كل ما تلاها من أنواع.. ولم تسمح العناية الإلهية لأي كائنات انتقالية مشوهة أن تتكون.

قال "مولر":

المجتمع العلمي يرفض إدخال العناية الإلهية في أي شيء.. يؤمنون أن هذا ضد العلم.

قال "آدم":

لكنهم يوافقون على الصدفة والعبثية مع شدة استحالتها.. أليس الإيمان بالعناية الإلهية أكثر منطقية؟

قال "مولر":

هذا هو توجه المجتمع العلمي في العصر الحديث.. ولكن فرضيتك هذه ساقطة جينيًا وعلميًا.. لا يوجد كائن يحمل داخله معلومات كائن آخر.. ونحن لا نقبل الفرضيات في هذه المناقشة خصوصًا لو كانت ساقطة.

قال له "آدم":

طالما لا يوجد دليل على حدوث تطور بعض الأجناس إلى بعض إذًا فهو شيء خيالي غير موجود.

قال "دوكنز":

هناك دليل طبعًا.. بل أدلة كثيرة.. هل نسيت الأحافير؟ عشرات الأحافير تملأ السجل الأحفوري.. ليست أحافير لكائنات عادية.. بل أحافير لكائنات انتقالية متوسطة بين الطوائف.. تدل بما لا شك فيه على أن التطور حقيقة مثل الشمس التي في كبد السماء.

أطرق "آدم" برأسه مفكرًا وهو يقول:

الحفريات نعم.. الحفريات التي لا شك فيها.. هذا دليل جميل.. فليكن.. بمناسبة الحفريات.. أرى أن الهولوجرام قد حضر لنا مفاجأة.. لكننا سنشهد هذه المفاجأة بعد استراحة قصيرة.. وتأكد أن المفاجأة ستجيب عن سؤالك هذا كاملًا.

نظرنا بين العلماء نبحث عن سكوربيون لكننا لم نجده.. فتوجهنا إلى تلك الغرفة الملحقة.. فوجدناه جالسًا هناك.. كان يدخن.. وسحب الدخان قد ملأت الغرفة.. فتوجهت لأفتح النافذة التي كانت تطل على أجمل منظر طبيعي يمكنك أن تراه.. سرح بصري في المنظر قليلًا بينما كنت أنت تحدث سكوربيون ورائي.



عدنا إلى قاعة العلماء.. وشغل "آدم" الهولوجرام ليجهز لنا المفاجأة.. و..

فجأةً انفتح باب القاعة على مصراعيه بصوت عالٍ وكأن رياحًا قويةً جدًا فتحته عنوة.. نظرنا مثلما نظر الجميع إلى باب القاعة بدهشة.. هناك صوت شيء ما آتٍ.. بل أشياء.. أشياء كثيرة.. الآن ستدخل هذه الأشياء.. وفجأةً رأينا ما تراجعت له ظهورنا على مقاعدنا.. واتسعت له أعين جميع الحاضرين دهشة على سعة علمهم وحكمتهم.. لقد دخلت علينا فجأةً مجموعة كبيرة من الكائنات الحية.. في الوهلة الأولى سترى حيوانات.. وطيورًا.. وقرودًا.. وبشرًا.. وترى أسماكًا كبيرةً تسعى في الهواء.. في الوهلة الثانية ستفطن إلى أن هذه الكائنات غريبة الشكل جدًا.. الطيور لا تبدو كالطيور التي تعرفها.. ولا الحيوانات التي نعرفها.. ولا حتى القرود.. والبشر ليسوا بشرًا.. بل أشباه بشر.. كأن وجوههم ممسوخة إلى قردة.. كل هؤلاء دخلوا علينا فجأةً وأخذوا يدورون في الساحة بهمجية.. لكن "آدم" أخرج لهم عصاه ورفعها فبدا مظهره عجيبًا وسطهم وهم ينتظمون فيما بينهم ويترتبون وكأنهم ينتظرون الأوامر.

قال "آدم" بطريقة مسرحية:

والآن يا سادة اقتربوا برؤوسكم.. إني أدعوكم لتشاهدوا الكائنات الانتقالية المفترض أنها تثبت نظرية التطور بما لا يدع مجالًا للشك.. ها هي ذي أمامكم.. عجيبة جدًا كما نرى.. لكنها لن تكون عجيبة لو فهمنا أن مكانها في تاريخ الكائنات الحية حسب نظرية التطور هو بالضبط في حلقات الوصل ما بين الطوائف.. منهم من هو حلقة الوصل بين طائفة الزواحف وطائفة الطيور.. ومنهم من هو حلقة الوصل بين طائفة الأسماك وطائفة البرمائيات.. ومنهم كثيرون يمثلون حلقة الوصل بين سلف القرد والإنسان.. لا تتعجبوا منهم هكذا.. فهؤلاء هم أسلافنا كما تقول النظرية.. أسلافنا وأبناء عمومتنا.. أجدادنا وجداتنا.. ولكن أين الجدة "لوكا"؟ ها هي ذي وسطهم هناك.. هذه هي جدتنا وجدة كل الكائنات كما تقول نظرية التطور.. فليكن سنعتبرها كذلك حتى إشعار آخر.

لم نفهم ماذا يريد "آدم" أن يفعل هذه المرة.. المهم أنني مستمتع بما يفعله.. قال "آدم":

دعونا نبدأ بأول مجموعة من الكائنات الانتقالية لدينا.. وحتى نثيركم من البداية سنبدأ بمجموعة أشباه القردة هؤلاء أو أشباه الإنسان أو لا أدري بماذا أصفهم.. إن بعضهم يبدو قرديًا.. وبعضهم يبدو إنسانيًا.. لدينا عشرة كائنات هنا.. وسيتقدمون إليَّ خمسة خمسة.. الخمسة الأولون الذين سيتقدمون هم الأصناف الأقرب للإنسانية.. والخمسة الآخرون هم الأصناف الأقرب للقردية.

أشار "آدم" بعصاه فانفصل خمسة مقرودين عن بقية زملائهم ووقفوا متجاورين بطريقة قردية ينظرون حولهم ويحكُّون رؤوسهم.. مشى "آدم" أمامهم وهو يربت بعصاه على كف يده في أهمية.. ثم أشار بعصاه إلى أول فرد من الخمسة.. كان إنسانًا لكن نسبة الشعر في جسده زائدة قليلًا.. شعر رأسه طويل نازل على جهته في غير انتظام.. حاجباه كثيفان.. ورغم أن فكه بارز تمامًا مثل فك الشمبانزي.. فإن وجهه كان إنسانيًا عاديًا ليس مشعرًا كوجوه الشمبانزي.. كأنه إنسان بملامح شمبانزي.. نظر له "آدم" وقال:

هذا الكائن الماثل أمامنا يدعى إنسان بلتادون.. لأن حفريته اكتشفت في بلتادون بإنجلترا.. هذه الصورة هي صورة هولوجرامية رسمها الكمبيوتر له بناءً على نظرة أهل التطور له.. كما ترون لديه فك شبيه بفك الشمبانزي.. وأسنان تبدو مثل أسنان الشمبانزي.. هذا اكتشاف عظيم.. كائن بجمجمة إنسان وفك وأسنان شمبانزي.. هذا دليل لا يدحض على أن هذا الكائن هو جد من جدود

الإنسان والشمبانزي.. تم عرضه في المتحف البريطاني في ركن خاص.. وعمل تمثال جميل له ورسومات وأبحاث علمية كثيرة تتحدث عن أرجحية تطور الرأس قبل الفك عند الإنسان.. وملء المجلات العلمية بصوره وتقاريره.. وبعد أربعين سنة من عرضه على الناس وتعليمه في الكتب، أجريت عليه تجربة بالصدفة لاختبار عمره بالفلورين.. وصَدَم العلماء والباحثين والإعلام والتطوريين والطلاب والناس العاديين.. صدمهم بأن عظامه لا تعود إلى نصف مليون سنة كما هو معلوم عنه.. هذه الجمجمة هي جمجمة إنسان عادي حالي يعيش في هذا الزمن.. وهذا الفك وهذه الأسنان فك وأسنان قرد من القردة الحاليين الذين يعيشون في زمننا هذا.. بمزيد من البحث والتقصي عرف العلماء أن مُكتشف الحفرية جمع هذا إلى ذاك ليفبرك الكائن.. وقد فعل هذا بمهارة واحترافية شديدة.. كانت قضية تزوير وخداع ماهرة جدًا.. خدعت العالم أجمع أكثر من أربعين عامًا.. هذا يا سادة كان إنسان بلتادون.

وضع "آدم" طرف عصاه على رأس إنسان بلتادون فتحول إلى تراب.. ابتسم "آدم" ابتسامة غريبة وتابع مشيه إلى المقرود الثاني.. لم يكن يختلف شكله كثيرًا عن صاحبه الأول.. إلا أن شعره كان أطول وشكل وجهه أفضل لأن فكه القردي لم يكن بارزًا جدًا.. لكنه بارز على أي حال.. الملامح القردية واضحة للعيان وقد أعطاها الشعر الطويل والجسد العاري تأثيرًا بدائيًا لا شك فيه.. أشار عليه "آدم" وقال:

أما هذا الصديق فيدعونه إنسان نبراسكا.. كل ما اكتُشف منه هو ضرس.. فقط ضرس واحد في ولاية نبراسكا.. كانوا يرون أن هذا الضرس هو ضرس قردي الشكل لكنه قريب جدًا بشكل مريب من ضروس الإنسان.. قالوا إذًا هذا ضرس لمخلوق ما بين القردة والإنسان.. ونُشر الاكتشاف في مجلة Science.. وأعطوا له اسمًا رنانًا لاتينيًا يشعرك بأهمية الموضوع.. وانتشرت رسومات تخيلية له ولزوجته.. وهي الرسومات التي استقينا منها هذا الهولوجرام.. مرت بضع سنوات وتم الكشف عن أجزاء أخرى من الكائن في نفس الموقع.. هذه الأجزاء كانت صادمة نوعًا ما لأنها كشفت عن أن هذا الضرس لم يكن يرجع لإنسان أو لقرد من القردة العليا أو حتى السفلى.. كان الضرس في الحقيقة ضرس خنزير.. خنزير بري منقرض.

وضع "آدم" عصاه على رأس إنسان نبراسكا فتحول إلى خنزير بري صغير غريب الشكل.. ثم إنه ركض خارج القاعة بسرعة مصدرًا صوتًا خنزيريًا.. نظر له

"آدم" نظرة خاوية ثم استمر في عمله.. المقرود الثالث كان على نفس شاكلة صاحبيه.. الفرق أن عينه كانت تعطي إيحاءً بأنه آسيوي.. إذًا هو إنسان آسيوي الملامح لكنه ذو فك كبير يجعل ملامحه قردية الشكل.. أشار عليه "آدم" وقال:

إنسان جافا.. لأن حفريته وجدت في جافا بإندونيسيا.. لأجل هذا تبدو ملامحه آسيوية.. كانت الحفرية عبارة عن جمجمة ناقصة وعظمة فخذ.. الجزء الموجود من الجمجمة حجمه أصغر من جمجمة الإنسان وأكبر من جمجمة القرد.. مما يعني مخلوقًا متوسطًا بينهما غالبًا.. لكن الفخذ هو فخذ إنساني بكامل مواصفاته.. تم القول بأن هذا هو الحلقة المفقودة بيننا وبين سلفنا القردي الأول.. ورسموا له رسومات تخيلية كثيرة تظهر كم هو بدائي وتظهر كم أن وجهه قردي الشكل وإنساني في نفس الوقت.. لكن المزيد من الجماجم اكتشفت من نفس الموقع في جزيرة جافا أثبتت لاحقًا أن هذا الكائن لم يكن أبدًا كائنًا متوسطًا.. إنما هو إنسان عادي قائم.. تحديدًا هو نوع من أنواع الإنسان العادي يسمونه "هومو إيريكتوس".. وهو نوع سنتحدث عنه لاحقًا.

ضرب "آدم بعصاه على رأس إنسان جافا فاختفت كل ملامحه القردية المزعومة وتحولت إلى ملامح إنسان عادي ذي ملامح كبيرة.. ووقف في مكانه يتحسس وجهه الجديد.. ثم أشار "آدم" إلى المقرود الرابع.. كان شكله شبهًا بصاحبه جدًا.. إلا أن هذا كانت ملامحه أكبر وعظامه أبرز.. وهناك شبه طابع آسيوي يطغى على ملامحه.. قال عنه "آدم":

هذا الصديق هو إنسان بكين.. في البداية اكتُشفت سِنٌ واحدة من أسنانه في بكين في الصين.. وتم اعتباره بناءً على هذه السن وحدها والمعلومات المستخرجة منها واحدًا من أنصاف البشر.. الأسلاف المقرودين عجيبي الشكل.. ولكن لاحقًا تم اكتشاف العديد من بقايا الجماجم والأدوات في نفس الموقع تثبت أن إنسان بكين إنما هو إنسان يتبع النوع الإنساني المسمى هومو إيريكتوس أيضًا والذي سأضطر لأنْ أتحدث عنه الآن.

ضرب "آدم" على رأس إنسان بكين فاختفت ملامحه القردية كلها وتحولت إلى ملامح بشرية عادية لكنها كبيرة... صار يشبه صاحبه إنسان جافا شبهًا كبيرًا.. نظر إليهما "آدم" وهما يقفان بعضهما بجانب بعض بعد تغير ملامحهما إلى بشر وقال:

هذان شخصان كما قلت يتبعان أحد أنواع البشر الذين يسمونهم هومو إيريكتوس.. ولكن مهلًا..

أصدر "آدم بشفتيه صفيرًا مميزًا وأشار بعصاه إلى جمهرة الكائنات المنتظمة فخرج من وسطهم فتى صغير أسمر ذو ملامح كبيرة نوعًا ما.. خرج من وسط الكائنات الانتقالية ووقف بين إنسان جافا وإنسان بكين.. نظر له "آدم" وقال:

هذا هو فتى توركانا.. أكثر حفرية كمالًا وُجدت من نوع الهومو إيريكتوس.. وُجد هيكله كاملًا وجمجمته كاملة.. وهو كما نرى يملك ملامح مميزة كبيرة مثل صاحبيه.. حسب نظرية التطور فهذا النوع هو نوع متوسط.. بين الإنسان الحديث الحالي وبين أسلاف البشر القدامى.. وحتى أُسهل الكلام أقول أن خط التطور البشري بالنسبة لهم حدث كالتالي: (سلف مجهول – أوسترالوبيثيكاس – هومو هابيليس – هومو إيريكتوس – نياندرتال – بشر عاديون).. احفظ هذه السلسلة جيدًا من الآن حتى لا تتوه في أحاديثنا هذه.

دار "آدم" حول الثلاثة.. إنسان جافا وبكين وتوركانا وهو يقول:

كل هؤلاء إيريكتوس.. قالوا عن الإيريكتوس أنه بدائي لأن جبهته عريضة متراجعة وحاجبيه بارزين وفكه كبيرًا.. لكن هذه المواصفات نفسها تنطبق على بعض البشر العاديين الذين يعيشون بيننا مثل سكان أستراليا الأصليين وسكان الإسكيمو والبوشمان وسكان جزيرة إليوت وشعب القوازق.. كل هؤلاء رؤوسهم مثل الإيريكتوس تمامًا.

قالوا أنه بدائي لأن حجم جمجمته صغير.. لكن الحقيقة أن البشر الحاليين بينهم تفاوت كبير في حجم الجمجمة.. فجماجمهم ما بين ٧٠٠ و٢٢٠٠ سم٣.. وكل حفريات الإيريكتوس بلا استثناء تقع في هذا المدى ليست أصغر منه.

ثم اكتُشفت لاحقًا أدوات ودلائل تثبت أن هذا النوع كان ذكيًا ولم يكن بدائيًا همجيًا.. فلقد وجدت لهم مثلًا أحافير في جزر منعزلة في اليونان.. هذه الجزر بعيدة داخل البحر والأدلة الجيولوجية تثبت أنها ظلت جزرًا منذ ملايين السنين.. ووجود الإيريكتوس في هذه الجزر يدل على أن هؤلاء الإيريكتوس قد عبروا إليها البحر الكبير بأعداد غزيرة بطريقة ما ذات يوم.. وهذا جعل العلماء يرجحون أنهم بنوا سفينة للعبور.. وبهذا يستحيل أن يكون الإيريكتوس بدائيين بأي حال.. بل هم أذكياء يبنون السفن.. إضافة إلى الكوخ الحجري المبني بعناية وإتقان والذي اكتشفه العلماء في Olduvai Gorge وقدروا عمره بـ ٢ مليون سنة، وهو كوخ لا يمكن أن يبنيه سوى إنسان ذكي يعرف تمامًا ما يفعل.. وُجد هذا الكوخ في زمن لم يكن فيه كما هو مفترض تطوريًا غير الهومو إيريكتوس.. وبالتالي

هو الذي بناه.. الخلاصة أن الإيريكتوس مواصفاته تقع ضمن مواصفات الإنسان العادي الذكي الحديث ولا يمكن اعتباره سلفًا همجيًا.

بإشارة من عصا "آدم" توجه الهومو إيريكتوس الثلاثة ووقفوا جانبًا وبدأوا يتصرفون بذكاء وإنسانية.. ثم نظر "آدم" إلى آخر واحد من الخمسة الأولين.. كان رجلًا عاديًا لكنه يبدو بمظهر بدائي.. جسد قوي جدًا عضلاته نامية.. شعر طويل.. لحية نامية.. عينان غبيتان حائرتان.. أشار له "آدم" وقال:

النياندرتال.. التطور الإنساني التالي بعد الإيريكتوس كما يقولون.. اعتبروا أن ذكاءه نصف ذكاء الإنسان العادي.. واعتبروه بدائي غير قادر على الإبداع مثل الإنسان العادي.. واعتبروا أنه لا يقدر على الكلام إلا بهمهمات مثل التي يتحدث بها القرود.. ثم اكتشفوا لاحقًا أنهم كانوا مخطئين.

المزيد من حفريات ومكتشفات النياندرتال أثبتت أنهم كانوا مجتمعًا متحضرًا.. يرسمون على جدران كهوفهم مثلهم مثل الإنسان العادي.. ويصطادون مثلهم مثل الإنسان العادي.. ويسمعون الموسيقى ويعزفون على آلات موسيقية خاصة.. وكانوا يدفنون موتاهم.. وكانوا يتزينون بالحلي.. وتجمعهم صِلات صداقة بالإنسان الحديث كما يسميه التطوريون.. والذي عاش في نفس الفترة معهم.. ثم اكتشف العلماء أن عظمة الـhyoid التي عندهم في الحنجرة تماثل الموجودة عند الإنسان العادي تمامًا.. وهي العظمة المسؤولة عن الكلام.. هذا دمر نظرية أنهم لا يتكلمون.. بل إنهم كانوا يتكلمون مثلهم مثل البشر العاديين.. أعاد بعض العلماء تصنيفهم فوضعوهم مع نوع الإنسان العادي الحديث.

أشار "آدم" بعصاه إلى النيندرتال فحلق له شعره حلقة حديثة.. ثم أشار إلى ذقنه فحلق الشعر النامي عليها.. ثم أشار إلى ملابسه فألبسه ملابسَ حديثةً أنيقةً وحذاءً أنيقًا.. ثم قال "آدم":

وها هو النياندرتال بعد تصحيح الاعتقادات الأولى عنه.. لا يميز ملامحه سوى الأنف الكبير نوعًا ما والشفتان الكبيرتان... والجسم القوي.. وهذه الصفات منتشرة في الإنسان الحديث بشكل رهيب.. ولو نزل هكذا وسط الشارع لن يلفت نظر أي أحد.

تنحى النياندرتال ووقف بجوار الثلاثة الإريكتوس السابقين فأصبح لدينا أربعة أشخاص عاديون بملامح كبيرة مثل الذين قد تراهم في أي مكان... حول "آدم" نظره عنهم كلهم وأشار إلى الخمسة التالين الذين كان شكلهم ممسوخًا نوعًا ما.. تقدم الخمسة قردين ووقفوا متجاورين.. أشار "آدم" إلى أولهم فتقدم

أو تقدمت على استحياء.. كان يبدو أنها أنثى من تشكيل جسدها.. شمبانزية لكنها تمشي كالإنسان منتصبة.. وكانت نحيلة نوعًا ما مقارنة بصورة الشمبانزي العادي الذي نتخيله.. قال "آدم":

هذه الأنثى اللطيفة تدعى لوسي.. وقد وجد أهل التطور في لوسي أفضل مرشح لتكون جدة الإنسان والشمبانزي.. لأن فيها كما قالوا مزيجًا من صفات البشر والشمبانزي.. أهم هذه الصفات هي أنها تمشي منتصبة وليست منحنية مثل باقي الشمبانزي.. فوضعوها ضمن جنس منفصل من الكائنات سموه "أوسترالوبيثيكاس".. وهو أول تطور بعد سلف الإنسان المجهول.. سماها مكتشفوها باسم لوسي لأنهم لمَّا اكتشفوها وعرفوا أنها أنثى كانوا وقتها يستمعون أغنية "لوسي في السماء مع الألماس" لفرقة البيتلز.. دعكم من هذا.

الحقيقة التي اكتُشفت بعد ذلك بالأبحاث المستمرة على لوسي أثبتت أنها لا يمكن أن تمشي منتصبة أبدًا.. لأن جميع صفاتها التشريحية منطبقة على صفات الشمبانزيات وليس على صفات الإنسان.. فجمجمتها مثل جمجمة الشمبانزي تمامًا.. يكفي أن ترى صورة واحدة لجمجمة لوسي لتعرف هذا.. لا يوجد أي فرق بين رأسها ورأس أي شمبانزي.. عظمة الإصبع التي وُجدت كاملة في أحد أحافير الأوسترالوبيثيكاس أظهرت إصبعًا مثنيًا كأصابع الشمبانزي.. ذلك الانثناء الذي يساعد الشمبانزي على التسلق والتعلق بالأشجار.. أرجلها قادرة على القبض على الأشياء مثل أرجل الشمبانزي.. عظمة الـhyoid عندها هي مثل الموجودة عند الشمبانزي تمامًا.. أي أنها تهمهم مثل الشمبانزي.. وأسنانها تدل على أنها من آكلي النبات مثل الشمبانزي.

تكوين الأذن الداخلية لها مثل الشمبانزي تمامًا.. مما يدل على أن توازنها أثناء المشي يكون انحناءً مثل الشمبانزي وليس انتصابًا مثل البشر.. هذا يعني أنها تمشي مشية الشمبانزي المعروفة عندما يمشي على قدمين ويسند بمفاصل ظهر يده على الأرض.. كل شيء يدل على أنها تمشي هكذا.. أرجلها قصيرة ويدها طويلة.. عظام الرسغ مثل عظام الرسغ لكل الماشين منحنين على مفاصلهم.. عندما أراد داعمو التطور ترقيع هذه الاكتشافات قالوا أن لوسي تمشي منتصبة وفي نفس الوقت تنحني عندما تحب أن تتسلق الأشجار.. وفي النهاية أزيحت لوسي هي وجنس الأوسترالوبيثيكاس من كونها سلف الإنسان والشمبانزي وأصبح هذا السلف المزعوم مجهولًا لا أحد يدري من هو.

رفع "آدم" عصاه على لوسي ففقدت قدرتها على الوقوف منتصبة وانحنت على الأرض مثل الشمبانزي وأخذت تتقافز في مكانها وتحركت ماشية بأرجلها مستندة على مفاصل يدها وأصدرت صوت همهمة الشمبانزيات المعروفة.. نظرنا تلقائيًا إلى الكائن التالي.. شكله قردي بامتياز لكنه واقف منتصب قليلًا ووجهه فيه كثير من اللمحات الإنسانية.. كأنه قرد في ملامح إنسان.. كان عجيبًا حقًا.. قال "آدم":

لن أتوقف عند هذا الصديق طويلًا فهو يدعى زنج Zinj.. لمَّا اكتشف أول مرة قيل عنه كالعادة أنه هو السلف المنتظر.. الحلقة المفقودة.. وانتشرت له ثلاث رسمات مختلفة لثلاثة تصورات تخيلية له.. كلها تصوره في هيئة بشرية.. والهولوجرام هنا رسم لنا أحد هذه التصورات.. الدراسات فيما بعد أثبتت أنه لا علاقة له بالإنسان وإنما هو قرد عادي من القردة العليا المنقرضة.. ولا يمكنه أن يكون الحلقة المفقودة لأنه تم اكتشاف بشر أقدم منه.. فتمت إزاحته تمامًا من كونه حلقة مفقودة.. إن داعمي التطور حتى الآن غير موفقين في إيجاد الدلائل على افتراضاتهم.. إنما هم بارعون في شيءٍ واحد.. البروباجاندا.. فقط.

وبضربة من عصا "آدم" على "زنج" اختفت ملامحه الإنسانية تمامًا وانحنى وزال انتصابه وأصبح قردًا عاديًا جدًا وتحرك جانبًا ليقف بجانب القردة لوسي.. نظرنا إلى الثالث.. كان منتصبا قليلًا ذا رأس دائري وملامح قردية كاملة وجسد أنثوي.. قال "آدم":

أعرفكم هذه المرة بالقردة شيفا Shiva.. ولن نتوقف عندها طويلًا أيضًا.. كانوا يعتقدون أنها هي سلف الإنسان المباشر.. تيمة الحلقة المفقودة كالعادة.. البروباجاندا كالعادة.. ما حصل هذه المرة هو أن الدراسات كشفت أن شيفا لا علاقة لها بالإنسان ولا بأسلاف الإنسان.. إنما هي قردة من أسلاف قردة الأورانج أوتانج البرتقالية الكبيرة وتمت إعادة تصنيفها إلى تلك الفئة.

مرة أخرى ضرب "آدم" بالعصا.. فلم تعد شيفا منتصبة كما كانت وإنما صارت منحنية تمشي على أربع مثل الأورانج أوتان ووقفت بجوار صاحبها زنج ولوسي.. تنهد "آدم" تنهيدة عميقة ثم أكمل ناظرًا إلى الرابع.. كان قردًا كبيرًا منتصبًا ذا نظرات حادة.. قال "آدم":

أوشكنا على الانتهاء الآن.. لدينا هذا القرد الكبير.. الهومو هابيليس.. التطور التالي بعد الأوسترالوبيثيكاس.. وعليه جدل كبير.. البعض يصنفه تصنيفًا مستقلًا هو الهومو هابيليس.. والبعض الآخر يصنفه ضمن الأوسترالوبيثيكاس وهو

الأرجح.. لأن كل صفاته موجودة ضمن المدى الخاص بجنس الأوسترالوبيثيكاس.. سواء حجم الجمجمة أو تركيب قنوات الأذن الداخلية أو الأذرع الطويلة والأرجل القصيرة أو تركيب الفك أو تركيب الأصابع.. كل هذا واقع في مدى الأوسترالوبيثيكاس تمامًا... يعني هذا أن الهابيليس تصنيف خاطئ مقترح إلغاؤه لأن كل حفرياته إما تتبع الأوسترالوبيثيكاس أو أنها تتبع الهومو إيريكتوس.

وإنما ظهر كتصنيف مستقل أول مرة لأن هناك أصواتًا كثيرة كانت قد بدأت تعارض محاولة إضافة الصفات الإنسانية على قرد الأوسترالوبيثيكاس.. وأصواتًا أخرى تعارض محاولة إضافة الصفات القردية على إنسان الهومو إيريكتوس.. فكان هناك حاجة لإيجاد تصنيف مستقل وكائن جديد بينهما.. لهذا أخرجوا لنا الهابيليس.. ولكن يبدو أن هذا الهابيليس الجديد لم يعجب الكثير من العلماء من داعمي التطور أنفسهم.

ضربه "آدم" على رأسه ضربة خفيفة تحول بعدها إلى قرد ذكر تكوينه شبيه بلوسي وذهب ليقف بجانبها هي وأصدقائها.. ثم نظر إلى الكائن الأخير الذي كان وحده ليس بجانبه أحد.. نظر حوله ثم نظر لآدم بطريقة مضحكة.. كان شكله عجيبًا نوعًا ما.. كأنه قرد حليق الوجه ليس في وجهه أي شعر.. إلا في ذقنه النامية.. وكان فكه ورأسه صغيرين.. قال "آدم":

هذا هو آخر حفرية لدينا باقية من أسلاف الإنسان المزعومين.. اسمه هومو رودولفينسيس.. تم رسم رسمة له بالكمبيوتر يبدو فها وجهه إنسانيًا.. ولكن بعد اكتشاف المزيد من العظام له تمت إعادة الرسمة مرة أخرى ليصبح الفك بارزًا كالقرد.. وأصبح عليه جدل شديد.. أهو يتبع الهابيليس.. أم يتبع الأوسترالوبيثيكاس؟ والأرجح بعد مطالعة جميع الدراسات أنه يتبع الأوسترالوبيثيكاس.. بالنظر إلى حجم جمجمته الصغير وفكه البارز والمساحة الداخلية المتاحة للأسنان.. هذه الصفات لا تجعله يخرج من دائرة الأوسترالوبيثيكاس خصوصًا وأن الراجح أن الهابيليس والأوسترالوبيثيكاس شيء واحد أصلًا.. فكلهم في النهاية قرود أوسترالوبيثيكاس.

أشار له "آدم" إشارة آمرة فتحرك وذهب ليقف جوار لوسي وأصحابها.. قال "آدم"

والآن كما نرى لدينا جنسان مختلفان.. جنس بشري وجنس قردي.. الجنس البشري فيه الهومو إيريكتوس والنياندرتال والبشر العاديون.. وها هم يقفون

هناك متمثلين في إنسان جافا وإنسان بكين وفتى توركانا ونياندرتال ونحن البشر.. وكلهم في الحقيقة بشر والاختلافات التي بينهم لا تعدو الاختلافات بين البشر العاديين بسبب اختلاف بيئاتهم وأعراقهم وأجناسهم.. وكل المسجات القردية التي أعطيت لهم تم إثبات خطئها.. الجنس الآخر الذين يقفون هناك مقابلهم هم الجنس القردي.. منهم ثلاثة يتبعون الأوسترالوبيثيكاس هم لوسي والهابيليس والرودولفينسيس.. واثنان يتبعون القرود العادية هم زينج وشيفا.. وكل الخمسة تم إثبات أنه ليست لدى أي أحد منهم أية مسحة بشرية.. سواء في الشكل أو في المشية المنتصبة على قدمين.. فهذا جنس بشري.. وذاك جنس قرود.. ولا يوجد أي جنس في المنتصف بين الجنسين.. ولا يوجد أي إثبات أن أي جنس من هؤلاء أو هؤلاء له أي علاقة بالجنس الآخر أو أن أحدهم قد تطور من الآخر.

قال "آدم":

أيضًا هناك عدة إثباتات أخرى تلغي أي بواقي شك في خطأ سيناريو تطور الإنسان.. أولًا هناك هوة واسعة جدًا في الزمن بين الهومو إيريكتوس وكل من كان قبله من الهابيليس والأوسترالوبيثيكاس.. يعني هناك هوة واسعة من الزمن بين جنس القرود وجنس الإنسان.. هوة تثبت أن الإنسان قد ظهر في السجل الأحفوري فجأةً ولم يتطور من أي شيء كما يدعي التطور.

ثانيًا اكتشف حديثًا أن الهومو إيريكتوس كان يعيش مع النياندرتال مع البشر العاديين جنبًا إلى جنب.. وهذا يصعب تخيل أن أحدهم تطور من الآخر.

ثالثًا وُجد ما قلب خط التطور هذا رأسًا على عقب.. فقد وجدت دلائل على وجود بشر عاديين كانوا يعيشون أيام الأوسترالوبيثيكاس.. فأهل التطور يقولون أن الأوسترالوبيثيكاس عمره ٤ ملايين عام.. بينما وجدت آثار أقدام بشر عاديين واضحة جدًا في Letoli عمرها ٤ ملايين سنة أيضًا.. ٢٠ أثر لشخص في العاشرة و٢٧ أثر لشخص أصغر عمرًا.. آثار أقدام لا تُحدثها سوى أقدام بشر مقوسة ليس أقدام قرود مسطحة.. والأوسترالوبيثيكاس بالنظر إلى عظامه تجد قدمه مسطحة مثل القرود العادية.. هذا يدل على أن البشر العاديين كانوا يعيشون مع الأوسترالوبيثيكاس.

اكتشفوا أيضًا أن الهابيليس كانوا يعيشون مع الإيريكتوس في كينيا لأكثر من نصف مليون عام.. فمثلما يعيش البشر الحاليون مع القرود والشمبانزي.. كان البشر القدامى يعيشون مع القرود القدامى.. لم يتطور أحد منهم من أحد كما يحاولون أن يصدروا لنا طيلة الوقت.

قال "آدم" بلهجة من يختم هذه النقطة:

أخيرًا أقول إن المشي على قدمين ليس ميزة تطورية.. بالعكس.. المشي كالقرد أفضل وأسرع وأدعى للتعلق بالأشجار.. فلن يقدم الانتصاب مزيدًا من السرعة ولا مزيدًا من الأمان.. بالعكس.. وبالتالي لم يكن من المفترض أن يتطور القرد فيمشي على رجلين.. بل كان الأدعى أن يتطور الإنسان ليمشي على أربع..

ما الحاجة التطورية لأنْ يقف الإنسان قائمًا ويكون عرضة أكثر للفرائس هكذا؟ الانحناء الإجباري هذا كان يوفر له الاختباء في الغابات.

وأثبتت الدراسات أنه تبعًا لاستهلاك الطاقة يستحيل أن يمشي أي كائن في العالم مشية مركبة من قدمين وأربع أقدام.. إما أن يمشي مستقيمًا وإما أن يمشي على أربع.. لكن المشية المزدوجة المفترضة المتخيلة هذه لا أساس لها من الصحة.

ثم إنه ما الميزة التطورية في أن يفقد القرد فراءه ويتعرى هكذا؟ كان الفراء على الأقل يحميه من البرد ويجعله مرتاحًا إلى أقصى حد.. لكن الإنسان عارٍ محتاج إلى الملابس دائمًا.. ما الحاجة التطورية للعري؟ وما الحاجة التطورية للكلام؟ القرود بأنواعها كانت تهمهم مثلها مثل الحيوانات.. لماذا صارت فجأةً إنسانًا يتكلم؟

ما الحاجة التطورية لكل هذا الذكاء الخارق الذي عند البشر؟ إن ما يملكه الإنسان من ذكاء يتجاوز كثيرًا مهامه الوظيفية الحالية.. القول بأن الذكاء الإنساني الواعي قد تدرج من أعماق الهيمية هو قول لا يقوم على أي دليل.

إجاباتهم كلها هي دائمًا افتراضات لا يقوم بها علم حقيقي.. إن القردة كانت قوية كفاية لتعيش وتحكم الأرض بكفاءة عالية ولم يكن هناك داعٍ بيئي أو ظروف تجبرها على التحول إلى إنسان.

ثم قال:

هم دائمًا يغضبون عندما تقول لهم أن نظرية التطور تقول أن الإنسان أصله قرد.. ويقولون أن هذا خطأ.. ويصححون لك قائلين بل الإنسان والشمبانزي والقرد لهم سلف مشترك واحد.. وما هو هذا السلف المشترك الواحد؟ هو كائن ما قردي الشكل قبل الأوسترالوبيثيكاس.. يعني في النهاية بعد هذه الفلسفة تقول النظرية أن الإنسان أصله قرد.. لكن هذا القرد السلف سيكون له اسم علمي ولا يصح أن نسميه قردًا.. إنما هو في الحقيقة أدنى من القرد.. يعني عندما كنا نقول أنه قرد كان أشرف له.

بالنسبة للتطوريين فحكاية السلف المشترك هذه.. تجعل بإمكانهم أن يرفضوا أي صفة من الصفات التي لا تتماشى مع السياق العام للتطور فيقولون لك أنها دليل على أن الكائنين لهما سلف مشترك.. وعندما تسأله ما هو هذا السلف المشترك؟ يقول لك مجهول لا نعلمه.. هكذا يهربون من كل الأسئلة.. أختم القول بالخلاصة أن هذا الإنسان القرد أو القرد الإنسان بكل تلك الرسومات والأفلام المصنوعة له هو مجرد خيال بحت لا دليل دامغ عليه حتى من الأحافير نفسها.

و بإشارة من يد "آدم" تحول القرود والبشر القدامى هؤلاء إلى تراب.. ورفع يده الأخرى مشيرًا إلى جمع الكائنات المنتظمة حتى خرج من بينها أربعة طيور عجيبة الشكل.. تشعر عندما تراها أنها طيور أسطورية.. ذهبت لتطير حول آدم في حركة دائرية.. ثم أشار "آدم" بعصاه فهبط كل طائر هبوطًا مريحًا في موضعه.

رفع "آدم" يده بإشارة إلى واحد منهم.. طائر عجيب رأسه أحمر وجناحاه كبيران عظيمان يبرز من كل جناح منهما يد طائرية ذات ثلاثة أصابع فلا تدري أهذه يد أم أنه جناح أم أنها يد مجنحة.. وكان يفتح منقاره الكبير ذا الأسنان بصوت مميز لم تسمعه من قبل.. قال "آدم":

دعونا من القرود قليلًا ودعوني أقدم لكم الأعجوبة.. الأركيورابتور.. الدليل الذي أثار ضجة حقيقية عند اكتشافه.. الدليل الدامغ على أن الطيور قد تطورت من الزواحف.. كما نرى.. هذا الذي يغطي جسده هو ريش متشكل على شكل دائري مثل الحراشف.. يعني كأنه حراشف تطورت إلى ريش.. وكما يبدو فهو لم يفقد يديه اللتان كانتا لديه أيام كان زاحفًا.. إنما هما فيما يبدو قد تحولا إلى يد طير وخرجت لهما أجنحة.. المشكلة أن هذا الكائن الأعجوبة الذي ظل أعجوبة لمدة سنة أو أكثر.. وكان على غلاف مجلة ناشيونال جيوجرافيك، لم يصمد في النهاية.. تم اكتشاف أنه مزور.. مُصنَّع في الصين من عدة أحافير لُصقت معًا بمهارة وأضيفت إليها بعض التأثيرات الأحفورية المقنعة.. ثم بيعت إلى مشتريها في أمريكا.. كانت هذه بداية تجارة الأحافير في الصين.. والتي لا تزال قائمة إلى اليوم.. وهي مفيدة لأن المجلات العلمية الشهيرة لم تكن تفحص الحفريات قبل عرضها.. وتُعطي اسمك كمكتشفٍ شهرة لا بأس بها.. لكن الأركيورابتور قد أصبح فضيحة عالمية كبيرة بعد أن انكشف ستره.

تحول الأركيورابتور إلى تراب بضربة من عصا "آدم".. ثم أشار إلى الطير التالي.. نظرنا مليًا إلى هذا الطير الجديد.. إنه شهير جدًا لأي متابع لموضوعات

التطور.. كان منظره أسطوري جدًا يليق بشهرته.. جناحان أسطوريان كبيران ملونان ومنقار مخيف ذو أسنان ورجلان طويلتان وذيل طويل عريض يزينه الريش.. أشار له "آدم" وقال:

الأركيوبتركس.. الطائر الأسطوري القديم الذي عاش مع الديناصورات.. الشيء الأساسي الذي جعلهم يقولون عنه أنه ليس طيرًا بل هو ديناصور في طريقه للتحول إلى طير هو أنهم لم يجدوا فيه عظمة القص التي هي صفة مميزة لكل الطيور.. لكن في الأحفوزة السابعة له ثبت وجود هذه العظمة.

فتحولوا إلى شيء آخر.. نظروا إلى مخالبه الطويلة وقالوا أنها دليل على أنه ليس طيرًا كاملًا.. مع أنه لدينا طيور عادية في زمننا اليوم لديها مخالب تستخدمها للتعلق بالأشجار مثل طائر الهواتزن Hoatzin.. فسقط هذا الادّعاء.

ثم نظروا بعد ذلك إلى الأسنان وقالوا أنها دليل على أنه زاحف وليس طيرًا ولكن الحقيقة أن هناك طيورًا منقرضة كاملة لا شك في كونها طيورًا كانت لديها أسنان مثل اللياونينجورس Liaoningorins.. كما أن الأسنان ليست صفة أساسية في الزواحف.. فهناك زواحف كثيرة جدًا ليست لديها أسنان... فكيف تكون الأسنان دليلًا على زاحفية الكائن وهناك زواحف أصلًا لا أسنان لها؟ فسقط هذا الادّعاء أيضًا.

ثم وجد في أحد أحافير الأركيوبتركس دليل على أنه يمتلك رئة طير.. وهذه لا توجد إلا عند الطيور فقط.. إضافة إلى صفاته الطيرية الأخرى مثل الجناح الكامل والريش وعظمة الترقوة التي ترتبط بها العضلات القوية الخاصة بالأجنحة.. والتركيب التشريحي العام الذي يماثل تركيب الطيور تمامًا.

وبغض النظر عن هذا فقد وجدت بعد ذلك دلائل أخرى جعلت البعض يصرف النظر تمامًا عن الأركيوبتركس.. أبرز هذه الدلائل هو وجود جنس كامل من الطيور يدعى الProtoavis أقدم من الأركيوبتركس بعشرات ملايين السنين ولديهم صفات طيرية أكثر منه.. كيف يكون انتقاليًا بين الزواحف والطيور وهناك طيور عادية أقدم منه.. أيضًا لدينا طير الCaudipteryx الذي وجد قبل الأركيوبتركس وفيه صفات طيرية أكثر منه أيضًا.. وهناك الطائر الكامل الذي لا شك فيه.. الXiaotingial المكتشف في الصين وهو أقدم من الأركيوبتركس أو في أحسن الأحوال يماثله عمرًا.. وهذا يلغي فكرة أن الأركيوبتركس هو المرحلة الانتقالية بين الزواحف والطيور فهناك طيور أقدم منه وهناك طير كامل يماثله عمرًا.

وأخيرًا تم اكتشاف آثار أقدام طيور لا شك فيها على طبقة صخرية أقدم من الأركيوبتركس بـ٥٥ مليون سنة بمقياس التطوريين.. حاولوا أن يقولوا أنها آثار ديناصورات لكنهم لم يجدوا أية ديناصورات تعيش في تلك الفترة لها أقدام تصلح لعمل هذه الآثار.

حرك "آدم عصاه" في إشارة للأركيوبتركس أن يتحرك.. فتحرك ووقف غير بعيد.. ثم نظرنا إلى التالي بملل.. لدينا مخلوق عجيب آخر.. ديناصور صغير ذو ذيل طويل جدًا.. جسمه ليس مغطى بالحراشف مثل الديناصورات العادية بل بشيء يشبه الفراء وفمه مثل الديناصورات العادية لكنه يقترب من هيئة المنقار.. قال "آدم":

مرة أخرى أقدم لكم من الصين.. السيناصوروبترکس.. في أحفورته وجدوا أليافًا رفيعة خارجة من عظام عنقه وذيله الطويل.. وبشكل من الأشكال تخيلوا أن هذه الألياف هي بدايات ريش.. ولكن الدراسات اللاحقة أثبتت أن هذه الألياف لا علاقة لها بالريش إنما هي ألياف كولاجين وأنها موجودة في بعض أحافير الديناصورات العادية مثل البيتاكوصور.. إذًا فهي ألياف في النهاية وليست ريشًا.. ثم سكت أهل التطور عن هذا السيناصور لما اكتشفوا الأركيوبترکس الذي عاش قبله بـ٢٥ مليون سنة ويمثل أول تحول لزاحف إلى طير في رأيهم.

أشار له "آدم" بعصاه فتحول فراؤه أو ريشه البدائي إلى حراشف عادية فأصبح ديناصورًا عاديًا.. واتخذ جانبًا مع الأركيوبترکس.. ثم استدار "آدم" إلى الطير الأخير.. كان هذا عجيبًا بحق.. يمتلك أربعة أجنحة.. جناحان عاديان وجناحان آخران على قدميه الطويلتين الشبيهتين بأرجل الزواحف.. وذيل طويل مثل الطاووس.. قال عنه "آدم":

هذا هو الأعجوبة الأخيرة.. المايكرورابتور.. فبرغم أن جسده مغطى بالريش بكامله وله جناحان أماميان كبيران وحوضه مثل حوض الطيور العادية.. فإن قدميه عليهما أجنحة وفيهما مخالب قاتلة تشبه مخالب الديناصورات.. اعتبره أهل التطور ديناصورًا في طريقه للتطور إلى طير.. بغض النظر عن أن حفريات هذا الكائن كلها آتية من الصين ومن نفس المقاطعة التي جاءت منها أحفورة الأركيورابتور المزيفة وأن بعض العلماء ما زالوا يشكون فيها.. إلا أنه وإن كان حقيقيًا بالفعل فالمخالب التي في قدمه لا تعتبر دليلًا على شيء.. فهناك طير عادي يعيش بيننا اليوم ويملك هذه المخالب اسمه طائر الشبنم وهو خطر جدًا ويلقبونه بالطير الديناصور.. أيضًا مشكلة المايكرورابتور أنه ظهر بمقياس التطوريين بعد ٢٥ مليون سنة من الأركيوبترکس.

تحرك المايكرورابتور من نفسه إلى الجانب ليقف مع صاحبيه.. نظر لهم "آدم" وقال:

الخلاصة أنه ليس لدينا أي دليل دامغ على تطور الزواحف إلى طيور.. كل الأدلة التي يقولون أنها أدلة تم دحضها وإثبات عكسها.. بغض النظر عن هذا.. لو نظرت تحت الميكروسكوب إلى الحراشف ثم نظرت إلى الريش.. ستجد اختلافًا رهيبًا في كل شيء ولن تجد تشابهًا في أي شيء.. اللهم إلا أن كلًا منهما يتكون من بروتين واحد هو الكيراتين.. لكن تذكر أن الكيراتين هو البروتين الذي تتكون منه شعورنا وأظافرنا نحن البشر.. كما أن نوع الكيراتين الذي تتكون منه الحراشف مختلف عن نوع الكيراتين الذي يتكون منه الريش.. ولو كان هناك شيء أدعى أن يتحول إلى طير لكان هذا مثلًا..

خرجت فجأة من بين الكائنات سمكة طائرة بالمعنى الحرفي للكلمة.. سمكة لها جناحان كاملان.. أخذت تحوم حول القاعة.. أشار إليها "آدم":

هذه سمكة تطير.. وهي تعيش اليوم بيننا.. وهي ليست سمكة واحدة بالمناسبة.. بل عائلة كاملة من الأسماك تدعى Exocoeitidae.. وهي عائلة كبيرة فيها سبعة أجناس.. و٦٤ نوع.. كلهم يطيرون.. وبأجنحة كاملة مثلما ترون.. وأحافيرها ظلت كما هي منذ قديم الزمان لم تتطور من أي شيء ولا إلى أي شيء.. إن أجنحة هذه العائلة من الأسماك تدعوني للتساؤل أيضًا عن الحشرات الطائرة.. من أين أتت أجنحة تلك الحشرات؟ من أين تطورت أجنحة الذبابة؟ بل من أين أتت الذبابة نفسها؟ لن تجد إجابة أبدًا.. وهناك شيء أخير.. الزواحف لو أرادت أن تتطور لتطير مثلًا.. لم تكن تحتاج لتخلق تركيبات معقدة جديدة مثل الريش.. البتروصور مثلًا هو ديناصور طائر ومعروف ومميز جدًا.. يطير بالأغشية الرقيقة بين أصابعه.. وفي الثدييات من يفعل هذا بكفاءة مثل الخفاش والسنجاب الطائر.. ما الحاجة لبزوغ تشكيلات معقدة وجميلة وملونة مثل الريش للطيران بها؟

نظر "آدم" إلى الموجودين فوجدهم صامتين تمامًا.. لا يدري هل هو صمت إحباط بعضهم أم ماذا.. ولكن كان عليه أن يكمل على أية حال.. قال "آدم":

أرى شبح الملل قد زاركم اليوم.. لا تقلقوا لم يعد هناك الكثير من الكائنات الانتقالية.. فقد سقطت الكائنات التي عرضوها لتطور الإنسان وسقطت مثلها تلك التي عرضوها لتطور الطيور.. والآن بقيت أشهر ثلاثة تطورات.. تطور الأسماك إلى برمائيات.. وتطور الحوت.. وتطور الحصان.

أشار "آدم" إلى سمكة عجيبة الشكل فجاءت له تسعى في الهواء.. كانت أسطورية الشكل كبيرة جدًا.. تعطيك شعورًا بأنها سمكة عجوز متوحشة.. الغريب أنه كان لديها أقدام أسفل منها.. قال "آدم":

أعرفكم بسيدتنا العجوز.. الكوالاكانث.. هل أعجبتكم أقدامها؟ لقد قالوا أن عمرها ٧٠ مليون سنة.. وقالوا أن عندها رئة.. وقالوا أنها تعيش قرب سطح الماء وتخرج إلى الشاطئ تتمشي.. وتقدر على التنفس سواء تحت الماء أو على اليابسة.. وقالوا أنها الحلقة التطورية بين الأسماك والبرمائيات.. وظلوا على هذه الحال ما يقرب من مائة سنة كاملة.. حتى حدثت الصدمة.

اصطاد أحد الصيادين من أعماق المحيط الهادي سمكة الكوالاكانث.. التي يفترض أنها انقرضت منذ ٧٠ مليون سنة.. قال أحد العلماء أنه لو قابل ديناصورًا يمشي في الشارع لما كانت دهشته أكثر من دهشته الآن.. نظر العلماء في السمكة الحية إلى ما قال عنه التطوريون في الأحافير أنه أقدام فوجدوا أنها زعانف عادية.. ونظروا إلى ما قال التطوريون عنه أنه رئة فوجدوه مثانة هوائية مملوءة بالدهون.. ووجدوا أنها لا تعيش إلا في أعماق البحار والمحيطات وليس قرب سطح الماء كما قال التطوريون ليقنعوا الناس أنها سمكة في طريق تطورها إلى حيوان برمائي.. وتوالت وقائع صيد الكوالاكانث حتى صيد منها أكثر من ٢٠٠ سمكة أو أكثر.. ثم اكتشفت المزيد من أحافيرها القديمة وقدر عمرها بحوالي ٤٠٠ مليون سنة وليس ٧٠ مليون كما كان مقدرًا سابقًا.. ٤٠٠ مليون سنة والسمكة كما هي حتى اليوم لم يزد شيء فيها ولم ينقص.

وهناك كثير من الكائنات غيرها اكتُشفت لها أحافير قديمة جدًا جدًا وهي تعيش بيننا اليوم بنفس حالها من عشرات ملايين السنين.. سموها الأحافير الحيةLiving Fossils.. وعددها كبير جدًا.. منها ما هو شهير مثل البجع بجميع أنواعه ومعظم أنواع القروش الشهيرة.. نجدهم كلهم كما هم منذ ملايين السنين لم تتغير فهم شعرة.

ثم قال "آدم":

من سخرية القدر أنه تم اكتشاف سمكة تعيش الآن في عصرنا الحالي لها نفس المواصفات التخيلية التي رسموها سابقًا للكوالاكانث.. تلك المواصفات التي كانت جديرة بالرسوم المتحركة.. سمكة لها أقدام تجري بهما على الشاطئ.. وُجدت فعلًا في الواقع.. سمكة الـMudskipper أو نطاط الطين.. عائلة كاملة من الأسماك تعيش قرب سطح الماء وزعانفها السفلية متحورة لتمشي بها على

الشاطئ.. مخلوق يتنفس في البر وفي البحر عن طريق تكوينات خاصة في جلده.. عيناه ترى في البر كما ترى في البحر.. لا توجد أحافير تقول أن نطاط الطين هذا قد تطور من أو إلى أي شيء.. كل ما لدينا يقول أن نطاط الطين عبر ملايين السنين أنتج المزيد من نطاطي الطين.. لماذا لم يتحول إلى حيوان يمشي على أربع؟

هناك أيضًا لدينا عائلة من الأسماك تدعى الـHandfish.. وهي أسماك زعانفها الأمامية تبدو على شكل يد تمشي بها على أرضية البحر.. لكن دعوني أخبركم بالمفاجأة الحقيقية.. نوع من الأسماك يدعى الـAxolotl.. هذه أسماك وجوهها مبتسمة وزعانفها الأمامية متحورة على شكل يد لكنها حين تريد أن تصعد إلى الشاطيء، تجد خياشيمها قد غاصت داخل جسدها وكبرت رئتها البدائية داخل صدرها وقويت وصارت فاعلة لتنفس الهواء وتحور ذيلها فجأةً ليصبح مثل ذيل حيوان السلمندر.. كل هذه التحورات تحدث في لحظات مثل أفلام المتحولين.. وتخرج بها إلى اليابسة وتعيش أسابيع طويلة على اليابسة لو أرادت.. كل هذا مبرمج في جيناتها.. لا علاقة للموضوع بالطفرات التي تستغرق ملايين السنين لتحدث ولا بأي خرافة أخرى تحاول أن تتخذ شكلًا علميًا.. ولا أي تطور يحدث من كائن إلى كائن.. إن تنوعات الكائنات الحية التي تكتشف لا حد لها ولغرابتها.. وهي تضع التطور في مأزق شديد جدًا دائمًا.

لدينا أيضًا أسماك الجوبي اليابانية.. Gobby.. في أسراب هذه الأسماك أنثى واحدة.. لو أخذتها بعيدًا.. سيتحول أحد الذكور إلى أنثى كاملة.. ليلقحها بقية الذكور.. فإذا أعدنا الأنثى التي أخذناها لهم.. تعود الأنثى الجديدة إلى ذكوريتها.. هل هناك أعجب من هذا؟ ذكر يتحول إلى أنثى.. في لحظات.. وكل هذا مبرمج في جيناته.

تحولت الكوالاكانث إلى تراب بإشارة من "آدم".. الذي رفع عصاه إلى الكائنات فتقدم منها أربعة يمثلون تطور الحوت.. كانوا يمشون ويعوم بعضهم وراء بعض بطريقة يبدو لك حين تراها أنهم حقًا متدرجين ومتطورين بعضهم عن بعض.. كان آخرهم حوتًا لكنه مصغر طبعًا حتى يتحمله حجم المكان قال "آدم":

المثال الجميل كما يسمونه.. تطور الحوت.. فالتطوريون لم يكتفوا بفشلهم في تفسير خروج الأسماك وتحولها إلى برمائيات وإنما اضطرهم الأمر عندما رأوا الحوت أن يقولوا بالتطور الخرافي في الاتجاه المعاكس أيضًا.. وكأن تحول الحيوانات بعضها إلى بعض هو نزهة.. يقولون أن هذا الحوت الضخم الذي صغرناه كثيرًا جدًا جدًا حتى يتحمله حجم القاعة بينما حجمه الحقيقي يتجاوز

حجم هذه القاعة كلها بعشرين مرة على الأقل.. يقولون أن كل هذا الكائن الضخم العظيم الكبير قد أتى من هذا الحيوان الصغير الذي يقف هناك والذي هو في حجم الكلب.. ادّعاء واسع كما نرى.. ولنضعه في ميزان العلم لربما ينجح في إقناعنا.

أشار "آدم" للكائن الأول والذي كان في حجم الكلب فعلًا.. له رأس طويل وأسنان متوحشة.. ورغم أنه في حجم الكلب فإنه كان يسبح بأقدام لا تدري هل هي أقدام عادية أم أنها متحورة للسباحة.. قال "آدم":

الباكيسيتوس.. أو الحوت الباكستاني.. وُجد منه فقط أجزاء من جمجمة.. ومنها رسموا كل تفاصيل جسده الأخرى التي نراها أمامنا واعتبروه كائنًا سابحًا في الماء واعتبروه سلفًا للحيتان.. فقط لأجل رأسه الطويل وشكل أذنه الذي يوحي أنها تقترب من أذن الحوت.. لاحقًا تراجعوا عن تصورهم هذا لما اكتشفوا أجزاءً أخرى من هيكل الكائن.. تبين لهم أنه حيوان بري عادي يشبه الذئب.. ولا علاقة له بالبحر من قريب أو من بعيد.. وأن أذنه الداخلية ليست مثل الحوت بل هي أقرب شيء لآذان ذوات الحوافر.

تحول الكائن إلى حيوان يشبه الذئب المتوحش.. نظر"آدم" إلى التالي الذي كان يبدو أقرب إلى "سيد قشطة" من أي شيء آخر.. لكن أقدامه تحمل في نهايتها ما يشبه الزعانف.. وقال:

الأمبلوسيتوس.. بضع عظام قليلة مكتشفة رسموا منها أعاجيب.. أعاجيب تعطيك إيحاءً أنه يعيش في البر والبحر معًا.. ولكن كالعادة هم يعتمدون على خيالهم الواسع وليس على الأدلة الأحفورية الثابتة.. إنهم يبنون رسومات كاملة جميلة دائمًا بناء على أجزاء صغيرة مكتشفة فقط.. مثلًا نجدهم رسموا له غشاء بين الأصابع.. والغشاء نسيج.. والأنسجة لا تظهر في الأحافير أصلًا.. فما هو إلا تخيل في أدمغتهم لا أصل له.. لكنه ضروري حتى يأتيك الشعور لما تراه بأنه كائن نصف بحري.

تراهم دائمًا يرسمون له أرجلًا في نهايتها زعانف.. لا تدري من أين أتوا بهذه الزعانف بالضبط.. ولا توجد أحفورة واحدة فيها أي شيء يشبه الزعانف.. يمكنك أن تفعل هذا بالمناسبة مع أي حيوان.. خذ قردًا وارسم له زعانفَ على ظهره ونسيجًا بين أصابعه.. ثم أخبرنا أن هذا هو سلف الدلافين الأول.. هذا ما فعلوه بالسيد أمبلوسيتوس.

الحقيقة أنه حيوان بري عادي يمشي على أربع ولا علاقة له بالحوت من قريب ولا من بعيد اللهم إلا عظمة الخد النحيفة.. قالوا أن نحفها مثل نحفها في الحيتان والحقيقة أن هذا ليس دليلًا على شيء.. فعظمة خد الحصان نحيفة جدًا أيضًا.. الذيل المميز للحيتان غير موجود في الأمبلوسيتوس.. الثقب الذي يخرج منه الماء غير موجود في الأمبلوسيتوس.. التركيب الخاص بالصدى عند الحيتان غير موجود في الأمبلوسيتوس.. باختصار لا توجد صفة واحدة مميزة للحيتان موجودة في هذا الشيء.. وهم يعرضونه في المتاحف بطريقة مائلة ليعطوك إحساسًا بأنه سابح.. بينما هو حيوان عادي جدًا يمشي على أربع.

تحول هذا الكائن أيضًا إلى حيوان بري يمشي على أربع واختفت زعانفه في نهاية أقدامه وأخذ يمشي في القاعة بلا هدى.. نظرنا تلقائيًا إلى التالي والذي كان حيوانًا مائيًا مخيفًا جدًا.. يملك أقدامًا في نهايتها زعانف وذيلًا في نهايته زعنفة ذيل وأسنانًا متوحشة جدًا.. قال "آدم":

الروديسيتوس.. وهذا قد تخيلوا وجود زعانف في ذيله وزعانف في قدميه بينما هو لم توجد أصلًا في أحافيره عظمة قدم واحدة ولا عظمة ذيل واحدة.. لكنهم بارعون في الرسم جدًا وبارعون في الخيال الغير علمي.. سيضعون لك صورًا.. سيرسمونها بطريقة جميلة متدرجة.. فلا تنخدع.

قالها بعصبية وأشار إلى الكائن فاختفت جميع أقدامه واختفى ذيله وسقط على الأرض.. وتركه يتلوى على الأرض.. ثم نظر إلى الرابع.. كان حيوانًا مائيًا ثعبانيًا لديه أسنان متوحشة.. قال "آدم":

الباسيلوصور.. آخر كائن انتقالي في تطور الحيتان على زعمهم.. طبعًا في رسوماتهم الجميلة يجعلونه في طول سابقيه تقريبًا لكن الحقيقة هي..

أشار بعصاه إلى الكائن فاستطال أكثر من عشر مرات حتى ارتطم ذيله بباب القاعة وخرج.. قال "آدم":

هذا هو حجمه الحقيقي.. أكبر بعشر مرات من السابقين له.. لكنهم لا يرسمون لك هذا حتى تظل الرسمة التطورية منطقية.. بعض العلماء يقولون أن جميع وحوش البحيرات مثل وحش بحيرة لوخ نس أو وحش بحيرة شامبيلن هي في الحقيقة باسيليوصورات لم تنقرض.. منظره الأفعواني المتوحش يشي بهذا.. بغض النظر عن هذا.. فهو في النهاية أحد أنواع الحيتان.. والحيتان أنواعها كثيرة جدًا.. ولا توجد فيها كلها أي صفة لها علاقة بالبر.. الشيء الذي جعلهم يشكون

فيه هو بالأخص هو أن لديه أطرافًا خلفية صغيرة جدًا جدًا بالنسبة لحجمه الهائل.. أطرافًا في مؤخرة جسمه كما نراها هنا.. هذه هي.. هل ترون حجمها الصغير؟ قالوا أنها بقايا أقدام ضامرة.. أو أقدام في طريقها إلى الضمور.. لكن الحقيقة أن هذه التكوينات هي تكوينات تساعده على التشبث بالأنثى أثناء التزاوج.. وتساعده على الارتكاز عليها.. وحكاية أنها أقدام ضامرة هو هراء.. فتكوينها العظمي نفسه ليس كتكوين الأرجل المعروف.. فخذ – ساق – قدم – أصابع.. إنما هما عظمتان بسيطتان لا أكثر ولا أقل.

توقف "آدم" برهة لينظر إلى الحاضرين.. ما زال الصمت مخيمًا عليهم.. وبعضهم لعن هذا التطور الذي لم ينجح حتى الآن في أي ادّعاء قدمه.. ضرب "آدم" بعصاه فاختفى الحوت واختفت الكائنات التي قبله.. ولم يتبق من الكائنات التي دخلت علينا في البداية سوى مجموعة الحصان.. تنهد "آدم" بعمق وأشار لهم بملل أن يتقدموا.. وكانوا ثمانية.. قال "آدم":

لن نتحدث عن كل واحد على حدة.. بل سنتحدث عن السلم التطوري بأكمله اختصارًا.. إن تطور الحصان يبدو رائعًا جدًا ومثاليًا وجميلًا.. فقط في رسومات الكتب.. يرتبون الحيوانات المتطورة فيها من الأدنى إلى الأعلى بشكل منظم جميل.. ترتيبًا يجعلك تتجه ناحية تصديق التطور.. رغم أن الترتيب نفسه لا يثبت شيئًا.. فلو أن لديك ملاعق متشابهة وضعت بعضها بجانب بعض.. فلا يثبت هذا وجود علاقة تطورية بينها.. إنما يثبت أنك أنت صانعها.. لكن عمومًا دعونا نعود إلى المثال الجميل لتطور الحصان.

كما ترون الحيوان الأول في السلسلة يكبر ويقوى ويخسر عدد الأصابع في قدميه حتى يصل للحيوان الثامن وهو الحصان.. أقواهم وأكبرهم والذي لديه إصبع واحد فقط.. كل أجناس الحصان السبعة القديمة اسمهم اللاتيني ينتهي بـHippus فهناك الـEpihippus والـMerihippus وهكذا.. سنختصر الاسم للمقطع الأول منه تسهيلًا.. أول حيوان هو الـEohippus أو الـEo.. سلف الحصان كما يقولون.. تتعجب لِمَ يجعلونه سلفًا للحصان؟ حق لك أن تتعجب فهو مخلوق صغير كما ترى يشبه الأرنب.. حقًا الأرنب أقرب له من أي شيء آخر.

ثم أول درجتين بعد الـEo هما الـOro والـEpi.. وقد تبين أن هذه الثلاث درجات قد ظهرت معًا في السجل الأحفوري في نفس الوقت.. الأربع درجات التالية هي الـMeso والـMio والـPara والـMery.. هؤلاء الأربعة أيضًا تبين أنهم ظهروا معًا في السجل الأحفوري في نفس الوقت.. فلدينا سبعة حيوانات، ثلاثة منها كانت

تعيش معًا في وقت معين.. وأربعة منها كانت تعيش معًا في وقت تالٍ.. فهذه أنواع مختلفة من الحيوانات المختلفة كانت تعيش معًا في نفس الزمن.. وليس سلمًا تطوريًا كما يقولون.. هذا مبدأيًا.

التقط "آدم" أنفاسه وقال:

إن سلم تطور الحصان يبدو متدرجًا في الرسومات لكن في الحقيقة ستجد أن السلم لا يتجه من الأصغر للأكبر هكذا بشكل مثالي فهناك بعض الأطوار أصغر حجمًا من ما قبلها.. كما أن الأطوار التي يقدمونها في السلم هي لحيوانات مجمعة من أقطار مختلفة حول العالم.. ليس منطقيًا أن يكون واحد يعيش في أستراليا والآخر في المكسيك وتجمعهما معًا في سلم واحد في متحفك لتثبت تطور هذا الكائن.. هذا ليس عدلًا.

قال "آدم":

المزيد من عدم المنطق في الموضوع يأتيك عندما تعلم أنه في يومنا هذا هناك عدة أحجام من الحصان.. أصغرها صغير جدًا حجمه ٤٣ سم٣.. بينما أصغر كائن حصاني في السلم التطوري حجمه ٦١ سم٣ وهو الحيوان الثاني بعد ذلك الشبيه بالأرنب.. فادّعاء أن الحصان القديم كان صغيرًا والحديث صار كبيرًا هو ادّعاء زائف لا قيمة له.. أيضًا عدد الأضلاع في السلم التطوري يفضح السلم التطوري.. فلو تابعت عدد الأضلاع في الأطوار ستجد أنها كانت ١٥ ثم تصبح ١٩ ثم تعود إلى ١٨ مرة أخرى.. الفقرات تكون في البداية ٦ ثم تصبح ٨ ثم تعود إلى ٦ مرة أخرى.. باختصار لا يوجد أي سلم تطوري حقيقي.

فُتح الباب الكبير وتحرك من تبقى من الحيوانات ناحيته مغادرين القاعة كلها.. ولكن تبقى واحد لم يغادر.. نظرنا إليه.. إنسان عادي أسود قصير يجلس مطأطئًا رأسه في شيء يشبه الألم.. سكت "آدم" قليلًا ونظر إلى الأرض بدوره ثم تقدم من الرجل الأسود القصير وانحنى ومد له يده.. نظر له الأسود بيأس ومد يده.. فأقامه واقفًا.. ثم نظر "آدم" للحاضرين وقال:

هذا يا سادة هو السيد المحترم "أوتا بينجا".. رجل من الكونجو بأفريقيا.. كان يعيش حياة طبيعية في قريته.. ولم يدري إلا وبعض الرجال البيض قد أتوا و"اصطادوه" كما يصيدون الغزال وأخذوه معهم إلى أمريكا.. وأدخلوه إلى حديقة حيوانات شهيرة هناك.. تحديدًا داخل بيت القرود.. ووضعوه في قفص هناك.. كانوا علماء تطوريين مهووسين بالبحث عن الكائنات الانتقالية.. ولأن نظرية

داروين تقول بوضوح أن الأفارقة هم أقرب الأجناس إلى القرود وأنهم أدنى من القوقازيين البيض في خط تطور الإنسان.. ولأن كل العلماء بلا استثناء كانوا يتبنون تلك الفكرة.. فلقد رأوا في "أوتا بينجا" كائنًا مناسبًا.. ولذلك قرروا أخذه وعرضه في حديقة الحيوان بجانب القرد والشمبانزي والغوريلا كحلقة بدائية في تطور الإنسان.

كان موضوعًا في قفص ضيق ويعامَل مثل الحيوانات تمامًا ويأتي الزوار لمشاهدته.. وكان المرشد يقول لهم عبارات ما زالت ترن في أذن "بينجا".. "هذا الإنسان ينتمي إلى جنس من أجناس الإنسان يسمى خطأ باسم الأقزام.. هو إنسان صغير مكتمل اكتمالًا لا بأس به.. عينان لامعتان.. رأس جيد.. ليس مشعرًا.. يكون أكثر سعادة عندما يعمل ويصنع الأشياء بيده".. كانوا يجبرونه على أن يمثل أداءات معينة داخل قفصه لأغراض تثقيف الزوار.. ما زالت العبارات ترن في أذنه "القزم يلعب مع الحيوانات بشكل طبيعي داخل القفص".. "هذا القرد وهذا الرجل رأساهما متشابهان".. "هما يبتسمان بنفس الطريقة عندما يرضيان عن شيء ما".

وضع "آدم" يده على "أوتا بينجا" وأكمل:

ارتفعت داخل حديقة الحيوان أصوات تندد بهذا التصرف الذي لم يتقبله بعض الزوار.. فتم إخراج "أوتا بينجا" من قفصه والسماح له بالتجول داخل الحديقة.. كان يتجول في ملابس عادية.. ولكن الحديقة كانت ما زالت تشير إليه باعتباره كائنًا انتقاليًا.. ولذلك دائمًا يكون وراءه وهو يتجول حشد من الناس يرقبونه.. وكان يعود إلى القفص في الليل لينام بذل في بيت القرود.. أنت قرد يا صديقي.. يضعون لك اسمًا لاتينيًا كما يضعون للبهيمة.. ويعرضونك في قفص كما يعرضون البهيمة.. ويرمون لك الطعام كما يرمون للبهيمة.. لقد كان "بينجا" نجم حديقة الحيوان.. دائمًا حوله زحام من الرجال والنساء والأطفال يمشون وراءه يتابعون حركاته وينغزونه ويسخرون منه ويقومون بحركات قردية أمامه.. وتحت مزيد من الضغط الذي مارسه البعض على الحديقة.. تم إخراج "أوتا بينجا" من الحديقة نهائيًا.. وأصبح عاملًا في محل تبغ.. لكن "أوتا بينجا" لم يتحمل تلك الأصوات التي لا تزال ترن في رأسه.. ولا تلك المشاهد القردية التي يقوم بها الأطفال حوله.. ولا تلك العبارات التي كان يقولها بعض الزوار لبعض وهم يشيرون إليه كأنه Freak.. لم يتحمل إلا بضعة شهور استعار بعدها مسدسًا وصوبه إلى رأسه وقتل نفسه.. ولم يكن "أوتا بينجا" هو الوحيد.. كان

هناك الكثيرون يتم اصطيادهم وعرضهم في الحدائق والجولات في أجنحة الأنثروبولوجي.. كشواهد على البشر البدائيين القرديين.

احتضن "آدم" "أوتا بينجا" وربت على كتفه ثم قال:

إن الرغبة البشرية الآثمة في الاستيلاء على حقوق الغير لم تكن تحتاج قديمًا لأي مبرر ولكنها وجدت مبررًا رائعًا جدًا عندما قال داروين في كتابه: "في فترة ما من المستقبل القريب، من المؤكد أن الأجناس المتحضرة من البشر ستتمكن من استئصال الأجناس الهمجية البشرية والحلول محلها في جميع أنحاء العالم".. كتاب كامل كتبه داروين يثبت أننا منحدرون من أصول قردية.. ويثبت أن جنسنا البشري نفسه متفاوت.. فالزنوج وسكان أستراليا الأصليون درجات أدنى في سلم التطور البشري حيث إنهم أقرب إلى قرود البابون.. بينما الأوروبيون هم أرقى درجات هذا السلم.. ويقول أنه حسب قانون البقاء للأصلح فإن الأجناس الأرقى ستبيد الأجناس الأدنى لأجل البقاء.. لم يكن هناك مبرر أروع من هذا للبيض ليفعلوا كل ما يريدون بضمائر مرتاحة.

أكمل "آدم":

تأثر ابن عم داروين بكلام داروين جدًا.. كان اسمه "جالتون".. وخرج على العالم بنظرية تقول أن التميز في الذكاء والشخصية إنما هو آتٍ بالوراثة فقط وكذلك الفقر والغباء.. فأنت فقير وغبي لأنك بالطبيعة كائن أدنى.. وآمن أن البشر يجب تحسين سلالاتهم مثلما يحدث في الحيوانات.. ولذلك اخترع مصطلح اليوجينيا Eugenics.. وتعني النوع الأفضل.. وفكرتها هي تحسين نسل الجنس البشري.. بزيادة عدد الأفراد "الأدنى".. كل الزنوج والأغبياء والمرضى العقليين والمعاقين والسكان المحليين كالأستراليين الأصليين والهنود وغيرهم.. كل هؤلاء أجناس بشرية أدنى يستحسن التخلص منها لأجل تحسين السلالة البشرية.

نظر "آدم" نظرة خاطفة إلى "داروين" وقال:

كان كل العلماء يؤمنون بهذا الهراء أيامها.. المجتمع العلمي كله.. اليوجينيا أصبح لها شرعية.. لذلك تم تجهيز تطعيم يمنع الإنجاب.. وتم إعطاؤه لحوالي ٧٠ ألف شخص محتجز أو مسجون أو متخلف عقليًا أو أعمى أو أطرش أو أصم أو مريض صرع أو مريض سل أو كساح.. وحدث المثل مع ٦٠ ألف شخص في كندا والنرويج.. وأخذت الحكومة النازية الفكرة في ألمانيا وأمرت بقيادة هتلر بالقتل الإجباري لكل المصابين بعاهات أو المعاقين فقتل حوالي ٢٠٠ ألف شخص معاق.

قال "آدم":

ليست اليوجينيا فقط التي أصبح لها شرعية.. بل إن العنصرية أصبح لها شرعية.. هؤلاء الكائنات الزنجية القردية الشكل والكائنات المحلية السمراء.. كلها كائنات أدنى، جل ما تفعله هو منافستنا.. هذا شرّع استعباد الإنسان لأخيه الإنسان.. هكذا ارتكب الإنسان الأمريكي أبشع المجازر في أفريقيا وآسيا بدم بارد.. هكذا كانوا يشحنون الزنوج كالبهائم في السفن ويبيعونهم عبيدًا في أمريكا.. هكذا أبادوا ملايين الهنود الحمر واستعبدوا ملايين آخرين بدعوى الحرية.

هكذا اتخذ "هتلر" نفس النهج.. ووظف هذه الأفكار لصالح العرق الآري الذي كان وحده يستحق الحياة.. وأباد "هتلر" أعدادًا لا حصر لها من البشر دون أن يؤنبه ضميره.. يكفي أن يتذكر هؤلاء الكلمة السحرية.. البقاء للأصلح.. بالطبع مع تطور العلم واكتشاف الشفرة الوراثية تبين للكل أن هذا هراء.. وأن البشر متماثلون في كل شيء واختلافهم فقط ظاهري.. ولا علاقة للونهم أو شكلهم بقدراتهم العقلية أو رقيهم.

أتذكر المثال الحي الذي جعل الكثير من العنصريين يتوقفون ليلاحظوه.. ظاهرة التوائم الملونين Two-tone Twins.. أبرز مثال لها الطفلتان ريمي وكايان.. أختان توأمتان.. واحدة بيضاء ذات عيون زرقاء والأخرى سوداء أفريقية الملامح.. فكان هذا شاهدًا حيًا.

نظر "آدم" إلى "ريتشارد دوكينز".. وقال له:

لقد مللت وأنا أفند أحافيرك الانتقالية المزعومة.. وكان يجب ألا أفعل.. ففي مناقشتنا هنا لا نقبل الفرضيات.. وكل ما ذُكر من كائنات انتقالية هي فرضيات فقط وتخيلات.. ليس هذا فقط بل وإني أثبتُّ لك خطأها الآن كلها.. هذا يعني أنه لا يوجد أي أحفورة لأي كائن انتقالي يدعم التطور حتى الآن.. بينما لدينا في السجل الأحفوري ملايين الأحافير.. ويفترض طبقًا لقانون الطفرات الذي أثبتنا خطأه أصلًا أن تكون هناك آلاف الكائنات الانتقالية المتدرجة التي توضح الفروقات الطفيفة من الكائن المتطور إلى الكائن المتطور له.. هذا هو الطبيعي والمتوقع... أما أن يكون السجل الأحفوري مليئًا حتى آخره بآلاف أحافير الكائنات الحية التي عاشت على البر والبحر من البكتيريا للأسماك للبرمائيات للزواحف للثدييات للطيور.. بكل الفصائل والرتب والأنواع.. كلها موجودة بوفرة لم يختفِ منها شيء.. سيكون السؤال البديهي هنا، لماذا أحافير الكائنات الانتقالية هي

وحدها التي اختفت؟ لماذا لم تكن موجودة بوفرة في كل الطبقات والعصور؟ بحق كل الطفرات التي حدثت وأخطأت.. وكل الطفرات التي حدثت ونجحت.. أين ذهبت كل تلك الكائنات؟ لماذا بعد كل هذا يكون عدد الكائنات الانتقالية هو صفر؟ والموجود المزعوم منها متخيل أو مفبرك؟ هذا حقيقةً مضيعة للوقت.

قال "دوكنز":

الأحافير مختلف عليها كثيرًا.. وفريق من العلماء التطوريين يرى فيها ما لا يرى الفريق الآخر.

قال له "آدم":

إذًا فلا يؤخذ بها كدليل على التطور.. طالما هي مجرد تكهنات.. إنما نريد هنا أدلة علمية دامغة لنرى لو كان بإمكانها معارضة الدين أم أنها توافقه.

شعرت بيد توضع على كتفي من خلفي.. فنظرت بسرعة.. إنه سكوربيون.. أومأ إلي برأسه لأوقف المناقشة مؤقتًا.. لأن رأسه قد تورم من هذه الأحاديث.. فأومأت برأسي له موافقًا.. وبالفعل أنهيت النقاش مؤقتًا.. وذهبنا مع سكوربيون إلى غرفته.. كان قد جهز لنا كثيرًا من الحلوى والشاي.. هذا ما نحتاجه حقًا في هذه اللحظات.



عدنا إلى حيث مبارزة العقول.. لقد كرهت التطور.. وكرهت الأحافير.. وكرهت كل هذه المصطلحات.. نريد قولًا فصلًا فيه.. ولو لم يصلوا إلى قول فصل سنخرج من هنا ولن نعود.

بدأ "دوكنز" الحديث بقوله:

المزيد من أدلة التطور يظهر كل فترة.. يكفي مثلًا أن تنظر إلى رسومات مراحل نمو جنين الإنسان.. ثم تنظر بعدها إلى مراحل نمو جنين أي حيوان من الثدييات وليكن الكلب.. وستجد أنهما متشابهان تمامًا.. ستجد أن هذه المراحل تعيد تمثيل القصة التطورية.. فجنين الإنسان تجده في مرحلة مبكرة من حياته لديه خياشيم مثل الأسماك.. ثم في مرحلة متأخرة تختفي هذه الخياشيم ويصبح له ذيل كالقرد.. وهكذا.. فهو يتحور في كل مرحلة حتى يصير إنسانًا كاملًا.. هذا دليل حي يحدث أمام عيوننا.

كان "آدم" يبدو أكثر استرخاءً بعد الراحة فقال له بهدوء:

فعلًا.. هذه الرسومات ظلت موجودة سنين طويلة في كتب الأحياء في المدارس والجامعات والكتب المتخصصة.. واشتهر الأمر حتى إنهم كانوا يقولون للأم التي تريد أن تجهض حملها أن "الجنين ما زال في مرحلة السمكة، أنت لا تقتلين بشرًا، أنت كأنك تقطعين سمكة".. ثم فطن الجميع في النهاية أن هذه خدعة.. خدعة قبيحة جدًا جلبت العار العلمي لفاعلها "إرنست هيغل".

الحكاية أن هذا العالم الألماني المتخصص المهووس بالتطور فبرك رسومات لمراحل الجنين.. في مرحلة مبكرة رسم خياشم.. بينما هي في الحقيقة ليست سوى المراحل الأولية لتكون الأذن الوسطى والغدة الجاردرقية وغدة التيموس.. وفي مرحلة متأخرة رسم ذيلًا.. بينما هو في الحقيقة قد أطال الجزء الخلفي من الجنين ضعفين ليبدو للناظرين وكأنه ذيل.. وبالمناسبة هذا الرجل هو المسؤول عن قتل ملايين الأطفال عديمي الحيلة في بطون أمهاتهم بالإجهاض في تلك الفترة.. وبهذا نرى التزوير قد تكرر في جلستنا هذه أكثر من مرة في أدلة التطوريين.. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الإفلاس.. لو أنهم وجدوا أدلة حقيقية مقنعة لما احتاج المهووسون منهم إلى التزوير وإحراجهم هكذا مرة بعد مرة.. فدليلك هذا سيدي "دوكنز" هو دليل مفبرك ومزور هو الآخر.

سكت "دوكنز" طويلًا ثم قال له:

دعك من هذا.. هناك دليل واضح جدًا وصريح جدًا.. يثبت بلا شك أننا نحن والشمبانزي قد تطورنا من سلف مشترك واحد.. دليل جيني هذه المرة.. عندما قارن العلماء بين جينات الإنسان وجينات الشمبانزي وجدوا أنهما متشابهان بنسبة ٩٨,٧ %.. يعني هناك ١,٣ % فقط فرق بين جيناتنا وجينات الشمبانزي.. هذا دليل دامغ.. مهما جادلت في الأدلة السابقة.. هذا دليل جيني ليس فيه كلام.

أضاء ضوء أحمر.. وقام رجل طويل أنيق ذو شعر أبيض مهذب ونظارة.. كان هذا هو "فرانسيس كولينز".. عالم الجينات البارع ومدير مشروع الجينوم البشري Human Genome Project.. قال "كولينز":

سيدي العزيز.. عندما تتحدث عن معلومات جينية لا تنس أن تتحدث بدقة وبناءً على أحدث دراسة.. أراك تحدثت عن أقدم دراسة وبرقم غير دقيق وإني أظن أنك تستقي معلوماتك من مواقع الأخبار الساخنة وليس من دراسات علمية موثقة.. الدراسة التي تتحدث عنها أنت قديمة جدًا أُجريت في الثمانينات.. قبل عشرين سنة من اكتشافنا للخريطة الكاملة لجينوم الإنسان والتي أعلنّا عنها في ٢٠٠١.. وقبل اكتشافنا للخريطة الكاملة لجينوم الشمبانزي والتي أعلنّا عنها في ٢٠٠٥.

قال "آدم" بتعجب:

وكيف أُجريت الدراسة والمقارنة طالما لم تكن الخريطة الكاملة لهذا ولا هذا مكتشفة في الثمانينات؟

قال "كولينز":

قديمًا في الثمانينات عندما أراد العلماء أن يُجروا مقارنة بين جينات الإنسان والشمبانزي في دراسة، وجدوا أمامهما خريطتين جينيتين في منتهى التعقيد.. وبرغم أنهم لم يكتشفوا الخريطة الكاملة لكلٍ من الكائنين.. فإنهم كانوا قد اكتشفوا حوالي مليون قاعدة في الجينوم البشري ومثلها تقريبًا في جينوم الشمبانزي.

هذا رقم صغير جدًا لو علمت أنه بعد اكتمال خريطة جينوم الإنسان.. وجدنا أنها حوالي ٣ بليون قاعدة.. وبعد اكتمال خريطة جينوم الشمبانزي وجدنا أنها حوالي ٣,٢ بليون قاعدة.. أكبر ٣ آلاف مرة من ما كانوا قد اكتشفوه.. ورغم أن المليون قاعدة المكتشفة في الثمانينات هي رقم قليل فإنها كانت معقدة جدًا.. وحتى تتم الدراسة، كان لا بد من عمل تبسيط للمليون قاعدة المكتشفة من الشمبانزي ومن الإنسان حتى يمكن إجراء المقارنة بينهما.. وقد طبق العلماء آنذاك طريقة قاسية في التبسيط.

عدل "كولينز" هندامه بأناقة وأكمل:

هناك مناطق في الجينوم غنية بالجينات Gene Rich تحوي جينات كثيرة متنوعة ومتكررة.. ومناطق في الجينوم فقيرة بالجينات Gene Poor ليس فيها أي

تنوع.. فقط جينات متكررة.. ومناطق ثالثة متوسطة بينهما.. قرر العلماء أن يستبعدوا من المقارنة تمامًا منطقة الجينات الفقيرة والمنطقة المتوسطة.. ويجروا المقارنة فقط على منطقة الجينات الغنية.. ومنطقة الجينات الغنية هذه لا تمثل سوى حوالي ١ % من الجينوم الكلي المكتشف أيامها.. وهي كما نرى مقارنة عجيبة ومجحفة.. فقد قصوا ٩٩ % من الجينوم وقارنوا ١ % منه فقط.. ليس ١ % من الجينوم الكامل.. فذاك لم يكتشف إلا في ٢٠٠١.. بل ١ % من المليون قاعدة المكتشفة أيامها.. بينما كان هناك حوالي ٣ بلايين قاعدة باقية غير مكتشفة بعد.. يعني كأنهم قارنوا فقط ٠,٠٠٠٠٣٣ % قاعدة من الجينوم الكامل.

سكت "كولينز" قليلًا ثم قال:

لقد استغرب العلماء لأنهم عندما وضعوا هذا الجزء الصغير (الـ١ %) للمقارنة بين الجينومين تبين وجود تشابه رهيب بينهما واختلافات طفيفة.. بالنسبة للاختلافات الطفيفة في هذا الجزء الصغير فهناك نوعان منها.. اختلافات ناشئة من استبدال حرف مكان حرف.. واختلافات ناشئة عن حذف أحد الحروف.. قرر العلماء لسبب ما استبعاد الاختلافات الناشئة عن الحروف المحذوفة واعتماد الاختلافات الاستبدالية فقط.

يعني مثلًا لو كان هناك جين عند الإنسان مكتوب هكذا AA BB CC.. وعند الشمبانزي AA BA CC.. هناك حرف A بدل الحرف B.. هذا اختلاف يعترفون به.. لكن لو كان الجين في الإنسان هكذا AA BB CC وعند الشمبانزي هكذا -AA BB C-.. أي أن هناك حرف C ناقص عند الشمبانزي.. فهو عندهم اختلاف غير معترف به.

و بناءً على الأخذ بالاختلافات الاستبدالية فقط وجدوا أن هناك تشابهًا قدره ٩٨,٧ % بين الجينومين.. أذكر مرة أخرى أن هذه المقارنة أجريت على مليون قاعدة مكتشفة فقط من أصل ٣ بلايين قاعدة.. وأجريت فقط على ما مقداره ١ % من هذه المليون قاعدة.. مع استبعاد الاختلافات التي فيها حذف لحرف واعتماد الاختلافات الاستبدالية فقط.

سكت "كولنز" قليلًا ثم قال:

طبعًا كانت هذه مقارنة هرائية.. لذا تم إجراء دراسة أخرى على المليون قاعدة المكتشفة.. لكن هذه المرة أخذت في الاعتبار الاختلافات الناتجة عن حذف حرف.. فوجدوا أن النسبة قد تقلصت إلى ٩٥ %.

سكت مرة أخرى ثم تابع:

بعد سنوات أجريت دراسة أخرى أدخلت في الاعتبار المنطقة الفقيرة الجينات والمنطقة المتوسطة الجينات.. وهذه المرة كان ما اكتشف من الجينوم هو حوالي ٢ مليون قاعدة.. قارنوها كاملة مع ٢ مليون قاعدة من الشمبانزي بدون استبعاد أي شيء فوجدوا أن النسبة قد تقلصت من ٩٥ % لتصبح ٨٧ %.

ثم قال:

ولمّا أكملنا نحن عملنا في مشروع الجينوم البشري Human Genome Project وأعلنّا عن خريطة الجينوم البشري الكاملة عام ٢٠٠١.. ثم أعلن زملاؤنا في الجمعية الدولية لدراسة جينوم الشمبانزي International Chimpanzee Genome Consortium أنهم أكملوا الخريطة الكاملة لجينات الشمبانزي.. أصبحت الخريطتان كاملتين.. وبالمقارنة الحديثة الآن اكتشفنا أن هناك ٢,٤ بليون قاعدة في الإنسان يمكن مقارنتها مع ٢,٤ بليون قاعدة في الشمبانزي...بينما هناك ٠,٧ بليون قاعدة لا يمكن مقارنتها بين الجينومين لأنها مختلفة تمامًا.. بناءً على هذه المعطيات وجدنا في النهاية أن التشابه بين جينوم الشمبانزي والإنسان هو ٧٢ % فقط.. وما زال البعض يصدق بدراسة الـ٩٨,٧ %.. وهو أمر كارثي ومضحك إذا تذكرنا أن الاختلاف الجيني بين الإنسان الأوروبي الشديد البياض وأخيه الإنسان الأفريقي الشديد السواد يمكن أن يصل إلى ٥ %.. هم لا يكفون عن إحراج أنفسهم عندما يتحدثون دجلًا باسم العلم.

وسكت قليلًا ثم قال:

كما قلت هذه النسبة الـ٧٢ % ونحن لم ندخل في الحساب أن هناك 0.7 بليون قاعدة في الشمبانزي ليست موجودة في الإنسان.. يعني جينوم الشمبانزي أكبر من جينوم الإنسان ب ١٠ % تقريبًا.. فهناك اختلاف خام ١٠ % أصلًا قبل بداية المقارنة لكننا لم نضعه في الحسبان.

ثم ختم كلامه قائلًا:

وفي النهاية أقول أن الـDNA أصلًا يصف التركيب التشريحي الخارجي والداخلي والتركيب الجزيئي للكائن.. وليس غريبًا أن تكون الكائنات المتشابهة خارجيًا وتشريحيًا متقاربة في الـDNA.. هذا هو المتوقع أصلًا.. الشمبانزي والإنسان كلاهما من الثدييات وكلاهما لهما تركيب تشريحي متشابه.. كلاهما يأكل ويتنفس ويتكاثر بنفس الطريقة وينتج بروتينات بنفس الطريقة.. لا بد أن تشابهنا في

الـDNA مع الشمبانزي سيكون أكثر من الحية الرقطاء مثلًا.. ورغم ذلك فتشابه الإنسان والشمبانزي الذي هو الأقرب لنا - تشريحيًا فقط - هو ٧٢ %.. وهذا يعني أن الإنسان متفرد ومتميز عن أقرب الكائنات تشريحيًا له.

قال "آدم":

أشكرك جزيلًا دكتور كولينز.. فليكن إذًا.. سقط آخر دليل من أدلة التطور.. وخلاصة القول في التطور هو أنه تم إثبات وجود التطور الدقيق Microevolution (تطور سلف الجنس إلى كل الأنواع داخل الجنس).. وتم نفي وجود التطور الكبير Macroevolution (تطور الأجناس بعضها إلى بعض).. أي أننا في النهاية لا ندري كيف أتت أسلاف الكائنات الحية إلى الوجود.. مئات الآلاف من الكائنات استعمرت الأرض فجأةً ولا يدري العلم الحقيقي من أين جاءت هذه الكائنات.. وعلى العلم أن يجاهد ليثبت فرضية أن تلك الكائنات كلها تطور بعضها عن بعض.. وأن كلها جاءت من سلف واحد مشترك.

سمعت تنهيدة من أكثر من شخص من الجالسين.. كانوا قد تأففوا من موضوع التطور هذا خاصةً عندما لم يُصب أي نقطة لصالحه منذ أن أثير أول مرة..

يبدو أن هناك شخصًا ما زال سيتكلم.. كان هو ذلك الشخص الغريب ذو القناع الأناركي والصوت العجيب.. لا أدري ماذا يمثل بالضبط.. ربما يمثل الإلحاد نفسه.. لكنه قام وقال:

بغض النظر عن أن نظرية التطور مثيرة للجدل بالنسبة للأحافير أو بالنسبة لآلية الطفرات.. ولكن فقط الأعمار الجيولوجية التي تقدمها نظرية التطور كافية لهدم نظرية الأديان.. فمثلًا الهومو إيريكتوس أثبتُّم هنا بالهولوجرام أنه كان إنسانًا عاديًا.. فليكن.. هو إذًا أقدم إنسان عادي له أحافير.. ولقد ظهر في التاريخ حسب التاريخ الأحفوري الجيولوجي من ٢ مليون سنة.. وأقصى عمر مرصود لآدم أبي البشر حسب أكثر المؤرخين الدينيين كرمًا وأكثر أصحاب الأنساب تساهلًا هو ١٥ ألف سنة.. هذا هو التعارض الصارخ بين العلم والدين الذي نتحدث عنه.

أضاء ضوء أحمر في وسط العلماء وقام رجل.. كان هذا هو "رذرفورد".. عالم الذرة الشهير.. وفور أن قام قال بسرعة:

لو كانت مناقشتكم هذه لا تقبل الفرضيات فدعني أقول لكم أن الأعمار المليونية التي يرصدها العلماء للأحافير وطبقات الصخور هي مجرد افتراضات.. ليس لها أي دليل يثبتها.. و..

قاطعه صاحب القناع وكانت أول مرة يقاطع أحدُهم أحدَهم في مناقشتنا هذه.. قال:

ما الذي تتحدث عنه؟ الأعمار الجيولوجية كلها افتراضات؟ تعني أن علم الجيولوجيا بكافة المعدات المستخدمة في دراسته وكافة الجهود القائمة عليه منذ قرون لا فائدة منه.. هكذا ببساطة؟

تبسم "رذرفورد" بطريقة العالم المتبحر بالشيء.. المشفق على جهل من أمامه.. وقال له:

يجب أن أُبسط لك المسألة حتى تفهمها جيدًا.. فلو كنت درستها جيدًا لفهمت ما قلته أنا من المرة الأولى.. لكن طالما اعترضت إذًا لا بد أن أُبسط لك المسألة.. لكن دعني مبدأيًا أقول لك عبارة افتتاحية.. العلم التاريخي ليس علمًا تجريبيًا.. لأنه لا يُمكنك أصلًا قياس أحداث حدثت في الماضي السحيق وتقول أنها حدثت في ملايين السنين.. هذا غير قابل للتجربة أصلًا لأنه ماضي وانتهى.. ليس علمًا تجريبيًا.. يعني نحن الآن وما لدينا من الأدوات والأجهزة والمعدات، ليست لدينا طريقة واحدة لقياس عمر شيء أقدم من ٥٠ ألف سنة.. ماكان أقدم من هذا لا يمكننا أن نقول فيه إلا أن هذا الشيء هو أقدم من ذلك الشيء مثلًا.. هذا أتى قبل هذا.. أما تحديد عمره بالسنين فليست لدينا أي طريقة علمية لتحديده.

قال صاحب القناع:

بل هناك طرق كثيرة بالعناصر المشعة ولا توجد أحفورة من الأحافير الأقدم من ٥٠ ألف سنة إلا ونحن نعلم عمرها بالضبط.. وهو مسجل في كل الكتب العلمية.

قال "آدم":

غير مسموح بأن تقاطع العالم أثناء كلامه حتى ينتهي تمامًا.. ويكون حديثك بالحجة العلمية.

سكت صاحب القناع.. وتحولت الأنظار إلى "رذرفورد" الذي سكت قليلًا ثم قال:

سأسألك سؤالين.. ومن إجابتهما ستفهم ما أريد التحدث عنه.. السؤال الأول.. هناك ماء يقطر من صنبور.. وهناك إناء مملوء بالماء تحته.. حجم الإناء ٣٠٠ مليمتر.. لو قلنا أن معدل نزول الماء من الصنبور ٥٠ مليمترًا في الساعة.. كم المدة التي احتاجها هذا الإناء ليمتلئ هكذا؟

قال صاحب القناع بسرعة:

ست ساعات.

قال له "رذرفورد":

رائع.. إجابة صحيحة.. هل رأيت كم هو سهل أن نحدد عمر شيء ما بالعلم؟ لكن المشكلة أن حقيقة الأمر هي أننا عندما تركنا الصنبور ليملأ الإناء.. احتجنا إلى ساعة واحدة فقط.. ماذا برأيك يعني هذا؟

قال صاحب القناع:

يعني أن معدل نزول الماء من الصنبور متغير مع الوقت وليس ثابتًا.. يبدو أن المعدل صار أسرع مما هو متوقع.

قال "رذرفورد":

نعم هذا احتمال كبير.. ربما أيضًا لم يكن الإناء فارغًا في البداية.. إذًا لكي تحسب عمر شيء ما في الماضي يجب أن تضع افتراضات تظن أنها كانت موجودة في الماضي وتحسب من خلالها.. أنت افترضت أن الإناء كان فارغًا.. لكن هل أخبرتك أنا أنه كان فارغًا؟ سأسألك سؤالًا ثانيًا لأقرب لك الصورة أكثر.. كم مر علينا من الوقت ونحن مجتمعون في هذه القاعة؟

قال صاحب القناع:

كم الساعة الآن؟

قال "رذرفورد":

٧:٤١ مساءً.

قال صاحب القناع:

و كم كانت الساعة لمّا بدأنا؟

قال "رذرفورد":

لا أدري.. افترض وقتًا بدأنا فيه في الماضي وابن عليه إجابتك.

قال صاحب القناع:

ربما ساعتين.

قال "رذرفورد":

ما رأيك هل هذه طريقة علمية؟ أم أنها تخمينية مبنية على افتراضات؟

قال صاحب القناع:

تخمينية.

قال "رذرفورد":

هكذا هي طريقة حساب العمر الجيولوجية.. الأمر بالضبط مثله مثل الساعة الرملية.. هاك.. خذ هذه الساعة الرملية لأني سأسألك عنها عدة أسئلة.

تقدم صاحب القناع من "رذرفورد" وأخذ منه ساعة رملية متوسطة الحجم حملها بكلتا يديه.. قال له "رذرفورد":

تعرف أنه عندما يكون الرمل كله أسفل الساعة ولا يكون هناك أي رمل في الأعلى.. ثم نقلب الساعة.. سيحتاج الرمل ساعة بالضبط حتى ينتقل من أعلى إلى أسفل.. لذلك اسمها ساعة رملية.. الآن انظر إلى الساعة التي معك.. ستجد أن هناك بعض الرمل في الأسفل وبعضه في الأعلى.. والحابس الذي في المنتصف أنا أغلقته في التو قبل أن أعطها لك.. لم يعد هناك رمل ينزل.. الآن انظر إلى الرمل الذي بالأسفل.. هل يمكنك أن تقول لي ما هي المدة التي استغرقها حتى تتكوم هذه الكمية بالأسفل؟

نظر صاحب القناع إلى الساعة وقال:

يجب أن أحسب كمية الرمل في الأسفل.. وأعرف مقدار الرمل الذي ينزل من أعلى كل دقيقة.

قال "رذرفورد":

جميل جدًا.. لكنها إجابة خاطئة.. خاطئة جدًا أيضًا.. أنت افترضت أنني فرغت الحجرة السفلية تمامًا من الرمل.. ثم قلبت الساعة مرة أخرى لتبدأ الحجرة السفلية في الامتلاء شيئًا فشيئًا.. ثم أغلقت الحابس توًا وأعطيتك الساعة لتقيس لي المدة.. لو افتراضاتك هذه كلها صحيحة.. فحسابك سيكون صحيحًا.

قال الرجل ذو القناع:

ألم تفعل ذلك؟ ألم تفرغ الحجرة السفلية ثم تقلب الساعة لتملأها قليلًا ثم أوقفت الساعة وأعطيتني إياها لأحسب لك المدة؟ ألم تفعل ذلك؟ ماذا فعلت إذًا؟

قال له "رذرفورد":

لم أفعل شيئًا.. لقد اشتريت هذه الساعة ولم تكن الحجرة السفلية فارغة.. بل كان فيها بعض الرمل.. ثم فتحت الحابس قبل قليل لينزل المزيد من الرمل.. ثم أغلقت الحابس توًا وأعطيتها لك.

قال الرجل ذو القناع:

ولماذا لم تقل لي هذا منذ البداية.. كيف يمكنني أن أحسب المدة لو لم أعرف هذا؟

قال "رذرفورد":

هذا هو بالضبط ما يحدث في حساب العمر بالمواد المشعة.. لنأخذ مثلًا طريقة اليورانيوم والرصاص وتذكر الساعة الرملية أثناء كلامي.. اليورانيوم يتحلل مع الزمن بمعدل معين فينتج عنه رصاص (كأنها ساعة رملية أعلاها يورانيوم وأسفلها رصاص)..

العلماء يأتون على صخرة من الصخور.. يجدون فيها مثلًا نسبة من اليورانيوم ونسبة من الرصاص (مثل الساعة التي أعطيتها لك وجدت فيها رملًا بالأعلى ورملًا بالأسفل)..

كيف يحسب العلماء عمر هذه الصخرة؟ هم يحسبون كمية الرصاص الموجودة فيها (كمية الرمل الذي بالأسفل).. وبمعرفة معدل تحول اليورانيوم إلى رصاص (معدل نزول الرمل).. يعرفون المدة التي استغرقها هذا الرصاص ليتكون.. أين الخطأ؟

الخطأ أنهم يفترضون أن هذا الرصاص الموجود في الصخرة كله جاء من تحلل اليورانيوم.. يعني يفترضون أن الصخرة قديمًا كان فيها يورانيوم فقط.. لم يكن فيها أي رصاص (يفترضون أن الساعة الرملية كان أسفلها فارغ تمامًا وأعلاها ممتلئ تمامًا).. بناءً على هذا الافتراض أمكنهم أن يحددوا عمر الصخرة.. هكذا يحسبون العمر.. وهكذا يكون دائمًا عمرًا مليونيًا.. وسأبين لك بمثال عملي كيف أن هذه الطريقة افتراضية وليست علمية.

سكت "رذرفورد" قليلًا ثم قال:

أخذ العلماء عينة من فوهة الصخور النارية لبركان "سانت هيلين" المعروف أنه انفجر عام ١٩٨٦.. وجدوا فيها نسبة من البوتاسيوم المشع الذي يتحول إلى أرجون مع الزمن.. عندما قاسوا نسبة الأرجون فيها ليعرفوا عمر هذه الصخور، وجدوا أن عمرها ٣٥٠ ألف سنة.. بينما نحن نعرف عمرها وهو تاريخ انفجار البركان منذ حوالي ٣٠ سنة.. منذ ٣٠ سنة فقط انفجر البركان ولفظ الحجر الناري وبرد وتصلب.

أيضًا أخذت عينة من جبل "ناجوروهو" في نيوزلاندا وهذا معلوم أنه انفجر منذ خمسين سنة فقط.. فلمّا حسبوا عمره بطريقة الأرجون وجدوا أن عمره ٣,٥ مليون سنة.. هل رأيت؟ في كل مرة نستخدم فيها العناصر المشعة لنعرف عمر شيء معلوم لنا عمره.. تكون النتيجة مليونية ضخمة لا علاقة لها بالواقع.

قال "رذرفورد":

وهناك شيء أعجب.. اسمع لهذه المفارقة.. عندما أخذنا عينات من جبل "جراند كانيون" الشهير.. من طبقة بركانية حديثة جدًا معلوم لنا حداثتها.. واستخدمنا طريقة البوتاسيوم أرجون لنعرف عمرها، أعطتنا الطريقة أن عمر الصخرة هو مليون سنة.. وعندما استخدمنا عليها طريقة الروبيديوم سترونتيوم وجدنا أن عمرها بليون سنة.

ثم أخذنا عينات أخرى من مكان آخر على الجبل.. وقسنا عمرها بطريقة اليورانيوم رصاص كان العمر ٢,٦ بليون سنة.. ثم عندما قسناها بطريقة الساماريوم نيوديميوم وجدنا أن عمرها ٩١٦ مليون سنة.

في كل مرة نستخدم طريقتين مختلفتين من طرق القياس بالمواد المشعة لنعرف عمر صخرة واحدة، نجد أن النتائج تتفاوت تفاوتًا رهيبًا جدًا.. هل هذه طريقة علمية؟ طريقة لا تنجح في تحديد عمر شيء نعرف عمره.. طريقة لو قسنا العمر بها بعدة نظائر نجد أرقامًا مختلفة وليس كأي اختلاف.. بل اختلاف هائل.. أي طريقة علمية هذه بالضبط؟!

سكت المقنع ولم يرد فقال "رذرفورد":

خذ هذه المفاجأة أيضًا.. لو استخدمت أي طريقة من هذه الطرق لتعرف عمر عدة أحافير لكائن واحد، ستجد أعمارًا متفاوتة ومختلفة جدًا.. هل تعرف لماذا تخطئ هذه الطرق دائمًا؟ بسبب الافتراضات.. لكنهم تعجبهم هذه الافتراضات جدًا.. لأنها تعطي عمرًا مديدًا لهذه الدنيا مما يسمح للتطور المزعوم أن يحدث.

قال "رذرفورد":

هل اكتفيت؟ دعني أخبرك بشيء آخر سيجعلك أنت نفسك تضع هذه الطريقة على الرف.. أبعد رف يمكن أن تضعها عليه.. شيء اسمه الدليل الجيولوجي.. تابع معي.. عندما يقيس العلماء عمر أحفورة ما في المعمل..

ويخرجون بنتيجة أن هذه الأحفورة عمرها مثلًا ٥ مليون سنة.. تراهم لا يقبلون هذا العمر رسميًا إلا عندما يتوافق مع ما يُدعى الدليل الجيولوجي.. ما معنى هذا؟

معناه أنهم منذ البداية وقبل أن يحددوا عمر الصخرة في المعمل.. تكون لديهم رؤية أن هذه الصخرة أو هذه الأحفورة لا بد أن يكون عمرها مثلًا من ١٠ مليون إلى ١٥ مليون.. لتتوافق مع الرؤية التطورية.. لكن المعمل يقول أن عمرها ٥ مليون سنة.. إذًا نرفض رأي المعمل لأنه لا يتوافق مع الدليل الجيولوجي.. فلنحاول أن نستخدم عنصرًا مشعًا آخر في تحديد العمر لربما أخرج لنا عمرًا أطول.. فيقيسونها بنظير مشع آخر.. فيخرج لهم عمر يناسب تطلعاتهم فيوافقون عليه.

هذا هو العلم الذي يدينونكم به في هذه المناقشة.. ليس علمًا.. إنما هو في الحقيقة خيال علمي.. منحاز إلى رؤية معينة.. لقد حركوا دفة العلم وجعلوه ينحاز إلى جهة من الجهات.. فأنتجوا خيالًا علميًا فاسد الذوق.. ولا يصلح لأن نجابه به الدين ولا العقل.. لا يصلح أن نجابه به أي شيء.

قال الرجل ذو القناع:

أنت تقول كلامًا يجانب المنطق.. هل تريد أن تقول أن جميع علماء الجيولوجيا متآمرون علينا؟

رد عليه "رذرفورد":

ليس الموضوع أن كل الجيولوجيين يتآمرون علينا.. لكن الموضوع أن هناك رؤية معينة يؤمنون بها.. ويجب أن تكون كل النتائج تابعة لهذه الرؤية.. هذه الرؤية هي التطور.. وكل شيء لا بد أن يتبعه.

قال ذو القناع من وراء القناع:

ولماذا في رأيك ينحاز العلم لهذه الرؤية؟

قال "رذرفورد":

هذه هي الرؤية المادية.. الفلسفة المادية.. إن الإيمان بهذه الفرضيات والترويج لها كثيرًا والدفاع عنها باستماتة هو إيمان بالفلسفة المادية.. لا دخل له بالعلم التجريبي.. وإنما يُلصق بالعلم لأنهم جعلوا العلم متبنيًا ومحاميًا عن الفلسفة المادية وهو منها براء.. فهي في النهاية عقيدة.. تم إبقاؤها على قيد الحياة رغم أنف العلم.. تجد المجتمع العلمي يتسامح مع كل الفرضيات التي تتجه ناحية

هذا الاتجاه.. يتسامحون مع حكايات (هو هكذا لأنه هكذا).. ويتعاملون بمنتهى القسوة مع القول بوجود أي تدخل إلهي.. لأنه لديهم تعهد مسبق للمادية.. ليس الأمر أن الطرق العلمية هي التي تجبرهم على تفسير مادي لظواهر الحياة، بل هم أجبروا أنفسهم بتعهدهم للمادية على أن يصنعوا آلات ويختبروا أشياء حتى يخرجوا بتفسير مادي.. لا يعنيهم كم يخالفون البديهة والفطرة.. لا يعنيهم شيء.. المادية عقيدة ثابتة وهم لا يسمحون لأي قدم إلهية أن تدخل من الباب.

قال صاحب القناع:

لا تهول الأمور.. لا بد أن يكون عمر الأحافير متناسبًا مع عمر الأرض المحسوب بدقة وهو ٤,٥ بليون سنة.

قال "رذرفورد":

لو قرأت الدراسة التي اقترحت أن عمر الأرض هو ٤,٥ بليون سنة والتي قام بها العالم "باترسون" ستفهم تمامًا أن الموضوع عبارة عن افتراضات وتخيلات ثبت في النهاية خطؤها.. كان"باترسون" هو أول من استخدم طريقة اليورانيوم رصاص.. ولما اقترح عمر الـ٤,٥ بليون سنة لاقى رواجًا واسعًا لأن أعمار الأرض المقترحة وقتها لم تكن تكفي لحدوث التطور.

لاحقًا كلما يتم تحليل الرصاص لتربة أخرى غير التي أخذ منها باترسون عيناته نجده يرسم خطوطًا مختلفة تمامًا عن التي رسمها باترسون.. ولو قرأت دراسة باترسون هذه ستجد أنه كتب بنفسه: "إنه يبدو متعارضًا مع الحقيقة أن نسلم بنسب رصاص ويورانيوم تواجدت قبل بلايين السنين.. لأن المتطلبات التي تحقق هذه الافتراضات تبدو متطلبات شديدة التطرف ولا يحتمل أبدًا أنها تعطي عمرًا صحيحًا".

ولكن المجتمع العلمي اعتمد هذا العمر لأنه مناسب للتطور البيولوجي.. لظهور الخلية الأولى.. لتطورها إلى جميع الكائنات.. لم يعد أحد يهتم بتغيير هذا الرقم.. ليس هناك أي مكسب لتغييره.. ٤,٥ بليون سنة هو عمر الكوكب.. مضى نصفها في تهيئة الظروف عليه لاستقبال المادة الحية.. ومضى النصف الآخر في تطور الكائن الأول إلى إنسان.. سيناريو متناسب تمامًا مع التطور.

ختم "رذرفورد":

فهذه القصص التي نسمعها.. تطور الميكروب إلى الإنسان.. الأرض القديمة لبلايين السنين.. هذه القصص كلها متصدرة بلا أي حق.. وهي أكثر قصص تغذي الفكرة الإلحادية.. وحقيقتها أنها مجرد فرضيات في النهاية.

سكت صاحب القناع ثم قال له:

وكم عمر الأرض في رأيك إذًا؟

قال "رذرفورد":

هناك تجارب عديدة وضعت حدًا لا يمكن أن يتجاوزه عمر الأرض.. سأقول لك أشهر تجربتين.. التجربة الأولى قام بها إدموند هالي.. صاحب المذنب الشهير وقد اقترح طريقة ذكية جدًا لحساب عمر الأرض، عن طريق معرفة عمر البحر.. تعرف أن هناك كثيرًا من العوامل تضيف ملوحة إلى ملوحة البحر العادية.. كل سنة يزيد مقدار ملوحة البحر مقدارًا معينًا.. لو حسبنا ملوحة البحر الحالية.. ومقدار الزيادة الثابت الذي يحصل في الملوحة كل سنة.. يمكننا أن نعرف عمر البحر.. وبالتالي عمر الأرض.. طبق العلماء اقتراح هالي ووجدوا أن عمر البحار والمحيطات لايمكن أن يتجاوز ٩٠ مليون سنة.. هذا طبعًا لو أن افترضنا أن البحر في أول تكونه كان عذبًا بلا ملوحة على الإطلاق.. ولو كان البحر مالحًا بدرجة ما أول ما تكون.. سيكون عمر البحر أقل من هذا.. لكن الحد الأقصى هو ٩٠ مليون سنة.. هي عمر البحر الأقصى.. وبالتالي عمر الأرض الأقصى.

ثم قال:

ثاني تجربة قمت بها أنا "رذرفورد".. واكتشفت فيها أن المواد المشعة عندما تتحلل فإن تحللها ينتشر في الجو على هيئة نَوَيات هيليوم.. فلو تمكنا من حساب معدل تكون الهيليوم في الصخور التي تحتوي عناصر مشعة ومعدل هروبه من تلك الصخور.. ومعدل دخوله للجو.. وعرفنا نسبة الهيليوم في الصخور ونسبة الهيليوم في الجو.. سيمكننا أن نعرف عمر الغلاف الجوي.. لقد قدمت أنا الفكرة وحسبها العلماء من بعدي فوجدوا أن الحد الأقصى لعمر الأرض بهذه الطريقة لا يتجاوز ٢ مليون سنة فقط.

وأكمل قائلًا:

على أن أهم أدلة على أنه أقصر مما نتخيل، هو اكتشاف خلايا حية موجودة في أحافير يفترض أن أعمارها ملايين السنين.. كان هذا حقًا دليلًا مضحكًا.. اكتشفوا مرةً خلايا دم داخل إحدى عظام الديناصورات.. هذا يشير إلى أن عمر

هذه العظام آلافًا من السنين على أقصى تقدير ويستحيل أن تكون ملايين السنين كما يقولون.. أيضًا وجدوا في أحافير أخرى لديناصورات أخرى بروتين الكولاجين.. هذا هو الذي ظنه التطوريون بدايات ريش.. لكن الحقيقة أنه مجرد بروتين.. والبروتين لا يبقى كل هذه السنين.. أيضًا لدينا الـDNA المستخلص من أحفورة البكتيريا التي قدروا لنا عمرها بـ٤٢٥ مليون سنة.. بينما الـDNA أصلًا لا يمكنه البقاء سوى بضعة آلاف من السنين.. وأدلة كثيرة أخرى تقول بأن عمر هذا الكوكب أقل من ٢ مليون سنة وأن الكائنات التي تعيش عليه لم توجد من ملايين السنين كما يدّعون وإنما عمرها عشرات الآلاف من السنين على أقصى تقدير.

تنهد "آدم" وقال:

انتهى كلام العلماء في حكاية التطور هذه... في النهاية تبدو لي نظرية التطور الكبير Macroevolution وكأنها قصة خيالية للبالغين.. فهي سيناريو غير علمي يفترض أن المادة التي تفتقر إلى الحياة تمتلك خاصيةً سحريةً وذكاءً يجعلها تخلق كائنات معقدة التركيب.. متنوعة.. جميلة.. تنتشر في البر والبحر والجو.. هذه المرأة الجميلة هناك مثلًا.. كانت يومًا قردية الشكل.. وكانت قبل ذلك ثديية الشكل بهيئة الكائن سلف الثدييات.. وكانت قبل ذلك برمائية الشكل.. يعني كانت أشبه بالضفدعة.. هذا يعيد إلى مخيلتي قصص الأطفال التي تتحول فيها الضفدعة إلى أميرة.. لكن عمومًا بقيت نقطة واحدة.. بقي أن نعرف رأي الدين.. سيد "المبارك"، ماذا يقول الدين في التطور؟

كان المبارك ساكنًا طوال الوقت ينظر إلى أحاديثهم.. ثم اعتدل وقال:

فليكن.. هذا الحديث كان طويلًا حقًا.. بالنسبة للدين فالله أخبرنا شيئًا مهمًا في القرآن.. يقول ربي: "والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير".. إذًا كل الدواب مخلوقة من ماء.. ولاحظ هنا أنه لم يقل: "خلق كل دابة من الماء" بل قال: "خلق كل دابة من ماء".. يعني كل دابة من هؤلاء لها ماؤها الذي خلقت منه.

ثم يعمم في آية أخرى فيقول: "وجعلنا من الماء كل شيء حي".. وهنا لم يقل خلقنا.. بل قال جعلنا.. يعني جعلنا كل شيء حي مخلوق من جنس الماء سواء كان

دابة بر أو دابة بحر أو ليس بدابة أصلًا لكنه كائن حي.. الكل مخلوق من جنس الماء.. لكن لكل دابة ماؤها.

والإنسان له ماء خاص به أيضًا فيقول الله عنه: "ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين" وسلاسة يعني نوع.. فلكل دابة ماؤها حتى الإنسان.

سكت "المبارك" قليلًا ثم قال:

لكن ما معنى الماء؟ اتضح هذا تمامًا في آيات أخرى عندما قال سبحانه وتعالي: "فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب".. هذا هو الماء.. ماء الرجل الذي يخرج من صلبه.

لو نظرنا داخل ماء الإنسان سنجد أن المسؤول عن التلقيح فيه هو الحيوانات المنوية.. ولو نظرنا داخل الحيوانات المنوية سنجد أن المسؤول عن التلقيح فيها هو الكروموسومات.. فالكروموسومات إذًا هي الماء.. هي المادة الوراثية.. وهي مختلفة في كل كائن عن أي كائن آخر.. لكل كائن كروموسومات خاصة به.. لكل كائن حي ماء خاص به.. وهذا بديهية علمية اليوم.

قال له "آدم":

معلوم أن كل كائن حي له كروموسومات خاصة.. مادته الوراثية الخاصة.. لكن حدثنا من أين جاءت الأسلاف الأولى للأجناس؟ كيف خلقها الله؟ هل جاءت من ماء هي الأخرى؟ هذه الأجناس هي التي بدأت واستعمرت الأرض أول مرة.. ونتج عن كل واحد منها آلاف الأنواع.. وطالما هي لم تأت بالتطور من شيء سابق عنها.. ولم يكن هناك مخلوق قبلها ينجها لتأتي من مائه.. فمن أين أتت إذًا؟

قال "المبارك":

يقول الله: "خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي وبث فيها من كل دابة".. يعني خلق السماوات وجهز الأرض بالجبال ثم "بث فيها من كل دابة".. استعمار المخلوقات للأرض يتحدث عنه القرآن فيقول عنه "بث".. يعني نشر.. نشر فيها من كل دابة.. ولاحظ هنا.. إنه يقول.. بث فيها "من كل دابة".. لم يقل بث فيها كل دابة.. بل قال بث فيها "من كل دابة".. يعني بث فيها دابة من جنس كل دابة.. ولم يبث كل دواب الأرض مرة واحدة.. بل بث البعض.. فنتج عنهم الكل.. هذا هو ما توصلتم له في النهاية بعد كل هذه المناقشات.. أن هناك أسلافًا تم بثها في الأرض.. وهذه الأسلاف تطورت منها كل الكائنات الحية الحالية.. هذا هو التطور الصغير Microevolution ولا مشكلة فيه عندنا.

قال "آدم":

لكن السؤال يا سيدي كيف خلق الله الدواب الأولى هذه؟ هل خلقها بيده مثلًا؟

قال "المبارك":

لم يفصل الله هذا في القرآن ولم يفصل فيه النبي في الحديث.. وبالتالي نحن لا ندري كيف خلقها الله؟ كل ما نعرفه أنه تم "بثها" في الأرض.

قال "آدم":

فليكن.. وما قول الله في عمر هذه الأرض؟ أثبتنا هنا أن موضوع ملايين السنين هذا مجرد افتراض وأن المخلوقات على الأرض عمرها عشرات الآلاف من السنين.. ماذا قال القرآن عن عمر الأرض؟

قال "المبارك":

ليس لدينا تحديد جازم في الإسلام بهذا.. النبي محمد قال أن عمر آدم ألف سنة.. وقال أن بين آدم ونوح عشرة قرون (و القرن مائة عام) يعني بين آدم ونوح ألف سنة.. وجاء في القرآن أن نوحًا لبث في قومه ٩٥٠ سنة.. فلنفرض إذًا أنه عاش ألف سنة.. هذه ثلاثة آلاف سنة تقريبًا.. ثم كان بين نوح وإبراهيم مدة نص القرآن على أنه لا يعلمها إلا الله.. يقول الله: "ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله".. فالذين بعد نوح وعاد وثمود إلى إبراهيم لا يعلم أحد عددهم وأعمارهم.. بعد إبراهيم هي فترة معروفة تاريخيًا ومسجلة وهي حوالي ٤٥٠٠ سنة.. فلدينا ثلاث فترات.. ٣٠٠٠ سنة من آدم إلى نهاية نوح.. فترة من نوح إلى إبراهيم مجهولة.. فترة من إبراهيم إلى عصرنا ٤٥٠٠ سنة.. لذا فالخلاصة.. إسلاميًا.. لا يوجد تحديد يقول أن آدم نزل إلى الأرض قبل كذا من السنين.

شكره "آدم" شكرًا وفيرًا.. وبدأ العلماء يقومون من أماكنهم ويفكون أجسادهم بعد الجلوس الطويل.. وكذا فعلنا أنا وأنت.. حقًا إن الأمر كان صعبًا جدًا.. أصعب سؤال في العالم تقريبًا هذا الذي سألوه.. حقًا إن لم يكن هذا هو أصعب سؤال في العالم فما هو أصعب سؤال؟ هيا بنا من هنا يا صديقي.. إنني أحتاج إلى راحة طويلة جدًا.

■ ■ ■

مشت بنا الكرولر خارجة من هذا العالم.. يبدو لي أننا أنهينا عوالم السافلين.

دخلنا على سكوربيون بالكرولر.. قل لي يا سكوربيون.. لماذا هناك أرض للإلحاد في هذا العالم.. هل لدى الإلحاد شيء يحصل على الإنترنت السفلي فقط؟ أنا أراه على الإنترنت العادي وأراه في كل مكان.. هل تعتبرونه من السفالة.. أنا أعرف السفالة في كل ما رأيناه في أرض السافلين.. لكن الإلحاد هو اعتقاد.. ما دخل السفالة به؟

قال لي سكوربيون:

إن أرض الإلحاد موجودة هنا لسبب واحد يا عزيزي.. أنك هنا في شبكة الديب ويب لا يوجد أي رقيب عليك.. لا توجد هنا عين تراك.. إلا عين ربك.. هذه العين الذي يجب أن تستحي منها وتكف عما تفعل إذا كنت أصلًا مؤمنًا أن هناك رب في هذا العالم.. أما إذا لم تكن مؤمنًا.. فهدف مجمع آدم والعلماء هو أن تراجع اعتقادك هذا.

فليكن يا سكوربيون.. هذه المرة لن أدعك تثرثر مع الرجل.. أرحه قليلًا.. وإني أراه قد استكفى منك.. لقد أنهينا كل العوالم في أرض السافلين.. لقد زرنا السبع نوافذ.. رأينا كل أصناف السافلين.. وعلمك سكوربيون كل ما يمكن أن يتعلمه المرء في الإنترنت السفلي.

قال لنا سكوربيون:

الآن.. والآن فقط.. يمكنكم أن تروا الخاتمة.. العالم الأخير.. وهو العالم الذي سيخرجكم من بعده خارج هذه الأرض.. يخرجكم إلى النور.. هذا العالم ليس من الطراز الذي له نافذة.. بل هو عالم له اسم معروف.. ستدخلون الآن إلى أرض النور.

تفضلوا.. إلى الكرولر.. لتأخذكم إلى بوابة النور الأخيرة.

...

أرض النور

هذه الأرض بوابتها النور.. نور عن يمين وشمال.. انفرج من منتصفه ليدخلنا.. أول ما يطالعك هو سماء وأرض.. ليست السماء كالسماء التي تعرفها ولا الأرض التي تعرفها.. السماء هنا قريبة من رؤوسنا.. نرى تفاصيلها.. شموسها وكواكبها ومجراتها.. كلها قريبة يمكن أن تراها بعينك المجردة.. هناك طاقة روحية عالية جدًا تجعل الأجواء تهتز كل حين.. الأرض هنا جنة.. أنهار ونخيل وجبال خضراء وشلالات على مد بصرك.. وكأن الأرض قد تزينت هي والسماء.. كل شيء هنا في أبهى صورة.

لقد أُخذت منا ذاكرتنا مع هذا النور فعدنا على الفطرة.. بيض الأرواح والعقول.. لا ندري شيئًا.

سمعنا صوتًا يأتينا من كل مكان وكأنه صوت الكون نفسه.. من أين أتيت أيها الإنسان؟ انظر إلى جسدك الكامل الذي يحملك.. انظر إلى كل الهاء الذي حولك.. انظر إلى السماء والأرض والوديان والكواكب.. من أين أتى كل هذا الإتقان؟ أنت تتحرك وتنظر وتسمع وتشم وتفكر.. من الذي أوجد فيك كل هذا؟ وأوجد حولك كل هذا؟ أخبرتك الفطرة البيضاء التي أنت عليها أن هناك ربًا عظيمًا وراء كل هذا.. فتنادي أيها الكون من هو ربي؟ من الذي خلق فسوى؟ من الذي قدر فهدى؟ من الذي أخرج المرعى؟

ثم سكت الصوت ولم نعد نسمع سوى صوت الطيور والشلالات والأنهار.. تعال بنا أيها الروح نسير في هذه الأرض.. لربما نهتدي إلى ربنا.

انطلقنا إلى قوم سمر الوجوه يضعون مناشف على رؤوسهم.. قالوا أنهم مصريون فراعنة.. أشاروا لنا إليه.. قالوا هذا إلهنا وإله آبائنا.. نظرنا إليه فإذا هو رجل أسمر يرتدي تاجًا على رأسه.. قالوا هذا هو الإله الخالق.. قالوا أن اسمه أتوم.. وأنه الإله الأوحد وإله كل الآلهة.. قالوا أنه خلق نفسه.. ثم مارس العادة السرية فخرج من مائه إله رجل وإلهة أنثى.. الرجل هو الإله شو.. والأنثى هي الإلهة تيفنوت.. فذهبا في البحر يستكشفانه.. فأضاعهما الإله أتوم وأرسل رسلًا ليبحثوا عنهما.. نظرنا إلى إلههم مليًا.. هذا ليس ربنا.. إن ربنا لا يضيع منه شيء في

الأرض ولا في السماء لأنه خلق ما في الأرض وما في السماء.. ثم إن فطرتنا تقول لنا أن ربنا لا يفعل هذه الأمور الوضيعة الشهوانية.. هو أكبر وأعظم من ذلك.. أعرضنا عنهم وانصرفنا.

انطلقنا فإذا قوم سود الوجوه يقولون أنهم من مملكة كوبا العظيمة.. كانوا يظهرون الخضوع والخنوع لكيان ما وراءهم.. نظرنا فإذا هو وجه كبير يحتل جزءًا لا بأس به من السماء.. قالوا هذا إلهنا الذي خلق كل شيء.. قالوا إن إلهنا كان وحده في الظلام فأحس بألم في معدته فتقيأ فأخرج الشمس والقمر والأرض.. ثم تقيأ مرة أخرى فأخرج الفهد والنسر والتمساح والسمكة.. نظرنا إليهم.. إنني أحس بألم في معدتي أنا الآخر.. فلنذهب من هنا من فضلك.. أين ربنا الذي له ملكوت السماوات والأرض؟ أين الذي خضعت له العيون والقلوب؟

انطلقنا إلى حيث قوم آخرين.. يسكنون الجبال في بيوت يبنونها على شكل درجات.. ذوو بشرة برونزية مميزة.. قالوا لنا أنهم حضارة الإنكا العظيمة.. سألناهم عن ربنا.. فقالوا ها هو ذا.. نظرنا فإذا كيان ذهبي على شكل إنسان مربع الوجه.. قالوا هذا إلهنا فيراكوشا.. قالوا أنه قد خلق الأرض ثم خلق الناس.. ثم بكى على المآزق التي أصبح فيها الناس والكوارث والشرور.. ثم اختفى في البحر وعاد للبشر على هيئة متسول.. وصار يعلم البشر الحضارة.. نظر بعضنا إلى بعض.. إله يتنكر في شكل شحاذ.. فلنذهب من هنا.. ما بال هؤلاء الحضارات؟ أليس فيهم رجل رشيد؟

ثم انطلقنا إلى قوم بيض الوجوه عيونهم مائلة.. قالوا نحن إمبراطورية اليابان العظمى.. قلنا يا قوم أين هو الإله؟ قالوا لنا أن الآلهة سبعة.. وقد اجتمع السبعة ووكلوا اثنين منهم.. رجل وفتاة.. لخلق هذا العالم.. الرجل يدعى إيزاناجي.. والفتاة تدعى إيزانامي.. فخلق الاثنان جزيرة.. ثم نزلا إليها.. ونصبا عمودًا في منتصفها.. ثم قررا أن يتزاوجا.. فأمسكا بالعمود ودارا حوله.. ولما تقابلا في المنتصف.. دار بينهما الحوار التالي:

إيزاناجي: أيتها الإلهة الجميلة إيزانامي كيف تكون جسدك؟

إيزانامي: لقد تكون كله ما عدا منطقة واحدة لم تنمُ بشكل كامل.

إيزاناجي: أنا نما جسدي بشكل كامل وعندي منطقة نمت بشكل كبير جدًا.. أرى لو أني وضعت المنطقة النامية من عندي في داخل المنطقة الغير نامية بشكل كامل عندك سننجب كل الأراضي والأشياء.. ما رأيك؟

فوافقت إيزانامي وحصل بينهما علاقة جنسية.. خرجت منها كل الأراضي والجزر والمخلوقات.. أهذه مسرحية هزلية أم دين؟ لماذا يحب الناس أن يصدقوا بهذه الأمور الغريبة دائمًا عن ربنا؟ تعال فلنمض من هنا.. عسى أن يهدينا ربنا لأقرب من هذا رشدًا.

فانطلقنا إلى قوم آخرين.. كان بينهم رجل يرتدي طاقية صغيرة فوق رأسه وله ملامح حكيمة جدًا.. قال أنه أول من كتب عن الآلهة التي يؤمن بها اليونانيون.. وأن اسمه هوميروس.. يا هوميروس أيها الرجل الحكيم.. حدثنا عن آلهة اليونانيين.. قال إن آلهتهم تبدو مثل البشر في هيئاتهم.. منهم ذكور وإناث.. الفرق بينهم وبين البشر أنهم خارقون لا يموتون.. هم الأكثر وسامة وجمالًا وأجسامهم هي الأكمل والأكثر قوة.. الإناث منهم يلدون ويشعرون بالرغبة الجنسية ويمارسون الجنس حتى إنهم ينامون بعد ممارسته.. وهم يتنافسون فيما بينهم ويشعر بعضهم بالغيرة من بعض ويحسدون بعضهم بعضًا.. وقد أصبح الإله زيوس ملكًا عليهم وأصبحوا يخافون منه.. هم يرون كل ما يحدث وكل ما يفعله البشر.. لا مانع عندهم من الخداع للوصول إلى مبتغياتهم.. الإله زيوس ملك الآلهة ذات مرة اتخذ شكل بجعة واغتصب امرأة أحبها تدعى ليدا.. والأرض هي الأم التي تناكحت مع ابنها الجنة لتخرج لنا العماليق.. الذين قطع زعيمهم جزءًا من المنطقة الحساسة للجنة فنتج عن هذا القطع أفروديت آلهة الجمال.. و..

كنا قد انصرفنا عن هوميروس.. لم نسمع باقي ثرثرته.. إنها تبدو مثل الحكايا المسلية التي تحب أن تسمعها في ليلة سمر.. لكن أن نؤمن بآلهة كهذه ونعبدها.. فهذا هو الجنون بعينه.. مشينا قليلًا فقابلنا رجلًا قال أنه أفلاطون.. قال لنا إن كل قصص الآلهة التي انتشرت في بلاده اليونانية عن الآلهة هي قصص مكذوبة.. وليس معنى أنها منتشرة بين الناس أنها صحيحة.. بل هي خاطئة وحمقاء.

ثم قال.. نعم هناك آلهة.. وكلنا نراها.. انظروا إلى الشمس.. القمر.. إنهما أزليان وأبديان.. إذًا فهما إلهان.. لكنهما فقط إلهان مرئيان.. لكن هناك إله غير مرئي.. وهو أيضًا أزلي وأبدي.. الآلهة المرئية مثل الشمس تدفئنا والقمر يضيء لنا في الظلمات.. أما الإله الغير مرئي فهو الذي يرعانا ويهتم بنا.. وهو الذي صنع هذا العالم كله.. وهو الذي صنع الشمس والقمر.. هذا هو الإله الأعظم.

إله واحد عظيم.. هذا يبدو منطقيًا.. لكن هل الشمس والقمر إلهان أيضًا؟ نحن نعلم أنهما يفيدوننا لكن ما الذي يجعلهما إلهين؟ هل كل شيء أزلي يفيدنا

يكون إلهًا؟ إذًا ستكون الأنهار إله والجبال إله.. هذا لا يبدو منطقيًا.. فلنبحث عن هذا الكيان العظيم الواحد.. هو سيغنينا عن كل شيء.

ابتعدنا قليلًا فإذا جمع غفير من الناس يصنعون الكثير من التماثيل ويتعبدون لها.. إنهم الهندوس.. رأينا كثيرًا جدًا من أشكال التماثيل وألوانها.. أتيناهم فقلنا ماذا تصنعون يا قوم؟ قالوا نتعبد لآلهتنا.. فقلنا ماذا تعبدون؟ قالوا نعبد إلهًا واحدًا.. أعلى من كل شيء قدرًا.. وأعظم من كل شيء حجمًا.. لا يحده شيء.. أبدي لا نهائي.. محيط بكل شيء.. موجود في كل مكان.. منه أتى كل شيء.. وإليه يرجع كل شيء.. اسمه العظيم هو براهمان.. كثير منه غير معلوم.. وقليل منه معلوم.. الكثير الغير معلوم لا يظهر لأحد ولم يظهر عليه أحد.. والقليل المعلوم منه هو الذي تمثل لنا على هيئة كل شيء في هذا الكون.. تمثل لنا في هيئة السماء والأرض والجبال والحيوانات والإنسان.. كل هذه هي تمثلات يتمثلها الإله لنا.. كلها قطع من ذاته.

يتشكل ربنا على شكل ثلاثة آلهة أساسية.. الخالق براهما.. والحافظ فيشنو.. والمدمر شيفا.. ورغم أنهم ثلاثة آلهة.. فإنها تشكلات للإله الواحد براهمان.. كما يتشكل ربنا البراهمان على شكل آلهة أخرى كثيرة جدًا قادرة على التحدث إلى الإنسان.. لكنها لا تحدث أي إنسان.. إنما تحدث أناسًا صالحين قد وصلوا في صلاحهم إلى أعلى درجة.. أناس اسمهم الفيدا.

وربنا البراهمان يتشكل في شكل الغذاء الذي تتغذى به المخلوقات كلها.. والغذاء الذي تتغذى به الآلهة.. وربنا يتشكل في هيئة أرواح كل الكائنات التي تعيش في الكون.. فكل موجود في الكون هو جزء من ربنا البراهمان.. وكل غذاء في الكون هو جزء من ربنا البراهمان.. وكل روح في الكون هي جزء من ربنا البراهمان.

إن آلهتنا الثلاثة.. براهما وفيشنو وشيفا.. وكل الآلهة الباقين قد حدث بين بعضهم وبعض كثير من الحروب العظيمة بأسلحة عظيمة.. لأن بعض الآلهة صاروا أشرارًا فجأةً فسميناهم "آسورا".. بينما الآلهة الذين بقوا خيرين سميناهم "ديفا".. الآسورا الأشرار أحيانًا يهزمون الديفا الخيرين ويجبرونهم على الهرب.. وأحيانًا أخرى يحدث العكس.

ما كل هذا يا قوم؟ إلهكم يتشكل على هيئة كل شيء في الكون؟ حتى الغذاء؟ فلما آكل طعامًا فأنا آكل إلهكم.. ولما أخرج فضلات بعد الأكل لتأكلها الديدان فالديدان تأكل إلهكم؟ الحجر إلهكم والديدان إلهكم والقمر إلهكم والسماء والأرض إلهكم؟

قالوا بل هي أجزاء من إلهنا وليست إلهنا.. إنما إلهنا ضحى بأجزاء من جسده لتكوينها.. قلنا فليكن كما قلتم.. أليس هو تشكل في ثلاثة أشكال رئيسية أحدهم خالق والآخر حافظ والأخير مدمر.. هل ربكم يدمر؟ هل ربكم مسؤول عن الدمار الذي يحدث في هذا العالم؟

قالوا هو جزء من إلهنا نعم.. جزء يدمر به ما يستحق التدمير.. قلنا فليكن كما قلتم.. أليست هذه الأشكال الثلاثة لإلهكم صارت تحارب في حرب عظيمة في مواجهة أشكال شريرة أخرى لإلهكم؟ أتقولون أن أعظم ثلاثة أشكال لإلهكم.. الخالق والحافظ والمدمر قد دخلت في حرب؟ أن تحارب شخصًا يعني أنت تحاول هزيمته وقد تفوز وقد تخسر.. هل إلهكم يقاتل؟ ليدخل نفسه في حرب مع الشر.. أليس بقادر على أن يهزم الشر من فوره؟ أيجرؤ الشر على أن يقف في وجه إلهكم ويحاربه؟ إن إلهكم ليس هو ربي.. إن ربي أكبر من إلهكم.. إن ربي أعظم من إلهكم.. لا أظن في ربي أن يكون طعامًا أويكون شيئًا محقورًا.. لا أظن في ربي أن يتهيأ في هيئة أشكال عجيبة تحارب بعضها بعضًا.. منها الخبيث ومنها الطيب.

أعرضنا عنهم ومشينا قليلًا في هذه الأرض الجميلة حتى رأيناه.. قال أن اسمه المبارك.. كان يقف بعباءته البنية وملامحه الوسيمة.. قلنا: يا مبارك حدثنا عن إلهك.. فقال: ربي الأول قبل كل أول.. والآخر بعد كل آخر.. والدائم بلا زوال.. والخالق خلقه من غير أصل ولا مثال.. هو الفرد الواحد من غير عدد.. وهو الباقي بعد كل أحد.. إلى غير نهاية ولا أمد.. له الكبرياء والعظمة.. والبهاء والعزة.. والسلطان والقدرة.. تعالى عن أن يكون له شريك في سلطانه أو في وحدانيته نديد.. أو في تدبيره معين أو ظهير.. أو أن يكون له ولد.. أو صاحبة.. أو يكون له كفوًا أحد.. لا تحيط به الأوهام.. ولا تحويه الأقطار.. ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار.. ليس كمثله شيء.. هو نور السماوات والأرض.

ألم يخلق ربك آلهة يا مبارك تقوم بشؤون الكون؟ فقال: سبحان ربي هو منزه عن أن يحتاج في تدبير أمره إلى أحد.. فهو الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه.. هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله.. لا إله إلا هو.. وإنما ظن الأقدمون أن هناك عدة آلهة لأن هناك عدة قوى وعدة صفات وعدة أفعال فافترضوا أن لكل صفة إله ولكل قوة إله ولكل فعل إله.. لكن هذا باطل.. فالكيان الواحد قد يكون له عدة صفات وعدة أفعال.. مثلما أقول عن فلان أنه الطبيب الأديب المفكر.. مع أنه شخص واحد.. كذلك علمني ربي أنه الله واحد لا شريك له وإنما له "أسماء" يعني صفات.

فقلنا: يا مبارك علمنا صفات ربنا.. فقال: هو الله الظاهر فليس فوقه شيء.. الباطن فليس دونه شيء.. الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء.. هو الملك الذي لا يقدر على إحصاء ملكه أحد ولا ينازعه في ملكه أحد.. هو القدوس المنزه عن كل نقص وعن كل خيال فكل ما خطر ببالك فالله غير ذلك.

هو العزيز الذي لا يعجزه شيء في الكون.. هو الذي له الكبرياء عن كل سوء.. هو الخالق الذي يخلق من العدم.. البديع الذي يخلق بغير مثال.. هو الرزاق الذي يرزق كل مخلوقاته.. الطير والحيوان والإنسان المؤمن أو الكافر والبر والفاجر.. كلٌ يسهل له رزقه الذي كتبه له.. يوسع على من يشاء ويقدر على من يشاء.. ولا ينقص هذا من ملكه مثقال ذرة.. هو المنزه عن أن يحتاج إلى عبادة أحد.. ويحتاجه كل أحد.

هو العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.. يعلم ما كان ويعلم ما هو كائن ويعلم ما سيكون.. وما تسقط من ورقة إلا يعلمها.. السميع الذي يسمع كل الأصوات الظاهرة منها والباطنة التي تخفها الصدور.. البصير الذي أحاط بصره بجميع المخلوقات في أقطار السماوات والأرض فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ويرى سريان الماء في أعضائها الدقيقة.. هو المحيي الذي وهب الحياة لمخلوقاته الحية.. وهو المميت الذي ينزع الحياة ممن يقدر عليه الموت.. وهو الحي الذي لا يموت.

هو الخافض الذي يخفض كل من تكبر وتجبر وظن أن لن يقدر عليه أحد.. وهو الرافع الذي يرفع كل من تواضع.. هو الذي له الحكم وحده في الكون لا يشاركه في حكمه أحد.. وهو العدل الذي لا يظلم أحدًا مثقال ذرة.. هو الحليم الذي لا يعجل بالعقاب لمن عصاه وكفر به.

هو الجميل الكامل الجمال.. وهو الكبير الذي يصغر كل شيء أمام عظمته ولا تهتدي العقول لوصفه فهو أكبر من أن يقاس به شيء.. الحكيم الذي لا يخلق شيئًا عبثًا ولا يشرع شيئًا سدى.. القوي الذي لا يغلبه غالب ولا يرد قضاءه راد.. القاهر الذي خضعت له الرقاب وذلت له الجبابرة وعنت له الوجوه ودانت له الخلائق.

قلنا: يا مبارك، أين ربك؟ قال لي: سأسالك سؤالًا.. هل تقدر على أن تقول لي أين مكاني أنا المبارك؟ قلت له: أنت عن يميني.. قال لي: جميل دعنا نجرب شيئًا آخر.. ثم رفع يده ناحيتي فأصبحت أدور حول نفسي مثل المغزل.. ثم قال لي: هل

تقدر على أن تقول لي أين مكاني؟ سكت لساني قليلًا ثم قلت له: أنت في كل ثانية في مكان.. قال لي: جميل.. ثم رفع يده ناحيتي فأصبحت أتحرك وأنا أدور حول نفسي هكذا.. أتحرك لأدور حول المبارك.. فأصبحت أدور دورانين.. واحدًا حول نفسي والآخر حول المبارك.. فسألني: هل تقدر على أن تقول لي أين مكاني؟ قلت له: الأمر أصعب.. لكنك كل جزء من الثانية في مكان.. ثم رفع المبارك يده فتوقفت عن الحركة وتوقفت عن الدوران.

قال لي: هذه الأرض التي نعيش عليها تدور حول نفسها مثل المغزل.. وهي في نفس الوقت تدور حول الشمس.. ففي أي لحظة من اللحظات تكون الشمس في موقع مختلف.. فأنت لا تستطيع أن تحدد اتجاه الشمس بالنسبة لك.. عرفت ما يريد المبارك أن يقول لكنني قلت له: لا أسألك عن الاتجاه.. فحولنا اتجاهات لا متناهية.. بل أسألك عن المكان.. أنا مثلًا يمكنني أن أقول أن هذه الشمس هي في المجموعة الشمسية مثلًا.. يعني لها مكان.. لذا أنا أسألك أين مكان الله؟ لا أعني في أي اتجاه هو بل أسألك أين هو مكانه؟

قال لي: فليكن، سنجرب تجربة أخرى.. فجأةً رأيت نفسي أطير بسرعة صاعدًا إلى الأعلى أنا وأنت والمبارك فخرجنا من هذا العالم كله وأصبحنا نسبح في الفضاء.. قال لي المبارك: أين هي الشمس؟ نظرت فإذا الشمس فوقي.. والقمر فوقي أيضًا.. أراهما معًا.. والكثير من الكواكب رأيتها فوقي.. المنظر يبدو للناظر وكأن هذه الأرض التي تحتنا اختفت وصارت كيانًا مظلمًا بينما ما زالت الشمس وما زال القمر فوقنا.

قال لي المبارك: هكذا سترى الشمس لو خرجت من الأرض.. ستراها فوقك في كل حين.. لكن في واقع الأمر الشمس عن يميننا.. لكننا نراها فوقنا دائمًا وأبدًا.. حتى وإن درنا حولها فسنراها فوقنا في كل حين.. حتى لو انتقلنا ووقفنا على عطارد فسنراها فوقنا.. ولو وقفنا على المشتري فسنراها فوقنا.. ولو وقفنا على نبتون فسنراها فوقنا.. هل سألت نفسك لماذا نحن نراها فوقنا دائمًا بينما هي أصلًا عن يميننا؟

سأجيبك أنا.. أنت تراها فوقك هكذا دائمًا لأن الشمس أكبر منك بليون مرة.. ولكن لو كبرت أنت في الحجم فصار حجمك مثل حجم الأرض.. ستكون الشمس ساعتها أكبر منك بمائة مرة فقط.. عندها يمكنك أن ترى موقعها.. باختصار حتى ترى موقع شيء ما يجب أن تقترب منه في الحجم.. لكن لو كان هذا الشيء أكبر منك ببلايين المرات فأنت ستراه دومًا فوقك.. فلو افترضنا.. فقط افترضنا حتى

نقرب المسألة لعقلك القاصر أن الله ربي سبحانه وتعالى عن هذا المثال.. أكبر من هذا الكون كله بمائة بليون مرة.. فعندما تأتي أنت وتسألني أين هو الله؟ سأقول لك لا بد أن تكبر أنت فيصير حجمك أكبر من الكون ببليون مرة عندها يمكنك أن تسأل أين هو.. عن يمينك أو شمالك.. لكن طالما أنت ذرة لا ترى بالنسبة للكون.. وطالما هذا الكون هو ذرة بالنسبة لله.. وطالما كل شيء مخلوق هو ذرة بالنسبة لله.. فلا يمكنك أن تسأل أين هو؟ فطالما هو أكبر من الجميع فسيكون دائمًا في الأعلى فوق كل شيء.. لذلك أنت عندما تدعوه ترفع يدك وتنظر إلى الأعلى.. ليس معنى هذا أنه في جهة العلو.. بل هو فوقك وفوق كل شيء لأنه أكبر من كل شيء وأعظم من كل شيء.

قلت له: أنت عندما وصفت الله ربك قلت أنه هو الظاهر فليس فوقه شيء.. وهو الباطن فليس دونه شيء.. بالنسبة للظاهر الذي ليس فوقه شيء ففهمناها وعرفناها.. لأنه أكبر من كل شيء.. فهو يظهر فوق كل شيء.. لكن ماذا تعني أنه الباطن الذي ليس دونه شيء؟ قال لي: انظر إلى الشمس والمجموعة الشمسية.. هذه الكواكب كلها لو صار لها عيون سترى الشمس عن يمينها أليس كذلك؟ حسنًا الآن صغر كل كوكب من هذه الكواكب بليون مرة.. فيصير حجم كل كوكب مثل حجم حبة الرمل.. واترك حجم الشمس كما هو.. الآن اسأل الكواكب وقل لها أين الشمس.. سيقولون الشمس فوقنا.. لم تعد عن يمينهم.. لأنهم صغروا في الحجم بليون مرة.. هذا مفهوم.

الآن انظر لهذا النظام مرة أخرى.. هل هناك شيء نقدر على أن نقول أنه تحت الشمس؟ هذا النظام حيث الشم س هي العظيمة الكبيرة.. وكل شيء حولها حبات رمل.. ولا مقارنة بين حجمها وحجمهم الذي لا يذكر.. انظر لهذا النظام نظرة مدققة.. هل هناك شيء تحت هذه الشمس العظيمة؟ لا شيء.. لأنها هي أعظم شيء في هذا النظام.. أعظم وأكبر بلايين المرات من كل ما حولها.. واسأل كل حبات الرمل هذه التي تدور حول هذه الشمس العظيمة.. أين ترون الشمس؟ سيقولون نراها فوقنا.. وهكذا عندما تريد أن تصف هذا النظام باللغة العربية ستقول أن هذه الشمس هي الظاهرة الكبيرة فليس فوقها شيء.. وهي الباطنة فليس دونها شيء.

سألته: وهل الله ربك كبير أكبر من كل شيء ببلايين المرات وكل شيء حوله صغير؟ قال لي: إنما مثلت لك بمثال حتى يفهم عقلك فقط.. لكن هذا النظام.. الذي يقضي بأن كل شيء مادي في العالم له مكان وله زمان وأبعاد.. هذا النظام

الله ربي هو الذي خلقه.. وطالما هو الذي خلقه فلا تجري عليه قوانينه.. يعني ربي لا تجري عليه قوانين المكان ولا قوانين الزمان ولا الأبعاد.. فهو الذي خلق الزمان وخلق المكان وخلق الأبعاد.. إنما مثلت لك المثال السابق حتى أعلمك معنى أنه يمكن منطقًا أن يكون شيء ظاهر فليس فوقه شيء.. وفي نفس الوقت باطن فليس دونه شيء.. وهذا لا يتحقق إلا إذا كان هذا الشيء هو أكبر من كل شيء.. وأعظم من كل شيء.. وليس يقترب من قدره شيء.. سبحان ربي عن كل مثال.

قلنا: يا مبارك مررنا بأقوام حدثونا عن ربهم أنه مدمر؟ فهل ربك خلق الشر؟ هل ربك مدمر؟ قال: إن ربي لا يصدر عنه شر قط.. بل هو الخير سبحانه.. إذًا أيها المبارك لماذا هناك شر في هذاالعالم؟ لو كان ربك يعلم وجود الشر ولا يقدر على أن يوقفه فهو ليس بإله قادر.. ولو كان يعلم وجود الشر وتركه كما هو فهو ليس بإله رحيم.. لماذا هناك أناس تموت بالجملة في الحروب والمجازر؟ لماذا هناك أطفال يعذبون في حياتهم بالسرطان حتى يموتوا؟ لماذا يموت المظلومون مظلومين وفقراء؟

قال: إنك تتحدث عن الموت وكأنه شيء كارثي.. لكن الحقيقة هي أن أجساد هؤلاء هي التي تموت.. لكن أرواحهم حية باقية بعد أن تخرج من أجسادهم.. الروح لا تهرم.. روحك وأنت طفل هي روحك وأنت شاب هي روحك حين تشيخ هي روحك بعد أن يموت جسدك.. إنما هي تنتقل لتعيش الفصل الثاني من المسرحية.. فهذه المسرحية لها فصل ثانٍ.. هؤلاء الأطفال الذين تعذبوا بالمرض فماتوا في الفصل الأول.. سيبعثهم الله في مقام كريم في الفصل الثاني.. الكل سيتمنى لو كان طفلًا عذبه المرض في الفصل الأول.. ليصل إلى هذا المقام الكريم في الفصل الثاني.. وهذا الفصل الثاني مدته أبدية.. بينما كان الفصل الأول مدته ساعات معدودة لا تذكر.

المظلوم في الفصل الثاني يقتص ممن ظلمه في الفصل الأول حتى يرضى المظلوم.. ولا يظلم ربك أحدًا.. الفقير المعدم في الفصل الأول يصير ملكًا في الفصل الثاني لو كان مؤمنًا.. هؤلاء الذين ماتوا بالجملة في الفصل الأول.. سيبعث الله من آمن به منهم في مقام الشهداء في الفصل الثاني.. أن تنظر إلى فصل واحد لتحكم على مسرحية كاملة فهو نظر قاصر.. الله سمى الفصل الأول الحياة الدنيا.. وسمى الفصل الثاني الآخرة.. وعلمنا أن الدنيا صغيرة محقورة بينما الدار الآخرة هي دار القرار وهي الحياة الحقيقية الأبدية.

قلنا: يا مبارك أنت تقول أن هؤلاء يكونون في مقام الكريم في الدار الآخرة.. يعني أين يذهبون بالضبط؟ قال: يسكنون في درجات عالية من الجنة.. قلنا: وما الجنة؟ قال: هي كيان عظيم جميل عرضه كعرض السماوات والأرض.. يعني حجمه مثل حجم هذا الكون الكبير بكل نجومه ومجراته.. من يدخلها ينعم فيها ويخلد ولا يموت ولا يهرم.. وهي نور يتلألأ.. وقصور مشيدة.. وفاكهة لا تنقطع.. وأنهار تجري.. قلنا: ومن يدخلها؟ قال: يدخلها من يرضى الله عنه.. قلنا: وكيف يرضى الله عنا؟ قال: من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًا ورسولًا، وجبت له الجنة.

قلنا: وأين يذهب من ظلم وقتل؟ قال: يذهبون إلى نار يعذبون فيها على سوء أعمالهم.. قلنا: ومتى يخرجون منها؟ قال: لو كانوا مسلمين سيعذبون فيها بقدر ما أذنبوا في حق ربهم أو في حق غيرهم ثم يخرجون إلى الجنة وينعمون فيها إلى الأبد.. قلنا: ولو لم يكونوا مسلمين؟ قال: حين يذكر هؤلاء يقول الله عنهم أنهم يخلدون فيها أبدًا.. والخلود هو البقاء الطويل.. والأبد هو المدة الطويلة من الزمن.. يعني هؤلاء يبقون في النار أمدًا طويلًا جدًا بسبب كفرهم وإنكارهم لله.. لكن لا يبقون فيها إلى الأبد.. إنما هم يبقون أمدًا طويلًا جدًا.. قلنا: وماذا يحصل فيهم بعد هذا الأمد الطويل.. قال: هم في ذمة الله يفعل بهم ما يشاء سبحانه.

قلنا: بعضنا ينكر الله لأنه لم يعرفه.. لم يصل إليه حديث مثل حديثك.. بل وصلت إليه أحاديث أخرى عن ربه.. ولقد مررنا قبل أن نأتيك بأقوام لهم أحاديث كثيرة في أمر الرب.. قال: لا يعذب ربي قومًا حتى يبعث إليهم رسلًا.. فكل من رأيتهم من حضارات لم يتركهم الله بل أرسل لهم رسلًا وأرسل لهم أنبياء يحدثونهم عن الله.. قلنا: وما الأنبياء وما الرسل؟ قال: الرسول هو بشر اختاره الله ليحدث قومه عن الله ويقيم عليهم الحجة بالعقل ويبلغهم بشريعة الله.. فإذا مات هذا الرسول بعث الله بعده أنبياءً يذكرون الأجيال اللاحقة من هؤلاء القوم بشريعة ذلك الرسول.. فكل رسول تبعه أنبياء.. وآخر رسول هو رسول الله وخاتم النبيين ولا نبي بعده.. كل من سبقوه كانوا مبعوثين إلى أقوام بعينهم.. أما هو فقد بعثه الله إلى الناس كافة.. محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

قلنا: في الأرض أقوام متباعدون كثر.. قد لا تصل إلى أكثرهم رسالة محمد.. قال: لا يعذبهم الله حتى تصل لهم رسالة محمد كاملة غير ناقصة، سليمة غير مشوهة أو متلاعب بها.. فإن لم تصلهم بهذه الشروط لا يعذبهم الله.. فإذا وصلهم مثلًا أن هناك كذابًا بعث اسمه محمد يقول كذا وكذا فلا يعذبون.. لا

يعذب أحد حتى يصل إليه رسول نذير يقيم عليه الحجة البينة.. والنار لا يدخلها ولا يلقى فيها من فوج إلا سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير فيقولون بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء.

قلنا: وما يفعل الله في كل من لم تصله الرسالة أو وصلته مشوهة؟ قال: يجمع الله كل من لم تصله الرسالة سليمة، سواء كان قبل محمد أو بعد محمد، أو من الذين ابتليت عقولهم بجنون أو نحوه فلم يعقلوا الرسالة.. يجمعهم كلهم ويمتحنهم بامتحان.. فإذا أفلحوا فيه أدخلهم الجنة وإذا لم يفلحوا أدخلهم النار.. قلنا: وبماذا يمتحنهم وقد عرفوه وأيقنوا بوجوده؟ قال: يأخذ عليهم الميثاق والعهد أنه سيأتيهم رسول وأن عليهم أن يطيعوه في كل ما يأمرهم.. فيأتيهم رسول فيؤجج لهم نارًا ويأمرهم باقتحامها.. فمن اقتحمها وأطاع الله بعد أن أخذ عليه العهد بالطاعة كانت عليه بردًا وسلامًا ودخل الجنة.. ومن لم يقتحمها يقول الله لهم إياي عصيتم فكيف لو أرسلت لكم رسلي؟

قلنا: أفأكثر أهل الأرض في الجنة أم في النار؟ قال: إن الجنة عرضها السماوات والأرض فحجمها مثل حجم الكون كله.. أما النار فورد فيها أنه إذا رُمي حجرًا فيها سيصل إلى قعرها بعد سبعين سنة.. بحسابات الأجسام الساقطة من علٍ.. تجد أن أي جسم ساقط لو ظل يسقط سبعين سنة سيقطع حوالي ٢٥٠٠ سنة ضوئية.. هذا هو عمق النار.. وحتى تعرف معنى هذا الحجم أقول لك أن مجرة درب التبانة وحدها قطرها ١٠٠ ألف سنة ضوئية.. يعني حجم مجرة واحدة أكبر من حجم النار بأربعين مرة.. أما حجم الجنة فهو مثل حجم الكون الذي فيه ١٠٠ بليون مجرة.. فحجم الجنة أكبر من حجم النار ب ٤ تريليون مرة.. وأخبر النبي أن الله قال للجنة والنار أن لكل منهما ملؤها من الناس.. فسيملأ الله كل واحدة حتى آخرها.. فالذين في الجنة سيكونون أكثر من الذين في النار بـ ٤ تريليون مرة.. وحتى هؤلاء الفئة البسيطة التي لا تذكر والتي ستدخل النار سيبقيهم الله أمدًا طويلًا ثم ينتهي هذا الأمد وينتهي بقاؤهم فيها.

اطمأنت قلوبنا.. وارتاحت أرواحنا.. وعاد لنا كل ما فقدناه من ذاكرتنا.. ونظرنا إلى المبارك.. وإلى كل ما مررنا به معه.. إن دين هذا الرجل هو دين لا يتعارض مع العلم بل هو سابق عليه ويؤيده.. دين هذا الرجل لا يعارض فطرة وليس فيه أي خرافة أو نقيصة.. ولو لصقت به أي خرافة أو نقيصة تجدها دائمًا حديثًا ضعيفًا أو مكذوبًا.. دين هذا الرجل هو الخير وهو الرحمة وهو العدل.. إن دين هذا الرجل هو الإسلام.. وإنا قد أسلمنا وجهنا معه إلى ربنا.. نور السماوات والأرض ومن فيهن.. قيوم السماوات والأرض ومن فيهن.

نشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له ونشهد أن محمدًا نبيه ورسوله.. سبحان ربنا رب العزة عما يصفون.. وسلام على كل من أرسل من نبي ورسول.. وسلام على خير البشر.. محمد النبي المختار المصطفى.. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

• • •

انكشفت لنا السماء فرأينا نورًا لا حد له يسع كل الأرجاء.. نور أضاء لنا كل شيء فوقنا وتحتنا.. نور مشينا فيه حتى وصلنا إلى بوابة العالم التي دخلنا منها.. ولمّا خرجنا نظرنا إلى أرض السافلين.. فرأيناها قد تجمدت بعد هذا النور فلم تتحرك فيها أي حركة.. مشينا فيها ونحن ننظر إلى أرجائها ونذكر ما مر بنا فيها.. ظللنا نمشي حتى انفتحت لنا البوابة التي دخلنا منها أول مرة.. فخرجنا منها.

نظرت إليك.. أنت لم تعرف اسمي.. ولم أعرف اسمك.. هل يبدو الأمر غريبًا؟ لا أظنك ستنسى مجيئك إلى هنا.. ولا أظنك ستنسى كل ما مررنا به.. الآن سيعود إليك الطور المادي ويذهب عنك طور الروح.

دعني أحدثك بحديث قبل أن تذهب إلى طور الجسد.. انظر إلى روحك التي بداخلك هذه.. زكها دائمًا بكل ما هو زكي.. ولا تدنسها بكل ما هو دنس.. فهذه الروح هي الشيء الوحيد الباقي في هذا العالم بعد أن يفنى كل شيء.. روحك هي الباقية.. فلا تجعلها دنسة.. طهرها اليوم وأنت قادر على ذلك.

.. تمت ..

العوالم التي ستختارها أنت ..

النافذة الرابعة (ص ٧٣) فيها ما يشبه حرب العصابات ورجل وسيم يبتسم لنا بطريقة ساخرة ثم يهرب ويركض وراءه حشد غفير من الناس.. وفتاة حسناء تبدو غاضبة.

النافذة الخامسة (ص ٣١٧) فيها كثير من القرود وكثير من المخلوقات الغريبة التي ليس لها مثيل في الأرض وهناك شخص ينظمها بعصا في يده.

النافذة السادسة (ص ٢٤٠)فيها رياح عاتية تحمل على متنها كثير من النقود وبين سيل النقود الجارف هذا تحمل الرياح رجلًا عجيب المنظر تأخذه الرياح بعيدًا.. ثم فجأةً يبرز وجهه وهو يضحك وكأنه ينظر من جهة النافذة الأخرى.

النافذة الأخيرة (ص٢١٢) فيها الكثير من النرد وفيها شيء هلامي عجيب يسبح في الهواء.. لا يتبين ما هو جيدًا.

• • •

شكر خاص

أشكر الغالية ميار محمد التي بذلت من وقتها الكثير جدًا لمساعدتي..

وأشكر من ساعدوني وعلموني كثيرًا من الأمور في الديب ويب.. أخص بالذكر منهم:

المهندس مصطفى إمام.. الذي صمم الموقع.. العبقري.. من الشخصيات النادرة في هذه البلد حقًا..

الصديق مصطفى ممدوح الذي ساعدني كثيرًا وتحملني كثيرًا.. صاحب شركة Squnity لخدمات الحماية واكتشاف الثغرات للشركات والأفراد ومتخصصين في إثراء الأمن المعلوماتي..

الصديق أحمد إيهاب الخولي مخترق صفحات داعش الذي أغلق لهم ٢٢ صفحة.. ولقد أتعبته معي أيما تعب وليست هناك كلمة شكر تفي حقه..

كما أشكر الهاكر العبقري أحمد السخاوي على تعبه في جمع مواقع الديب ويب من أجلي

كما أشكر صديقي الثعلب الذكي أحمد شرف الدين.. الذي فتح مداركي على كثير من الأمور التي أوردتها في الرواية.

و أشكر المصححة اللغوية منة الله حسن التي تحملت أخطائي وتتبعتها وصححتها.

■ ■ ■